الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعلــيم العالي والبحث العــلمي

جامعة منتوري – قســنطينة–
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قســم التـــاريخ والآثـــار

الرقم التسلسلي: ....
رقم التسجيــل...............

المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط
(588-927 هـ/1192 -1520 م)

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

إعداد الطالبة:
مزدور سمية

بإشراف الأستاذ الدكتور:
محمد الأمين بلغيث

لجــنة المنــاقشة:

أعضـــاء اللجـــنة	الرتبــــــــة	الجامعة الأصلية	الصـــــــفة
أ.د. إبراهيم بكير بحاز	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري– قسنطينة	رئيســــــا
أ.د. بوبة مجـــاني	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري– قسنطينة	عضوا مناقشا
أ.د. محمد الأمين بلغيث	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر	مــشرفا ومقــررا
أ.د. علاوة عمارة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر–	عضوا مناقشا

السنة الجامعية:1429–1430 هــ/2008–2009 م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يندرج موضوع المجاعات والأوبئة ضمن ما يسمى بـــ "التأريخ للأزمة"، كنمط جديد ظهر مع التطور الحاصل الذي شهدته الكتابة التاريخية، فتعددت اهتماماتها لتشمل إضافة إلى تاريخ الأزمات: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والطبيعي، وتاريخ الأمراض والعلوم وتاريخ البنى والذهنيات وتاريخ المهمشين، فأعطت للتاريخ صبغة أكثر شمولية، وحررته من قيود الرؤى التقليدية التي كانت مسيطرة عليه، والتي تقوم أساسا على التأريخ للطبقة الحاكمة، وعلى تمجيد المعارك والبطولات، وسير أصحابها.

ولا سبيل للانكار أن أوروبا التي يعزى إليها السبق في الاهتمام بمثل هذه الدراسات بعد ظهور مجلة الحوليات سنة 1929،[1] قد قطعت أشواطا عديدة في مجال الكتابة حول تاريخ الأزمات والتاريخ الطبيعي، وفي كل الميادين الأخرى، فقد ألف E. Le Roy Laduri على سبيل المثال لا الحصر كتابا حول **"تاريخ المناخ منذ سنة ألف"** عام 1967م، في حين جاءت اهتمامات الباحثين العرب بمثل هذه الدراسات في وقت متأخر، بالرغم من أن ابن خلدون (تـــ 808 هـــ/1406م) كان قد أشار إلى أهمية هذه الأزمات – "المجاعات والأوبئة"– كمؤشر لتحديد عمر الدولة،[2] وكتب المقريزي أيضا كتابا حول تاريخ المجاعات والأوبئة في مصر سماه: **"إغاثة الأمة بكشف الغمة"**.[3]

لقد شهد المغرب الأوسط في الفترة الوسيطية كغيره من الأقاليم الجغرافية الأخرى أزمات وكوارث عديدة؛ عرفت المنطقة على إثرها سلسلة من التحولات الكبرى والانعطافات الحاسمة في مسارها التاريخي، فكانت أزمتا الجوع والوباء من أشد البلايا وقعا على هذا المجتمع، خاصة وأنها قد أفرزت واقعا مريرا صعب على إنسان المغرب الأوسط معايشته في تلك الفترة .

ولا تزال مثل هذه الكوارث أو الأزمات كالمجاعات والأوبئة على سبيل المثال بحاجة ماسة إلى دراسة عميقة، علما بأن التأريخ للمغرب الأوسط يستوجب الإلمام بكل حيثياته، دون إهمال أي جزء منها، ومن هنا جاءت هذه الإلتفاتة العلمية لإماطة اللثام عن فترات عصيبة مرت بها المنطقة في حقب زمنية مختلفة من العصر الوسيط، كما أن الأزمة في واقع المغرب الأوسط وتحديدا أزمتي الجوع والوباء لا تزال موضوعا جديدا في مجال البحث الأكاديمي؛ خاصة وأن الدراسات السابقة قد أفاضت الحديث عن مساره السياسي والعسكري، وإن كان البعض منها قد لامس الجانب الحضاري منه، إلا أنها أسهبت الحديث أيضا عن فترات قوته، وارتقاء أفراده إلى مستوى الشعوب المتحضرة، لكنها في مقابل ذلك أهملت الحديث عن فترات ضعفه وانتكاساته،

[1]– لمزيد من الاطلاع حول إنجازات رواد مجلة الحوليات في الميادين المذكورة أعلاه أنظر: كتاب جاك لوغوف : **التاريخ الجديد**، ترجمة: محمد الطاهر المنصورين، ط1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007م.

[2]– يشير ابن خلدون إلى أن المجاعات والأوبئة إنما كثرتها دليل على نهاية عمر الدولة فيقول : "ثم إن المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول"، أنظر: **المقدمة**، تحقيق محمد الاسكندراني، ط1، بيروت : دار الكتاب العربي، 1427هـــ- 2006م، ص 282.

[3]– بنشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، ط2، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1957م.

فظلت مثل هذه الكوارث حلقة من حلقات التاريخ المنسي، فلم تنل الحظ الأوفر من الدراسة عدا في ثنايا بعض الدراسات والبحوث غير اليسيرة، في حين أن مثل هذه المواضيع تستحق الوقوف عندها ودراستها بعمق، خاصة إذا أردنا بناء نسق تاريخي متكامل حول المغرب الأوسط.

ولهذا فإن أهمية دراسة موضوع: "**المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط** (588-927 هـ/1192 -1520 م)" تكمن في محاولة إزالة العتمة عن مراحل صعبة عاشها هذا الفضاء الجغرافي إبان تعرضه لمثل هذه الأزمات، والتي لها من دون شك آثار سلبية على كافة المستويات، على الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديمغرافي، ولها انعكاسات على الأفكار والذهنيات والرؤى.

والدراسات السابقة التي تتناول موضوع المجاعات والأوبئة في الفترة الوسيطية عموما محدودة جدا، إلا أنها أفادتني سواء على مستوى المنهج أو على مستوى التنظير للموضوع، وأهمها كتاب: "**مجاعات مصر الفاطمية**"،[4] الذي تناول فيه صاحبه مختلف المجاعات التي اجتاحت مصر في العهد الفاطمي، بعد أن فصل في ذكر أسبابها وكذا نتائجها، معتمدا في ذلك على المنهج الإحصائي، ولعل ما أثرى كتابه هذا تناوله لفكرة تأثير المجاعات على العمارة والفن بمصر آنذاك، ومثله كتاب آخر بعنوان: "**الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر الإسلامية**".[5]

أما بالنسبة للفضاء المغربي فقد حظي موضوع المجاعات والأوبئة بحظ لا بأس به من التأليف، وأهم هذه الكتابات على الإطلاق كتاب: "**جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين** "،[6] الذي تناول فيه صاحبه الحديث عن مختلف المجاعات والأوبئة والأمراض الفتاكة، التي اجتاحت المجتمع المغربي زمن الموحدين، بعد أن عرف لنا مصطلح الجائحة ومدلوله عند الفقهاء، فضلا عن أنه تحدث عن دور الحروب والصراعات في خلق مثل هذه الأزمات بالنسبة للفترة الموحدية، ولا ننسى أيضا أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط تناولت هذا الموضوع تفصيلا والموسومة بـ:"**المجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط (534– 776 هـ/ 1139-1375م)** "؛[7] والتي أفادتني كثيرا في دراسة هذا الموضوع، مثلها مثل كتاب: "**تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**"،[8] وإن كان بعيدا عن الفترة الوسيطية، إلا أنه أفادني من حيث التنظير، لأن المؤلف تناول فيه قضايا مهمة جعلتني ألاحظ من خلالها الفوارق بين خصوصية الجوع والوباء في العصر الوسيط لاوخصوصيتهما في العصر الحديث، من خلال إنتشار بعض الأفكار الغربية المستمدة من أوروبا داخل المجتمع

4- أحمد السيد الصاوي، ط1، بيروت: دار التضامن، 1988م.

5- محمد بركات البيلي، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1985م.

6- الحسين بولقطيب، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، منشورات الزمن، 2002م.

7- سميرة المزكلدي، فاس : ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1424 – 1425هـ/ 2003 – 2004م.

8- محمد الأمين البزاز، الرباط : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، (د.ت).

المغربي؛ كقضية "الكرنتينة" أو الحجر الصحي،[9] فضلا عن المقالات التي تناولت موضوع المجاعات والأوبئة، وأهمها مقال: "**المجاعات والأوبئة في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط، النتائج الديمغرافية**"،[10] وآخر بعنوان: "**الجراد والجوع والأمراض في المغرب خلال العصور القديمة الوسطى**"،[11] وكذلك مقال بعنوان:" **الكوارث الطبيعية والحتمية التاريخية**".[12]

إضافة إلى بعض الدراسات التي تناولت هذا الموضوع كجزئية نذكر أهمها فصل من دراسة بعنوان: "**جوانب من التاريخ الاجتماعي للمغرب في العصر المريني: المجاعات والأوبئة**"، [13] وعنصر آخر بعنوان: "**زمن الكوارث الطبيعية**"وغيرها من المقالات التي لا يسعني أن أذكرها كلها في هذه العجالة.[14]

أما الدراسات التي تناولت موضوع المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط، فتكاد تنعدم إلا ما كتب في بعض الجزئيات القليلة التي تناولتها بعض البحوث، فقد تضمن كتاب: "**تلمسان في العهد الزياني**" [15] إشارة إلى هذا الموضوع، حيث تناول فيه المؤلف دراسة عن الأحوال الصحية لسكان تلمسان إبان هذه الفترة؛ إذ تعرض إلى ذكر أهم الأمراض المنتشرة وطرق علاجها، وأهم الأطباء المعاصرين لهذه الفترة، كما تطرق إلى ذكر مختلف المجاعات والكوارث الطبيعية التي عاشتها تلمسان في العصر الزياني، فضلا عن ذكره لمختلف الحروب والقلاقل السياسية التي تسببت في كثير من الأحيان في صناعة هذه الأزمات التي عاشها المجتمع الزياني.

وقد تناولت الدراسة الموسومة بـ: "**الحركة الصوفية في بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الزياني (633 هـ- 1236م/ 962 هـ- 1555م)**"[16] لبعض جوانب هذا الموضوع من خلال تطرق الباحثة إلى دور أولياء تلمسان ومسهماتهم في تجاوز الكوارث والمجاعات والأمراض خلال الفترة الزيانية، إلا أن هذه

---

[9]- "***la quarantaine***" باللاتينية : ويعني بها العدد أربعون، وهي وسيلة من وسائل الاحتراس من الوباء، وسميت كذلك لمكوث من يرد على أي بلد فيه حجر صحي مدة أربعين يوما لا يخالط فيها أحدا، حتى يتأكد الأطباء أن ليس به وباء خوفا من العدوى، والكرنتينة هي عبارة عن مكان كبيرا يكون خارج البلد محيط بسور محكم، وفي داخله بيوت عديدة بها سقوف مفتوحة الجوانب للهواء، وبها حمام ومطبخ، ويشرف عليها عمال يتقاضون على ذلك أجرة معينة، وأطباء يسهرون على راحة المرضى، وبها كميات وافرة من الطعام والفراش والأدوية، والبخور التي يستعملونها بكثرة حتى يسلموا من هذا الداء، أنظر: حمدان خوجة: **إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء**، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1968م، ص 138- 140، كلوت بك: **كنوز الصحة ويواقيت المحنة**، ترجمة الرافعي محمد الشافعي، مطبعة البابي الحلبي،1271هـ، ص 113، أحمد حدادي: **أخبار الأوبئة والأمراض في الرحلات السفارية المغربية**، مجلة كنانيش، العدد3، صيف-خريف 2001، ص 45.

[10]- أحمد السعداوي، ضمن كتاب: **الديمغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي**، تونس: دار سراس للنشر، 1993م ، ص 27 - 48.

[11]- محمد الأمين البزاز، الرباط: مجلة المناهل، العدد 69 - 70، 2004م، ص 285- 323.

[12]- محمد الناصري، الرباط: مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 15، 1989- 1990م، ص 67 - 88.

[13]- مصطفى نشاط : **إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني**، وجدة : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية رقم 73، جامعة محمد الأول، 2003م، ص 111 - 143.

[14]- ضمن كتاب محمد حسن: **المدينة والبادية في إفريقية في العهد الحفصي**، تونس: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، 1999م، 2 / 603 - 618.

[15]- تأليف: عبد العزيز فيلالي، الجزائر : موفم للنشر، 2002م، 1 / 243 - 263، وقد نشرها المؤلف في مقال أيضا تحت عنوان : **الأحوال الصحية لسكان تلمسان في عهد بني زيان**، ضمن أعمال الملتقى الدولي: **التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور**، المنظم يومي: 23 - 24 أفريل 2001م، قسنطينة : منشورات مخبر الدراسات الفلسفية والتاريخية، جامعة منتوري، ص 157- 174.

[16]- آمال لدرع، مذكرة الماجستير، قسنطينة: جامعة منتوري ، 2005 - 2006 م، ص 341 - 345.

الدراسات وبحكم تخصصها، لا تغطي لنا في اشارتها لموضوع المجاعات والأوبئة فضاء المغرب الأوسط ككل.

في حين حظيت أزمتي الجوع والوباء وباقي الكوارث الطبيعية في المغرب الأوسط إبان الفترة الحديثة بدراسات وبحوث جادة،[17] مما يجعلنا نجزم بأن سبب هذا التغييب لدراسة أزمات الجوع والوباء في المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطية كان يتمثل أساسا في نقص المادة المصدرية، بخلاف الحقبة الحديثة التي تناولت مصادرها مثل هذه الأزمات بوعي أكبر.

إشكالية الدراسة

إن موضوع المجاعات والأوبئة يطرح إشكالات عديدة؛ كونه يعد من المواضيع الحساسة التي لها تأثير مباشر على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية لأفراد مجتمع المغرب الأوسط، فما هو دور الجوع والوباء في الكشف عن مختلف هذه الجوانب خلال الفترة الزمنية المحددة في هذه الدراسة؟ وما هي الآثار الديمغرافية الناتجة عنهما؟ وما هو دور هذه الأزمات في الكشف عن الهوة الفاصلة بين مختلف فئات مجتمع المغرب الأوسط أوتكاتفه وتكافله؟ وما هي أبرز السلوكات والذهنيات التي يفرزها الجوع والوباء داخل هذا المجتمع؟ ما هو دور هذه الأزمات في تفعيل نشاط ظاهرة الولاية بالمغرب الأوسط؟ وإشكالات فرعية عديدة سوف نطرحها في ثنايا هذه الدراسة.

منهج الدراسة والخطة المتبعة فيه

ومن أجل الإجابة على كل هذه التساؤلات اعتمدت في هذا البحث على منهجية علمية قائمة على إستقراء وتحليل مختلف النصوص التاريخية المستقاة من مصادر متنوعة، والاعتماد في ذلك على المنهج الوصفي، كما أن طبيعة الموضوع قد فرضت عليّ اتباع المنهج الكمي أيضا؛ وذلك بعرض مختلف الجداول التي شكلتها لتبيان أهم المجاعات والأوبئة وبعض الظواهر المرتبطة بالموضوع ثم تحليلها وإستقراء النتائج

---

[17]- ومن بين هذه الدراسات نذكر: ***Memoire sur la peste en Algerie*** ، وهو مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم: 3305، عدد أوراقه 69 ورقة، وكتاب: صالح العنتري بعنوان: **مجاعات قسنطينة**، تحقيق : رابح بونار، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974م، وبعض المقالات أهمها: ناصر الدين سعيدوني: **الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي بالجزائر أثناء العهد العثماني**، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 39- 40، 1985م، ص 431 - 445، عائشة غطاس: **أوضاع الجزائر المعاشية والصحية أواخر العهد العثماني: المجاعات والأوبئة، 1787- 1830م**، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 17- 18، 1998م، ص361- 370، فلة القشاعي- موساوي: **وباء الطاعون في الجزائر العثمانية- دوراته وسلم حدته وطرق انتشاره**، الجزائر : مجلة دراسات إنسانية، العدد1، 2001م، ص 136- 148، نفسه: **الوضعية الديمغرافية والصحية بالأرياف القسنطينية نهاية العهد العثماني: 1777- 1837م**، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العدد 17- 18، 1998م، ص 443 - 448، أمين محمد: **الطاعون بمدينة الجزائر: أثره على الديمغرافيا والأنشطة الاقتصادية خلال القرن 18م**، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، عدد 17- 18، ص 27- 39، لــغالم محمد: **ظاهرة الزلزال في الإسطوغرافيا الجزائرية التقليدية بين الذاكرة والتاريخ**، وهران : مجلة إنسانيات، مج1، العدد 3، 1997م، ص 47 - 67، وغيرها من المقالات والدراسات التي عنيت بدراسة موضوع المجاعات والأوبئة والكوارث الطبيعية بالمغرب الأوسط في الفترة الحديثة.

منها، وإن كان ذلك في كثير من الأحيان يقوم على بعض المقاربات في غياب معطيات دقيقة –وبهذه المناهج بنيت هذه الدراسة– وقد اتبعت في ذلك خطة منهجية قمت برصدها بناءً على ما توفر لي من مادة مصدرية هي كالآتي:

المقدمة: وبينت فيها أهمية الموضوع والأسباب الكامنة وراء إختياره، ومختلف الدراسات السابقة التي اهتمت بمثل هذه المواضيع، وطرح بعض الإشكالات الأساسية المراد الإجابة عنها خلال هذه الدراسة والمنهج والخطة المتبعة لذلك ثم عرض لأهم المصادر التي اعتمدت عليها.

أما الفصل التمهيدي فيعد مدخلا للفصول التي تليه، لأنني فككت فيه عنوان هذه الدراسة، فعالجت مختلف المفاهيم المتعلقة بالموضوع كالمجاعة والوباء والمجال الجغرافي للمغرب الأوسط؛ هذا الأخير الذي كانت حدوده الجغرافية إشكالية من الصعب ضبطها، فضلا عن أنني حددت في هذا الفصل المجال الزمني لهذه الدراسة، وتعرضت لمختلف التغيرات السياسية التي عاشها المغرب الأوسط آنذاك.

وفي الفصل الأول عالجت مستوى المعيشة في المغرب الأوسط في غير أوقات المجاعة، وما هي إلا إطلالة مبنية على بعض المقاربات، رصدت فيها مستوى المعيشة في بعض مدن المغرب الأوسط، والغذاء الذي يتناوله أفراد هذا المجتمع، مع عرض بعض أجور الفئات العاملة، ومستوى معيشة فئات معينة داخل المجتمع، ثم تناولت فيه الحديث مفصلا عن مختلف الأسباب التي تقف وراء حدوث المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط خلال الفترة المحددة بالدراسة.

أما الفصل الثاني ففيه قمت برصد أهم الأوبئة والأمراض والمجاعات الواقعة بالمغرب الأوسط، ثم تطرقت إلى ذكر مختلف الجهود المبذولة لتجاوز أزمة الجوع بدءً بجهود السلطة، ثم جهود الفئات الأخرى من المجتمع كالصلحاء والقضاة والتجار، أما بالنسبة للأوبئة فقد وضحت دور السلطة في العناية بالوضع الصحي لمجتمع المغرب الأوسط، ثم دور الحركة الطبية في علاج مختلف الأمراض والأوبئة، فضلا عن دور الصلحاء ومن يمارسون الطب الشعبي داخل هذا المجتمع.

وفي الفصل الثالث وهو آخر الفصول فقد خصصته لدراسة مختلف المظاهر الناتجة عن المجاعات والأوبئة في شتى الأصعدة؛ الاقتصادية والاجتماعية والدينية والنفسية، ثم تناولت أهم الانعكاسات الديمغرافية الناتجة عنها في مجتمع المغرب الأوسط كالهجرة والوفيات.

أما الخاتمة فكانت حوصلة تضمنت مجموعة من الاستنتاجات التي توصلت لها من خلال هذه الدراسة وتعقبها مجموعة من الملاحق التوضيحية التي أثرت الموضوع أكثر.

عرض لأهم المصادر والمراجع

تعددت المصادر التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة وتنوعت مشاربها وتباينت طريقة عرضها للحدث التاريخي الخاص بأزمتي الجوع والوباء بحسب توجهاتها، والتي نذكر الأهم منها مرتبة بحسب الأهميته بالنسبة لهذه الدراسة.

أ-كتب النوازل والفتاوى

ويكتسي هذا النوع من المصادر بأهمية قصوى بالنسبة لكل مؤرخ يهتم بدراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية، بصفتها تبرز حركية المجتمع، وتكشف عن واقعه الحقيقي المعاش، لأي فترة زمنية يراد دراستها وأهم هذه النوازل:

1-"**الذرر المكنونة في نوازل مازونة**"[18]. لأبي زكريا يحيى بن عيسى المغيلي المازوني (تـ 883 هـ/1478م)، حيث يتصدر مؤلّفه هذا كل المصادر من حيث الأهمية بالنسبة للموضوع، لأنه يحتوي على نوازل عديدة أفتى فيها فقهاء المغرب الأوسط من بجاية وتلمسان ومناطق أخرى، فصحيح أن هذه النوازل لم تهتم بتحديد زمنية الجوع أو الوباء – وهذا هو عيبها- لكن لا غنى عنها لأن أهميتها تكمن في رصد مختلف المظاهر التي تتسبب في حدوث المجاعات والأوبئة، فضلا عن الآثار السلبية التي تخلفها مثل هذه الأزمات داخل مجتمع المغرب الأوسط، والأهم من ذلك فإن هذه النوازل قد بينت لنا علاقة الفقيه بأزمتي الجوع والمرض والوباء وتفاعله معها.

2- "**نوازل ابن مرزوق**"[19]. لابن مرزوق الحفيد التلمساني (تـ 842 هـ/ 1438م)، وقد أفادتنا كثيرا في معرفة بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالجوائح، وكذا قضايا المياه وبعض الأسعار، إلا أن عدد النوازل التي أفتى فيها فقهاء المغرب الأوسط في هذا المصدر محدودة جدا، مقارنة لما هي عليه في نوازل المازوني.

3- "**الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية**"،[20]. ومحمد الرصاع: وهي عبارة عن خمسة وعشرون مسألة أرسل بها محمد المواق الغرناطي إلى الفقيه الرصاع سنة 886 هـ/1481م ليجيب عنها، وتكمن أهمية هذا المصدر –بالنسبة لدراستي- كونه يحتوي على إحدى المسائل المتعلقة الطاعون، إذ دعى المواق الفقيه الرصاع أن يحيط هذه المسألة بالإهتمام، وهذا ما يتبين من قوله الذي افتتح به هذه المسائل فيقول المواق: "وأدام النفع بكم لسيادتكم الفضل في الجواب الشافي مما تضمنه هذا المكتوب من المسائل الواردة على مقامكم العليّ، خصوصا ما تعلق منها بنازلة الطاعون"؛[21]. وفعلا كان لهذه النازلة الحظ الأكبر من الإهتمام من طرف الفقيه الرصاع، الذي تضمن جوابه عليها التعريف بالطاعون لغة واصطلاحا، وذكر الفرق بينه وبين الوباء، وذكر العلاج المادي والروحي له، مع ذكر بعض أسباب حدوثه ، فضلا عن أنه فصّل في مسألة العدوى والفرار من الطاعون، وذلك باعتماد هذا الفقيه على مرجعية دينية مستمدة من الأحاديث النبوية التي ذكرت حول الطاعون، وبعض اجتهادات فقهاء المالكية.

[18]- الكتاب مطبوع لكن آثرت العمل على المخطوط مباشرة بالاعتماد على نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية، مج1 رقم: 1335، ويتكون من 518 ورقة، مج 2 رقم : 1336، ويتكون من 190 ورقة .

[19]- نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم : 1342، ويتكون من 41 ورقة .

[20]. تحقيق ودراسة: محمد حسن، ط1، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2007م.

[21]- محمد الرصاع، **الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية**، ص 89 .

4- "**المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**"،[22] لأحمد بن يحيى الونشريسي (تـ 914 هـ/1508م)، وبالرغم من أنه استمدّ نوازله المتعلقة بالمغرب الأوسط من المازوني- ولهذا نجدها مكررة عنده- إلا أنه أفادني كثيرا لأنه تحدث عن اختلاف الفقهاء في مسألة العدوى والفرار من الطاعون.

ب-كتب المناقب

لئن كانت هذه المصادر تعتني أساسا بتمجيد عالم الأولياء والتأريخ لكل ما يتعلق بظاهرة الولاية، إلا أنها اعتبرت مصادر أساسية بالنسبة لهذه الدراسة، لأنها تكشف عن بعض الحقائق المتعلقة بأزمتي الجوع والوباء والأمراض المنتشرة في المغرب الأوسط، فضلا عن أنها تكشف لنا علاقة الأولياء بهذه الأزمات وتفاعلهم معها وأهمها:

1- "**بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار**"،[23] لمحمد بن محمد الصباغ القلعي (حيا سنة 950 هـ/ 1543م) وهذا الكتاب يتناول الحديث أساسا عن أحد أولياء إقليم بني راشد، وهو "محمد بن يوسف الراشدي الملياني" الذي عاش في القرن التاسع الهجري، مع ذكر بعض تلامذته والحديث عن بعض صلحاء وادي الشلف، وقد استقى البعض رواياته من كتاب "**صلحاء وادي الشلف**" للمازوني الأب، ويعد كتاب ابن الصباغ من المصادر المهمة التي لا غنى عنها في هذه الدراسة، لأنه يشير إلى مختلف الأمراض المنتشرة في المغرب الأوسط، وطرق علاجها من طرف الأولياء وقوة اعتقاد الناس في ذلك، كما أنه يبين لنا دور "المُقدس" من زوايا وقبور في أوقات الأزمات كالجوع والأمراض.

2- "**المجموع**"،[24] لابن مرزوق أبي عبد الله محمد بن أحمد الشهير بالخطيب (تـ781 هـ/1379م) وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة تراجم لأسرة ابن مرزوق الخطيب، عرّف فيها المؤلف بحياة العلم والزهد والصلاح التي اشتهروا بها حتى نالوا حضوة عند السلاطين، وأهمية هذا المصدر بالنسبة لدراستي هو أنه يكشف عن جوانب مهمة من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في تلمسان، والدور الذي جسدته أسرة المرازقة التي اشتهرت إضافة إلى العلم بالتجارة، ودور بعض أفرادها في التكفل بالفقراء والمحتاجين، كما أن ابن مرزوق يذكر بعض الأمراض المتوطنة بتلمسان، وإشارته كذلك إلى الوباء العام الواقع سنة 749 هـ/1348م.

3- "**روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**"،[25] لمحمد بن صعد الأنصاري التلمساني (تـ901 هـ/ 1496م) وهو كتاب ترجم فيه مؤلفه لأربعة من أولياء المغرب الأوسط، وأهميته تكمن في

---

[22]- بإشراف محمد حجي، بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1401هـ-1981م، 12ج .

[23]- نسخة المكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم: 1707، من 144 ورقة.

[24]- طبع باسم: **المناقب المرزوقية**، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، ط 1، المملكة المغربية – الدار البيضاء: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – مطبعة النجاح الجديدة، 1429هـ - 2008م.

[25]- تحقيق يحيى بوعزيز، ط1، الجزائر : منشورات المؤسسة الوطنية للإشهار ANEP، 2002م .

إشاراته المتعلقة بجوانب مهمة من حياة الناس في عاداتهم وسلوكاتهم اليومية كذكر بعض الأغذية، كما أنه ذكر إحدى المجاعات التي وقعت بتلمسان مقرونة ببعض مظاهرها، فضلا عن ذكره لبعض الأمراض المنتشرة في تلمسان وما قاربها، ونظرا لأن هذا الكتاب يهتم أساسا بذكر مناقب هؤلاء الأشياخ الأربعة، فإنه غالبا ما يبرز لنا دورهم في حلّ بعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي تواجه أفراد مجتمعهم.

4- "**أنس الفقير وعز الحقير**"،[26] لابن قنفذ أبي العباس أحمد الخطيب القسنطيني (تـ 810 هـ/ 1408م) وعرف فيه المؤلف بشيخ الأولياء أبي مدين شعيب، وبعض أصحابه بناء على طلب صديق له. دون أن ننسى تدوين رحلته الزيارية إلى المغرب الأقصى التي بدأت سنة 761 هـ/ 1360م واستمرت إلى غاية 776 هـ/ 1375م، وذكر فيها الشيوخ الذين إلتقى بهم، ويذكر ابن قنفذ في رحلته هذه معايشته لمجاعة عظيمة عمّت المغرب ككل سنة 776 هـ/1375م، وكان وقتها بالعباد في تلمسان، حيث فصل في ذكر مظاهرها الاقتصادية والدينية والاجتماعية.

5- "**صلحاء وادي الشلف**"،[27] للمازوني: موسى بن عيسى (عاش في القرن 9 هـ/ 15م): وبالرغم من أن مؤلفه قد أسهب في الحديث عن مراتب الزهد والتصوف، إلا أنه ترجم لبعض صلحاء المغرب الأوسط خصوصا منطقة الشلف، ويعد هذا المصدر مهما بالنسبة لدراستي، لأنه يوضح لنا تفاعل الولي إزاء ظاهرة الجوع وبعض الأمراض، فضلا عن دور "مقدسات" ظاهرة الولاية كالقبور، التي كان بعض أفراد المغرب الأوسط يتخذونها مزارات خصوصا المرضى منهم والمكروبين.

ت- كتب التاريخ العام

ومن محاسن هذا الصنف من الكتب أنها تعطي لنا زمنية الحدث، مما يسمح لنا بعمل تتابع كرونولوجي لمختلف المجاعات والأوبئة، لكن في مقابل ذلك لاتوافينا بمعلومات كافية عن هذه الأزمات إلا في بعض الحالات القليلة، لأنها غالبا ما تذكر الجوع والوباء من ضمن الأحداث التي تتعرض لها الدولة في بعض فتراتها التاريخية ومن هذه المصادر نذكر مايأتي:

1- "**العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**"[28] لعبد الرحمن بن خلدون (تـ 808 هـ/1406م)، وهو كتاب شامل لتاريخ البشرية ككل، وإن كان يطغى عليه الجانب السياسي والعسكري، إلا أن ابن خلدون لم يغفل عن ذكر أزمات الجوع والوباء التي تجتاح الدول، والأهم من ذلك أنه المصدر الوحيد الذي فصّل في ذكر المجاعة الواقعة بتلمسان زمن الحصار المريني عليها (698 – 707 هـ/1298 - 1307م).

---

[26]- تحقيق أبو سهل نجاح عوض صيام، ط1، القاهرة: دار المقطم، 1422هـ- 2002م.

[27]- مخطوط: نسخة مصورة عن مكرو فيلم، مكتبة الخزانة العامة للرباط، رقم : 52343، مبتور الأول ومتكون من 319 صفحة لكن اتبعت في الترقيم نظام الأوراق.

[28]- بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1983م، ج6 - ج7.

2- "**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**"[29]. لابن أبي زرع الفاسي (كان حيا سنة 729 هـ/1328م) وقد أهدى المؤلف هذا الكتاب إلى السلطان التاسع من ملوك بني مرين أبي سعيد عثمان الثاني بن يعقوب (710-731 هـ/1309- 1330م)، وصحيح أن هذا المؤلف يذكر المجاعات والأوبئة التي حدثت بالمغرب ككل، إلا أنه أفادني على أساس أن هذه المجاعات والأوبئة قد وقعت بالمغرب الأوسط أيضا، والأهم من ذلك أنه ذكر بعض مظاهرها، كغلاء الأسعار وعدد الوفيات كمنعكس ديمغرافي ناتج عن هذه الأزمات.

3- "**بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**"[30]. لأبي زكريا يحيى بن خلدون (تـ 780 هـ/1378م) وإن كان المؤلف في كتابه هذا لا يؤرخ إلا لملوك الدولة الزيانية، إلا أنه لم يغفل عن ذكر بعض المجاعات التي اجتاحت مملكتهم، والأهم من ذلك أنه يبرز لنا دور سلاطين بنو زيان أوقات المجاعات وما بعدها.

4-:"**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**"[31]. لابن عذاري المراكشي (كان حيا سنة 712 هـ/ 1311م) لايختلف هذا المصدر كثيرا في طريقة عرضه للحدث التاريخي الخاص بالمجاعات والأوبئة عن كتاب روض القرطاس، فهو يذكر أيضا بعض مظاهر هذه الأزمات والآثار الديمغرافية الناتجة عنها.

ث- كتب الرحلات والجغرافيا

لئن كانت كتب الجغرافيا تعنى بوصف المدن وصفا دقيقا، تعرفنا بأهم سماتها ومحاسنها ومساوئها، فإن كتب الرحلات هدفها اكتشاف الآخر، ومعايشة الحدث عن قرب ونذكر أهمها:

1- **الرحلة المغربية** المسماة بـ "**ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة إلى بلاد المشرق**"،[32]. للعبدري محمد بن محمد الحاحي (ق 7 هـ/ 13م)، لقد مر المؤلف في رحلته بالمغرب الأوسط وصف حال تلمسان السيء وذكر بعض المظاهر التي تدل على وجود مجاعة، وأشار إلى موقف السلطة إزاء هذه الأزمات.

2- "**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**"[33]. لابن فضل الله العمري (تـ 749 هـ/1348م) وهو كتاب جغرافي يهتم بوصف المدن والممالك، وقد أفادني بما ذكر من المعلومات التي تخص مستوى المعيشة في ممالك المغرب؛ بذكر بعض الأسعار والأجور، والمكاييل المستعملة في كل مملكة.

3- "**وصف إفريقيا**"[34]. للوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي (توفي بعد سنة 957 هـ / 1559م) ويهتم هذا المصدر بوصف كل المدن الواقعة بإفريقيا، وقد أفادني في دراستي كثيرا لأنه أشار إلى أهم الأمراض المنتشرة

---

[29]- مراجعة: عبد الوهاب بن منصور، ط 2، الرباط: المطبعة الملكية، 1420هـ- 1999م.

[30]- تحقيق: ألفردبيل، الجزائر : مطبعة فونطانة، 1328هـ- 1910م، ج1- ج2.

[31]- الجزء 1: تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفسنال، ط 3، بيروت: دار الثقافة، 1983م .

-القسم الموحدي: تحقيق إبراهيم الكتاني وآخرون، ط1، الدار البيضاء-بيروت: دار الثقافة- دار الغرب الإسلامي، 1406هـ- 1985م .

[32]- تحقيق أحمد بن جدو، الجزائر : نشر كلية الآداب الجزائرية، (د .ت) .

[33]- ألمانيا: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية، جامعة فرانكفوت، 1408هـ- 1988م، ج4 .

[34]- ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983م، ج1- ج2 .

عند الأفارقة، كما أنه أعطانا بعض المعطيات التي أفادتني لدراسة مستوى المعيشة بالمغرب الأوسط، فضلا عن أنه ذكر المجاعة الكبرى الواقعة بتلمسان إبان الحصار المريني لها، وذكر بعض الآثار الديمغرافية الناتجة عنها ناقلا في ذلك عن غيره.

4- "**الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم**"[35]: لعبد الباسط بن خليل الملطي (تـ 920 هـ/1514م) وهي رحلة علمية ذكر فيها المؤلف شيوخه الذين أخذ عنهم العلم، وقد أفادتني لأنه ذكر بعض أطباء تلمسان ووهران وبين واقع علم الطب وتدريسه بالمغرب الأوسط.

جـ- كتب الطبقات والتراجم

فمن المعلوم أن هذه الكتب لا تؤرخ إلا للعلماء والفقهاء، لكن من حسن حظنا أنها تعطينا أزمنة حدوث بعض الأوبئة والطواعين الواقعة بالمغرب الأوسط، وهذا إذا ما ذكرت فقيها أو عالما كان قد توفي به ونذكر أهمها:

1- "**البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**"[36] لابن مريم المليتي التلمساني (ق11 هـ/17م) وترجم فيه المؤلف لعدد كبير من صلحاء تلمسان وعلماءها، واهتم بذكر بعض المجاعات في بعض التراجم، وذكر بعض الأوبئة التي تكون سبب وفاة أحد المترجمين بهم داخل هذا الكتاب.

2-"**عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**"،[37] للغبريني البجائي (تـ 704 هـ/1304م) وفيه ترجم المؤلف لعلماء بجاية والوافدين عليها من علماء وصلحاء الأندلس، ومنهم الأطباء، والأهم من ذلك أنه يكشف لنا عن واقع الطب وحال الممارسة الطبية ببجاية في هذه الفترة.

حـ- كتب الحسبة والأحكام

ويكتسي هذا النوع من المصادر أهمية قصوى في هذه الدراسة، لأنه يبرز لنا مختلف المظاهر الاقتصادية والاجتماعية المنتشرة في المغرب الأوسط ونذكر أهمها:

1- "**تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر**"،[38] لمحمد العقباني التلمساني (تـ 860 هـ/1455م) وهو كتاب يرصد فيه صاحبه أوضاع خطة الحسبة، وموقف القضاة من بعض المظاهر التي تؤدي إلى حدوث المجاعات؛ كاحتكار السلع والغش وتغلية الأسعار أوقات المجاعات، فضلا عن ذكره لبعض المظاهر التي تتسبب في حدوث الأوبئة، كإنعدام النظافة في الأزقة والأسواق.

2- "**المهذب الرائق في تدريب الناشىء من القضاة وأهل الوثائق**"،[39] لأبي يحي موسى المغيلي المازوني (ق 9 هـ/ 15 م) لا يهتم هذا المصدر بذكر مختلف الأحكام فقط، وإنما يشير إلى مختلف الأوضاع الاقتصادية

---

[35]- ألمانيا: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرنكفورت، 1414هـ- 1994م .

[36]- تحقيق محمد ابن أبي شنب، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986م.

[37]- تحقيق رابح بونار، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1971م .

[38]- تحقيق علي الشنوفي، ضمن مجلة : ***Bulletin d´études erientals***، العدد 19، سنة : 1965 - 1966م .

[39]- نسخة مصورة من مخطوط متحف سيرتا قسنطينة، تحت رقم: 14، متكون من 234 ورقة .

والاجتماعية السائدة في المغرب الأوسط، في الفترة التي عاصرها المؤلف؛ كقضية الضرائب وأوضاع القضاة، وبعض الأمراض المنتشرة في المغرب الأوسط آنذئذ.

خـ كتب الطب والأغذية والأعشاب

وهذا الصنف من الكتب يفيدنا في معرفة مختلف أنواع الأمراض والأوبئة والعلاج المقترح لها، وبعض الأغذية التي يتناولها أفراد مجتمع المغرب الأوسط وأهمها:

1- "**تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد**"[40]. لابن خاتمة المري الأنصاري (توفي بعد 770 هـ /1369 م) وقد أفرد فيه صاحبه الحديث عن الوباء العام لسنة 749 هـ/1348م، مبتدءً بتعريف الوباء وذكر أسبابه ثم الحديث عن نوع هذا الوباء ومصدره ومناطق إنتشاره، والأهم من ذلك أنه ذكر لنا عدد الوفيات الناتجة عنه في بعض المناطق كالمرية وتلمسان، كما أنه تحدث عن مسألة العدوى والفرار من الطاعون.

2- "**مقنعة السائل عن المرض الهائل**"[41]. للسان الدين ابن الخطيب الغرناطي (تـ 776 هـ/1374م) وقد خصه صاحبه أيضا للحديث عن وباء 749 هـ/1348م الذي إكتسح العالم ككل، فعرّف هذا المرض القاتل وذكر أسباب حدوثه، وأثبث وجود العدوى علميا، وأعاب على القائلين بعدم وجودها.

3- "**تأليف في الطب**"[42]. لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الشريف الحسني المغيلي ويبتدأ المؤلف حديثه في هذا الكتاب عن الطب الوقائي، ومختلف الحميات التي تتغير تبعا لفصول السنة، ثم يذكر مختلف الأمراض وطرق علاجها بمختلف الأدوية المركبة والأعشاب.

4- "**الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**"[43]. لابن البيطار المالقي (تـ 646 هـ/1248م) وهو عبارة عن معجم ذكر فيه المؤلف مختلف الأعشاب والأدوية المستعملة لمعالجة الأمراض، وقد أشار إلى العديد من النباتات الطبية التي تنبت بالمناطق في المغرب الأوسط، وذكر فوائدها الطبية.

د- كتب العلاج بالرقى

ويتناول هذا النوع من الكتب الحديث عن فضل القرآن الكريم كوسيلة لعلاج العديد من الأمراض المزمنة والوبائية ونذكر أهمها:

1- "**اللوامع والأسرار في منافع الأخبار**"[44]. لعيسى بن سلامة البسكري (كان حيا سنة 860 هـ/1455م) ويبين فيه صاحبه مختلف الرقى المستعملة في علاج كثير من الأمراض، والأهم من ذلك أنه يعطي لنا وصفات

---

[40]- نشر ضمن: **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية**، لعبد الكريم الخطابي ط 1، بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1988م، 1/ 151-186 .

[41]- ألمانيا : منشورات معهد العلوم العربية الإسلامية، جامعة فرنكفورت، 1417هـ- 1997م، 93 / 38 – 48 .

[42]- مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، ضمن مجموع رقم: 1767، ورقة 01 - 18.

[43]- ط1، دار الكتب العلمية، 1991م ج1- ج2 .

[44]- مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، ضمن مجموع رقم: 1776، ورقة 41 ب – 110 أ.

طبية لأدوية مركبة تعالج أمراضا عديدة، بناءً على ما استقاه من أطباء عصره.

وفضلا عن هذه المصادر هناك مصادر أخرى منها ما هو مخطوط، ومنها ماهو مطبوع، اعتمدتها في هذه الدراسة، ولا تقل أهمية عن هذه المذكورة أعلاه، ولا أخفي أنني من المتأثرين جدا بعلم ابن خلدون، فمقدمته كانت بالنسبة إلي خير دليل في كل هذه الدراسة، وهذا ما سيلاحظه قارىء هذه المذكرة؛ أما المراجع التي اعتمدت عليها فهي كثيرة ذكرت البعض منها في الدراسات السابقة فلا داعي لإعادتها.

صعوبات الدراسة

وقد واجهتني في هذه الدراسة جملة من الصعوبات يمكن تلخيصها كالآتي:

– قلة المادة المصدرية التي تتناول موضوع المجاعات والأوبئة بالمغرب الأوسط، وهذا ما صعّب علي دراسة نواحي كثيرة من الموضوع، وأحال دون الإجابة على العديد من الإشكالات التي واجهتني.

– قلة المادة المصدرية المتعلقة بمجال البادية والريف، مما يجعل الكفة في هذه الدراسة تميل نحو معاجته ضمن مجال المدن أكثر منها من الأرياف والبوادي.

– صعوبة التحكم في هذه الدراسة بفضاء جغرافي واسع كفضاء المغرب الأوسط، الذي تختلف فيه السلطة الحاكمة بين طرفيه الشرقي والغربي.

وفي الأخير أتقدم بالشكر الخالص إلى المشرف الأستاذ الدكتور محمد الأمين بلغيث على نصائحه وصبره الطويل علي إلى غاية اتمام هذا البحث.

الفصل التمهيدي

المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط

(588-927 هـ/1192 -1520 م)

مفاهيم واصطلاحات.

أولا : المجاعات والأوبئة الدلالة والمفهوم

ثانيا: المغرب الأوسط (588-927 هـ/1192 -1520 م)

أولا: مفهوم المجاعة

تعددت التسميات والمصطلحات التي أطلقت على لفظ المجاعة، وإن كانت كلها تصب في مفهوم واحد يدل على أنها حالة مرتبطة بنقص الغذاء أو انعدامه، فهي أيضا ظاهرة اقتصادية واجتماعية عارضة شهدتها مختلف الدول والحضارات على مرّ الأزمان، وحالت في كثير من الأحيان دون تسارع عجلة التطور، وبحدوثها يختل نظام الكون السائد ويدق ناقوس الخطر آذِنا للموت أن ينال حظه من البشر في مدة من الزمن قد تطول أو تقصر، فما هو مفهوم المجاعة؟ وما هي مرادفاتها في اللغة؟ وكيف تعاملت مختلف المصادر التاريخية مع هذا المصطلح؟.

أ- المجاعة في اللغة

إن أي مصطلح يعبر عن ظاهرة تاريخية ما إلا وله مرادفات في اللغة وتأويلات عديدة ، يستوجب الإلمام بها ومعرفتها، حتى يسهل علينا فهم هذه الظاهرة وتتبع مسارها التاريخي، لأن اللغة والتاريخ كما هو معلوم علمان متلازمان تلازم الروح مع الجسد.

فالمجاعة في اللغة هي مفْعَلةً من الجُوعْ، ومن الفعل جَاعَ يَجُوعُ، فهو جائع وجوعان، والجُوعُ نقيض الشَّبَعِ، وهو اسم للمَخْمَصَةِ وهي مصدرٌ مثل المَغْضَبَةِ والمَعْتَبَةِ: وهي خلاء البطن من الطعام جوعًا،[45] والمسغبة أيضا تعني المجاعة، وقد جاء في قوله تعالى: ↓ 🕮❐❐⬃ ✆⍉☪⇳➔⍓◷⚐✎ ×⍉❼ ③♦❑⬀✈🗄 ❶✎❽ ✍✐✎✍ ▦□♦▦♦⇔⇔○♦✋ [**البلد:** 14] أي مجاعة،[46] فقال: "سَغَبَ الرّجُلُ يَسْغَبُ، وسَغَبَ يَسْغَبُ سَغْبًا: جاع، والسَّغْبَة: الجوع، وقيل: الجوع مع التعب، وربما سمي العطش سغبًا وليس بمستعمل".[47]

ويطلق على المجاعة أيضا مصطلح الأُلْبَةُ: وهي مأخوذة من التَّأَلُّب والتَّجَمُّعْ، لأن الناس يجتمعون في المجاعة ويخرجون أرسالاً، ويقال للجوع أيضا الخَوْبَةُ، وأصابتهم خَوْبَةٌ الخاء المعجمة: أي مجاعة، ولفظ الخوبة يطلق أيضا على الأرض التي لم تمطر بين أرضين ممطورتين، وقيل الخَوْبَةُ والقَوَايَةُ والخَطِيطَةُ هي الأرض التي لم تُمْطَرْ،[48] ويقال للمجاعة الشِّدَةُ، وشِدَّةُ العيش: شَظَفَهُ، والانْفَاضُ: يعني المجاعة والحاجة، أما الخصاصة فهي الخُلَّةُ والفقر، وذو خَصَاصَة: ذو فَقْرٍ، وقيل أن العرب كانت تسمِّي الشتاء مجاعة، لأن الناس يلتزمون فيه البيوت ولا يخرجون للانتجاعٍ.[49]

وقد أطلق على السنة التي تحدث فيها المجاعة تسميات عديدة؛ كالسَّنَةُ الغَبْرَاءْ، وسَنَةٌ لَزْبَةٌ: أي شديدة، وهي السنة التي يكون فيها القحط، واللَّزُوب: القحط، وكذلك السنة الحمراء أي السنة الشديدة الجذب لأن آفاق

---

[45]- ابن منظور: **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، 1388هـ- 1968م، 2 / 431 - 432، الفيروزآبادي: **القاموس المحيط**، بيروت: دار العلم للملايين،(د.ت)، 15/3، الجوهري: **الصحاح** (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط 3، بيروت:دار العلم للملايين، 1404هــ-1984م، 1201/3

[46]- جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي: **تفسير الإمامين الجلالين**، بيروت: دار المعرفة، (د.ت)، ص 808.

[47]- ابن منظور: **المصدر السابق** 1 / 368، الفيروز أبادي : **المصدر السابق،** 1 / 82، الجوهري : **المصدر السابق،** 1 / 147.

[48]- **المصدر نفسه،** 1 / 368، الجوهري: **المصدر السابق،** 2 / 123.

[49]- ابن منظور: **لسان العرب،** 3 / 234، 14 / 422، 7 / 241، 11 / 219.

السماء إنما تحمرُّ في سني الجَدْبِ القحط، والسنة الشَّهْبَاءِ : إذا كانت بيضاء من الجَدْبِ، لا يُرَى فيها الخضرة، وقيل: هي بيضاء لكثرة الثلج وعدم وجود النبات، وقيل أن شُهْبَاءٌ هي ريح شديدة البرد.

ويقال للسنة الشديدة أيضًا القَّحْمَةُ، وعام قسيٍّ كغنيٍّ: شديد من الحرِّ أو البرد أو القحط أو نحوه، ويقال سنونٌ خَدَّاعَة ٌ أي تكثر فيها الأمطار ويقل الريع فيها، فذلك خِداعها لأنها تُطعم في الخصب بالمطر ثم تخلف، وقيل الخدَّاعة: القليلة المطر، والسنون الخوادع: هي القليلة الخير الفواسد، وكذلك السنة السنهاء: وهي السنة التي لا نبات بها ولا مطر، ويقال: أَسْنَتَ القَوْمُ بمعنى أصابتهم سنة شديدة من القحط.[50]

وكلمة القحط تحتمل في اللغة عدة معاني أيضا؛ فهي تعني احتباس المطر والجذب، والجباب معناه: القحط الشديد، والضَّارُورَاءْ: القحط والشدة، والشِّيَاحُ تعني القحط أيضا، وقد يقال للقحط: الكَحْطُ، وامْحَلَ البلد: إذا قَحَطَ فهو مَاحِلٌ، ويقال الناس في كُلْبَةٍ أي في قَحْط وشِدَّةٍ من الزمان، ويطلق عليه أيضا باللَّأْواء: وتعني المشقة والشدَّة، وقد كانت العرب تسمِّي القحط شتاءٌ لأن المجاعات كانت أكثر ما تصيبهم في الشتاء البارد.[51]

ويعتبر القحط من أهم أنواع الجوائح، والجوائحُ في اللغة جمع جائحة وهي تعني " الشدَّة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة (قحط) أو فتنة"، وأصلها من الجَوْحِ أي بمعنى الاسْتِئْصَالْ، والهَرَنْكَسُ: نَعْتٌ لكل جائحة مُهْلِكَةٍ مُسْتَأْصِلَةٍ،[52] ويعرفها المُحْدَثُون بقولهم: "الجائحة اسم فاعل مؤنث الجائح، جمع جوائح: وهي المصيبة، والجائحة من السنين الجذبة، وجاح الله المال وأجاحه: أهلكه، الآفة التي تهلك الثمار والأموال وتستأصلها".[53]

وتجدر الإشارة هنا أن الجائحة لا تعني المجاعة في حدّ ذاتها، وإنما هي أحد مسبباتها، فقد فصلَّ في المدلول الاصطلاحي للجائحة جمهور من الفقهاء؛ فَعُرِّفت بأنها كل الآفات السماوية التي لا يد للإنسان فيها، والتي لا يستطاع التحرز منها ولا دفعها إن عُلم بها، كالقحط وكثرة المطر والريح والبرد والجراد والدود والعفن والغبار المفسد وغيرها.[54]

ويعرفها ابن عرفة بأنها "ما أتلف من معجوز عن دفعه عادة قدرا؛ من ثمر أو نبات بعد بيعه"،[55] والمعجوز عن دفعه هو كل الآفات السماوية، من برد ونار وريح وغرق والسموم، وهي متفق عليها، أما الاختلاف

---

[50]- **المصدر نفسه**، 1 / 508، 738، 4 / 210، 8 / 66، 13 / 150، 502، الفيروز آبادي : **القاموس المحيط**، 4 / 287، الجوهري : **الصحاح**، 3 / 1150.

[51]- **المصدر نفسه**، 7 / 374، 386، 15 / 238، **المصدر نفسه**، 1 / 44، 232، 2 / 387.

[52]- **المصدر نفسه**، 8 / 61، 62، **المصدر نفسه**، 2 / 285، 3 / 15، الجوهري: **المصدر السابق**، 1 / 360.

[53]- محمد رواس قلعه جي وحامد صادق قنيبي: **معجم لغة الفقهاء**، ط 2، بيروت: دار النفائس، 1988م، ص 157.

[54]- ابن سلمون الكناني: **العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام**، ط1، مصر: المطبعة العامرية الشرقية، 1301هـ، 1/ 251.

[55]- الرصاع التلمساني: **شرح حدود بن عرفة الموسوم: بالهداية الكافية الشافية**، تحقيق أبو الأجفان والطاهر المعموري، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993م، ص 392 .

فيكون في السارق والجيش، أما قوله "قدرا من ثمر أو نبات" فهو مقدار الثمرة المجاحة، وقد اختلف الفقهاء في ما إذا كان ثلث المكيلة، أو ثلث القيمة، والذي يشترط عند المالكية أن يكون ثلث الثمرة.[56]

وعرف الشيخ خليل الجائحة بقوله: "هي ما لا يستطاع دفعه كسماوي وجيش"،[57] فهو يقصد بالجائحة هنا كل ما هو سماوي، أي كل آفة لا دخل للإنسان بحدوثها، بل هي مقدرة من الله سبحانه وتعالى، وكذلك الجيش ومن في حكمه كالسلطان الجائر، فهي من الجوائح غير الطبيعية في نظره .[58]

وتنضوي ضمن تعريفات هؤلاء الفقهاء مختلف أنواع الجوائح، فهناك من عددها في ستة عشر نوعا ونظمهما في هذا الرجز قائلا:

قحط وثلج ثم غيث بردهـــا ريح وعفن وجراد وفارهـــا

طير ودود غاصب ثم سارق غرق وجيش والمحارب نارها[59]

وكل الجوائح الطبيعية لا خلاف فيها بين الفقهاء، أما الجيش والسارق والسلطان الجائر فمحل خلاف بينهم، "فقد روى ابن القاسم عن مالك أن الجيش جائحة، وقال ابن القاسم والسارق مثله"،[60] ويضيف هذا الفقيه حول ذلك: "قال مالك في الجيش يمرون بالنخل فيأخذون ثمرته..هو جائحة من الجوائح"،[61] وهذا ما أكده القاضي عياض في تعريفه للجائحة قائلا:"معنى الجائحة هي المصيبة المستأصلة، يقال أجاحهم العدو واستولى عليهم وكذا الشدائد".[62]

وكذلك اعتبر بعض فقهاء المالكية كابن رشد الجد (تـ 520 هـ/1126م) أن السرقة تعد سببا لوضع الجائحة،[63] في حين خالف بعض الفقهاء هذا الرأي ومنهم ابن فتوح (تـ845 هـ/1441م (إذ اعتبروا الجيش والسارق ليس من الجائحة، إلا إذا بلغ الضرر مقدار الثلث في الثمرة المجاحة،[64] ونفس الطرح يتبناه أبو هارون فيعتبر أن ما أفسده اللصوص ليس بجائحة، لأنه يدخل في باب سوء الحرص، ويعتبر فساد الثمرة لعدم وجود مشتري لها في فترات الفتن جائحةً.[65]

---

[56]- **المصدر نفسه**، ص 392، عادل مبارك المطيرات: **أحكام الجوائح في الفقه الإسلامي وصلتها بنظريتي الضرورة والظروف الطارئة**، القاهرة: منشورات جامعة القاهرة، 1422هـ -2001م، ص9.

[57]- **مختصر خليل**، مصر: مطبعة محمد علي صبيح، 1346هـ، ص 157.

[58]- عادل مبارك : **المرجع السابق**، ص 11.

[59]- محمد عليش: **فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك**، ط1،مصر: مطبعة بولاق، 1301هـ، ص32.

[60]- ابن عبد الرفيع: **معين الحكام على القضايا والأحكام**، تحقيق: محمد بن قاسم عياد، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1989، 2/ 551.

[61]- سحنون بن سعيد التنوخي: **المدونة الكبرى**، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ - 1994م، 3 / 591 .

[62]- أبو القاسم البرزلي: **جامع مسائل الأحكام جامع مسائل الأحكام لما نزل من الأقضية بالمفتين والحكام**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2002م، 3 / 388 .

[63]- عادل مبارك : **أحكام الجوائح في الفقه الإسلامي**، ص 103.

[64]- حسين بو لقطيب: **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، ص 25، نقلا عن: ابن فتوح: **الوثائق**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 468. ق، الورقة 273 .

[65]- **المرجع نفسه**، ص 25، نقلا عن: أبي هارون الشاطبي: **طرر أبي هارون**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 1700. د، ص 43.

وقد لخص ابن رشد الحفيد (تـــ 595 هـــ/1198م) جملة هذه الخلافات في النص الآتي: "وأما ما أصاب من صنع الآدميين؛ فبعض أصحاب مالك رآه جائحة، وبعض لم يره جائحة، والذين رأوه جائحة انقسموا قسمين: فبعضهم رأى منه جائحة ما كان غالبا كالجيش، و لم ير ما كان بمغافصة جائحة مثل: السرقة، وبعضهم جعل كل ما يصيب الثمرة من جهة الآدميين جائحة بأي وجه كان"،[66] ولا يهمنا هنا تفاصيل هذه الاختلافات الفقهية بقدر ما يهمنا تحديد بعض المفاهيم للمجاعة والجائحة، وبعض المرادفات التي يتكرر ذكرها في مختلف المصادر التاريخية.

المجاعة في المصادر التاريخية

إن المجاعة كمصطلح واضح الدلالة والمعاني لم يكن موحد الاستعمال في سائر المصادر التاريخية، وهذا طبيعي وإن كانت وجهتها واحدة، وهي التأريخ للحياة البشرية وكل ما يتصل بها، إلا أن اهتماماتها مختلفة ومتباينة، كما أن اختلاف استعمالها لمصطلح المجاعة لم يأت اعتباطا، وإنما عبرّ بوضوح عن ميولاتها واختلاف مشاربها لتقدم لنا في النهاية الحدث التاريخي عن هذه الأزمة كيفما كان.

فالمؤلفات المنقبية باعتبارها مصادر لتأريخ الحياة دينية تعتني بالدرجة الأولى بتقصي أخبار مجتمع رباني، ارتبط أفراده وثيق الارتباط بالزهد والصلاح والولاية، فهي مصادر تاريخية ثرية جدا اهتمت أكثر بالتأريخ للذهنيات والمهمشين، باعتبار أن الفئات التي تؤرخ لها –وهم الأولياء–، كانت قريبة من قاعدة الهرم أكثر من قمته، فهي تنبذ كل ما يتصل بالسلطة وغطرستها، وتمجد حياة البساطة وشظف العيش والزهد وتفضلهما على ملذات الدنيا، فالفقر ونبذ شهوة البطن هو من سمات المجتمع الولائي، وإلا لماذا ينعت أفراده بالفقراء؟ فالمجاعة في المنظور الولائي امتحان من الله لهؤلاء الأولياء، ليختبر مدى ثباتهم وصبرهم عليها، وإيثار بسطاء الناس على أنفسهم في زمنها.

فالمجاعة في المصادر المنقبية اصطبغت بصبغة دينية محضة، وفضلت استعمال لفظ المسغبة الذي هو مرادف لها، كون هذه الكلمة تردد ذكرها في القرآن الكريم لقوله تعالى: ↓ 🕮❒❒⬃ ◑⌧⊂⇳➔⌂⏲⚐Ø ×⌧❼ ↑ ⬁⬂Ø⬀ ⌨❑♦⌨♦⬄⬄○♦✌ ❽♉❶ ⌸✈⬀❑♦③ [**البلد**:14] فهي مقرونة هنا بفعل الإطعام أو الصدقة، التي حث الله فيها الناس في مثل هذا اليوم أكثر من غيره لحاجة الناس إلى ذلك، وما جعل هذا اللفظ يتكرر ذكره في كتب المناقب، دون أن ننكر وجود بعض المرادفات الأخرى؛ كالمجاعة والشدة والقحط وحال الضيق –وإن لم تكن بصفة مستمرة إلا لإيمانها بهذه الوظيفة المقرونة بوقت المسغبة، ألا وهي الإطعام والإنفاق، ولعل ما يؤكد لنا ذلك أن هذه المصادر لا تذكر كلمة مسغبة إلا وهي مقرونة بفعل بطولي يجسده شخص الولي من صدقة أو طقس كرامي يجتاز بها هذه الأزمة، ويدفعها عن بسطاء الناس والمحتاجين منهم.

وقد سارت المصادر الفقهية في تصورها للمجاعة على نهج كتب المناقب، كونها أيضا مصادر دينية تُنظِّر للمجتمعات، وتؤرخ للحياة الاقتصادية والاجتماعية، فإضافة إلى مرادفات عديدة للمجاعة،

[66] **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، مكتبة الخانجي (د.ت)، ص 156.

استعملتها كالقحط والجوع الشديد والخصاصة والمجاعة والشدة، إلا أن المصادر الفقهية آثرت في كثير من الأحيان استعمال لفظ المسغبة أيضا، وإن لم تكن تشير إلى الوظيفة المقرونة بها، وهي الإطعام والإنفاق كما في المناقب، مع أنها تسعى إلى توضيح دور الفقهاء في التخفيف على الناس وحل مشاكلهم، وإن كان ذلك على المستوى النظري أكثر من الجانب الفعلي، فذكرت هذه المصادر المجاعة على أنها من جملة المشاكل التي تعترض الناس باختلاف أصنافهم، وجعلتهم بسببها يبحثون عن شرعية دينية عند الفقهاء لبعض السلوكات التي فرضتها هذه الأزمة حتى لا يقعون في الغلط، وهنا يتجسد دور الفقيه بوضوح كموجه ومنظم لعلاقات الناس مهما كانت طبيعتها، والحرص أن تكون داخل منظومة دينية لا تشوبها شوائب.

كما أن مصطلح الجائحة الذي فرقنا بينه وبين مصطلح المجاعة سابقا، إنما يتكرر ذكره في المصادر الفقهية دون غيرها من المصادر، لأنها من خلال ذلك تصور لنا بوضوح الحضور الفقهي القوي ودور الفقهاء البارز في حل مختلف النزاعات، والمشاكل الناتجة عن هذه الجوائح بين مختلف فئات وأفراد المجتمع.

في حين فضّلت مصادر التاريخ السياسي لفظ المجاعة دون غيره، كون هذه المصادر لا يغلب عليها الطابع الديني ولا الاجتماعي، فالمجاعة في نظرها لم تكن سوى أزمة اقتصادية، كان لابد أن تحدث في وقت ما، فيكون موقعها غالبا ضمن جملة الأحداث التي عاشتها الدولة، أو من بين الأزمات التي عرفتها فترة حكم سلطان ما سرعان ما تذكر جهوده لتجاوز هذه الأزمة، خاصة إذا كانت هذه المصادر من النوع الذي يضفي هالة من القدسية على شخص هذا سلطان، كما أنها غالبا ما تعبر عن المجاعة بأحد أبرز مظاهرها وهي غلاء الأسعار، خصوصا في فترة حكم خليفة أو دولة ما، هي في الأصل معادية لهما، فسرعان ما تعقب ذلك بذكرها لفترة رخاء للأسعار، وموسم خصب في فترة حكم خليفة جديد، أو دولة جديدة تمجدها، لأنها وجدت أساسا لتأريخ للبشرية من أعلى هرمها لا من أسفله.

كما أن مقدمة ابن خلدون وإن كانت لا تندرج ضمن كتب التاريخ السياسي، فهي مصدر تاريخي مهم نظرّ فيها للاجتماع والعمران والحضارة والعلوم على حد سواء، إلا أنه عبرّ عن هذه الأزمة بصورة واضحة وصريحة بلفظ المجاعة، وإن كان على خلاف المصادر الأخرى قد فصّل في ذكر أسبابها إلا أنه جعلها من جملة العوارض التي تعترض الدولة في آخر دورها الحضارية لتعجِّل في النهاية بزوالها.

و لم تكن المجاعة العارض الوحيد الذي هدد الإنسان، وإنما كان الوباء الذي يعقبها في كثير من الأحيان من أهم الأزمات التي عاني منها الإنسان، وهددت بقائه أيضا فما هو مفهوم الوباء؟ وما هو الفرق بينه وبين الطاعون؟ وما هي أهم أنواع الأوبئة التي عرفتها البشرية فترة العصور الوسطى ؟.

ب - :مفهوم الوباء

1- الوباء بين اللغة والطب

يعرف الوَبَاءُ في اللغة بأنه "كل مرض عام" (و يمد و يقصر)، وجمع المقصور أَوْبَاءٌ، وجمع الممدود أَوْبِئَةٌ، وقد وَبِئَت الأَرْضُ تَوْبَأُ فهي مَوْبُوءَةٌ إذا كثر مَرَضُهَا، وكذلك وُبِئَتْ تَوْبَأُ وَبَاءَةً فهي وبِئَةٌ ووَبِيئَةٌ على فَعِلَةٍ

وفَعيلَة، وأَوْبَأَتْ أيضا فهي مُوبِئَةٌ، واسْتَوْبَأْتُ الأَرْضَ، وَجَدْتُهَا وَبِيئَةً.[67]

ويطلق على الوباء مرادفات أخرى كالقرف، فيقال: احذر القرف في غنمك، وقيل القَرَفُ هو العدوى، فأقرف الجرب الصحاح: أعداها،[68] ويطلق على الوَباء أيضا لفظ المُوتان "وذلك على المجاز إذ أصله في اللغة الموت يقع في الماشية (وتقييده بضم الميم)".[69]

أما مفهوم الوباء في الاصطلاح الطبي؛ فإن كل المصنفات الطبية الإسلامية في العصور الوسطى لا تكاد تخلوا من التفاتة علمية إلى مثل هذه الأمراض، فيذكر ابن زهر أن الناس قد اعتادوا على إطلاق اسم الوباء "على الأمراض التي تصيب أهل بلد من البلدان وتشمل أكثرهم"، خاصة وأن الناس جميعهم يشتركون في استعمال الهواء الذي يستنشقونه، "ولهذا إذا كان الهواء فاسدا عم المرض أهل ذلك الموضع أو عم أكثرهم".[70]

ويعرفه ابن خاتمة: "بأنه مرض عام للناس قتّال غالبا عن سبب مشترك"،[71] وعرفه ابن الخطيب مع ذكر أعراضه بقوله: "هو مرض حاد حار السبب سمي المادة يتصل بالروح بدءً بواسطة الهواء، ويسري في العروق فيفسد الدم ويحيل، رطوبات إلى السمية وتتبعه الحمى ونفث الدم، أو يظهر عنه خراج من جنس الطواعين".[72]

ويضيف داود الأنطاكي (تــ 1008 هـــ/1605م) قائلا: بأنه "تغير الهواء إلى الفساد"،[73] أما لفظ الموتان مثلما نجده عند ابن خلدون،[74] والذي يعني الوباء أيضا فإن معناه الاصطلاحي شمولية الموت من هذا المرض المفاجئ في الإنسان والماشية، وباقي الحيوانات الأخرى على حد سواء، وقد اصطلح على الأوبئة أيضا بالأمراض الوافدة، "لأنها قادمة على الناس من بعد مع الهواء ليست من جهة مطعوم ولا مشروب ولا عرض نفساني وشبه ذلك"، أو لكونها أيضا أمراض عامة تشمل وفدا كبيرا من الناس.[75]

ومن ثم فإن أغلب المفاهيم العلمية لمصطلح الوباء لم تتعارض فيما بينها، وتتفق على أنه مرض عام ناتج عن سبب رئيسي مشترك هو "فساد الهواء"، ولا يختلف مفهوم الوباء كثيرا عما كان معروفا عليه عند الأطباء المسلمين في العصور الوسطى وما هو معروف عليه الآن، سوى بعض الاكتشافات العلمية الجديدة التي خطا بها الطب الحديث في ميدان علم الأوبئة، فهو أيضا مرض عام مشترك بين الإنسان والحيوان تسببه بكتيريا، أو فيروسات تختلف حسب نوع المرض الوبائي، وتكون سريعة الانتشار من الشخص المصاب إلى الشخص

---

[67]- ابن منظور: **لسان العرب**، 1 / 189- 190، الجوهري: **الصحاح** 1 / 79.

[68]- **المصدر نفسه**، 9 / 280.

[69]- ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد في تفضيل مرض الوافد**، ص 162.

[70]- **كتاب الأغذية**: تحقيق اكيبراتيون غارتيا، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- معهد التعاون مع العالم العربي، 1992م، ص 143.

[71]- **تحصيل غرض القاصد**، ص162، محمد الرصاع: **الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية**، ص 106.

[72]- **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، ص 38.

[73]- **بغية المحتاج في المجرب من العلاج**، ط 1، بيروت: دار الفكر، 1421هـــ-2001م، ص333.

[74]- ابن خلدون: **المقدمة**، ص 282.

[75]- ابن خاتمة: **المصدر السابق**، ص 162- 163.

السليم، عن طريق عدة وسائط أهمها الماء والهواء، وبعض الحيوانات القارضة كالجرذان والكلاب البرية والسنجاب والأرانب.[76]

2 - الفرق بين الوباء والطاعون

إن الخلط بين مفهوم الوباء والطاعون لم يكن عند بعض اللغويين فقط كما رأينا، وإنما كان عند بعض الإخباريين أيضا، فالمصادر التاريخية استعملت مصطلح الوباء والطاعون دون أن تفرق بينهما، مما يصعب علينا معرفة نوع المرض الوبائي لأي فترة زمنية يحدث فيها،[77] في حين كان مفهوم الوباء في الاصطلاح العلمي أشمل وأعم من مرض الطاعون، فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعونا، أي أن الوباء قد يشمل أمراضا عديدة من بينها الطاعون؛[78] الذي يعرف بأنه نوع من الأمراض التي تحدث في الزمن الوبائي،[79] وهو مرض بكتيري حاد مشترك بين الإنسان والحيوان أيضا،[80] وهناك من يعرفه بأنه مادة سمية تحدث ورما قاتلا،[81] ويكون في ثلاثة أصناف حسبما أقرته التأليف الطبية الإسلامية وكذا الطب الحديث وهي كالآتي:

الصنف الأول: ويسمى بالطاعون العقدي أو الدملي أو الدُبلي، أي بمعنى الدماميل القاتلة، ويطلق عليه باللاتينية اسم"*Bubonic* "، وهو مشتق من "*Bubon*" أي بمعنى الدبل،[82] وهو عبارة عن خراجات ناتئة تظهر في المغابن،[83] واللحوم الرخوة من الجسم،[84] أي مكان الغدد اللمفاوية كما تعرف الآن في الطب الحديث.

الصنف الثاني: ويسمى بالطاعون الرئوي، وهو الصنف الذي أشار إليه ابن خلدون قائلا: "فإذا كان الفساد قويا (فساد الهواء) وقع المرض في الرئة وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة"،[85] فهو أشد

---

[76]- **الموسوعة العربية العالمية**، ط 1، الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة، 1419هـ- 1999م،"مادة وباء"، 27 / 48، أنظر أيضا: رياض بواعنة : **الأمراض الوبائية فيروسات لا تفرق بين الصالح والطالح**، مقال منقول عن الموقع الإلكتروني: WWW.BAB.COM.

[77]- أحمد السعداوي: **المجاعات والأوبئة في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط: النتائج الديمغرافية**، ضمن: **الديمغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي**، ص 37 .

[78]- ابن قيم الجوزية: **الطب النبوي**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، ط 13، بيروت: مؤسسة الرسالة- مكتبة المنار الإسلامية، 1406هـ- 1986م، ص 38، ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص 161، ابن نجيم المصري: **رسالة فيما ضبطه أهل النقل في خبر الفصد بالطاعون**، مخطوط بمعهد الثقافة والدراسات الشرقية، جامعة طوكيو- اليابان: نسخة مصورة عن الموقع الإلكتروني: www.al-mostafa.com، ورقة 418 أ.

[79]- الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص 335.

[80]- حول تعريف الطاعون أنظر في الموقع الإلكتروني للموسوعة الحرة، مادة "**الطاعون**"، www.ar.wikipedia.org.

[81]- السيوطي: **ما رواه الواعون في أخبار الطاعون**، نسخة مصورة عن مخطوطة رقم 1544، من موقع يوسف زيدان للمخطوطات: .com. www.zeidan ، ورقة 164 ب.

[82]- محمد الرصاع: **الأجوبة التونسية**، ص105، عبد الكريم الخطابي: **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية**، ص 157- 182، Michel lepourier **:** ***la petite encyclopédie médecine Sciences***, Flammarion, Paris, p 732.

[83]- المغابن: جمع مغبن وهو الإبط وبواطن الأفخاذ، أنظر: ابن منظور: **لسان العرب**، 13/ 309، ابن الأثير: **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت: المكتبة العلمية، 1399هـ- 1979م، 3/ 636، عبد الكريم الخطابي: **المرجع السابق**، ص108.

[84]- ابن سينا: **القانون في الطب**، ط1، نوبليس: 1999م، 8 / 2575، ابن القيم الجوزية: **المصدر السابق**، ص 37- 39.

[85]- ابن خلدون: **المقدمة**، ص 282.

أنواع الطواعين فتكا بالناس على الإطلاق، فلا يكاد يسلم منه أحد ولا علاج له في الغالب، لأنه يستهدف الرئة ويفرق عروقها ويهتكها "لحدة الدم المنبعث إليها وكثرة مقداره وعجزها عن حصره".[86]

الصنف الثالث: ويعرف في الطب الحديث بالطاعون الإنتانمي، ويطلق عليه اسم "*septicenic*" وتعني هذه العبارة "إنتان دموي"،[87] ويطلق عليه أيضا اسم "الطاعون الدموي أو التسممي"، وعبر عنه ابن خاتمة بالقروح السود، وهي قروح تظهر لأول مرة في الجلد على شكل نفاخات سوداء، أو تميل إلى الحمرة كأنها احتراق نتيجة حدوث نزيف في الجلد، ويصاحب ذلك ارتفاع شديد في درجة الحرارة، وهذه النفاخات ما تلبث حتى تنفجر بالماء، فتخلف بذلك نكت سوداء تنبع ماءً، أو يصاحب ذلك تورم في مواضعها، أو ما حولها، وهذه القروح هي أشد احتراقا من العقد التي تظهر في المغابن، ويظهر في الجسم كمادات سوداء كأنه محترق.[88]

وإضافة إلى الطاعون، تشمل الأوبئة كذلك على أمراض عديدة[89] متشابهة من حيث الهلاك، وتكون في الغالب معدية، غير أنها تختلف من حيث أعراضها فمنها الجذام والجدري والحصبة وذات الرئة والذبحة، فالجذام مرض لا يقل خطورة عن الطاعون بل يأتي بعده،[90] ولهذا كان الأطباء يسمونه بالعلة الكبرى،[91] أو بداء الأسد، نظرا لأن وجه المريض بهذا المرض يصير كوجه الأسد، وهو مرض معدي وموروث، وسبب حدوثه حسبما يعتقد الأطباء، هو الإدمان على ما غلظ من الأغذية كلحم البقر والتمر والباذنجان والثوم والخردل والعدس،[92] والدوام على أكل السمك والسمن والفول يورث الجذام أيضا،[93] وكذلك مداومة الشرب في آنية من نحاس يتسبب في هذا المرض في نظر بعض الأطباء،[94] وهناك من يعتبر أن سبب حدوث الجذام وغيره من البثور المتعفنة؛ راجع إلى أكل الإنسان شيئا من الحيوان الذي يفترس ذات السموم.[95]

ويعتبر مرض الجذري أيضا من الأمراض الوبائية الخطيرة والذي يعدي برائحته أيضا،[96] في حين تقل الحصبة

---

[86] ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص 181.

[87]- عبد الكريم الخطابي: **الطب والأطباء**، ص157.

[88]- ابن خاتمة: **المصدر السابق**، ص181.

[89]- أنظر الملحق: 01 .

[90]- حسين بولقطيب: **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، ص 56.

[91]- ابن زهر: **التيسير في المداواة والتدبير**، تحقيق ميشيل الخوري، دمشق: منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الفكر، 1403هـ - 1983م، ص 378.

[92]- الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص 344.

[93]- ابن باديس الصنهاجي: **المنافع البينة وما ينفع في الأزمنة الأربعة**، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية ضمن مجموع رقم: 1777، ورقة 28 ب.

[94]- ابن زهر: **كتاب الأغذية**، ص106.

[95]- البرزلي: **جامع مسائل الأحكام**، 6/ 481.

[96]- ابن زهر: **التيسير في المداواة والتدبير**، ص 462، الأنطاكي : **بغية المحتاج**، ص 335.

خطورة عنه؛ وهو مرض معدي أيضا، ينتقل عن طريق الهواء من شخص إلى آخر،[97] وقد أجمعت أغلب التأليف الطبية على أن سبب ظهور الجذري والحصبة هو غذاء الجنين في بطن أمه من دم الحيض،[98] لذلك كان الأطباء يفضلون الفصد، لاستفراغ الدم الفاسد من جسم المريض، أما مرض الجرب فهو يعتبر أيضا من أصعب الأمراض الوبائية، والذي يكون سببه في نظر البعض الإكثار من أكل الزيتون والجوز وغيرها من الأطعمة الخشنة.[99]

إنه بالرغم من المجهودات التي خطتها أوروبا في مجال علم الأوبئة وتمكن العلم الحديث من اكتشاف عدة لقاحات لأمراض وبائية عديدة، كاللقاح ضد الجذري والحصبة واللقاح ضد جميع أنواع الطواعين؛[100] وإن لم تكن ناجعة على المدى الطويل، إلا أن الأمراض الوبائية ظلت خطرا يهدد حياة الإنسان حتى الوقت الحالي، خاصة وقد ظهرت أمراض معدية أشد خطورة من سابقتها، وقد صنفها الأطباء المعاصرين كلها كما يلي:

– **الأمراض البكتيرية**: مثل الدفتيريا والتيتانوس والدرن والحمى المالطية.

– **الأمراض الفيروسية**: كالإيدز والتهاب الكبد الفيروسي والحصبة وشلل الأطفال وحمى الوادي المتصدع.

– **الأمراض المعدية التناسلية**: الإيدز والسيلان والزهري.

– **الأمراض المعدية المحجرية**: والتي تؤدي إلى حدوث أوبئة في حال عدم الحد من انتشارها في أماكن ظهورها وهي: الحمى الصفراء، والجمرة الخبيثة والحمى الراجعة والطاعون والكوليرا، إضافة إلى أمراض معدية أخرى مثل السعال الديكي ومرض الجدري المائي (العنقز) والتهاب الحمى الشوكية.[101]

2-الوباء في المصادر التاريخية

لئن كانت أغلب المصادر التاريخية تخلط بين مصطلحي الوباء والطاعون، والذي سبق وأن أشرنا إلى دلالتهما العلمية، إلا أن الرؤى إلى الوباء كظاهرة تاريخية اختلفت من مصدر إلى آخر، فالمصادر المنقبية وباعتبارها مصادر دينية –كما أسلفنا الذكر– لا تذكر الوباء إلا إذا كان سببا في وفاة أحد الصلحاء، بصيغة توحي بتمجيدها لهذا الموت، لأن صاحبه إنسان محبب إلى الله سوف يلقى من وراء ذلك الثواب وينال الشهادة، في حين كانت المصادر الفقهية مصادرا دينية أكثر واقعية من كتب المناقب، لأنها لا تذكر الوباء إلا

---

[97]- مازن عبد المجيد: **الحصبة (المرض، التشخيص المخبري، اللقاحات)**، مجلة الدواء العربي، السنة السابعة عشر، العدد الأول، صفر 1419 هـ- حزيران 1998م، ص 32.

[98]- ابن أبي الأزرق: **تسهيل المنافع في الطب والحكمة**، دار الكتب العربية، (د.ت)، ص 152، ابن زهر: **المصدر السابق**، ص 370، الأنطاكي: **المصدر السابق**، ص 335.

[99]- الوزان: **وصف إفريقيا**، 1/ 83.

[100]- عبد الكريم الخطابي: **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية**، ص 149، محمد الحداد : **تمجيد الموت: صورة الوباء في القرن التاسع عشر**، ضمن: **حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي العربي**، ط1، بيروت: دار الطليعة، 2002، ص 116، لمزيد من الإطلاع حول آخر ما توصل إليه العلماء من لقاح لوباء الطاعون أنظر: مقال: **تطوير لقاح جديد لوباء الطاعون**، مأخوذ من الموقع الإلكتروني: WWW . BBC ARABIC.COM

[101]–رياض بواعنة: **الأمراض الوبائية... فيروسات لا تفرق بين الصالح والطالح**، مقال مأخوذ من الموقع الإلكتروني: WWW. BAB.COM عبد الله المنيف: **الأمراض الوبائية والوقاية منها**، مقال مأخوذ من نفس الموقع.

مقرونا بأحد المشاكل التي تعترض الناس من ورائه؛ كمشاكل الإرث والديون، ونظرا لأن الوباء اتخذ أبعادا دينية بسبب اختلاف الفقهاء في قضية العدوى والفرار من الطاعون، فإن المصادر الفقهية تناولت هذا الجدل بناءً على مرجعية دينية، مستمدة من الكتاب والسنة واجتهاد الفقهاء.

في حين تناولت المصادر التاريخية الحديث عن الوباء؛ كونه من جملة العوارض التي تحدث للدولة في أزمنة مختلفة غالبا ما يأتي حدوثها بعد المجاعات، والأهم من ذلك أن هذه المصادر تضبط لنا زمن الوباء على خلاف المصادر المنقبية والفقهية، ومثلها في ذلك كتب التراجم إذا ما كان الوباء سببا في وفاة عالم أو فقيه اهتمت بالترجمة لحياته.

كما أن ابن خلدون في مقدمته يذكر الوباء أيضا ملازما للمجاعة، وأنه مثلها يمثل عارضا يصيب الدولة في آخر عمرها ويعجل بزوالها، وإن كان يشير إلى بعض أسبابه؛ والتي من ضمنها كثرة العمران وما يصاحبه من فساد الهواء،[102] غير أن ابن خلدون في سيرته الذاتية لا ينظر للوباء على أنه حدث يعجل بزوال الدولة ونهاية أطوارها الحضارية فقط، وإنما ينظر إليه على أنه حادث مسّه شخصيا، فيتناول الحديث عن وباء 749 هـ/1348م باستياء كبير، لأنه قضى على والديه وأغلب شيوخه، وعطل مسيرته العلمية، فالوباء في فكر ابن خلدون كان مأساة حقيقية جسدها لنا في سيرته الذاتية.[103]

ومن ثم فإن المجاعات والأوبئة هي من أخطر العوارض التي هددت حياة الإنسان في الفترة الوسيطة، فقد عاشها المغرب الأوسط كغيره من المجتمعات وكانت نتائجها وخيمة على كافة المستويات، وإذا كان المغرب الأوسط هو المجال المخصص في هذه الدراسة فما هو المفهوم الجغرافي لهذا المجال الذي تردد ذكره كثيرا في المصادر الجغرافية والتاريخية على حد سواء؟.

ثانيا:- المفهوم الجغرافي للمغرب الأوسط

أ- المغرب الأوسط: جدلية الحدود والمجال

على اعتبار أن المغرب الأوسط جزءً لا يتجزأ من فضاء واسع يشمل بلاد المغرب ككل؛ فإن تحديد معالمه الجغرافية في الفترة الوسيطة يعد من الإشكالات التي تضاربت حولها آراء رواد الكتابة الجغرافية والتاريخية ومتأخريهم على حد سواء، فلا جدال أن المتغير في الكيان الجغرافي للمغرب الأوسط هو المجال الذي تنتجعه عناصر إثنية متنوعة، تشكلت من بربر وعرب وغيرهما، البعض منها يعيش ديناميكية دائمة وسعي حثيث للبحث عن مناطق الكلأ والماء، ومن ثمة الاستقرار لفترة معينة، والبعض الآخر كان قد تجاوز مرحلة الانتجاع منذ زمن غير قريب، وسار شوطا في مرحلة التمدن والاستقرار.

ولا شك أن مجال المغرب الأوسط عصب قوامه القوى السياسية التي تداولت على حكمه، وعاشت مراحل قوة وضعف انتاب تاريخها الطويل، بقطع النظر عن صورة هذه القوى السياسية، التي تجاذبتها الصورة النمطية

---

[102]- **المقدمة**، ص 282.

[103]- **التعريف بابن خلدون، ورحلته غربا و شرقا** (طبع باسم **رحلة ابن خلدون**)، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1425هـ- 2004م، ص 64 – 65.

للمركزية واللامركزية؛ أي الاستقلال والتبعية لسلطة الطرف الأقوى، ومن هنا كانت الفكرة الجدلية التي بنيت عليها محاولات عديدة[104] لرسم حدود ثابتة، أو على الأقل تقريبية لصورة واقع المغرب الأوسط، كما نستقيها من الإسطوغرافيا[105] التقليدية، كما مثلتها المصنفات الجغرافية والجغرافيا الوصفية وحتى التاريخية.

ب- المغرب الأوسط: مصطلح متغير بين الكتابة الجغرافية والكتابة التاريخية

1- المغرب الأوسط: المصطلح ودلالته في الكتابات الجغرافية

لم يكن لمصطلح المغرب الأوسط وجود في الكتابة الجغرافية قبل عصر البكري الأندلسي، فأغلب ما كتبه الجغرافيون عن ممالك المغرب الإسلامي وأقاليمه، كان يستند في معظمه على معيار سياسي صرف، تعبيرا عن الحالة السياسية التي كانت سائدة فيه، سواء في فترة انقسامه إلى إمارات ودويلات مع الأغالبة في إفريقية، والرستميين في تيهرت والأدارسة في المغرب الأقصى، والمدراريين في سجلماسة،[106] أو في فترة الأغالبة العبيدية حين استولى الفاطميون على إقليم الإمارات المذكورة.

أما البكري (تـــ**487** هـــ/ **1094**م) الجغرافي الأندلسي الشهير فهو أول من استعمل مصطلح المغرب الأوسط، بعد توضيحه لحدود فضاء المغرب الواسع الممتدة من برقة إلى طنجة، ثم قسمه إلى ثلاثة مناطق هي: إفريقية وقاعدتها القيروان، والمغرب الأوسط وقاعدته تلمسان، والمغرب الأقصى الذي يمتد من غرب تلمسان إلى البحر المحيط.[107]

إن بروز المغرب الأوسط كمصطلح جديد يعبر عن مجال جغرافي ما؛ يطرح عدة إشكالات وتساؤلات؛

---

[104]– نذكر على سبيل المثال أعمال كل من:

Amara Allaoua : ***Pouvoir, économie et société dans le Maghreb Hammadide (395-547/1004-1152) Thèse de doctorat***, Université Paris I - Sorbonne -, 2000, vol I. p.122-127.

الطاهر بونابي: **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين/ 12 و 13 الميلاديين**، عين مليلة– الجزائر: دار الهدى، 2004، ص 29– 33، خالد بلعربي: **الدولة الزيانية في عهد يغمراسن: دراسة تاريخية وحضارية (633– 681 هـــ/1235– 1282م**) ط1، الجزائر: مطبعة تلمسان RN. 2005، ص 29 – 33، جودت عبد الكريم يوسف: **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1992م، ص 5.

[105]– الإسطوغرافيا: كلمة تعني: "الكتابة التاريخية والدراسة التي تتناول هذه الكتابة كمتون متماسكة لا كمجرد مواد مصدرية"، أنظر: عبد الأحد السبتي: **الإسطوغرافيا والأزمة (دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة)**، ط1، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1994، ص 8.

[106]– اعتمد هذا الطرح كل من الاصطخري (ق 4 هـــ/10م) والمقدسي (ت 380 هـــ/993م)، فالأول يذكر أن المغرب يمتد على طول بحر الروم (أي المتوسط)، ويقسمه إلى قسمين: شرقي وغربي، فالجزء الشرقي يضم إفريقية وتيهرت وطنجة، أما الجزء الغربي فيشمل الأندلس وبلاد البربر، أما الثاني منهما فيقسم المغرب إلى عدة مناطق هي: برقة، إفريقية، تيهرت، سجلماسة، السوس الأقصى، صقلية، ثم الأندلس، أنظر على التوالي: **المسالك والممالك**، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ومحمد شفيق غربال، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي– دار القلم، (د.ت).ص32-33، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق محمد أمين الضناوي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـــ– 2003، ص 179.

أما ابن حوقل (توفي بعد 367 هـــ/977م) المعاصر للدولة الفاطمية فيقسم المغرب إلى قسمين: شرقي وغربي؛ فالشرقي يمتد من حدود مصر الغربية إلى إفريقية، والغربي يمتد من إفريقية إلى السوس الأقصى، أنظر: **صورة الأرض**، بيروت: دار مكتبة الحياة، 1992م، ص 64 – 65، 93.

في حين نجد صاحب كتاب **حدود العالم** الذي ألف سنة 372 هـــ/982م؛ يحدد حدود الفضاء المغربي في عمومه من مصر شرقا إلى المحيط غربا، لكنه مضطرب في رؤاه التفصيلية، إذ يجعل تونس من المغرب، وتيهرت من إفريقية، مجهول: **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، تحقيق يوسف الهادي، ط1، القاهرة: الدر الثقافية للنشر، 1419هـــ– 1999، ص 133– 134.

[107]– **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، بغداد: مكتبة المثنى، (د.ت).

علي أي أساس وظف البكري هذا المصطلح؟ ولماذا تلمسان هي قاعدته بدلا من غيرها؟ وتساؤلات أخرى نتحاشى الخوض فيها حتى لا نقحم أنفسنا في مواضيع تخص القبيلة، وعوامل استقرارها، أو انتقالها من طور البداوة إلى طور الحضارة.

إن المتمعن في نص البكري حول مدينة تلمسان يتبين أن اصطلاحه ذاك قائم على معيار قبلي في قوله: "هي دار مملكة زناتة، وموسطة قبائل البربر"،[108] فلا ريب أنه وظف هذا المصطلح كون زناتة[109] أكبر قبيلة بربرية في المغرب من حيث العدد، ومن حيث موقعها الجغرافي، إذ تتمركز وسط قبائل البربر الأخرى، وتلمسان قاعدة المغرب الأوسط، لأنها منشأ الإمارات الزناتية؛ كإمارة المغراويين، وإمارة بني يفرن، ممن كان لهم سلطة وسطوة على القبائل، والمناطق المجاورة.

أما الإدريسي (تــ 560 هـــ/1164م) فيذكر أن المغرب الأوسط يقع في الجزء الأول من الإقليم الثالث، وقاعدته بجاية فيقول: "مدينة بجاية في وقتنا هذا (أي في النصف الأول من القرن السادس) مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد"،[110] ثم يذكر بعض مدن المغرب الأوسط مثل باغاي وقسنطينة وطبنة ونقاوس ومقرة والمسيلة والقلعة ومليانة وتدلس وجزائر بني مزغنة وبرشك وتنس، أما مدينة تلمسان فلم يدرجها ضمن مدن المغرب الأوسط، وقال عنها: "مدينة تلمسان قفل بلاد المغرب، وهي على رصيف للداخل والخارج منها".[111]

فالإدريسي في طرحه هذا قد اعتمد المعيار السياسي في توضيحه لحدود الأقاليم والممالك، فالمغرب الأوسط عنده هو المجال الخاضع للحكم الحمادي (395- 547 هـــ/1004-1152م) الممتد من بونة شرقا إلى سويسرات -وهي سيق إحدى مدن معسكر حاليا- غربا، ومن ساحل المتوسط شمالا إلى ورجلان جنوبا، أما المنطقة الواقعة غرب سويسرات وجنوب الصحراء؛ فقد كانت في هذه الفترة خاضعة للحكم المرابطي (476-539 هـــ/1083- 1144م).[112]

في حين يقسم الزهري (ق 6 هـــ/12م) الجغرافي الأندلسي المغرب إلى ثلاثة أصقاع: إفريقية والمغرب الأقصى والسوس الأقصى، ويذكر أن إفريقية تسكنها قبائل من البربر مثل صنهاجة وزناتة وبرغواطة، ومن مدنها الساحلية طرابلس وتونس وبونة وبجاية وجزائر بني مزغنة وبرشك، ومن مدن التل قسنطينة والقلعة ومليانة وزواوة، أما الصقع الثاني أي المغرب الأقصى فيذكر أن أول مدنه تنس وتليها وهران وهنين ومليلية،

---

[108]- **المصدر نفسه**، ص 76- 77.

[109]- عن أصول زناتة وبطونها ومضاربها أنظر: ابن خلدون: **العبر** 7 /3- 26 ، محمد بن عميرة: **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص15-21.

[110]- **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق** (طبع قسم منه باسم **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**)، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيـــة، 1983م، ص 161.

[111]- **المصدر نفسه**، ص 124، 151.

[112]- محمد الأمين بلغيث: **نظرات في تاريخ الغرب الإسلامي**، الجزائر: دار الخلدونية للنشر والتوزيع، 1428هــ-2007م، ص 61.

ومن أهم مدنه الداخلية: تيهرت وتلمسان وغيرهما،[113] فالزهري هنا يعبر عن حالة المغرب السياسية السائدة في القرن السادس في ظل الحكم الموحدي، الذي امتد من طرابلس حتى البحر المحيط، لذا لا نجد أثرا لمصطلح المغرب الأوسط في كتابه.

أما صاحب كتاب "**الاستبصار**" المنسوب لابن عبد ربه الحفيد (من ق 6 هـ/12م) فيقسم المغرب إلى عدة أقاليم: إفريقية وأول مدنها طرابلس، والمغرب الأوسط وقاعدته تلمسان وينتهي إلى مدينة أجرسيف على وادي ملوية، والمغرب أي الأقصى ويشمل ما وراء وادي ملوية حتى البحر المحيط.[114]

أما ياقوت الحموي (تـ 626 هـ/1228م) فيقسم المنطقة بعد مصر إلى: إفريقية والمغرب؛ فإفريقية تمتد من برقة إلى بجاية، أو مليانة باختلاف من نقل عنهم مسألة تحديد هذا الفضاء، والمغرب يمتد من مليانة إلى جبال السوس المحاذية للمحيط الأطلسي، والأندلس جزء منه.[115]

وفي ذات السياق نجد أبا مروان عبد الملك الوراق (توفي بعد 578 هـ/1182م)[116] وابن حمادة البرنسي (ت 627 هـ/1129م)[117] يسميان الأراضي الواقعة غرب نهر النيل بالمغرب، ويقسماها إلى عدة مناطق: فقسم من الإسكندرية إلى طرابلس، وقسم من طرابلس وهي بلاد الجريد، وتعرف أيضا ببلاد الزاب الأعلى، ثم الزاب الأسفل وحده مدينة تيهرت، ثم بلاد المغرب وهي بلاد طنجة وحدها مدينة سلا، وتليها بلاد تامسنا، أي السوس الأدنى وحدها جبل درن، ثم السوس الأقصى،[118] فياقوت الحموي وعبد الملك الوراق وابن حمادة معاصرون للدولة الموحدية، فكان تقسيمهم على أساس سياسي يعبر عن أقصى اتساع بلغه الموحدون واستطاعوا أن يفرضوا سلطتهم عليه.

أما ابن سعيد المغربي (تـ 685 هـ/ 1286م) فيقسم المغرب إلى عدة أجزاء كذلك، ويذكر أن تلمسان تقع في الجزء الأول مع مراكش وفاس والأندلس، أما المغرب الأوسط؛ فيقع حسبه في الجزء الثاني وقاعدته بجاية، وهو يمتد شرقا حتى مدينة قسنطينة، أما مدينة بونة فهي حد سلطنة إفريقية الحفصية على الساحل، ومن مدن المغرب الوسط في هذا الجزء يذكر: مستغانم وتنس وجزائر بني مزغنة وتدلس وغيرها.[119]

---

[113]- **كتاب الجعرافيا**، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ص: 107، 112، 114.

[114]- **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، بغداد: وزارة الشؤون الثقافية العامة- أفاق عربية، ص 110، 176، 179.

[115]- **معجم البلدان**، بيروت: دار صادر، 1397هـ- 1977م، 1/228، 5/ 161.

[116]- من مؤرخي العصر الموحدي وممن زار تلمسان سنة 555 هـ/ 1160م، لكن لا نعرفه إلا من خلال كتابه المسمى "**المقباس في أخبار المغرب والأندلس وفاس**"، وهو كتاب في حكم المفقود الآن احتفظ لنا ببعض شذراته كل من ابن أبي زرع، وابن صالح وابن عذاري وصاحب مفاخر البربر وغيرهم، أنظر: المنوني: **المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث**، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1404هـ- 1983، ص 47.

[117]- سبتي المنشأ وهو أحد أشهر تلاميذ القاضي عياض وممن اختصر كتابه "**ترتيب المدارك**"، واشتهر بكتاب الموسوم بـ "**المقتبس في أخبار المغرب وفاس والأندلس**"، إلا أنه ضائع كذلك واحتفظ لنا ابن عذاري وصاحب كتاب "**مفاخر البربر**" بنتف هامة منه، أنظر: المنوني: **المرجع السابق**، ص 48.

[118]- أنظر: ابن عذاري : **البيان المغرب**، 1 / 5.

[119]- **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ط2، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص: 140- 142.

إن ابن سعيد بالرغم من أنه قد عاش فترة انقسام المغرب إلى ثلاثة كيانات سياسية: حفصية ومرينية وزيانية، إلا أنه لم يبنِ تقسيمه على أساس سياسي كما كان متوقعا، فهو يذكر أن تلمسان خارج مجال المغرب الأوسط، ويصف بجاية التي كانت في الواقع تحت سلطة الحفصيين بـــ "قاعدة المغرب الأوسط"، فهو إذن لا يعبر عن خصوصية الفترة التي عاشها، ولا عن خصوصية الفضاء المغربي كما هي حقيقة، بل ينقل عن غيره ممن سبقه؛ كالإدريسي على وجه التخصيص.

أما أبو الفداء (تـــ 732 هـــ/1331م) من مؤرخي وجغرافي المـــشرق الإســـلامي؛ فيقـــسم المغـــرب إلى ثلاثة قطع كما يصطلح عليها هي: إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وحدود المغرب الأوســـط عنده تمتد من وهران إلى آخر حدود مملكة بجاية،[120] لكنه لا يدرج تلمسان ضمن مجال المغرب الأوسط بـــل ضمن المغرب الأقصى فيقول عنها: أنها "أول المغرب الأقصى متاخمة للأوسط"،[121] فمن الواضح أنه لم يعتمد في تقسيمه للمغرب لا على أساس قبلي ولا على أساس سياسي، كما لا يعبر عن الحالة السياسية التي عاشها مغرب القرن الثامن الهجري، وإنما كان ينقل عن الإدريسي وابن سعيد وهو يصرح بذلك.

ونرى ابن فضل الله العمري (تـــ 749 هـــ/1348م) يقسم المغرب إلى ثلاثة ممالك: مملكة إفريقية ومملكة بر العدوة ومملكة الأندلس، فمملكة إفريقية تمتد من برقة إلى تدلس وقاعدتها تونس الحفصية، وأما ما يسميه بمملكة تلمسان فهي تشمل أيضا ثلاثة ممالك هي: أعظمها مملكة فاس، ثم مملكة تلمسان مع ما أضيف إليها من الأندلس،[122] فتقسيمه هذا ينم حقيقة عن الوضع السياسي الذي كان يعيشه مغرب القرن الثامن الهجري، حيث كانت تلمسان والجهة الغربية من المغرب الأوسط خاضعة لسلطة المرينيين زمن السلطان أبي الحسن.

أما ابن عبد المنعم الحميري (من أهل القرن 8 هـــ/14م) فيقسم المغرب إلى ثلاثة أقسام: إفريقية، المغرب الأوسط، المغرب الأقصى، وقاعدة المغرب الأوسط هي بجاية وحده مع المغرب الأقصى بلاد تازا، كما يعتبر من جهة ثانية أن تلمسان الزيانية قاعة المغرب الأوسط، ويصنف قسنطينة ضمن إفريقية الحفصية،[123] فهو هنا مضطرب الرؤية فمن جهة يعبر جزئيا عن الحالة السياسية لمغرب القرن الثامن الهجري، ومن جهة ينقل عن جغرافيي القرن السادس أمثال الإدريسي، ويتبين ذلك حين يصف بجاية قائلا بأنها "عين بلاد بني حماد".

أما الحسن الوزان الشهير بليون الإفريقي (توفي بعد 957 هـــ/1550م)، فيقسم المغرب المعروف عنده ببلاد البربر إلى أربعة ممالك هي: مملكة مراكش ومملكة فاس ومملكة تلمسان التي تضم الحبال وتنس والجزائر، ثم مملكة تونس التي تضم إقليم بجاية وقسنطينة والزاب وطرابلس وغيرها،[124] ولاشك في أنه وضع هذا التقسيم على أساس سياسي بذكره لتلمسان كمملكة مستقلة تحت سلطة بني عبد الواد، في حين كان إقليم بجاية محل

---

[120]- **تقويم البلدان**، نشره رينود والبارون دي سلان، باريس: دار الطباعة السلطانية، 1840م، ص122.

[121]- **المصدر نفسه**، ص 136.

[122]- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ص 51، 68.

[123]- **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، ط 2، بيروت: مكتبة لبنان، 1984م، ص 80-81، 135- 136.

[124]- **وصف أفريقيا**، 1 / 28، 30-31.

نزاع وصراع بين الحفصيين والزيانيين، يخضع للأقوى منهما.

فالخلاصة التي نصل إليها بعد هذا العرض؛ هي أن مصطلح المغرب الأوسط تأخر ظهوره إلى غاية القرن الخامس الهجري، وأول من أشاع استعماله في المصنفات الجغرافية هو البكري الأندلسي؛ تعبيرا عن كيان قبلي مركز ثقله قبيلة زناتة البربرية، أما مدلوله في المصنفات الجغرافية الأخرى؛ فهو كيان سياسي لم يعرف حدودا رسمية، إذ كان محل صراعات وأطماع توسعية لمختلف القوى السياسية التي تعاقبت على حكمه.

2– المغرب الأوسط: المصطلح ودلالته في الكتابات التاريخية

فإذا كانت إشكاليتي مصطلح وحدود "المغرب الأوسط" بهذه الصورة الضبابية المضطربة في مدونات الجغرافيا الوصفية، فما هي دلالتهما في الإسطوغرافيا التاريخية؟.

إن المصادر التاريخية التي تناولت ماضي المغرب الإسلامي لم تعتنِ بجغرافية البلاد بنظرة واعية، فباستثناء ما ذكره ابن خلدون لم ترد إلا إشارات محتشمة عند بقية المؤرخين، فعبد الواحد المراكشي (تــ647 هــ/1248م) لم يستعمل مصطلح المغرب الأوسط في تاريخه، حين قسم بلاد المغرب إلى قسمين: إفريقية والمغرب، وحد إفريقية من جهة الغرب هي مدينة قسنطينة، وأول بلاد المغرب بلدة صغيرة تسمى ميلة،[125] فمن المعلوم أن هذا المؤرخ قد عاش في فترة السيطرة الموحدية على فضاء المغرب الإسلامي لأنه يعبر بوضوح عن تلك الحالة السياسية.

أما عبد الرحمن بن خلدون فيذكر أن قاعدة المغرب الأوسط هي تلمسان، ثم يعدد لنا بعض مدنه الساحلية كهنين والجزائر وبجاية وبونة آخرها، ومن مدن الجنوب أشير (قرب عين بوسيف من نواحي المدية حاليا) والمسيلة والزاب وقاعدته بسكرة، وجبل أوراس وتبسة،[126] فهو لم يستند في تحديده للمجال المغرب الأوسط على الحالة السياسية، التي كان يعيشها المغرب الإسلامي فترة القرن الثامن الهجري، بل اعتمد على تجمعات القبائل البربرية داخل هذا الكيان الجغرافي.

فقبيلة زناتة كانت مستقرة في المنطقة الممتدة ما بين وادي ملوية غربا، إلى وادي الشلف والزاب شرقا، ومن ساحل شرشال ووهران شمالا، إلى إقليم تيهرت جنوبا، أما صنهاجة فهي تقطن الأقاليم الممتدة من الجزائر غربا إلى بجاية شرقا، وكتامة وعجيسة وهوارة مضاربها منطقة جيجل وبونة وقسنطينة والأوراس، وما وراء حدود إفريقية إلى طرابلس.[127]

إن الطرح الخلدوني القائم على المعيار القبلي هو طرح منطقي إلى أبعد الحدود، وهذا بالنسبة لمرحلة ما

---

[125]– **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هــ– 1998م، ص 256.

[126]– **المقدمة**، ص 65.

[127]– **المصدر نفسه**، ص: 203 - 204.

قبل القرن الخامس الهجري، إذ عرف المغرب في النصف الثاني من هذا القرن تغريبة بني هلال وبني سُليم،[128] الذي استعملهم المستنصر الفاطمي (427 – 487 هـ/1035- 1094م)، كرأس حربة في جسم الدولتين الزيرية والحمادية، بعد خروجهما عن طاعته، فهذه الهجرة غيرت من تراتبية الهرم الديموغرافي للمغرب الأوسط، باعتبارها عنصرا إثنيا جديدا زاحم بعض القبائل البربرية في مناطق استقرارهم، غير أن ابن خلدون لم يهمل ذلك أيضا؛ بل وضح لنا مواطن انتشار القبائل العربية في المغرب الأوسط في فترة القرن 6 هـ/12م في المنطقة الممتدة من بونة شرقا إلى ما وراء تلمسان غربا إلى الصحراء جنوبا.[129]

ولا بأس أن نتوقف مليا مع مصطلح المغرب الأوسط وحدوده في التراث التاريخي عند ابن خلدون، باعتباره الأكثر وضوحا من المصادر التاريخية الأخرى، فإلى أي حد استطاع ابن خلدون أن يضع حدودا واضحة للمغرب الأوسط من جهة الشرق والغرب والجنوب، بعد أن بين لنا مناطق انتشار القبائل البربرية والعربية داخل هذا المجال؟

إذا كان مفهوم الكيان الجغرافي عند أغلب المؤرخين يستند إلى الأرض والسكان؛ فإن الحدود الجغرافية للمغرب الأوسط لا تتحكم في رسمها القوى السياسية التي سيطرت عليه؛ بقدر ما تحدده العناصر الإثنية التي تسكنه، ومجال المغرب الأوسط مجال متغير-كما أسلفت- مادامت هناك قبائل بربرية دائمة الترحال، وفي المقابل هناك قبائل مستقرة لا تعرف حياة الترحال تلك، ومن المعلوم أن المغرب الأوسط في الفترة الوسيطة قد عرف هجرات عديدة، من عرب وأقوام أخرى، لكن العنصر الأصلي لم يندثر، بل امتزج مع تلك العناصر الوافدة وتلاحم.

وفرضا إذا اعتمدنا في التحديد الجغرافي للمغرب الأوسط على الطرح السياسي؛ فإنه لا وجود لهذا الكيان في العهد الموحدي، باعتبار أن المغرب ككل يخضع لسلطة مركزية واحدة، إلا أن المغرب الأوسط ظل موجودا في تلك الفترة، فلم يدخله ابن حمادة البرنسي كما نقل عنه ابن عذاري اعتباطا ضمن أقاليم المغرب، بل بعين المؤرخ الذي يعي بوضوح أن السلطة السياسية الموحدة لا تلغي وجود كيان جغرافي قائم بذاته بمجرد أنه بعيد عن السلطة المركزية وكرسي الملك.

وإذا اتبعنا الطرح السياسي في عصر انقسام المغرب إلى كيانات مستقلة: السلطنة الحفصية، والإمارتين

[128]– بنو هلال نسبة إلى هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية، أنظر: ابن سلام: **كتاب النسب**، تحقيق مريم محمد خير الدرع، بيروت: دار الفكر، 1410هـ- 1989م، ص 263، الحازمي: **عجالة المبتدى وفضالة المنتهى في النسب**، تحقيق عبد الله كنون، ط 1، القاهرة : دار الأفاق العربية، 1422هـ- 2002م، ص 172.

وبنو سليم نسبة إلى سليم بن منصور بن عكرمة من قيس عيلان المضرية، أنظر: ابن سلام: **المصدر السابق**، ص 253، الحازمي: **المصدر السابق**، ص 109، وقد اختلف المؤرخون المعاصرون لهذه التغريبة ومن جاء بعدهم وحتى الباحثون المعاصرون حول دور بني هلال وبني سليم في إسقاط حضارة القيروان، ومدى تحملها مسؤولية الانحطاط الذي آل إليه المغرب الإسلامي بعد القرن 5 هـ/11م، أنظر: جورج مارسيه: **بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة محمود هيكل، الإسكندرية : منشأة المعارف،1991م، ص: 221-246، عمارة علاوة: **الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي**، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية -جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، عدد 4، أكتوبر،2004 م، ص 31- 75، مصطفى أبو ضيف: **القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين والمرينيين**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982م، ص 59-64، عبد الوهاب بن منصور: **قبائل المغرب**، الرباط: المطبعة الملكية، 1388هـ- 1968م 1/ 412-423.

[129]– راجع عن تمركز القبائل العربية في المغرب الأوسط: ابن خلدون: **العبر**، 6/ 3- 129.

الزيانية والمرينية؛ فإن المغرب الأوسط تجلت حدوده بوضوح عندما بلغت الإمارة الزيانية أقصى اتساع لها، إذ امتدت من نهر ملوية غربا إلى بجاية وقسنطينة شرقا، وجنوبا الصحراء ومن الجنوب الغربي إقليم فيجيج،[130] ومن الجنوب الشرقي بلاد مصعب الإباضية.[131]

هذا في فترة قوة بني عبد الواد؛ أما في مرحلة ضعفهم المتزامنة مع التدخل المريني في الغرب والتدخل الحفصي في الشرق فإنه يحق لنا أن نطرح السؤال الآتي: هل ألغى الجغرافيون والمؤرخون حينها وجود المغرب الأوسط ككيان جغرافي بشري وكمصطلح دلالي؟

فمن غير المعقول أن نعتمد الطرح السياسي كمعيار نحدد به جغرافية المغرب الأوسط، لأن المغلوب يبقى العنصر السائد في مجاله الجغرافي، ولا يتبع الغالب إلا ولاءً أو ضعفا، ولهذا بالرغم من فترات القوة والضعف التي انتابت المغرب الأوسط، فقد ظل موجودا أرضا وشعبا بحدوده الشرقية والغربية، دون أن تكون له سلطة سياسية موحدة، فالشرق –وضمنه منطقة بجاية– خاضع لسلطة لا مركزية في أغلب الأحيان، بل اعتبرها ابن خلدون بمثابة الثغر الغربي لإفريقية الحفصية ودرعا واقيا لهم من هجمات الزيانيين،[132] أو كما يقول الحسن الوزان[133] واصفا لهذا الوضع: "كان إقليم بجاية موضوع نزاع مستمر؛ يتبع تارة سلطة ملك تونس، وسلطة ملك تلمسان أخرى".

أما الغرب فهو خاضع لسلطة مركزية يتزعمها بنو عبد الواد أحد فروع قبيلة زناتة البربرية، وها هو العمري يتحدث عن المغرب في عصر طغت عليه سيطرة بني مرين، لكنه لا يتناسى مجال المغرب الأوسط في هذا الظرف؛ ويقول عنه في سياق الحديث عن إفريقية الحفصية: "وتدلس آخر مدنها مما يلي المغرب الأوسط".[134]

أما فقيه بجاية وقاضيها أبو العباس الغبريني (تـ 704 هـ/ 1304م) فيؤكد أن مصطلح المغرب الأوسط ما زال متداولا في العهد الحفصي لبجاية، ففي ترجمته لأبي محمد عبد الحق بن ربيع الأنصاري البجائي الأندلسي الأصل (تـ 695 هـ/ 1295م) يقول: "لم يكن في وقته بمغربنا الأوسط مثله"،[135] وهذا خير دليل على استمرارية الشهود الحضوري للمغرب الأوسط، ككيان بشري جغرافي، وكمصطلح له دلالته لدى المنتسبين إليه، ولدى المهتمين بأخباره والمؤرخين لأحداثه، كما أن الفقرة المثبتة أعلاه تفيدنا بشيء قد لا ينتبه له الكثير من الباحثين؛ ألا وهو بداية الشعور بالانتماء القومي الوطني كما تدل عليه كلمة "مغربنا الأوسط".

---

[130]- الونشريسي: **المعيار المعرب**، 2 / 214- 217، الوزان: **وصف إفريقيا**، 2/ 133 – 134.

[131]- Atallah Dhina : ***Le Royaume abdelouadide a l'epoque d'Abou Hammou Moussa I^{er} et d'Abou Tachfin I^{er}***, Alger : ENAL- OPU, p19.

[132]- **العبر**، 6 /699 – 700،

Dominique Valerian : ***Frontières et territoire dans Maghreb de la fin du Moyen Age les marches occidentales du sultanat hafside***, Correspondances, N° 73, nov 2002- fév 2003, p 5.

[133]- **المصدر السابق**، 1/ 31.

[134]- **مسالك الأبصار**، ص51.

[135]- **عنوان الدراية**، ص 88.

ومن هنا كان الحسم في اختيار المراد بمفهوم ومصطلح "المغرب الأوسط" ضرورة ملحة قبل الشروع في دراسة تفاصيل الموضوع الذي نحن بصدده؛ وإننا في ظل المعطيات التي قررتها سلفا لا نقصد بالمغرب الأوسط سوى الجزائر بحدودها الحالية الشرقية والغربية؛ من بونة شرقا إلى ما وراء تلمسان غربا إلى الصحراء جنوبا، والتي تمتد حتى صحراء توات، والتي عبر عنها الونشريسي بأنها قصور تنتمي لصحراء المغرب الأوسط،[136] وكذا إقليم فيجيج،[137] وذلك تساوقا مع الشعور القومي الوطني لفقيه بجاية ومؤرخها أبي العباس الغبريني.

ب - المجال الزمني (588-927 هـ/1192 -1520 م)والقوى السياسية المتغيرة

إن المجاعات والأوبئة وكأي ظاهرة تاريخية لا يمكن دراستها إلا بحصرها في مجال زمني يستحسن أن يكون من الأمد الطويل، وذلك حتى يتسنى لنا تتبع هذه الظاهرة ببطء، ودراستها في مجال المغرب الأوسط عبر فترات زمنية مختلفة، وعلى خلاف أغلب الدراسات التي يكون فيها المجال الزمني لأي ظاهرة مدروسة تتحدد بدايته ونهايته بحدث سياسي، قد يكون بسقوط دولة أو قيامها، أو بفترة حكم جديدة لخليفة ما، فإنه ارتأينا في هذه الدراسة وتساوقا مع طبيعة الموضوع -دراسة أزمتي الجوع والوباء في المغرب الأوسط- أن تكون بداية هذا الزمن والذي حددناه بأواخر القرن 6 هـ/12م مقرونة بمجاعة ووباء شديدين عرفتهما بجاية سنة 588 هـ/1192م،[138] في حين ارتبطت نهايته والتي حددناها ببداية ق 10 هـ/16م بوباء وقع في تلمسان سنة 927 هـ/ 1520م.[139]

ولا شك أن المغرب الأوسط طيلة هذا الزمن الطويل الذي امتد أكثر من ثلاثة قرون، قد عرف فيها تغيرات سياسية وتقلبات كان لها الأثر المباشر على بنية السكان وتطورهم، فما هي أهم الأوضاع التي عاشها هذا المجال الجغرافي -الذي اعتبرناه في هذه الدراسة الجزائر الحالية-؟ وما هي أبرز مظاهرها؟

فإذا كان المؤرخون قد أجمعوا على أن بداية الانهيار الذي عرفته الدولة الموحدية مرتبط بوقعة العقاب الشهيرة سنة 609 هـ/ 1212م؛[140] فإن المغرب الأوسط قد عرف بداية النهاية للتبعية الموحدية قبل ذلك بقليل؛ في أواخر القرن السادس الهجري نتيجة ما خلفته غزوة بني غانية[141] المايورقيين على المغرب الأوسط

---

[136]- **المعيار المعرب**، 2/ 232.

[137]- **المصدر نفسه**، 2 / 214- 217، الوزان: **وصف إفريقيا**، 2 / 133 – 134.

[138]- ابن عذاري المراكشي : **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 181.

[139]- ابن القاضي: **لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد**، تحقيق محمد حجي، ضمن: **موسوعة أعلام المغرب**، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1417هـ- 1996، 2 / 842.

[140]- محمد زنيبر: **أزمة الحكم الموحدي في النصف الأول من القرن السابع الهجري- الثالث عشر الميلادي**، ضمن: **الإسطوغرافيا والأزمة**، تنسيق عبد الأحد السبتي، ص 9 .

[141]- بنو غانية: وغانية اسم لجدتهم التي زوجها جدهم لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وأبوهم إسحاق بن محمد بن علي الصنهاجي الملثمي صاحب ميورقة ومالقة ويابسة، فلما توفي إسحاق سنة 580 هـ/1184م خلفه بنوه وهم أربعة: أبو عبد الله محمد الذي توجه إلى الأندلس فأعطاه الموحدين مدينة دانية، وأبو محمد عبد الله وهو أصغرهم الذي تملك ميورقة إلى سنة 599 هـ/ 1202م، حيث أنتزعها منه الناصر الموحدي بعد أن قتله، أما أبو زكرياء يحيى وأبو الحسن علي فهما اللذان خرجا إلى إفريقية، أنظر: المراكشي: **المعجب**، ص 189- 192، ابن خلدون: **العبر**، 6 / 390-391، مقديش: **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988م، 1 / 503،

عن طريق البحر، حيث كانت وجهتهم الأولى مدينة بجاية بعد أن استنجد بهم أعيانها وأمراءها السابقين من بني حماد الرافضين للتبعية الموحدية، ومما ساعد بنو غانية في ذلك أيضا الدعم الذي لاقوه من بني هلال، مستغلين غياب والي هذه المدينة أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن، فتم الاستيلاء عليها في يوم 6 شعبان 580 هـ/1184م.[142]

بعد هذا النصر ترك علي بن إسحاق أخاه يحيى بن غانية على بجاية، وتوغل هو في باقي مناطق المغرب الأوسط، فاستولى على جزائر بني مزغنة ثم مدينة مليانة وأشير والقلعة، ثم رجع إلى بجاية فأخذ من أهلها البيعة مقيما لدعوة بني العباس،[143] ولاشك أن هذا التوغل السريع والانتصارات التي حققها بنو غانية في المغرب الأوسط، تدل لا محالة على بداية تفكك الحكم الموحدي في هذه الرقعة.[144]

وبعد سلسلة الانتصارات هذه حاول بنو غانية الاستيلاء على مدينة قسنطينة، فحاصروها لكنهم فشلوا في اقتحامها فغيروا وجهتهم إلى تونس وبلاد الجريد، وفي هذه الأثناء وصل خبر هذه الفتنة إلى الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، فتحرك بجيش قوي من مراكش سنة 583 هـ/1187م، واستطاع أن يحرر مدينة بجاية وقابس وبلاد الجريد كله، فرجع المنصور بعدها إلى مراكش دون أن يقضي تماما على فلول بني غانية، وبعد ذلك بقليل توفي المنصور سنة 595 هـ/ 1299م، وولي بعده ابنه الناصر.[145]

أعاد يحيى بن غانية أخو إسحاق الهجوم على بجاية سنة 599 هـ/1202م وبسط نفوذه عليها لمدة سنتين، حتى أستردها منه الناصر الموحدي (595-610 هـ/1198- 1213م) سنة 601 هـ/1204م، وجميع بلاد إفريقية،[146] ثم قفل راجعا إلى بلاد المغرب سنة 603 هـ/1206م، بعد أن ولى على إفريقية أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي أحد أصحاب المهدي، وترك معه جماعة من القوات الموحدية، أما بنو غانية فقد تحركوا من جديد نحو إفريقية فاعترضوا طريق عبد الواحد بن أبي حفص فهزمهم في معركة شبرو أواخر سنة 604 هـ/1207م.[147]

وبعد هذه الهزيمة أدرك بنو غانية قوة خصومهم، فقرروا أن يوجهوا أنظارهم إلى الغرب صوب تلمسان؛

Zbiss Slimane- Mostafa **:** ***Considérations sur la tentative de restauration du Pouvoir Almoravide en Maghreb central et Oriental***, dans : ***Actas del II Cologuia Hispano- Marroqui De ciencas Historicas " Historia, ciencia y sociedad "***, Granada, 6-10 Novembre De 1989, p 31-32.

[142]- المراكشي: **المعجب**، ص 192- 194، ابن جبير: **رحلة ابن جبير** المسماة: **تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار**، الجزائر: موفم للنشر، 1988م، ص 312، العروسي المطوي: **السلطنة الحفصية: تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1406هـ- 1986م، ص 12، 22- 23، توفيق مزاري عبد الصمد: **الجهاد البحري في عهدي المرابطين والموحدين**، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، 1428- 1429هـ/ 2007 – 2008، ص 97 – 99، ع. سعدي: **توحيد المغرب في عهد الموحدين**، ضمن: **كتاب تاريخ إفريقيا العام**، إشراف.ج.ت نياني، اليونسكو، باريس ، 1980م، 4 / 64-63.

[143]- ابن عذاري: **البيان المغرب(الموحدي)**، ص 175- 176، ابن خلدون، **المصدر السابق**، 5 / 507.

[144]- عبد الله العروي : **مجمل تاريخ المغرب**، ط 2، المركز الثقافي العربي، 2000م، ص170.

[145]- ابن قنفد: **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس: الدار التونسية للنشر، 1968م، ص 103- 104.

[146]- الزركشي: **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق محمد ماضور، ط 2، تونس: المكتبة العتيقة، 1996م، ص 17- 18، صالح بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي: دراسة اجتماعية واقتصادية**، تونس: منشورات كلية الآداب- جامعة تونس، 2006، ص 64.

[147]- **رسائل موحدية: مجموعة جديدة**، تحقيق ودراسة أحمد عزاوي، ط1، القنيطرة- المملكة المغربية: منشورات كلية الآداب، جامعة ابن طفيل، 1416هـ- 1995م، الرسالة 59، 1 / 246- 249.

خاصة وأنهم وجدوا الدعم هناك من قبائل زناتة فدخلوا تيهرت التي حاول والي تلمسان أبو عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن سنة 605 هـ/1208م إنقاذها، لكنه مني بشر هزيمة، ليكمل بنو غانية السير حثيثا نحو تلمسان، فحاصروها لكن استعصى عليهم دخولها لمناعتها، واكتفوا باقتحام بعض المدن والقرى المحيطة بها.[148]

ولما وصلت الأنباء مسامع الخليفة في مراكش، بادر بتعين واليا جديدا على تلمسان، ألا وهو أبو زيد ابن يوجان وعقد له على جيش قوي لمقاتلة بني غانية ومطاردتهم، مما اضطر هؤلاء إلى التراجع نحو إفريقية ليجدوا عبد الواحد الحفصي الهنتاتي لهم بالمرصاد، أين قضى على فلولهم بالقرب من جبل نفوسة سنة 606 هـ/ 1212م.[149]

إن هذه الانتكاسة التي عرفها المغرب الأوسط جراء الحروب الدائرة بين السلطة المركزية، التي يمثلها الموحدون مع بقايا المرابطين، من بني غانية قد أفضت إلى خراب عمراني واقتصادي واسعين في المغرب الأوسط الذي انطلقت منه هذه الفتنة، إذ تضررت مدن وبوادي كثيرة نتيجة لذلك، كبجاية وتيهرت ومتيجة وشلف ومرسى الدجاج وأرشكول وقصر عجيسة وحمزة وما إلى ذلك.[150]

وما كاد الموحدون أن يتخلصوا من خطر بني غانية في العدوة المغربية حتى تعرضوا في الأندلس لهزيمة نكراء أمام النصارى الإسبان، فكانت معركة العقاب الشهيرة سنة 609 هـ/1212م البداية الفعلية لانهيار هذه الدولة، وتفكك عرى قوتها ووحدتها على حد قول صاحب الذخيرة: "..إلى أن كانت وقعة العقاب التي آذنت لدولتهم بالذهاب"،[151] نتيجة ما خلفته هذه الهزيمة من نتائج وخيمة على الأندلس خاصة والمغرب عامة، فكان الخراب الاقتصادي والعمراني من جهة، ومن أخرى توالي المجاعات وسنوات القحط والجفاف وغلاء الأسعار،[152] والانهيار الديموغرافي كنتيجة لذلك، خاصة مع ما فقده الموحدون من قوى بشرية مقاتلة في تلك المعركة، فعبر ابن الخطيب[153] عن ذلك قائلا: "وفي صفر سنة تسع وستمائة كانت عليه (أي الناصر الموحدي)، وعلى المسلمين الهزيمة العظمى التي فني فيها أهل المغرب والأندلس الشهيرة بكائنة العقاب"، ويفصل آخر قائلا: "..فوجدوا المغرب خاليا قد باد أهله ورجاله، وفني خيله وحماته وأبطاله، وقتلت قبائله وأقياله، قد استشهد الجميع في غزوة العقاب فأقفرت بلادهم فعمرها البوم والسباع والذئاب".[154]

لم تعرف الدولة الموحدية فترة ما بعد العقاب الاستقرار الذي عاشته من قبل، لأنها شهدت سلسلة من الثورات والفتن الداخلية فانعدم الأمن، وامتنع الناس عن دفع الضرائب، وما عزز هذا الضعف أكثر التناحر بين

[148]– الحميري: **الروض المعطار**، ص 127.

[149]– **رسائل موحدية**، 1 / 249 - 254.

[150]– ابن خلدون: **العبر**، 7 / 161.

[151]– مجهول: **الذخيرة السنية في الدولة المرينية**، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر: 1920م، ص 22.

[152]– ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 252، 266-267، محمد المغراوي: **الموحدين وأزمات المجتمع** ،ط1، الرباط: جذور للنشر، 2006، ص 164- 173.

[153]– **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق : البشير الفورتي، تونس: مطبعة التقدم الإسلامية، 1329هـ–1911، ص 122.

[154]– مجهول: **الذخيرة**، ص 24.

أبناء البيت الحاكم حول السلطة التي آلت في النهاية إلى المأمون (624-629 هـ/1226-1231م)، مستعينا في ذلك بالنصارى الأسبان، و لم يكتف بذلك بل عمد إلى نبذ المذهب التومرتي، واعتبره مسلكا للبدعة،[155] لكسب ولاء فقهاء المالكية، وتعزيز شرعية حكمه بهم.

إن هذه الظروف التي عاشها المغرب- مع أسباب أخرى[156] لا يسعنا الدخول في تفاصيلها- أدت إلى ظهور إرهاصات تفكك الدولة الموحدية، وانحسار مناطق نفوذها في بعض جهات المغرب، وأول مبادرة للانفصال كانت من الشرق، حيث استغل أبو زكريا الحفصي تلك الظروف المتردية وأعلن استقلاله بإفريقية عن سلطة مراكش سنة 623 هـ/1226م، واتخذ من تونس عاصمة لملكه واسقط المأمون الموحدي من الخطبة واكتفى بالدعاء للمهدي فقط.[157]

لم يعد الشرق منذ هذه الحادثة تابعا للدولة الموحدية إلا اسميا، لا سيما حين بويع أبو زكريا الحفصي البيعة الأولى سنة 626 هـ/1228م، لينطلق بعدها في تنفيذ مشروعه التوسعي نحو الغرب، فاستولى على قسنطينة يوم 26 شعبان 626 هـ/1228م، ثم ضم بجاية وجزائر بني مزغنة في نفس السنة أيضا،[158] ثم بويع البيعة الثانية سنة 634 هـ/1236م، وذكر اسمه في الخطبة وتلقب بلقب الإمارة، وبعد سنتين من ذلك تحرك من جديد لإعادة ضم المغرب الأوسط إلى نفوذه، فتحرك إلى بجاية وولى عليها ابنه يحيى، واستولى على الجزائر كذلك وولى عليها واليا من قبله، وبعدها ارتحل إلى تلمسان سنة 639 هـ/ 1241 م، فدخلها وأخذ البيعة من صاحبها آنذاك يغمراسن بن زيان.[159]

وبعد كل هذه الانتصارات التي حققها أبو زكرياء انضوت جل أراضي المغرب الأوسط تحت لواء السلطنة الحفصية، التي تحولت فيما بعد إلى خلافة بإعلان ولي العهد أبي عبد الله بن أبي زكرياء نفسه خليفة وتلقب بالمستنصر بالله، وجاءته البيعة من أقطار عديدة حتى من الحجاز.[160]

لقد عمرت السلطنة الحفصية قرابة ثلاثة قرون وامتد سلطانها حتى مدينة الجزائر في بعض الأحيان، حيث كان ثغر بجاية والمدن التابعة له كقسنطينة وبونة والجزائر والزاب محل نزاع مستمر بين الحفصيين والزيانيين يخضع دائما للغالب منهما،[161] لكن بالرغم من البعد الجغرافي لإقليم بجاية عن السلطة المركزية استطاعت

155- ابن خلدون: **المصدر السابق**، 6 / 594، المنوني: **ورقات عن حضارة المرينيين**، ط 2، الرباط: منشورات كلية الآداب، 1416هـ-1996، ص 11- 14، محمد زنيبر: **أزمة الحكم الموحدي**، ص 9 - 23.

156- راجع تفاصيل ذلك في: عز الدين عمر موسى: **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي**، ط1، بيروت: دار الشروق، 1403هـ-1983، ص 75 - 118، محمد زنيبر: **المرجع السابق**، ص 9 - 23، المنوني: **المرجع السابق**، ص 11 - 14.

157- الزركشي: **تاريخ الدولتين**، ص 23 - 24.

158- ابن قنفد: **الفارسية**، ص108.

159- الشماع: **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق الطاهر المعموري، تونس: الدار العربية للكتاب، 1984م، ص 58 - 59، الزركشي: **المصدر السابق**، ص 28، ابن خلدون : **العبر**، 6 / 609 - 610.

160- ابن خلدون: **المصدر السابق**، 6 / 651،626، عبد الله العروي : **مجمل تاريخ المغرب**، ص 195 - 196.

161- **المصدر نفسه**، 6 / 619 - 620، الوزان: **وصف إفريقيا**، 1/ 31.

الدولة الحفصية أن تكسب الولاء من حكامه في أغلب مراحلها التاريخية، إذ اعتبر بعض المؤرخين كابن خلدون مدينة بجاية بمثابة الثغر الغربي[162] للسلطنة الحفصية، لذا كان يختار لتولى شؤونها الشخصيات البارزة، من الأمراء أبناء السلاطين أو كبار القادة، سواء من مشيخة الموحدين أو من وجهاء بعض القبائل البربرية، ونفس الوضع زمن الولاة المرينيين أيام تغلبهم على المغرب الأوسط،[163] ممن لهم القدرة على مجابهة الخطر الزياني، الذي كان يهدد هذه المدينة مرارا، ومن جهة أخرى وفي محاولة لكسب القبائل العربية أقطعت السلطة الحفصية وطن حمزة لداود بن هلال زعيم زغبة بعد أن اعترف بشرعية حكمها،[164] وجعلته مع قبيلته كخط متقدم يدافع عن كرسي المملكة المركزي ضد المناوئين والأعداء من جهة الغرب.

كما لا ننسى طموحات المرينيين الذين اعتلوا سدة الحكم في مراكش بعد سقوط دولة الموحدين سنة 668 هـ/1269م في إعادة توحيد المغرب تحت رايتهم، فاستولوا على المغرب الأوسط وإفريقية سنة 748 هـ/1347م، لكن هزيمتهم أمام الحفصيين في إفريقية حال دون تحقيق أهدافهم السياسية.[165]

إن الامتيازات التي قدمت لولاة بجاية من طرف سلاطين تونس، جعلتهم يطمحون إلى الاستقلال بهذا الإقليم عن السلطة المركزية، فعرفت السلطنة عدة حركات انفصالية أبرزها تلك التي قام بها أبو زكريا بن أبي إسحاق سنة 684 هـ/1285م وتلقب على إثرها بـ "المنتخب لإحياء دين الله"، وبذلك انقسمت السلطنة إلى دولتين: الأولى عاصمتها تونس والأخرى بجاية،[166] وفي مرات عديدة كانت تنطلق مشاريع إعادة توحيد السلطنة من بجاية، نظرا لأهميتها وقوة أمراءها.

إن أجزاء المغرب الأوسط الخاضعة للسلطنة الحفصية قد عرفت تقلبات سياسية متعددة بفعل الحروب المتوالية عليه، سواء على المستوى السياسي الرسمي حيث كانت الحروب سجالا بين الحفصيين والزيانيين، وبين السلطة الحفصية المركزية في تونس أنفسهم، أو على نطاق القوى البشرية المختلفة بسبب التناحرات القبلية البينية أو بين بعض القبائل والسلطة، إلى أن دخل طرف جديد ساحة المعركة، وتوج ذلك بسقوط بجاية في يد الإسبان سنة 915 هـ/1509م،[167] وينتهي بذلك العهد الحفصي لتدخل بجاية والمدن المحيطة بها والقريبة منها عهد جديد عقب السيطرة العثمانية عليها سنة 962 هـ/1554م.

---

[162]- **المصدر نفسه**، 6 / 699 - 700،

Dominique Valerian **:** ***Frontières et territoire dans Maghreb***, op. cit, p 5-6.

[163] مسعود بريكة: **النخبة والسلطة في بجاية الحفصية**، مذكرة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2008– 2009، ص 60 - 65.

[164] ابن خلدون: **العبر**، 6 / 64.

[165] راجع تفاصيل ذلك في: الحريري: **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (618– 869 هـ/1221 – 1464م)**، ط1، الكويت: دار القلم، 1405هـ– 1985م، ص 108- 153، العروي : **مجمل تاريخ المغرب**، ص 203.

[166]- ابن خلدون: **المصدر السابق**، 6 / 699 - 700 ، المطوي: **السلطنة الحفصية**، ص 285 - 342.

[167]- أنظر عن الاحتلال الإسباني لبجاية:

Ferauo. (Ch. L) **:** ***Conquête de Bougie par les Espagnols d'après un manuscrit arabe***, Revue Africaine, N°**:** 67-1968, p 245-256.

إذا كان شرق المغرب الأوسط في أغلب مراحل الفترة الممتدة ما بين القرنين السابع والعاشر الهجريين تابعا للسلطة الحفصية؛ فإن الغرب منه قد خضع لسلطة قبيلة زناتة التي تحولت إلى إمارة ذات وزن في تاريخ وحضارة الغرب الإسلامي، فبالموازاة مع انتصارات الحفصيين على الموحدين في إفريقية وشرق المغرب الأوسط على عهد السلطان أبي زكرياء الحفصي (625- 647 هـ/1227- 1249م)، فإن الجهة الغربية للمغرب الأوسط شهدت هي الأخرى بوادر نشأة إمارة جديدة بزعامة بني عبد الواد، أحد بطون زناتة المذكورة.

لقد ظهر بنو عبد الواد أول أمرهم كقوة معارضة للدولة الموحدية، لكنهم ركنوا في النهاية إلى طاعتها وانضووا تحت سلطتها، وأصبحت كل بطون زناتة من أخلص القبائل التي اعتمد عليها الموحدون في خدمة مشروعهم وحماية بيضتهم من الخصوم والمناوئين، لمزاياها المتعددة من وفرة العدد وتمرسها في القتال لكثرة ما خاضت من الحروب، ومكافأة لها على تلك الخدمات أقطع الموحدون لبني عبد الواد وبني راشد وبني توجين وغيرهم المناطق التي غلبوا عليها بضواحي تلمسان، فيما بين البطحاء شرقا ونهر ملوية غربا.[168]

وفي فترة ضعف الموحدين عاش بنو عبد الواد فترة عصيبة وكاد نفوذهم أن يزول، بخلاف الحفصيين الذين استغلوا هذا الضعف لصالحهم، فبرزت قوتهم وزاد نفوذهم -كما سلف الذكر- فكان سبب تدهور نفوذ بني عبد الواد هو سوء تصرف ومعاملة والي تلمسان من قبل الموحدين -أبا سعيد عثمان بن يعقوب- لمشايخ بني عبد الواد وسجنهم، فقام عليه قائد الحامية إبراهيم اللمتوني فتقبض عليه وأطلق سراح مشايخ بني عبد الواد ونقض طاعة الموحدين، لأنه يبتغي بذلك إحياء الدولة اللمتونية المرابطية.[169]

لم يكتف إبراهيم اللمتوني بذلك بل دبر مؤامرة أراد فيها القضاء على مشايخ بني عبد الواد، فتصدى له كبير قومهم جابر بن يوسف فقضى عليه، واستطاع أن يضع حدا لهذه التجاوزات بفضل حنكته السياسية، وهذا ما رشحه لأن يصبح أمير قومه بعد أن تلقى البيعة من بني عبد الواد، ثم أرسل بالولاء والطاعة للخليفة المأمون الموحدي بعد أن اشتكى له سوء تصرف الوالي، فعمد الخليفة الموحدي إلى تعيين جابر بن يوسف حاكما شرعيا على إقليم تلمسان، وإقليم بني راشد ومدنا أخرى ماعدا ندرومة سنة 627 هـ/1229م، فكان هذا التعيين بادرة لظهور إمارة بنو عبد الواد كولاية مستقلة عن مراكش على حد قول ابن خلدون "وكانت هذه الولاية ركوبا إلى صهوة الملك الذي اقتعدوه من بعد".[170]

بدأ الأمير جابر بن يوسف يوطد أركان هذه الإمارة ويوسع في رقعتها، فأذعنت لطاعته أغلب بطون بني عبد الود، إلا أهل ندرومة الذين رفضوا مبايعته فحاصرهم محاولا اقتحام هذه المدينة حتى هلك وهو محاصر لها، فخلفه ابنه الحسن بن جابر الذي حكم مدة صغيرة (ستة أشهر) ثم تنازل عن الحكم لعمه عثمان بن يوسف، هذا الأخير الذي أساء السيرة والمعاملة حتى عزلوه، وعينوا مكانه أبو عزة زيدان بن زيان الذي بايعته كل قبائل

---

[168]- ابن خلدون: **العبر**، 7 / 150- 151، 159.

[169]- ابن خلدون: **المصدر السابق**، 7 / 151- 152، عبد العزيز فيلالي: **تلمسان في العهد الزياني** 1 / 15، بوزياني الدراجي: **نظم الحكم في دولة بني عبد الواد**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993م، ص 24 - 25.

[170]- **المصدر نفسه**، 7/ 152- 153، فيلالي : **المرجع السابق**، 1 / 15، بوزياني الدراجي: **المرجع السابق**، ص 24 - 25.

بني عبد الواد، إلا قبيلة بنو مظهر، فحاربهم حتى توفي في معركة خاضها ضدهم سنة 633 هـ/1235م، وبمقتل الأمير زيدان بدأ نفوذ الدولة الموحدية في الجزء الغربي للمغرب الأوسط يتلاشى تدريجيا، و لم يعد تابعا لها إلا اسميا، خاصة بعد أن تولى الحكم الأمير يغمراسن بن زيان سنة 633 هـ/1235م، الذي أبقى الدعاء والخطبة للموحدين وذكر خلفائهم على الدرهم والدينار.[171]

ويعزى إلى الأمير يغمراسن بن زيان الفضل في التأسيس الفعلي للإمارة الزيانية، كسلطة مركزية في المغرب الأوسط نظرا للجهود المتضافرة التي بذلها، فعمل على استمالة القبائل البربرية والعربية منها، وربط علاقات وطيدة مع الخليفة الموحدي الرشيد، وفضلا عن ذلك اهتم بتنظيم شؤون مملكته، فكون جيشا قويا وشكل الوزارة والديوان والكتاب وغيرها من النظم التي تقوم على دعائمها أي الدولة.[172]

وقد عمرت دولة بني عبد الواد أيضا زهاء ثلاثة قرون، عرفت خلالها فترات قوة حيث استطاعت أن توسع نفوذها السياسي، وتملك كل أجزاء المغرب الأوسط على حساب ممتلكات الدولة الحفصية في الشرق، بل تمكنت أيضا في عصر قوتها من الوصول إلى فاس عاصمة المرينيين واحتلالها،[173] فمراحل قوة هذه الدولة لم تغب عن المشهد السياسي؛ تماما مثل فترات الضعف التي انتابتها خاصة أنها تجابه خطرين: الخطر الحفصي من الشرق[174] والخطر المريني من الغرب.

وأهم مراحل الضعف التي عرفتها الدولة الزيانية فترة الحصار المريني على تلمسان سنة 698 هـ/ 1298م، الذي دام قرابة التسع سنوات، شيد خلالها المرينيين مدينة المنصورة واتخذوها عاصمة لهم في المغرب الأوسط، بعد أن احتلوا العديد من مدنه، فكادت الدولة الزيانية في هذه الفترة أن تمحى من الخريطة السياسية للمغرب لولا حصانة مدينة تلمسان من جهة والظروف التي مر بها الحكم المريني عقب وفاة يوسف بن يعقوب المريني من جهة أخرى، حيث اضطر المرينيون إلى فك هذا الحصار سنة 707 هـ/1307 م والعودة إلى المغرب، لمواجهة تلك الأوضاع التي اعترضت مشروعهم التوسعي،[175] وبالرغم من هذه الانتكاسات استطاعت الدولة الزيانية أن تحافظ على كيانها السياسي طول هذه المدة، لكنها لم تستمر طويلا أمام الخطر الإسباني لتنتهي

---

[171]- ابن خلدون: **العبر**، 7 / 153- 154، التنسي: **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، (طبع باسم **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**)، تحقيق محمود بوعياد، الجزائر: المكتبة الوطنية – المؤسسة الوطنية للكتاب، 1405هـ- 1985، ص 112-113، فيلالي : **تلمسان في العهد الزياني**،1 / 16.

[172]- **المصدر نفسه**، 7 / 162- 164.

[173]- تمكن بنو عبد الواد عدة مرات في احتلال المناطق الشرقية للمغرب الوسط التي كانت بيد الحفصيين، راجع تفاصيل ذلك في: بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي**، ص 72 – 76، أما فاس عاصمة المرينيين فقد تمكن بنو عبد الواد من احتلالها في عهد الخليفة أبي مالك عبد الواحد بن أبي حمو الثاني الذي تولى حكم تلمسان سنة 814 هـ/1411م فاحتلها ونصب عليها حاكما من قبله، أنظر: التنسي: **المصدر السابق**، ص 236 – 241.

[174]- تعرضت دولة بني زيان لتحرشات عديدة من طرف الحفصيين، راجع بخصوص ذلك: عبد الحميد حاجيات: **امتداد نفوذ الحفصيين إلى المغرب الأوسط**، ضمن: **الجزائر في التاريخ**، الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة- المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، 3/ 431 – 434، فيلالي: **المرجع السابق**، 1 / 69 - 74.

[175]- يحيى بن خلدون: **بغية الرواد**، 1 / 120- 121،

Atallah Dhina **:** ***Les Etats de l'Occident musulman aux*** XIII^{e}, XIV^{e} et XV^{e} siècles, Alger : ENAL - OPU, P 43.

صفحة التاريخ الوسيط بتغلب العثمانيين عليها سنة 962 هـ/ 1554م، بعد أن خلعوا آخر أمراءها "الحسن بن عبد الله الثاني".[176]

ولا شك في أن المغرب الأوسط في ظل هذه المتغيرات السياسية قد عاش فترات عصيبة، وسأحاول هنا أن أزيل العتمة على بعض جوانب تاريخه من خلال دراسة أزمتي الجوع والوباء؛ باعتبارهما من أهم الانتكاسات التي عرفها هذا الفضاء الجغرافي في الفترة مدار البحث، والتي كانت لها آثار سلبية على مجتمع المغرب الأوسط سواء على المستوى الاقتصادي، أو على المستوى الاجتماعي أو على مستوى الأفكار والرؤى والذهنيات.

---

[176]- عبد الحميد حاجيات: **خطر النصارى وانهيار الدولة الزيانية**، ضمن: **الجزائر في التاريخ**، 3/ 456 - 457.

الفصل الأول
أزمة الجوع والوباء في المغرب الأوسط

أولا: مقاربات حول مستوى المعيشة في المغرب الأوسط

ثانيا: المجاعات والأوبئة: قراءة في الأسباب

أولا: مقاربات حول مستوى المعيشة في المغرب الأوسط

يرتكز مستوى المعيشة في مجتمع المغرب الأوسط وكباقي المجتمعات الأخرى على الوضعية الاقتصادية السائدة، فيتحسن نسبيا في أوقات الرخاء ويتدنى في فترات الأزمات،[177] حيث المجاعات ونقص السلع الاستهلاكية وغلاء أسعارها إن وجدت، وقبل الحديث عن مثل هذه الأزمات، يمكن طرح التساؤل الآتي: ما هي مميزات المعيشة وما هي مستوياتها في مجتمع المغرب الأوسط خلال فترة البحث المدروسة؟

إذا كان التنظير لمستوى المعيشة في مجتمع ما يستوجب الوقوف على عدة معايير اقتصادية تتمثل في: مستوى الأسعار وقيمة الدخل الإجمالي والدخل الفردي والقدرة الشرائية ودرجة الغنى والفقر،[178] والتغذية؛[179] فإن الإسطوغرافيا التقليدية التي تؤرخ للمغرب الأوسط تقف عاجزة عن مسايرة مثل هذه المعطيات، فهي لا تمدنا إلا بمعلومات شحيحة ومبتورة السياق في كثير من الأحايين، كما أن الدراسات التاريخية الحديثة قد عزفت عن الاهتمام بمثل هذه الجوانب، ولا نسجل سوى بعض الإطلالات البسيطة في خضم الدراسات المنجزة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية على قلتها كذلك.[180]

إن المؤشر الأساس الذي يتحكم في مستوى المعيشة كما وضحه ابن خلدون هو قيمة "الدخل والخرج"؛ فكلما زادت قيمتهما عم الرخاء في البلاد وكلما نقصا كان الحال أسوء فيقول: "ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر"،[181] ويرى أيضا أن معيار التفاضل بين الأمصار أو المدن أو الممالك يكون "في كثرة الرزق لأهلها، ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة"، ومن جهة أخرى يبين لنا أن مستوى المعيشة في الأمصار الكبرى يكون أحسن من المدن والقرى "وما ذلك إلا لتفاوت الأعمال فيها"، وضرب مثالا بحال مدينة فاس التي اعتبرها أفضل وأحسن من حال مدينة المغرب الأوسط: تلمسان، وكذلك حال تلمسان مع وهران والجزائر، وحال وهران والجزائر مع غيرهما من المدن والقرى الصغيرة التي يسودها الفقر، إذ " أن أعمالهم لا تفي بضروراتهم".[182]

ويدعم ابن خلدون رأيه أيضا بأمثلة تنطلق من مستوى معيشة أصحاب المناصب الرفيعة في الدولة، وكيف تتفاضل بتفاضل المدن والأمصار والممالك، فذكر أن حال القاضي في فاس أحسن من حال القاضي في تلمسان، وحال القاضي في تلمسان أحسن من حال مثيله في باقي مدن المغرب الأوسط، وكذلك الحال

---

[177]– إبراهيم القادري بوتشيش: **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، ط1، بيروت: دار الطليعة، 1998م، ص210.

[178] – محمد عبد العزيز عجمية وإيمان عطية ناصف: **التنمية الاقتصادية – دراسة نظرية وتطبيقية**، الإسكندرية: كلية التجارة، قسم الاقتصاد، د.ت، ص 65، 83.

[179]– أندريه بورغيار: **الأنثروبولوجيا التاريخية**، ضمن كتاب : جاك لوغوف: **التاريخ الجديد**، ص 215.

[180]– من بين تلك الدراسات التي تناولت مستوى المعيشة في المغرب الأوسط: جودت عبد الكريم يوسف: **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين**، ص 425 – 432، صالح بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي**، ص 395 – 454.

[181]– **المقدمة**، ص 336.

[182]– **المقدمة**، ص 336.

بالنسبة لأصحاب المناصب الأخرى.[183]

كما اعتبر فئة الشحاذين والمتسولين الأنموذج الأمثل الذي يتضح من صورته التفاضل الكبير بين حالي فاس وتلمسان، فالمتسول في فاس أحسن من نظيره في تلمسان له أن يسأل الناس ثمن الأضحية وجميع أنواع المآكل والطعام والماعون واللباس، "ولو سأل سائل مثل هذا في تلمسان لاستُنكِر وعنِّف وزجر"، كدليل صريح يوضح البون الكبير في مستوى المعيشة بين فاس وتلمسان، وبين حال تلمسان وباقي مدن المغرب الأوسط الأخرى.[184]

ومن المعلوم سلفا أن المغرب الأوسط في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الهجريين كان خاضعا للدولة الموحدية التي دخلت طور الاحتضار السياسي، وهذه الأخيرة شهدت مجموعة من الأزمات والكوارث في الفترة المشار إليها؛[185] انعكست سلبا على الأوضاع الاقتصادية العامة، فتدنى بذلك مستوى المعيشة في المغرب الأوسط تحديدا وعموم المغرب، وهو الأمر الذي يستوجب الوقوف عنده بتأني لاحقا.

إن المغرب الأوسط عقب هذه الفترة عرف مرحلة جديدة من الحكم على إثر تشكل كيانات سياسية مستقلة اقتسمت عرش الموحدين، فانضوى الجزء الشرقي من المغرب الأوسط تحت سلطة الحفصيين متخذين من بجاية مقرا لحكمهم إلى جانب تونس، في حين كان الجزء الغربي منه خاضعا لسلطة الزيانيين الذين اتخذوا من تلمسان عاصمة لهم، دون أن ننسى الفترات التي مر بها المغرب الأوسط في ظل التبعية للمرينيين[186] كما أسلفنا الذكر.

فإذا كانت كل من بجاية وتلمسان حاضرتي المغرب الأوسط في الفترة مدار البحث فإننا سوف نحاول أن نتقصى أحوال المعيشة فيهما، وفي بعض المدن والقرى المحيطة بهما من خلال ما ورد في الإسطوغرافيا التقليدية.

أ- الأسعار في المغرب الأوسط

إن قيمة الأسعار تعد من المؤشرات الأساسية لمعرفة المستوى الحقيقي لمعيشة مجتمع ما، لكن من المؤسف أن المصادر لا تمدنا بمعلومات دقيقة حول الأسعار في الأوقات العادية بالنسبة لحواضر المغرب الأوسط (بجاية- تلمسان)، أو المدن والقرى المحيطة بهما بل تفصل الحديث عن قيمتها زمن الغلاء أو الرخاء المفرط.

فقد حدد لنا العمري عند وصفه لمملكة إفريقية في النصف الأول من القرن 8 هـ/14م قيمة الأسعار بها،[187] والتي تقارب أو توافق من دون شك قيمة الأسعار ببجاية نظرا للتبعية السياسية للحفصيين من جهة، وعلى أساس أن العمري اعتبرها "ثانية تونس في الرتبة والحال وجميع المعاملات والموجودات والأحوال"[188] من

---

[183]- **المصدر نفسه.**

[184]- **المصدر نفسه.**

[185]- راجع بخصوص ذلك: محمد زنيبر: **أزمة الحكم الموحدي**، ص9 - 23، محمد المغراوي: **الأزمات الطبيعية وانعكاساها على الدولة والمجتمع**، ضمن: **الموحدون وأزمات المجتمع**، ط1، الرباط: جذور للنشر، 2006م، ص 155- 193.

[186]- عبد الله العروي: **مجمل تاريخ المغرب**، ص 195- 206.

[187]- **مسالك الأبصار**، ص 52 - 53.

[188]- **المصدر نفسه**، ص 55.

جهة أخرى.

أما عن الأسعار في تلمسان فمن النادر أيضا أن تشير المصادر إلى قيمتها سوى بعض الشذرات اليسيرة، غير أن القلقشندي قارب لنا أحوال تلمسان ومعاملاتها ببجاية فيقول: "وقد تقدم أن بجاية من المغرب الأوسط فتكون تلمسان في معناها، وإن وقعت مخالفة في ترتيب المملكة فإنها تكون في القدر اليسير"،[189] على أن تبقى هذه المقاربة نسبية فقط لأن قيمة الأسعار كما يوضح ابن خلدون تتوقف حتما على وجود السلع أو عدمها وعلى نشاط الأسواق أو ركودها وعلى قيمة المكوس المفروضة عليها، وهي تختلف من الأمصار الكبرى إلى الأمصار الصغرى وبين المدن والقرى والبوادي بحسب وفرة العمران أو قلته.[190]

وإذا كان العمري من جهة أخرى قد أدرج في تقسيمه الجغرافي لبلاد المغرب مملكة تلمسان ضمن مملكة بر العدوة، باعتبار أن تلمسان في تلك الفترة (النصف الأول من القرن 8 هـ/14م)،كانت تحت سيطرة أبي الحسن المريني،[191] إلا أنه من المستحيل مقاربة ما حدده العمري من الأسعار بفاس مع قيمتها بتلمسان، لأن ذلك يوقعنا حتما في تعارض مع ما قاله ابن خلدون حول مستوى المعيشة في فاس التي هي أحسن من تلمسان.[192]

ومن خلال بعض المقاربات وبعض المعلومات الشحيحة التي جمعناها من ثنايا المصادر سوف نحاول تحديد قيمة بعض الأسعار في حواضر المغرب الأوسط (بجاية وتلمسان)كما سنوضحه في الجدول الآتي:

جدول02: مقاربة حول أسعار بعض السلع في المغرب الأوسط

نوع السلعة ومقدارها	السعر	المكان	الزمان	المصدر/ المرجع
القفيز[193] من القمح	من3 إلى 3.5 دنانير أي ما يعادل 35 درهما	إفريقية و بجاية	ق7 هـ/13م	برنشفيك: **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، 2 / 266
ثمن خرقة من الصوف	30 درهما	بجاية	ق7 هـ / 13م	الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 161.
القفيز من القمح	5 دنانير أي ما يعادل 50 درهما لأن 1 دينار=10 دراهم	إفريقية و بجاية	النصف الأول من ق 8 هـ / 14م	العمري: **مسالك الأبصار**، ص52 .

[189]- **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، القاهرة: المطبعة الأميرية، 1333هـ- 1915م، 5 / 151.

[190]- **المقدمة**، ص 337 - 338.

[191]- **المصدر السابق**، ص 68.

[192]- **المصدر السابق**، ص 336.

[193]- **القفيز**: هو ستة عشر وبية كل وبية إثنة عشر مدا قرويا يقارب المد النبوي، وهي ثمانية بالكيل الحفصي، أنظر: العمري: **مسالك الأبصار**، ص52، وقد يساوي القفيز الصاع النبوي، ويتألف الصاع من أربعة أمداد وسعته 4.215 لتر، أنظر: فالتر هنتس: **المكاييل والموازين الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، ترجمة: كامل العسلي، ط 1، الأردن: منشورات الجامعة الأردنية، 1970م، ص 63 - 66.

القفيز من الشعير	أقل من 50 درهما أقل من قيمة القمح	إفريقية و بجاية	النصف الأول من القرن 8 هـ / 14م	العمري: **مسالك الأبصار**، ص52.
رطل لحم إفريقي من الضأن	1درهم عتيق	إفريقية و بجاية	النصف الأول من القرن 8 هـ / 14م	العمري: **مسالك الأبصار**، ص 53.
الدجاجة الجيدة	درهمان جديدان	إفريقية و بجاية	النصف الأول من القرن 8 هـ / 14	العمري: **مسالك الأبصار**، ص 53.
الفرس	20درهما	دلس وبجاية	القرن 8 هـ / 14م	المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 /29ب.
ثمن برنس من الصغار للأطفال	ربع درهم	تلمسان	القرن 8 هـ / 14م	ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 276.
القفيز من القمح	من 5دنانير(50درهما) إلى 15دينار (150درهما) بعد تغير قيمة العملة	إفريقية و بجاية	القرن 9 هـ /15م	برنشفيك: **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، 2 / 266
16 أوقية من الزيت أي رطل واحد	ربع درهم	تلمسان	القرن 9 هـ/15م	الونشريسي: **المعيار المعرب**، 8 / 87 .
البقرة الواحدة	6 دنانير	تلمسان	القرن 9 هـ/15م	ابن مرزوق الحفيد: **نوازل**، ورقة 2 ب .
ثمن الدار	60 دينارا	تلمسان	القرن 9 هـ/15م	الونشريسي: **المعيار**، 5 / 102.
ثمن كراء الدار	12 دينارا سنويا أي ما يعادل 1دينار في الشهر	تلمسان	القرن 9 هـ،15م	المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 44 ب، 515 أ .
كراء قطعة أرض	7 دنانير	تلمسان	القرن 9 هـ/15م	المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 44 أ
ثمن المملوكة	13 دينارا ذهبيا	بجاية	القرن 9 هـ/15م	المازوني: **الدرر المكنونة**،481/1ب.
الثور المعلوف	20 دينارا	القلعة وتلمسان	أواخر ق 9 هـ- ق 10 هـ/15م - 16م	ابن مريم: **البستان**، ص 272.
ثمن العرصة(ربما ساحة الدار)	60 دينارا	القلعة وتلمسان	أواخر القرن 9 هـ- ق 10	ابن مريم: **البستان**، ص 272.

ـ قراءة تقريبية لبعض الأسعار في المغرب الأوسط:

إذا كان ابن خلدون قد وضح أن قيمة الأسعار عموما ببلاد البربر تتسم بالرخص مقارنة لما عليه في بلاد الأندلس فيقول:"ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة في الفلح مع كثرته وعمومته، فصار ذلك سببا لرخص الأقوات في بلدهم"،[194] فإن هذه الأسعار حتما تختلف من بيئة إلى أخرى لعدة اعتبارات ذكرناها سابقا.

إن أسعار القمح في إفريقية عموما وبجاية خصوصا قد سجلت تزايدا مستمرا منذ القرن 7 هـ/13م، حتى وصلت إلى أعلى قيمة لها وهي 15 دينارا للقفيز الواحد في القرن 10 هـ/16م، وذلك بعد أن تغيرت قيمة العملة آنئذ،[195] وهذا الارتفاع يفسر من دون شك النقص الحاصل في كمية الحبوب المعروضة في أسواق المغرب الأوسط في الفترة المشار إليها خصوصا في بجاية، ومن القرائن الدالة على ذلك رسالة مؤرخة في 20 صفر 749 هـ/1فيفري 1348م بعث بها سلطان فاس إلى نائب ميورقة تبين أن بجاية تشكوا في هذه الفترة من نقص في الحبوب.[196]

وقد كانت أسعار القمح والشعير في فاس أقل قيمة من أسعارها في عموم إفريقية، ولم يكن هذا في فترة زمنية محددة أي النصف الأول من القرن 8 هـ/ 14م حيث قدر ثمن الوسق من القمح خلالها بـ 40 درهما من الصغار أي ما يعادل 27 درهما من الكبار، والشعير أقل منه،[197] وإنما كان التباين في أغلب الفترات، فالعمري من جهته يذكر أن فاس كانت تعيش حالة من الرخاء الدائم،[198] ويمكن أن نفسر هذا الاختلاف بكميات إنتاج القمح والشعير التي تكون أكثر في المغرب الأقصى منها في المغرب الأوسط.

وبالنسبة لبجاية فإن الأراضي المستغلة فيها غير صالحة لزراعة الحبوب بالدرجة الأولى، فقد ذكر الوزان: أن "الأراضي الزراعية غير خصبة لا تستطيع أن تنتج حبوبا، لكنهم (أهلها) مغمورون بالثمار"[199] المختلفة؛ كالتين والزيتون ونحوه، وهذا ما أقره مارمول قائلا: "ولا تأتي أرض هذه الجهات (بجاية) بقمح كثير".[200]

أما عن تلمسان فلا مجال لمقارنة واقعها الزراعي عما هو عليه في بجاية، فهي طيبة الهواء فواكهها كثيرة وزرعها خصب،[201] وهي كما يصفها ابن الخطيب: "خزانة زرع ومسرح ضرع، فواكهها عديدة

---

[194]- **المقدمة**، ص 339.

[195]- برنشفيك: **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، ترجمة حماد الساحلي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988م، 2 / 266.

[196]- صالح بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي**، ص 133 نقلا عن:

Alarcony santon (M A) ed: *los* ***documentes Arãbe diplomqticos del Archivio de la corana de Argon***. Madrid: 1940, doc: 140, P 310- 311.

[197]- العمري: **مسالك الأبصار**، ص 83.

[198]- **المصدر نفسه**، ص 82.

[199]- **وصف إفريقيا**، 2 / 50.

[200]- **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط: دار نشر المعرفة، 1409هـ- 1989م، 2 / 377.

[201]- يحيى بن خلدون: **بغية الرواد**، 21/1.

الأنواع"،[202] ويصف الوزان نوعية الأراضي الزراعية بمملكة تلمسان، فيقول: بأنها تختلف من حيث موقعها؛ فالأراضي التي تقع في الجزء الجنوبي منها جافة وقاحلة، والسهول القريبة من الساحل أراضيها خصبة تنتج خيرات معتبرة،[203] فقد اشتهرت مدينة البطحاء التابعة لتلمسان بإنتاج كميات كبيرة من القمح، وكذا سهل تنس وسهل متيجة، ويحيط بقصر إيسلي أراضي زراعية صالحة لزراعة الشعير والدخن أيضا.[204]

لكن لا مجال لمقارنة هذا النشاط عما هو عليه في فاس، وهذا ما يؤكده الشيخ الصوفي أحمد الغماري،[205] الذي كان يحث الناس على العمل في الفلاحة فيقول: أن "أهل المغرب أقوى وأحرص على الفلاحة من أهل تلمسان"،[206] ولا شك في أن ذلك كان من القرائن الدالة على أن مستوى المعيشة في فاس أحسن منه في تلمسان، خاصة وأن النشاط الفلاحي يساهم بدرجة أكبر في الازدهار الاقتصادي وبالتالي تتحسن مستويات المعيشة كأثر لذلك.

وبالنسبة لأسعار اللحوم والدجاج عموما فقيمتها تكون متقاربة بين ما هي عليه في فاس وبين ما هي عليه في المغرب الأوسط، حيث قدر ثمن الرطل من اللحم في فاس درهما واحدا من الصغار أي ما يعادل أقل من درهم كبير والطائر من الدجاج 3 دراهم صغيرة أي ما يعادل درهمان من الكبار،[207] وهذا راجع لا محالة إلى أن المجتمع في كلتا البيئتين يهتم بالنشاط الرعوي، فقد شكلت بوادي المغرب الأوسط مجالا مهما لممارسة النشاط الرعوي، وهذا ما دلت عليه نوازل الفترة بكثرة،[208] وكذا المصادر الأخرى،[209] كما أن صحراء المغرب الأوسط كانت مجالا آخر للممارسة هذا النشاط من طرف الأعراب المنتجعين فيها.[210]

ومن الواضح أن ثمن العقار قد ارتفعت قيمته كما هو مبين في الجدول أعلاه، بعد أن كان ثمن الدار يقدر بـــ 60 دينارا خلال القرن 9 هـــ/ 15م بتلمسان، أصبح ثمن العرصة أي باحة الدار فقط في القلعة التابعة لمملكة تلمسان في أواخر القرن 9 هـــ/15م يقدر بـــ 60 دينار، وهذا الغلاء في قيمة العقار ربما كان مرتبطا

---

[202]- **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق محمد كمال شبانة، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423هـــ - 2002م، ص 184.

[203]- **المصدر السابق**، 2 / 20.

[204]- الوزان: **وصف إفريقيا**، 2 / 12، 27، 36 - 37.

[205]- هو أبو العباس أحمد بن الغماري نزيل تلمسان يعود أصله إلى قبيلة رياح العربية سكن بطيوة وبلاد غمارة، ثم انتقل إلى تلمسان واستقر بها وأخذ العلم عن شيوخها ومنهم أحمد الماواسي ومحمد بن يخلف ومحمد بن عمر الهواري الوهراني وغيرهم حتى أتقن علوم القرآن والحديث والفقه، ثم شرق لأداء فريضة الحج وبعدها عاد إلى تلمسان واستقر بها حتى وافته المنية على اثر مرض أصيب به في 12 شوال سنة 874 هـــ الموافق ل 14 أفريل 1470م، أنظر: ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 193- 239، التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص 121، ابن مريم : **البستان**، ص 31- 38.

[206]- **المصدر نفسه**، ص 216.

[207]- العمري: **مسالك الأبصار**، ص 53، 83.

[208]- أنظر البعض منها على سبيل المثال في : المازوني: **الدرر المكنونة**، 1 / 164أ (نازلة سئل عنها عبد الرحمن الوغليسي)، الونشريسي: **المعيار المعرب**، 1 / 67 - 68.

[209]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 162.

[210]- الوزان: **المصدر السابق**،1 / 61.

ببداية الاحتلال الإسباني لشواطئ المغرب الأوسط بدءً بـــوهران سنة 914 هـــ/ 1508م، ثم بقية المدن الساحلية، لأن حالة اللاأمن تؤدي إلى حركة السكان ونزوحهم من السواحل إلى المدن الداخلية، أين يكون الأمن أكثر فتكتظ بالسكان، ولهذا ترتفع أسعار العقار بوتيرة متسارعة.

أما بالنسبة لأسعار الملابس فقد كان سعر الحرير الخام كما هو موضح في الجدول أعلاه غالي الثمن، ولهذا كانت الملابس الحريرية حكرا على ذوي المال والجاه فقط، في حين كانت أسعار الملابس الصوفية أقل منها بكثير ولا شك في أن ذلك راجع لا محالة إلى وفرة المواد الأولية المتمثلة في الأصواف في أغلب مناطق المغرب الأوسط، وانتشار حرفة الخياطة والنسيج والتي كان يحترفها عامة الناس وحتى فئات من الفقهاء والصلحاء.[211]

وفضلا عن المواد الغذائية والألبسة كانت أسواق المغرب الأوسط مجالا لبيع العبيد، وشكلت بجاية سوقا هامة له خصوصا الأسرى الذين كانوا نتاجا لعمليات الجهاد البحري، ففي أواخر ق 6 هـــ/12م، كانت بحومة المذبح من جهة ربض بجاية سوقا لبيع السبي وكان يوجد ببجاية المدينة أيضا محلات مخصصة لبيع السبي وكذا بشواطئها، ونظرا لكثرة هؤلاء الأسرى كان "يباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوخش"،[212] وقد عبر ابن خلدون من جهته عن تكاثر أعداد الأسرى في بجاية بسبب نشاط عمليات الغزو البحري قائلا: "امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بصخب السلاسل والأغلال."[213]

أما بالنسبة لتلمسان فقد كانت أيضا سوقا نشيطة لبيع العبيد، وقد كان بعض التجار يأتون من الأراغون لشراء العبيد من أسواقها،[214] ويشير مارمول أن العبيد السود كانت من أهم البضائع التي يجلبها التجار التلمسانيون من أرض السودان،[215] كما أن العبيد كانوا يشكلون فئة مهمة من فئات المجتمع التلمساني، ويزاولون العديد من النشاطات فضلا عن أعمال الجندية.[216]

إن قيمة الأسعار في المغرب الأوسط تعد مسألة نسبية يستحيل إثباتها في مختلف الأزمنة التي تنتمي إلى مجال الدراسة، نظرا للتغييرات المفاجئة التي تطرأ عليها بسب العوارض والأزمات من جهة ولقلة مادة مصدرية دقيقة من جهة أخرى.

ب ـ الدخل ومستوى المعيشة في المغرب الأوسط

إن الكشف عن قيمة المردود أو ما بات يعرف الآن بالدخل القومي الذي تحققه الدولة، وقيمة الأجور أو الدخل الفردي، يساهم بشكل جلي في معرفة مستوى المعيشة أيضا، لكن من المؤسف أننا لا نملك سجلات الحساب الخاصة بمختلف دواوين الدولة كسجلات الأجور والعطاءات والمنح والهبات وغيرها، شأن أغلب

211– راجع بخصوص ذلك: صالح بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي**، ص 139- 141، فيلالي: **تلمسان في العهد الزياني**، 1/ 221 - 223.

212– الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 76- 77.

213– **العبر**، 6 / 902،

214- Dufourc (charles- Emmanuel) ***:L'Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIV siècle***, Paris, 1966, p 13.

215– **إفريقيا**، 2 / 300.

216– فيلالي: **المرجع السابق**، 1 / 224.

الدول والممالك الإسلامية الوسيطة.

لكن هناك بعض الإشارات التي لا تفي بإزاحة العتمة أمامنا في هذا المضمار كليا ولا حتى جزئيا، ومع ذلك لا ينبغي إهمالها، فقد أفادنا الحسن الوزان بقيمة دخل مملكة تلمسان يوم أن كانت وهران تابعة لها المقدر بين ثلاثمائة ألف وأربعمائة ألف دينار،[217] وهو مقدار معتبر من دون شك، في حين لا توجد إشارة صريحة عن دخل بجاية في المصادر، والذي لا شك فيه أنه يقارب دخل تلمسان، لأن عائداتها التجارية لا تقل أهمية عن عائدات تلمسان.

أما قيمة الأجور التي تتقاضاها مختلف الفئات فسنحاول أن نوضحها في الجدول الآتي:

جدول 03: أجور بعض الفئات العاملة في المغرب الأوسط

المكان	الوظيفة	قيمة الأجر	استفادات أخرى	المصدر
بجاية في العهد الحفصي (ق8 هـ/14م)	جند: طبقة أشياخ كبار	البركات: تفرق في السنة أربع مرات، مقدار كل تفرقة 40 دينارا، أي ما يعادل 300 درهم عتيق	– تستفيد من قطعة أرض يحرثها، تقدر قيمتها بـ 20 شعبة أي 20 فدانا مردودها في السنة 120 دينار – تستفيد أيضا من المواساة وهي غلة تفرق عليها كل سنة عند تحصيل الغلاة. – تستفيد من المواساة والإحسان.	العمري: **مسالك الأبصار**، ص 61-62.
	جند: طبقة أشياخ صغار	البركات: 40 دينارا تفرق أربع مرات في السنة، أي ما يعدل 160 دينارا أي 1200درهم عتيق.	– تستفيد من قطعة أرض، تقدر بـ 10 شعبة أي 10 فدانين مردودها في السنة 60 دينار سنويا – تستفيد أيضا من المواساة وهي غلة تفرق عليها كل سنة عند تحصيل الغلاة.	

[217]- **وصف إفريقيا**، 2 / 23.

	الوقافون وعامة الجند		البركات	المواساة والإحسان.	
تلمسان	الجند		ثلاثة مثاقيل من الذهب	– كسوة فرس مجهز بسرج ولجام ومهماز وسيف ورمح –20برشالة[218]من القمح –30برشالة من الشعير	يحيى بن خلدون: **بغية الرواد**، 2 / 39
تلمسان	الجند النصارى	القائد	80 بيزيتة أي ما يعادل 800 دينار ذهبي	يستفيدون من جملة من الامتيازات أهمها: الجمال والبغال والخيول والشعير الكافي لها، حصن مجهز للقائد ومحلات للسكن لباقي الجند وإعفاء من الضرائب	Dhina **:** ***Les Etats***, p 479 - 480 نقلا عن نص معاهدة أرسلها السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن إلى ملك أراغونة أدفونش الثالث سنة 696 هـ/ 1286م.
		الفارس التابع للقائد	25دينارا ذهبي		
		الأسقف التابع للقائد	15 دينارا ذهبي		
		الفارس العادي	15 دينارا ذهبي		
إفريقية وبجاية (ق8هـ/14م)	قاضي الجماعة		15دينار في كل شهر، أي 180 دينارا سنويا	علف لمركوبه	العمري: **مسالك الأبصار**،ص62
تلمسان (ق 10 هـ/16م)	قاضي مناطق سكن العرب بالصحراء		ألفي دينار سنويا، أي 167 دينارا كل شهر		الوزان: **وصف إفريقيا**، 2/ 21.
بجاية (ق 8 هـ/14م)	–المشاور والمشاهد في الديوان أو رئيس ديوان البحر		ألف دينار سنويا، أي 83.33 دينارا كل شهر		الغبريني: **عنوان الدراية**، ص93.
تلمسان	طراز		نصف دينار كل شهر		ابن مريم: **البستان**،

[218]– البرشالة: مكيال للحنطة في تلمسان وزنه ½ رطل = 200 درهم= حوالي 8.5 لتر، أنظر: ابن خلدون : **العبر**،7 / 198، قالتر هنتس: **المكاييل والموازين الإسلامية**، ص 59.

ص39				

1- الأجور والمستوى المعيشي المتباين بين الأفراد

- كبار الجند

لئن اعتبر الجند من الدعائم الأساسية التي تبنى عليها قوة الدولة،[219] فإن الملوك قد دأبوا منذ أمد بعيد على الاهتمام بهذه الفئة ووسعوا لها في النفقات والأرزاق والجرايات، فلا غرو فقد اعتبر ملك تلمسان أبو حمو موسى الزياني في وصية لابنه ولي عهده أن الجيش والمال أمران متوازيان، لا يصلح أحدهما إلا بالآخر، "فلا مال إلا بالجيش ولا جيش إلا بمال.. لأن المال يكفل الجيش والجيش يحوط الرعية"،[220] ويحافظ على أمنهم وسلامتهم.

لقد حضي كبار طبقة الجند –وهم أشياخ الموحدين وأشياخ العرب– في ظل الدولة الموحدية بمستوى راق جدا، بسبب المداخيل المعتبرة والأعطيات التي كانت الدولة تمدهم بها، فكانت تعطي للأشياخ الموحدين دخلا أو ما يسمى بالبركة وقدره 100 دينار، ولأشياخ العرب النصف من ذلك، فضلا عن المواساات والإحسان،[221] اللذان يفرقان كل سنة؛ فالأولى عبارة عن غلة تعطى لهم عند تحصيل الغلاة والثانية عبارة عن مبلغ من المال،[222] ولعل هذا راجع إلى حاجة الدولة الموحدية إلى امتلاك جيش قوي لتحقيق مشروعها التوحيدي في الغرب الإسلامي ككل والتصدي للنصارى الأسبان في الأندلس.

كما أن فئة كبار الجند في كل من بجاية وتلمسان فترة ما بعد الموحدين قد تمتعت بمستوى رفيع من حيث قيمة الدخل أيضا، ذلك أن أغلب الجيش كان من المرتزقة يضم الأعلاج والنصارى الروم والأندلسيين وأبناء القبائل العربية والبربرية المختلفة،[223] حيث يضمن السلطان ولاءهم ووفاءهم للدولة بمقدار ما يدفع لهم من مال، فلا ريب أن الأوضاع الأمنية المزرية التي كانت تعيشها كل حاضرة فرض عليها الاهتمام بالجيش والنفقة عليه أكثر، فقد ذكر الوزان أن ما تحققه مملكة تلمسان من دخل ينفق نصفه على الأعراب وحراس المملكة، وما يتبقى منه يدفع كأجور للجند والقادة الكبار والموظفين والحاشية،[224] ويضيف مارمول حول أوضاع كبراء الجند بتلمسان قائلا: "أما النبلاء المحاربون فيعتزون كثيرا بما لهم من وجاهة وشجاعة، لأنهم هم الذين يرافقون الملك لذلك فإن لهم عدة امتيازات وإعفاءات مع رواتب حسنة تمكنهم من أن يعيشوا عيشة

219– راجع بخصوص ذلك: ابن أبي الربيع: **سلوك المالك في تدبير الممالك**، تحقيق عارف أحمد عبد الغاني، دمشق: دار كنان، 1996م، ص106، 115- 116.

220– **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، تونس: مطبعة الدولة التونسية، 1279هـ– 1862م، ص 121.

221– ابن صاحب الصلاة: **المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**، تحقيق عبد الهادي التازي، ط 3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987م، ص 216، 384.

222– عز الدين عمر موسى: **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، ط 2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1424هـ - 2003م، ص 143.

223– راجع بخصوص ذلك: فيلالي: **تلمسان في العهد الزياني**، 1 / 180-190، صالح بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي**، ص 96.

224– **وصف إفريقيا**، 2 / 23.

راضية". [225]

كما أن الجند النصارى المستخدمين في الجيش الزياني لم يكن مستواهم أقل من كبار الجند المسلمون؛ إذ يتمتع القادة منهم والتابعين لهم بمستوى راق أيضا كما هو موضح في الجدول أعلاه؛ وذلك بموجب المعاهدة الموقعة بين السلطان الزياني أبا سعيد عثمان بن يغمراسن والملك الأراغوني أدفونش الثالث سنة 696 هـ/ 1296م، [226] ولا شك أن ذلك راجع إلى حاجة الدولة الزيانية إلى مزيد من الجند خاصة وأنها كانت تعاني في هذه الفترة ضغطا مرينيا كبيرا من جهة الغرب.

وتستفيد فئة كبار الجند علاوة على ذلك من الأعطيات والإقطاعات على شكل أراضي لزراعتها وخدمتها والاستئثار بمردودها، وهذا في بجاية وإفريقية عامة، إذ أن السلطة الحفصية ورثت الكثير من نظمها وتنظيماتها عن الدولة الموحدية، [227] وقد اختلف حجم وقيمة هذه الإقطاعات من طبقة إلى أخرى؛ فالأشياخ الكبار يستفيدون من أرض تقدر مساحتها بـ 240 هكتار، في مقابل 140 هكتار لصالح الأشياخ الصغار، [228] أي نصفهم تماما.

وفي السياق ذاته انتهجت الدولة الزيانية سياستها في التعامل مع الجند، فثمة امتيازات هامة رصدها لنا الفقيه النوازلي المازوني حول إقطاعات الجند بتلمسان من خلال السؤال الذي طرح على الفقيه أبي الفضل قاسم العقباني التلمساني (ت 811 هـ/ 1408م) فيقول: "عن أرض المخزن يقطعها السلطان لبعض أجناده". [229]

وقد جعلت هذه الإقطاعات من كبار الجند في المغرب الأوسط فئة ذات ريع عقاري، وبذلك كانت في أعلى مستويات الهرم الاجتماعي وتمتعت بمستوى معيشي راق جدا.

ـ عامة الجند

مقارنة بالجند الكبار لم يتمتع عامة الجند في المغرب الأوسط بمستوى راق –كما هو موضح في الجدول أعلاه– وهذا لأن أعطيات الجند تكون بحسب رتبهم، فبالنسبة لبجاية فقد أبقت السلطة الحفصية في تقسيمها للجند وأعطياتهم على نظام الموحدين [230] في ذلك، حيث كانت الدولة الموحدية تمنح سائر الجند مبلغا زهيدا يتراوح ما بين 20 دينارا و 7 دنانير بحسب رتبهم أيضا، [231] والحال ذاته بالنسبة للجند في تلمسان في العهد الزياني؛ إذ تتفاوت أعطياتهم على "قدر بيتاتهم وشجاعتهم وسابقتهم للخدمة ومحبتهم وانقيادهم وألفتهم

---

[225]– **إفريقيا**، 2 / 300.

[226]- Attalah Dhina **: *Les Etats de l'Occident musulman*,** p 479 - 480

[227]– أنظر على سبيل المثال نماذج ذلك في: ابن صاحب الصلاة: **المن بالإمامة**: ص 42، 54، 215 – 216، 424، عز الدين عمر موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص 143.

[228]– العمري: **مسالك الأبصار**، ص 61 – 62.

[229]– **الدرر المكنونة**، 2 / 44 أ.

[230]– برنشفيك: **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، 2 /75 - 76.

[231]– ابن صاحب الصلاة : **المن بالإمامة**، ص 348.

واجتهادهم". [232]

فإضافة إلى المبلغ الزهيد الذي يتقاضاه عامة الجند لم تكن هذه الفئة تحظى بنفس الإقطاعات والامتيازات التي يأخذها كبار الجند، فالوقافون و"هم الوكلاء على الأراضي السلطانية" وعامة الجند التابعين للسلطنة الحفصية لا يستفيدون من إقطاعات، بل تمنحهم الدولة عطاءات من غلة الأرض بعد الجني والحصاد إلى جانب مرتباهم، [233] والحال نفسه بالنسبة لبسطاء الجند بتلمسان وكذلك عامة الجند النصارى إذا قارنا دخلهم بدخل القائد والفارس التابع له.

وعليه لم تكن كل فئات الجند في المغرب الأوسط في مستوى معيشي واحد بل هناك فئتان بينهما فارق كبير الأولى في أعلى مستويات العيش وهي صاحبة ريع عقاري، والثانية في أسفل مستويات العيش نتيجة للمبلغ الزهيد التي تناله مقابل خدمات كثيرة تقوم بها هذه الفئة، والذي لا يكفي حتى لسد ضرورات العيش دون كمالياته.

ـ أصحاب المناصب العليا في الدولة:

نستهل ذلك بفئة القضاة على اعتبار أن وظيفتهم "من أعلى الخطط وأشرفها"، ولما لهم من مكانة واحترام لدى السلاطين وعامة الناس على حد سواء، ولهذا كانت الدولة تراعي في اختيارهم عدة شروط[234] يجب أن تتوفر فيمن يتقلد هذا المنصب؛ كأن يكون غير فقير ولا محتاج ولا صاحب ديون، [235] وهو ما يضمن –مع ورعه– حصانته من كل إغراءات الدنيا، وبالتالي سلامة أحكامه وأقضيته.

ومن المعلوم أن قضاة المغرب الأوسط كغيرهم كانوا يتقاضون مرتباهم من بيت المال، [236] حيث دعا القاضي أبو يحيى المازوني أن تكون أجورهم من مال حلال غير مأخوذ ظلما ولا عدوانا ولا مكسا، [237]

وقد كان قاضي الجماعة في إفريقية وبجاية[238] خلال النصف الأول من القرن **8** هـ/ 14م كما هو موضح في الجدول السابق يتقاضى 15 دينارا شهريا، وإذا قمنا بمقارنة هذا الدخل مع ما وجد في الجدول السابق من بعض أسعار المواد الغذائية الضرورية لوجدنا أن أجرة هذا القاضي لا تحقق له إلا ضروريات العيش دون كمالياته، فهي إذن أجرة لا تتناسب مع وظيفته ولا توافق مكانته الاجتماعية كموظف مهم في الدولة، خاصة إذا قارنا ذلك مع ما يتقاضاه قاضي الجماعة في فاس خلال نفس الفترة؛ فكانت أجرته تقدر بمثقال من

---

[232]– أبو حمو موسى الزياني: **واسطة السلوك**، ص 124.

[233]– محمد حسن: **المدينة والبادية بإفريقية**، 322/1.

[234]– محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6 إلى 9 هـ**، الدار البيضاء : منشورات كلية الآداب –جامعة الحسن الثاني، 1999م، ص 32،37.

[235]– النباهي: **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، ط 5، بيروت : دار الأفاق الجديدة، 1403هـ– 1983م، ص 1– 5 .

[236]– الونشريسي: **المعيار المعرب**، 10 / 212.

[237]– **المهذب الرائق**، ورقة 3 أ.

[238]–لم يعرف هذا المنصب في بجاية إلا في فترات انفصالها على تونس ووقوفها ندا لسلطة هذه الأخيرة، واستحداث هذا المنصب هو عنوان سيادتها واستقلالها.

الذهب يوميا، وهو أضعاف أجرة القاضي ببجاية، وإضافة إلى ذلك كان يمنح لقاضي الجماعة بفاس بعض الامتيازات كمركوبه مجهزا وكسوة له من القماش وقطعة أرض توفر له "مئونته وعلف دوابه".[239]

في حين لا نملك معطيات دقيقة حول أجرة القاضي وقاضي الجماعة بتلمسان، كما أننا لا نستطيع مقاربتها مع ما ذكره الوزان حول أجرة القاضي الذي يباشر وظيفته في مناطق سكنى العرب بالصحراء؛ والتي تقدر بـــ 2000 دينار سنويا أي 166.66 دينار شهريا وهو مبلغ معتبر، لأنها أجرة خصصتها الدولة لهؤلاء القضاة بسبب الصعوبات والمشاق التي يلاقونها جراء مهمتهم، وهذا ما يتبين من قوله: و"لا يأتي القضاة إلى هؤلاء الرعاع إلا مكرهين، إذ لا يستطيعون تحمل عاداتهم وطريقة عيشهم"،[240] وقسوة بيئتهم وخشونة طباعهم.

كما أن ابن خلدون الذي أشار إلى وضع القاضي بتلمسان وقال بأن "دخله كفاء خرجه"،[241] أي أن ما يتقاضاه شهريا يكفي لسد حاجياته الضرورية لا غير؛ كفيل أن يزيل لنا بعض الغموض ويعطينا فرصة المقاربة بينه وبين قاضي بجاية وبين مستوى دخلهما ومعيشتهما، وهذا ما حدا بالمازوني الذي عاش في القرن 9 هـــ/15م، أن دعا الخليفة بأن "يوسع للقاضي في رزقه"، [242] ولعل ذلك ما يقودنا إلى القول بأن القاضي في عصره لم يكن يتمتع لا بأجر جيد ولا بمستوى معيشي راق يساير مكانته الاجتماعية.

ومن جهة أخرى قد يكون ابن خلدون لا يقصد من قوله ذاك إلا قضاة حاضرة تلمسان، في حين كان القضاة في بوادي المغرب الأوسط والتي كان البعض منها تحت سيطرة العرب يعيشون حياة مزرية ويتقاضون أجرا زهيدا، الأمر الذي جعلهم يتراخون عن قضاء مهامهم، وهذا ما عبر عنه المازوني بوضوح قائلا: "وأما البلاد السايبة كبلادنا اليوم فوجود القاضي كالعدم لقلة استمداده من السلطان واستيلاء العرب على الناحية اختل نظام الشريعة ".[243]

وربما ذلك ما يفسر لجوء البعض من قضاة تلمسان إلى أخذ الأجرة على الخطابة أو على كتابة الوثائق والتي يتقاسمونها مع الشهود،[244] وكذلك الحال بالنسبة لقضاة البوادي؛[245] لعدم كفاية أجرتهم لما عدى حاجياتهم الضرورية، لأن مستواهم العلمي ومكانتهم الاجتماعية تفرض عليهم نمطا معينا من العيش، كما أن ذلك

---

[239]– العمري: **مسالك الأبصار**، ص 100.

[240]– **وصف إفريقيا**، 2 /59.

[241]– **المقدمة**، ص 336.

[242]– **المهذب الرائق**، ورقة 3 أ.

[243] – **المهذب الرائق**، ورقة 29ب.

[244]– نص المسألة: "سئل من تلمسان الخطيب الشهير أبو القاسم بن جزي (الغرناطي) عمن ثبت عليه من القضاة أنه كان يقتسم أجرة الوثائق مع الشاهدين القاعدين معه، فأجاب: وأما المسألة السادسة وهي ما ثبت عليه –أي القاضي– من أنه كان يقسم أجرة الوثائق مع الشاهدين القاعدين معه فينظر: فإن كان فيما عمل من تبيض العقد وإصلاحها تعليم الكاتبين فذلك جاز له، وإن كان تدعوه لذلك ضرورة لكونه لا يعطاه من بيت مال المسلمين ما يكفيه، فيسامح في ذلك لأجل الضرورة، على أنه كان ينبغي له أن يتزه نفسه عنه، وإن كان لا يعمل في ذلك عملا ولا تدعوه حاجة ولا ضرورة فقد أساء في ذلك" أنظر: الونشريسي: **المعيار المعرب**، 10 / 211 – 212.

[245]– المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 /15 ب (نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني).

يفرض عليهم تكاليف إضافية لا يعرفها العامة، فهم مثلا بحاجة إلى اقتناء الكتب على حسابهم الخاص وعلى حساب حاجيات البيت الأساسية؛ وهكذا في الزيارات والمضايفات والتبرعات لأقاربهم والمحتاجين ومن في حكمهم.

وفي مقابل ذلك نوهت بعض النصوص بسعة حال بعض القضاة والخطباء في تلمسان، حيث ذكر ابن مرزوق أن هؤلاء كانوا أصحاب أموال وثروة طائلة أكثر من أن توصف، لكن فقدوها عند دخول الحفصيين لتلمسان سنة 646 هـ/ 1248م بقيادة الأمير أبي زكرياء،[246] كما نقل عن والده الذي عاش في تلمسان أيام عانت الضيق، رأيته قاضيها "عبد الرحمن بن زاغو" في سعة الحال وأحسنه.[247]

إن سعة حال بعض هؤلاء القضاة ومن في حكمهم من المشتغلين بالوظائف الدينية ومستواهم المعيشي الجيد -والذي أشارت إليه المصادر- ليس بالضرورة دليلا على حجم ما يتقاضونه مقابل أعمالهم ما دامت هذه المصادر نفسها لم تصرح بذلك، فقد كان لبعضهم مصادر رزق موازية، فقاضي بجاية أبو محمد عبد الله الجزائري (من أهل القرن 7 هـ/ 13م) كان يسترزق من مداخيل عقار ورثه عن أبيه بالجزائر،[248] أما أجر وظيفته فيتصدق به كاملا، كما كان "عمر بن عزون السلمي" (من أهل القرن 7 هـ/ 13م) المشاور لدى قاضي بجاية، يمارس التجارة في حانوت تقع بسوق قيسارية إلى جانب وظيفته العدلية.[249]

ومن جهة أخرى تشير المصادر إلى ضيق وسوء حال بعض القضاة الذين تورعوا عن أخذ الأجرة كمقابل وعوض عن أعمالهم، واعتبروا المال الذي يتقاضاه نظرائهم من القضاة مالا حراما، رغم أن أساطين الفقه وأربابه على خلاف رأيهم، قد أجازوا لهم أخذ هذه الأجرة، فقد كان "القاضي سعيد العقباني" يوم ولي قضاء بجاية للسلطان أبي عنان المريني (749 – 759 هـ/ 1348-1357م) لا يأخذ أجرا عن منصبه ذاك، وإذا "اشتدت حاجته كان يستعين بكتب الصدقات"،[250] كما أورد المازوني أيضا سؤاله لابن القاضي المذكور من قبل: أبي الفضل قاسم العقباني حول الأجرة التي سينالها حينما يتولى القضاء فتبين أنها من أموال البلد، فشكك في حليتها واحتار بين أن يأخذها ويتصدق بها على الضعفاء، أو يتركها فيأخذها قائد البلد أو غيره. [251]

كما أورد لنا مسألة استفتي فيها القاضي قاسم العقباني كذلك؛ ومفادها أن أحدا من قضاة البادية لم يجر له رزق أو أجرة من قبل السلطان، مع أنه يتعفف عن أخذ الأجر على كتابة الوثائق والخطابات كما يفعل بعض قضاة البوادي، مما أدى ذلك إلى ضيق حاله؛ فهل له أن يطلب من شيخ تلك البادية أن يعين له

---

[246]- **المناقب المرزوقية**، ص 172 – 173.

[247]- **المصدر نفسه**، ص 237.

[248]- الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 215.

[249]- الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 218.

[250]- الونشريسي: **المعيار المعرب**، 10 / 112.

[251]- **الدرر المكنونة**، 2 / 49 أ – 49 ب.

أجرا ويجري له رزقا كفاء عمله ؟[252]

أما عن المناصب الأخرى العدلية منها والإدارية، فإن المصادر قد نوهت أيضا عن سعة حال بعض أصحابها، فقد ذكر ابن مرزوق أن والده، كان قد عُرض عليه منصب موثق أي "يجلس للناس لعقد الشروط والشهادة" وهو في حال من الضيق، لكنه رفض هذا العرض بالرغم من محاولات زوجته لإقناعه بقبول الوظيفة لما رأت من سعة حال المشتغلين بها، لكنه أصر على الرفض واعتبر أجرة الموثق سحتا ومالا حراما،[253] كما أن منصب الكاتب يدر على صاحبه أموالا معتبرة في ذلك الوقت، فقد كان أبو زهر ربيع بن عبد الحق الأنصاري البجائي كاتبا "لبعض الولاة واكتسب مالا"[254] من ذلك.

كما كان بعض أصحاب المناصب السلطوية يتمتعون بمستوى مادي مريح، خاصة بالنسبة لمتولي ديوان البحر،[255] فقد كانت أجرته في بجاية تفوق أجرة قاضي الجماعة بإفريقية خمس مرات،[256] فلا ريب أن أجرة متولي هذه الخطة مرتبط بالحياة الاقتصادية وبالأرباح والفوائد والضرائب المحصلة على مستوى الميناء.[257]

وعلى غرار ما كان زمن الموحدين[258] استفاد أصحاب المناصب العليا أيضا في المغرب الأوسط من امتيازات نوعية على شكل إقطاعات منحتها السلطة للحجاب[259] والوزراء وحتى للفقهاء ورجال العلم،[260] فقد منح السلطان يغمراسن للفقيه أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي (تـــ 680 هـــ/1281م) إقطاعات عديدة من بينها تيرشت (منطقة من ضواحي تلمسان)، ثم أقطعت بعد انقراض عقبه لابني الإمام التلمسانيين الفقيهين؛ أبي زيد عبد الرحمن (تـــ 743 هـــ/1342م) وأبي موسى عيسى (تـــ 750 هـــ/ 1349م) وشيد لهما مدرستين ومنزلين،[261] وحتى الصلحاء كان لهم نصيب من هذه الإقطاعات التي تمنحها لهم السلطة،[262] فقد أقطع أحد الأمراء أرضا لتلميذ أحمد بن يوسف الراشدي وهو "محمد بن علي المصراتي" في قرية مصراتة من وطن هوارة "وكتب له ظهيرا به وبتحرير جنانه وكرمه"؛[263] أي أعفاه من الضرائب المفروضة عليها، في حين لم نجد إشارة صريحة في مصادرنا حول إقطاع السلاطين للقضاة في المغرب الأوسط، على خلاف قاضي الجماعة بفاس الذي

---

[252]- **المصدر نفسه**، 2 / 15ب.

[253]- **المناقب المرزوقية**، ص 238.

[254]- الغبريني: **المصدر السابق**، ص 58 - 59.

[255]- بعيزيق : **بجاية في العهد الحفصي**، ص 217 - 221.

[256]- الغبريني: **المصدر السابق**، ص 93.

[257]- بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي**، ص 428.

[258]- لقد منحت الدولة الموحدية لمتولي الخطط الكبرى كشيخ الطلبة أو قاضي الجماعة إقطاعات تكون بمثابة جزء من رواتبهم، أنظر: عز الدين عمر موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص144 - 145.

[259]- ابن خلدون: **التعريف بابن خلدون**، ص 80.

[260]- فيلالي: **تلمسان في العهد الزياني**، 1 /212.

[261]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 280، التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص 127.

[262]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 49 ب (نازلة سئل عنها محمد بن مرزوق).

[263]- ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 113ب.

كان يستفيد إلى جانب مرتبه من إقطاع يكون عونا له في مئونته،[264] كما أسلفنا الذكر.

ولا شك أن اهتمام الدولة بالجيش وبأصحاب الوظائف العليا والإنفاق عليهم بكثرة ومنحهم إقطاعات، كان يؤدي إلى ازدياد الهوة الفاصلة بين الفئات العليا والدنيا لمجتمع المغرب الأوسط؛ فتزداد الطبقية وتسود حالة الفقر بين بسطاء الناس وعامتهم .

- كبار التجار وصغارهم

لقد عبرت المصادر عن الوضع المادي المريح لكبار التجار، فيذكرهم الونشريسي ضمن مسألة من مسائل الميراث سئل عنها أبو عبد الله المشدالي؛ وقعت لأحد التجار الأغنياء في بجاية خلال النصف الأول من القرن 9 هـ/15م، فيقول عنهم: "أكابر التجار ذوي الأموال الطائلة"،[265] خاصة وأن بجاية قد عرفت نشاطا تجاريا مزدهرا من الواجهتين البرية والبحرية؛ فكان هؤلاء التجار يجنون أموالا طائلة لأنهم المسئولون على التجارة المتوسطية – خاصة مع الجمهوريات الإيطالية – و التجارة مع بلاد السودان؛[266] فتمكنوا بفضل أموالهم من الارتقاء إلى أعلى مستويات السلم الاجتماعي، حتى أن هناك من العائلات التجارية الكبرى من استطاعت الوصول إلى أعلى مناصب الحكم بفضل نفوذها المالي، مثلما هو الحال بالنسبة لعائلتي ابن فرحون[267] وابن أبي المهدي.[268]

لقد استطاع هؤلاء التجار بفضل مكانتهم الاجتماعية بناء علاقات جيدة مع ذوي السلطة، فقد تحول أحد تجار بجاية إلى سفير بعث به الملك الأراغوني بيدرو (736-789 هـ/1378- 1387م) إلى سلطان غرناطة يحمل رسالة بتاريخ 1383/01/30م (06 ذو الحجة 785 هـ) طلب منه فيها أن يسلمه أحد الأسرى القتلايين،[269] وفي ذات السياق يضيف ابن خلدون دعم بعض تجار بجاية الأغنياء لابن سيد الناس الحاجب فيقول: "واستقرض من تجار بجاية مالا أنفقه في إقامة أبهة الملك له" تمهيدًا لانفصال المدينة عن تونس الحفصية.[270]

ولا شك أن فئة التجار الصغار لم يكن حالهم كحال أكابرهم؛ فهم يقيمون تجارتهم في الأسواق أو يسافرون بها في نطاق داخلي فقط بين المدن، فقد وضح لنا الونشريسي في إحدى نوازله البعض من هذه

---

[264]– العمري: **مسالك الأبصار**، ص100.

[265]– **المعيار المعرب**، 6 / 5.

[266]– حول النشاط التجاري لمدينة بجاية زمن الدراسة مع الجمهوريات الإيطالية أو مع بلاد السودان أنظر: بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي**، ص 317 – 348، Dominique Valerian **: *Bougie port Maghrébin,*** p 503 ,555 – 587, Laura Balletto **: *Gênes et le Maghreb Au XV^e^ siècle*.** dans : ***L'Occident musulman et L'Occident chrétien au Moyen Age***. Rabat. Publication de la Faculté des Lettres- Université Mohammed V. p. 91- 106, Georges Jehel **: *Les Relation entre Gênes le Maghreb Occidental au Moyen Age, Aspects Politiques et Économiques.*** dans : ***L'Occident musulman et L'Occident chrétien,***op, cit, p 107-122

[267]- أنظر عن أسرة ابن فرحون: رفيق خليفي: **البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط من نهاية القرن 3 هـ إلى نهاية القرن 9 هـ**، مذكرة ماجستير. جامعة الأمير عبد القادر- قسنطينة1428-1429 هـ/2007-2008، ص 302-306.

[268]– بعيزيق: **المرجع السابق**، ص 434.

[269]– **المرجع نفسه**، ص 437.

[270]– **العبر**، 6 / 449، رفيق خليفي: **البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط**، ص 265.

المعاملات؛ فذكر أن أحد تجار بجاية وهو "محمد البجائي" كان له حانوت في قيسارية بجاية يبيع فيه الحرير والحنابل، وكانت له علاقات مع أحد تجار مازونة وهو "زيد المازوني"، فأتاه هذا الأخير بسلعة من الحرير ليبيعها في بجاية، وقد وزن هذا الحرير وحده 13 رطلا، حيث يقدر ثمن 3 أرطال منه بـــ 8 دنانير أي الرطل الواحد بـــ 2.66 دينارا ذهب، وبالتالي فإن ثمن جملة الحرير كان يقدر بـــ 34.66 دينارا،[271] ولهذا فلا شك أن المستوى المعيشي للتجار الصغار كان لا بأس به إذا ما قارنا ذلك بحجم المبادلات التي تحقق من ورائها الأموال الكثيرة، لكن لا يجب أن ننسى جملة المكوس المفروضة على هؤلاء التجار، والتي تسبب لهم ضيقا كبيرا وتحول دون انتعاش مستواهم أو ارتقائه إلى مستوى أكابر التجار.

وفي مقابل ذلك عرفت تلمسان أيضا في الفترة مدار البحث حركة تجارية نشيطة سواء من الواجهة البحرية مع الجمهوريات الإيطالية من خلال موانئها: هنين ووهران خصوصا،[272] أو تجارتها مع بلاد السودان،[273] فبرزت في المجتمع التلمساني عدة عائلات مارست النشاط التجاري واشتهرت بالغنى ويسر الحال أهمها: عائلة المقري وتجارتهم الواسعة مع بلاد السودان،[274] وعائلة النجار التي اشتهرت بحياكة الصوف والتجارة فيه مع مختلف البلدان، إضافة إلى عائلة المرازقة،[275] والعقباني وغيرها من البيوتات التي زاولت العلم ومارست التجارة في آن واحد، ولا شك في أن هذا النشاط التجاري قد جعل هؤلاء في مرتبة راقية، نظرا للأرباح الكثيرة التي يجنونها من تجارتهم، فاجتهدوا في شراء العقارات والأراضي وبناء المنازل والدور والقصور وشراء العبيد والخدم، ونافسوا بذلك أصحاب المناصب العليا.[276]

وخير دليل على الحال الجيد الذي يعيشه أكابر التجار بتلمسان وصف بعض المصادر لهم؛ فيصفهم الوزان بأنهم "أناس منصفون مخلصون جدا وأمناء في تجارتهم، يحرصون على أن تكون مدينتهم مزودة بالمؤن على أحسن وجه، أهم أسفارهم التجارية هو الذي يقومون به إلى بلاد السودان وهم وافروا الغنى أملاكا ونقودا"،[277] ويضيف مارمول قائلا: هم " أناس طيبون أوفياء في تجاراتهم معتزون بالنظم والحضارة وحسن التدبير، مهذبون مع الأجانب، وأهم تجارتهم في غينيا حيث يحملون بضائعهم كل سنة ويأتون منها بالتبر والعنبر والمسك وسنور الزباد ورقيق السود... ويتجرون بالتبادل محققين كثيرا من الربح حتى لتكفى رحلتان أو ثلاث ليستغني التاجر"،[278] ومما كان شائعا في تلمسان المثل الذي يقول:"خير دواء للفقر هو السودان"[279]

---

[271]– الونشريسي: **المصدر السابق**، 5 / 107– 110.

[272]– لمزيد الإطلاع حول التجارة البحرية لتلمسان مع الجمهوريات الإيطالية أنظر:

Dufourcq: ***L´ espagne catalane***, p134 - 139, Dhina: ***les Etats de l'Occident musulman,*** p 406.

[273]– حول التجارة في تلمسان الزيانية أنظر: عطاء الله دهينة: **الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدولة بني زيان**، ص 477 – 487 ، فيلالي: **تلمسان في العهد الزيـــاني**، 1/ 213 - 219.

[274]– المقري: **نفح الطيب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1986، 5 / 205 – 206، 7 / 130 – 131.

[275]– ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 188 – 189، 222.

[276]– فيلالي: **المرجع السابق**، 1 / 214 - 215.

[277]– **وصف إفريقيا**، 2 / 21.

[278]– **إفريقيا**، 2 /300.

كقرينة تدل على أهمية التجارة الصحراوية ودورها في تحقيق غنى الأفراد والدولة على حد سواء.

أما فئة التجار الصغار في تلمسان فهم يزاولون نشاطهم التجاري في دكاكينهم المنتشرة في الأسواق، فضلا عن تجارتهم في بعض المدن المجاورة كبجاية،[280] وبين المدن والبوادي نفسها،[281] فقد كان التجار التلمسانيين يجوبون مختلف الصحاري لبيع منتجاتهم، فكانت صحراء تيكورارين (توات) إحدى محطاتهم لبيع الشحم المالح ويعود عليهم ذلك بالأرباح الطائلة،[282] ونظرا لأن العصر الزياني قد عرف نشاطا تجاريا مكثفا فإن هذه الفئة كانت تجني من ذلك أرباحا مكنتهم من تحسين أحوالهم ومستواهم المعيشي،[283] لكن حالهم كحال التجار الصغار في بجاية يعيشون تحت ثقل وطأة المكوس المفروضة عليهم من الدولة.

- كبار الحرفيين وصغارهم

من المعلوم أن المغرب الأوسط في الفترة مدار البحث قد عرف نشاطا حرفيا لا يستهان به، فشكلت المدن والبوادي منه على حد سواء مجالا لمزاولة هذا النشاط، ولئن كانت الحرف تمثل حجر الزاوية لاقتصاد المغرب الأوسط في هذه الفترة، إلا لأن المنتجات الحرفية قد احتلت الصدارة بالنسبة لصادراته التجارية مع دول المغرب ودول أوروبا على حد سواء.

لقد تعددت الحرف وتنوعت أشكالها في المغرب الأوسط،[284] وكان هؤلاء الحرفيون يزاولون نشاطهم في جماعات تسمى بنظام النقابات،[285] حيث تمارس كل جماعة نشاطها الحرفي في مكان محدد لها يعرف باسم الحرفة التي تمارسها، ونظرا لأن هؤلاء الحرفيين كانوا تجارا أيضا فإن الأسواق بالمغرب الأوسط قد عرفت عدة طوائف منهم كالعطارين والقبابين والخراطين والإسكافيين والسراجين والنجارين والحدادين والدرازين والصباغين والدباغين وغيرها من الحرف المنتشرة في الأزقة والساحات،[286] في حين كانت الحرف التي تتسبب في تلوث محيط المدينة وإزعاج الناس تمارس خارج أسوار المدن، ومثلها في ذلك مثل الحرف التي تحتاج إلى الماء بكثرة كدباغة الجلود،[287] والحدادة التي كانت تقام في شكل جماعات صغيرة تعد بمثابة الشركات تتكون من أجراء يشرف عليهم رب العمل،[288] فضلا عن الأرحية التي تستعمل لطحن الحبوب وغيرها؛[289] فكانت في

---

[279]- إيفان هربك: **تفكك وحدة المغرب السياسية، ضمن كتاب تاريخ إفريقيا العام، 4** /108.

[280]- المازوني: **الدرر المكنونة،** 2 / 7ب (نازلة سئل عنها محمد الشريف التلمساني).

[281]- الونشريسي: **المعيار المعرب،** 5 / 106 -107 (نازلة أجاب عنها أبو عبد الله العقباني).

[282]- الوزان: **وصف إفريقيا،** 2 / 134.

[283]- فيلالي: **تلمسان في العهد الزياني،** 1 / 216- 218.

[284]- حول النشاط الحرفي في بجاية أنظر: يعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي،** ص137 – 147، وعنه في تلمسان أنظر: مارمول: **إفريقيا،** 2/ 300، فيلالي: **المرجع السابق،** 1/ 220 – 224، ولعل أغلب الفئات الحرفية في تلمسان كانوا من الأولياء الصلحاء الذين يتورعون عن أخذ أجرة السلطان لشكهم في حليتها؛ فكانت الحرفة مسلكا لكسب عيشهم،ولمزيد من الاطلاع حول المهن التي احترفها بعض الأولياء أنظر: آمال لدرع: **الحركة الصوفية في بلاد المغرب الأوسط،** ص 190 - 191.

[285]- عطاء الله دهينة: **الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدولة بني زيان،** ص 490، فيلالي: **المرجع السابق،** 1 / 220.

[286]- الوزان: **وصف إفريقيا،** 2 / 19.

[287] – المازوني: **الدرر المكنونة،** 2 / 137 أ

[288] – الغرناطي: **نوازل،** ورقة 76 أ، المازوني : **المصدر السابق،** 1 / 173 أ، 2 / 38 أ (نازلة سئل عنها ابنا الإمام أبو زيد وأبو موسى)

[289]- المازوني: **المهذب الرائق،** ورقة 202 ب – 203 أ. .

الغالب تقام على ضفاف الأنهار والمنحدرات أو بازاء البوادي أين تتواجد المياه بكثرة،[290] وقد كان للمرأة نصيب أيضا في مزاولة الحرف في بوادي المغرب الأوسط وخصوصا حرفة النسيج وصناعة الحنابل والأكسية،[291] وغسل الصوف وغزله،[292] وقد اشتهرت نساء إقليم فجيج بنسج أغطية للسرير دقيقة الصنع رفيعة، حتى كان الناس يظنون أنها من الحرير وكانت تباع بأثمان غالية في فاس وتلمسان ومدن أخرى لجودتها العالية.[293]

ولا شك أن أرباب العمل المشرفين على بعض الحرف قد كان مستواهم المعيشي راقي جدا نتيجة للأرباح التي يحققونها من وراء ترويج منتجاتهم الحرفية، فقد كان" أبو زيد عبد الرحمن بن النجار" يزاول نشاطه في حياكة الصوف الرفيع الذي اشتهرت به تلمسان في درب شاكر فكان أغلب هذا الدرب له ولخدامه، ولا غرو فإن هذه الثياب الصوفية كانت لباس ملوك إفريقية والمغرب، وكان التجار يقصدونه من المشرق والمغرب للاقتناء منها، وكان يجني من بيعه لهذا الصوف ألف دينار في اليوم الواحد،[294] وعليه فقد كانت عائلة النجار من أغنى العائلات التلمسانية في تلك الفترة،[295] ويصف الوزان حياة الحرفيين الكبار والصناع بتلمسان قائلا "والصناع أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة، ويحبون التمتع بالحياة "،[296] وفي السياق ذاته يضيف مارمول قائلا: "يعيش العمال عيشة راضية كسبهم قوتا وتسلية".[297]

لكن في مقابل ذلك، كان حال بعض الحرفيين الصغار لا يحسدون عليه – خصوصا المستخدمين منهم كأجراء– ، فقد قدرت أجرة الطراز في تلمسان بنصف دينار لكل شهر،[298] وقد نوهت بعض المصادر أيضا عن حالهم السيئ؛ فيذكر الغبريني أن الفقيه أبا زهر الربيع كان يكتب في بجاية عند بعض الولاة، لكنه اعتزل هذه الخطة واحترف الخياطة فساءت حاله، وفي ذلك يقول: "واستعمل حرفة الخياطة للمعيشة، فلم يكفه ما ينتحله من ذلك فضاقت حاله وساءت".[299]

والحال نفسه بالنسبة إلى أبي العباس القطان الذي كان في شبابه يمتهن حرفة الخياطة، لكنه شكا إلى ابن مرزوق الجد سوء حاله وضيق معيشته، فأشار عليه هذا الأخير بالزواج، لكن ابن القطان أجابه قائلا "أنا أشكو عن إقامة حالي فكيف بالزوجة ولي والدة كبيرة لا أستطيع القيام بمئونتها فكيف بغيرها"، لكن ابن مرزوق الجد أصر على إنكاحه من إحدى قريباته؛ فدفع له صداقها وأعطاه مالا وأصبح ابن القطان بذلك يخرج مسافرا

---

[290]– البكري: **المغرب**، ص 76، المازوني: **المصدر السابق** 2 / 4 ب (نازلة سئل عنها عبد الرحمن الوغليسي)،الوزان: **المصدر السابق**،2 / 20.

[291]– المازوني: **المصدر السابق،** 2 /8 أ (نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني).

[292]– **المصدر نفسه،** 2 / 9 أ (نازلة سئل عنها سيدي عمران المشدالي).

[293]– الوزان: **المصدر السابق،** 2 / 132.

[294]– ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 148، 189.

[295]– فيلالي: **تلمسان في العهد الزياني،** 1 / 214 .

[296]– **المصدر السابق،** 2 /21.

[297]– **إفريقيا،** 2 / 300.

[298]– ابن مريم: **البستان**، ص39 .

[299]– **عنوان الدراية،** ص 58 – 59 .

للتجارة إلى فاس وسبته وبجاية حتى تيسر حاله واستقر بتلمسان.[300] وهذا المثال يوضح لا محالة أن هناك بونا كبيرا بين الحال التي يعيشها بعض الحرفيين خصوصا الأجراء منهم، وحال التجار الذين يجنون من أسفارهم التجارية الأموال الطائلة.

- الأجراء والمستخدمون

لم يكن مستواهم المعيشي أحسن من مستوى الأجراء المستخدمين في الحرف فالحال نفسه، فقد ذكر المازوني في النازلة التي سئل عنها عبد الرحمن الوغليسي (تـ 786 هـ/1384م) أن أجرة أحد الأجراء كانت تقدر بقيراط أي ربع درهم.[301]

وقد عبرت لنا المصادر أيضا في إشارات محتشمة عن مستواهم المعيشي المتدني، فيذكر لنا المازوني مسألة طرحت على الإمام محمد بن مرزوق مفادها أن "رجلا له جنتان بخديم له ويعطي للخادم ويواسيه وكل ما أعطاه قبله، وربما تغافل عنه و لم يعطه شيئا، ولا شاهد في ذلك الرجل المذكور صاحب الجنان وقدر هل يجوز له ذلك أم لا ؟"،[302] ويضيف الونشريسي فتوى لقاسم العقباني حول فران كان يطبخ الخبز لصهره دون أجرة تذكر، لأن صاحب الخبز كان في حالة عسر وذلك لمدة طويلة قدرها 15 عاما، فلما تيسر حال صاحب الخبز طالبه الصهر (الأجير) بدفع أجرته لطول هذه المدة.[303]

و لم تكن حال الأجراء في البوادي بأحسن من حالهم في المدن، بل بينت لنا المصادر النوازلية شتى أنواع الاستغلال التي تمارس ضد هؤلاء مقابل أجر زهيد؛ غالبا ما يكون جزءً من المحصول قد يكون زرعا أو زيتا بعد عصر الزيتون،[304] وغيره خاصة إذا كان نمط الإنتاج معتمدًا على نظام الخماسة، فإن ما يحصل عليه هذا الأجير يتنافى مع قيمة مجهوده الذي يقوم به في خدمة الأرض من حصاد ودرس وتصفية وكيل ونقل الزرع إلى المخازن، وغيرها من الأعمال التي تفرض على أهل البوادي، وغالبا ما تكون بدون مقابل كأعمال السخرة من أجل حراثة الأرض، أو في أعمال البناء يكلفهم بها بعض المتجبرين من أمراء القرى، أو أشياخ القبائل من العرب.[305]

- الأساتذة والطلبة

على خلاف ما ذكره الوزان حول أجرة الأساتذة في فاس والذين يتقاضون 200 مثقال، والبعض منهم 100 مثقال والبعض الآخر أقل من ذلك،[306] وما أشار إليه الونشريسي حول وضعية المدرس في فاس؛ والذي يستفيد من مرتبين شهري وسنوي،[307] لم نجد أي إشارة توافينا بمعلومات دقيقة عن أجرة الأستاذ أو المدرس

300- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 161 – 162.

301- **الدرر المكنونة**، 2 / 50 أ.

302- **المصدر نفسه**، 2 / 43 أ.

303- **المعيار المعرب**، 8 / 290.

304- المازوني: **المهذب الرائق**، ورقة 209 ب.

305- المازوني: **الدرر المكنونة**، 2/ 38 أ (نازلة سئل عنها ابنا الإمام)

306- **وصف إفريقيا**، 1 / 225، 227.

307 - **المصدر السابق**، 7 / 347.

بالمغرب الأوسط، والتي لا ننكر وجودها لأن المازوني كان قد أشار في إحدى نوازله التي سئل عنها أبو الفضل العقباني؛ بأن معلم القرآن أو المؤدب كان يؤخذ أجرة على ذلك.[308]

والحال كذلك بالنسبة لطلبة العلم فلا نعلم شيئا عن قيمة منحهم أو الامتيازات التي ينالونها، لكن نعلم أن مصدر هذه المنح كان في الغالب من الأوقاف، وأن مكان إقامتهم كان في المدارس حتى تنتهي فترة تمدرسهم،[309] وقد أشار ابن مريم في معرض ترجمته لأحمد بن زكري أن هذا الأخير عندما كان طالبا قد وجد مشقة كبيرة في التنقل كل يوم من تلمسان إلى العباد ليطلب العلم على يد الشيخ محمد بن العباس خصوصا في أوقات الثلج، مما جعل الشيخ يطلب له من السلطان بيتا في المدرسة "فكتب له البيت برتبته وفرشه وسمنه وزيته ولحمه وفحمه وجميع ما يمونه"،[310] لكن لا نستطيع تعميم هذه الحالة على كل طلبة تلمسان، لأننا لا نعلم ما إذا كان هذا الإجراء قد عمم على سائر الطلبة أم لا، ولهذا كانت منح الطلبة والامتيازات التي ينالونها في مختلف مدن المغرب الأوسط جانبا يكتنفه الغموض، سوى ما ذكر في بعض النصوص الانطباعية التي تشير إلى أحوالهم ومستوى معيشتهم.

وعلى خلاف ما حضي به الطلبة زمن الموحدين من عناية خاصة حيث كانوا في أعلى مستويات الهرم الاجتماعي؛[311] فإن حالهم بعد هذه الفترة لا يحسدون عليها من خلال ما أشارت إليه بعض المصادر، فلا غرو فقد صنف الطلبة في صف المحتاجين ممن يستحقون الصدقة، فقد ذكر المازوني فتوى سئل عنها أبو عبد الله الزواوي عن رجل كان من أهل الغصب ثم تاب وأراد صرف ماله فقال في ذلك: "وأحق بهذا المال طلبة العلم المدانون المحتاجون".[312]

وقال أيضا في فتوى سئل عنها عبد الرحمن الوغليسي: "عن طلبة يأتون من أرض بعيدة بحيث لا يعلم حالهم فيطلبون الزكاة، و لم يجد الإنسان من يسألهم عن حالهم ويقولون نحن ضعفاء، هل يصدقون ويعطى لهم منها أم لا ؟ فأجاب: يصدقون في ذلك إن لم يمكن الكشف عن حالهم"،[313] ومثل ذلك ما سئل عنه الفقيه أبو عبد الله الشريف التلمساني "عن قوم جمعوا زكاتهم لغائب ليس هو في وطنهم وغيبته في طلب العلم، وهو أشد حاجة في ذلك، فهل تجزئهم تلك الزكاة أم لا ؟ وعلى الأجزاء فهل يبيعونها ويصرفون له ثمنها أم لا ؟ فأجاب: إن كان أشد حاجة جاز إعطاء الزكاة إياه ولا يبيعونها إلا بوكالته".[314]

---

[308]– المازوني: **المصدر السابق**، 2 / 12أ.

[309]– ابن خلدون: **المقدمة**، ص 400، 404،

[310] – **البستان**، ص 39 - 40.

[311]– وعن أحوال الطلبة عهد عبد المؤمن بن علي، يقول عبد الواحد المراكشي : "وكان عبد المؤمن مؤثرا لأهل العلم محبا لهم محسنا إليهم، يستدعيهم من البلاد إلي الكون عنده والجوار بحضرته، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم، وقسم الطلبة طائفتين: طلبة الموحدين وطلبة الحضر، هذا بعد أن تسمي المصامدة بالموحدين"، أنظر: **المعجب**، ص 142، ع. السعيدي: **توحيد المغرب في عهد الموحدين**، ضمن: **تاريخ إفريقيا العام**، 4/ 47.

[312]– المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 32 أ (نازلة سئل عنها أبا عبد الله الزواوي) .

[313]– **المصدر نفسه**، 1 / 152 أ .

[314]– **المصدر نفسه**، 1 / 150 ب.

كما أن صلحاء المغرب الأوسط كانوا يؤثرون الصدقة من مالهم لطلبة العلم، فقد خصّص أبو زيد عبد الرحمن بن النجار جرايات على الطلبة،[315] وكان جد بن مرزوق من أمه ينفق أيضا على طلبة البادية،[316] لأنهم أحوج الناس إلى ذلك.

ولعل أحقية طلبة المغرب الأوسط في أخذ الزكاة، دليل صريح على أن مستواهم المعيشي في هذه الفترة متدن جدا، وهذا الأمر يؤكده الوزان عند حديثه عن طلبة تلمسان قائلا: "والطلبة أفقر الناس لأنهم يعيشون عيـــشة بئيسة في مدارسهم".[317]

- حالة الشرفاء في المغرب الأوسط

لئن كان الشرف من الأمور المقدسة في مجتمع المغرب الأوسط لدى الحكام والمحكـــومين علـــى غـــرار المجتمعات الإسلامية الأخرى؛ كون ذلك نابع من حبهم العميق لآل البيت ولشخص الرسول ρ،[318] فعلـــى خلاف السلاطين الحفصيين عمد أمراء بني زيان إلى رفع نسبهم للسلالة الشريفة،[319] وهذا ما أكده كل من التنسي ويحيى بن خلدون مؤرخا الدولة الزيانية، وذلك منذ عهد يغمراسن، فكان الشرف محط اهتمام عنـــد سلاطين المغرب عموما، وهذا من أجل إضفاء شرعية على حكمهم لدى شرفاء الحجاز من جهة، ومحاولة كل واحد منهم إبراز قوته السياسية في وسط تنافسي من جهة أخرى.[320]

ولا شك في أن شرفاء المغرب الأوسط بسبب نسبهم الشريف قد تمتعوا بمكانة مرموقة لفترة من الزمن، فقد حضي الشريف محمد بن أحمد الحسني العلوي (تـــ 771هـــ/ 1369م) باحترام وتقدير لدى ســـلاطين بـــني زيان، حتى أن السلطان أبا حمو الثاني قد صاهره في ابنته وبنى له مدرسة لينشر العلم من خلالها،[321] وبـــالرغم من أن شريف بجاية أبا عبد الله الشريف كان لا يأخذ الأعطيات لأنه يفضل أن يأكل من كد يديه، مـــشتغلا بالخياطة والتجارة، إلا أن أهل السوق كانوا لا يأخذون عليه المغارم "رعيا لما هو عليه مـــن علمـــه ودينـــه ونسبه".[322]

---

[315]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 188.

[316]- **المصدر نفسه**، ص 281.

[317]- **وصف إفريقيا**، 2/ 21.

[318]- محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع**، ص237 -241.

[319]- لقد أكد أبو عبد الله محمد الشريف التلمساني النسب الشريف لبني زيان فقد ذكرهم من بين جملة الشرفاء المتواجدين في تلمسان، وقال عنهم "أما بنو زيان جدهم زيان بن يغمراسن بن عاد بن سريح بن أحمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا يغمراسن هو الذي تولي الخلافة في تلمـــسان وزيان كان بمصر تاجرا أمينا فقتل وأخذ ماله وخلف غلمان ففروا إلى تلمسان " أنظر كتابه: **روضة الأزهار في التعريف بآل محمد المختار**، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم 2608، ورقة 27 أ – 27 ب.

ولا شك أن هذا التأليف جاء لتأكيد النسب الشريف لبني زيان، لأن هذا المؤلف ربما من الموالين لهم فيدعم بذلك أحقيتهم بالخلافة وإضفاء شرعية علي حكمهم أكثر، واحتمال آخر وارد حول هذا التأليف الذي يتناول الحديث عن الشرفاء عامة وشرفاء تلمسان خاصة في القرن التاسع الهجري –زمن المؤلف– ربما جاء كدعوة من هذا المؤلف لإعـــادة النظر والاعتبار لهذه الفئة، بعد أن تراجعت أوضاعها آنئذ، وذلك من خلال تذكير سلاطين بني زيان بنسبهم الشريف، وبالتالي إعادة الاعتبار لفئة الشرفاء التي تلتقي معهم في النسب.

[320]- محمد فتحة: **المرجع السابق**، ص241 – 246.

[321]- ابن مريم: **البستان**، ص 164- 184.

[322]- الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 177- 178.

لم تكن هذه المحبة للشرفاء في نفوس الحكام فقط بل حظي هؤلاء بمكانة عالية وحب واحترام من طرف الصلحاء أيضا؛ فقد كان الشيخ محمد الهواري إذا زاره أحد من الشرفاء يكرمه و يكون له كالخديم ويجود عليهم بالهدايا واللطف، حتى أن بعض الناس أصبحوا يدعون الشرف ويزورونه طمعا في كرمه،[323] وقد تصدق أحد الصلحاء بماله الذي يقدر بخمسمائة دينار -كان ينوي به شراء ما يلزمه لرحلته إلى الحج- لامرأة شريفة شكت له حالها وحال بناتها.[324]

ويتبين لنا أيضا مكانة الشرفاء في نفوس الصلحاء من خلال موقف الشيخ أحمد الغماري الذي شكا إليه جماعة من الشرفاء القاطنين بوطن مغراوة من بلاد الشلف ظلم عامل وطنهم "وإنه ينتقصهم وأهاليهم وسواهم على غيرهم من الرعية"، فغضب الشيخ وشكا هذا العامل لأمير المؤمنين فعزله من منصبه وعاقبه على إهانته للشرفاء.[325]

غير أن هذه المكانة الاجتماعية التي حظي بها شرفاء المغرب الأوسط لم تعد لتوازي وضعهم المادي المتدني خصوصا فترة القرن التاسع الهجري، فقد أصبحوا ممن يستحقون الزكاة بعد أن كانوا لا يأخذونها حين كانت الدولة تغدق عليهم بالهبات والأعطيات السنوية والشهرية،[326] فقد ذكر لنا المازوني من أوضاعهم خلال هذه الفترة في فتوى سئل عنها محمد ابن مرزوق جاء فيها ما يلي: "رجل شريف أضر به الفقر هل يواسي بشيء من الزكاة أو صدقة التطوع؟ وقد علمتم ما في ذلك من الخلاف وحالة هذا الرجل وغيره من الشرفاء عندنا لاسيما من له عيال تحت فاقة، فأجاب ابن مرزوق: المسألة اختلف العلماء فيها كما علمتم، والراجح عندي في هذا الزمان أن يعطوا، وربما كان إعطاؤه أفضل من إعطاء غيره".[327]

ويضيف حول ذلك أيضا فتوى سئل عنها أبو عبد الله الزواوي عن الرجل الذي كان من أهل الغصب وأراد صرف ماله فيرد هذا الفقيه ويقول : "وأحق بهذا المال.. الشرفاء المحتاجون"،[328] كما أن المرأة الشريفة التي شكت فقرها وشدة حالها إلى أحد الصلحاء -كما سبق وأن أشرنا- يدل لا محالة على سوء أوضاعهم في مجتمع المغرب الأوسط آنذاك.[329]

ولا شك في أن هذا التراجع في وضعهم المادي خلال هذه الفترة راجع لا محالة إلى قلة اهتمام السلاطين بهم، وهذا ما تضيفه النازلة التي سئل عنها ابن مرزوق حيث أن "الخلفاء قصروا في هذا الزمان في حقوقهم، ونظام بيت المال وصرف ماله على مستحقيه فسد "،[330] وربما ذلك راجع أيضا إلى عدم قدرة الدولة على

---

[323]- ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 107.

[324]- ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 26 أ – 26 ب.

[325]- ابن صعد: **المصدر السابق**، ص 233.

[326]- محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع**، ص 244.

[327]- **الدرر المكنونة**، 1 / 151 أ- 151 ب، الونشريسي: **المعيار المعرب**، 1 / 395.

[328]- **المصدر نفسه**، 2 / 32 أ.

[329]- ابن الصباغ القلعي: **المصدر السابق**، ورقة 26 أ – 26 ب.

[330]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 1 / 151 أ – 151 ب.

تغطية مصاريفهم نتيجة ضعفها في هذه الفترة.

وعلى اعتبار أن الشرف قيمة مقدسة في المغرب عامة وفي المغرب الأوسط خاصة إلا أن الوضع المادي للشرفاء لا يساير مكانتهم الاجتماعية، وهنا يظهر بوضوح ضعف الدولة أو تخاذلها عن الاهتمام بهذه الفئة على الرغم من قلتها، مقارنة بنظيرتها في المغرب الأقصى.[331]

ويختلف مستوى المعيشة من فئة إلى أخرى فهو يتماشى والطبقية في المجتمع، فالفئات الدنيا في المجتمع بالرغم من أنها أكثر إنتاجا إلا أن مستواها المعيشي دوما متقهقر، وهذا عن مستوى معيشة بعض أفراد المغرب الأوسط فماذا إذن عن غذائهم؟ وما هي السمات المميزة له؟ وهل يختلف هذا النمط الغذائي بين المدن والأرياف والبوادي؟ وهو ما سنجيب عليه في العنصر الآتي:

- التغذية في المغرب الأوسط

يعد الغذاء مؤشرا بارز لتحديد مستوى المعيشة لأي مجتمع ما،[332] فاختلاف الأطباق وتنوع الأذواق من فئة إلى أخرى يعبر بجلاء عن الفروق الاجتماعية فيما بينها، فالغذاء بكل أنواعه يعد من أهم السمات التي تتضح من خلالها معالم الفقر والغنى لأي مجال جغرافي، ولأي فئة من فئات المجتمع، فغذاء سكان الأمصار الكبرى ليس كغذاء سكان القرى والبوادي، وغذاء السلاطين والأغنياء والمترفين ليس كغذاء بسطاء الناس، وهكذا دواليك، وهو الأمر الذي أقره ابن خلدون عندما ذكر أن أهل الحضر والأمصار في المغرب عموما كانوا لا يأكلون الغذاء إلا بعد علاجه بالطبخ والتلطيف بمختلف المواد التي تصلح لذلك، في حين كان أهل البوادي قد ألفوا تناول الغذاء على سجيته.[333]

ونظرا لأن مجتمع المغرب الأوسط يعد أساسا من المجتمعات الزراعية،[334] فإن الحبوب هي المعول الرئيس لغذاء سكانه ومركز ثقله، ويأتي في مقدمتها القمح والشعير ثم باقي الأصناف الأخرى كالحنطة والذرى والذخن، ويصنع من القمح والشعير أنواعا عديدة من الخبز،[335] الذي يطهى في أفران مخصصة كانت منتشرة بالمغرب الأوسط،[336] وأهمها الرغيف،[337] وإن كان خبز القمح الجيد من أجود الأنواع على الإطلاق ويقتصر فقط على المترفين والأغنياء، في حين كان خبز الشعير النوع الأكثر انتشارا بين عامة الناس وبين الصلحاء

---

[331] – محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع**، ص 241.

[332]– اندريه بورغيار: **الأنثروبولوجيا التاريخية**، ص 215.

[333]– **المقدمة**، ص 92.

[334]– هناك العديد من النوازل التي تشير إلى النشاط الزراعي في المغرب الأوسط أنظر على سبيل المثال: المازوني : **المصدر السابق**، 2/ 25 أ – 26 ب، الشريف التلمساني: **نوازل**، ورقة 104 أ – 105 أ.

[335]– ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 159، موسى بن عيسى المازوني: **صلحاء وادي شلف**، ورقة 53 أ، ابن صعد: **روضة النسرين**، ص57، ابن مريم: **البستان**، ص 16.

[336]– الونشريسي: **المعيار المعرب**، 8 / 290 (نازلة سئل عنها أبو القاسم العقباني).

[337]– المازوني، **صلحاء وادي الشلف**، ورقة 141أ.

أيضا،[338] لانخفاض جودته وقلة سعره على أساس أن الوزان كان قد ربط لنا عدم سيادة الرخاء في مدينة وهران بتناول سكانها لخبز الشعير.[339]

فيعد القمح والشعير والحبوب عامة رمز للغنى لأي منطقة تنتجهما بكثرة، بخلاف المناطق التي لا تصلح لإنتاجهما فيكون سكانها في حالة من الفقر، وهذا ما كان يعانيه الفلاحون في أرياف بجاية، وسكان الجبال المحيطة بتلمسان، حيث اقتصر غذائهم في غياب الحبوب على نبات الخروب الذي ينبت عندهم بكثرة.[340]

وفضلا عن الخبز كغذاء رئيس لسكان المغرب الأوسط، كان يصنع من الحبوب مختلف الأطعمة خصوصا منها العجائن التي كانت كثيرة الانتشار بين سكان المغرب الأوسط، كالطعام الذي يسمى بالكسكسون (الكسكس)، وهو طعام مشهور في سائر المغرب ككل، ويستعملونه حتى في التداوي من بعض الأمراض لقيمته الغذائية الكبيرة،[341] إضافة إلى الطعام الذي يدعى بالبركوكس وهو مطبوخ باللحم،[342] وطعام يدعى الثريد حيث كان أهل بجاية يصنعون منه نوعا يدعى "بشاشية ابن الوضيع"،[343] وكان الثريد الطعام المفضل عند صلحاء المغرب الأوسط، فقد كان والد ابن مرزوق يفضل هذا الطعام على سائر الأطعمة ويتناوله بإدام خفيف من السمن أو الشحم أو اللحم،[344] وكان الصلحاء يعرفون نوعا من هذا الثريد يصنع من شظايا الرغيف مضاف إليها الزبدة والعسل.[345]

وتصنع من الحبوب أيضا ومشتقاتها مختلف أنواع الحلويات التي تقدم في المناسبات الخاصة كعيد الفطر مثلا،[346] وقد عرف سكان المغرب الأوسط نوعاً من الحلوى تصنع من السميد والعسل تسمى "بالمشهدة"،[347] وحلوى تسمى الكتامية التي اشتهر بصنعها أهل قسنطينة، وكانت تصنع بالسميد والبيض وبعض المكونات الأخرى.[348]

وبعد الحبوب تأتي اللحوم[349] والأغذية الحيوانية كالإدام والألبان[350] في الدرجة الثانية من حيث الأهمية

---

[338]- **المصدر نفسه**، ورقة 45 ب.

[339]- **وصف إفريقيا**، 2 / 30.

[340]- **المصدر نفسه**، 2/ 43 - 44.

[341]- ابن مريم : **البستان**، ص 158.

[342]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية** ، ص 159.

[343]- مؤلف مجهول: **الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، مدريد: نشر ضمن صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، 1961هـ - 1962، 9 – 10 / 183.

[344]- ابن مرزوق: **المصدر السابق**، ص 222، 236.

[345]- الشريف التلمساني: **روضة الأزهار في الصلاة على النبي المختار**، ورقة 29 أ.

[346]- ابن مريم : **البستان**، ص 91.

[347]- **المصدر نفسه**، ص 69.

[348]- مؤلف مجهول: **الطبيخ في المغرب والأندلس**، ص 203.

[349]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 159، المازوني: **صلحاء وادي شلف**، ورقة 140 ب، ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 104، 134 - 135.

بالنسبة لغذاء سكان المغرب الأوسط، كون هذا المجال يندرج في مصاف المجتمعات الرعوية، خصوصا منهم العرب المنتجعين في الصحاري، الذين يقتصر غذائهم على اللحوم وشرابهم على الألبان، فالخبز عندهم لا يكون إلا لإكرام الضيوف أو في المناسبات نظرا لندرة الحبوب عندهم.[351]

غير أن بعض الصحاري التي يغلب على طبيعتها الجفاف يكون اللحم عندهم غالي الثمن؛ كما هو الحال بالنسبة لتيكورارين (توات) أحد قصور صحراء المغرب الأوسط، التي تتسم بجفاف أرضها فلا يربون الماشية إلا بعض الماعز لأجل لبنها، وعوضا عن لحم الماشية كانوا يأكلون لحم الإبل التي تشترى من الأعراب الواردين على أسواقهم، ونتيجة لقسوة طبيعتهم فإن غذاء سكان هذه المنطقة لا يقتصر إلا على الشحم المالح الذي يجلبه تجار تلمسان وفاس،[352] كما أن أهل المغرب الأوسط كانوا يعدون اللحم المؤخر المعروف بالمسلى أو الخليع أو القديد الذي يتناولونه في أوقات الشتاء البارد المثلج،[353] وكان بعض صلحاء المغرب الأوسط يفضلون أكل لحوم السلاحف البرية.[354]

وإضافة إلى ذلك اعتمد سكان المغرب الأوسط في غذائهم على سائر الخضر والفواكه كالتين والعنب، فضلا عن العسل الذي اشتهرت به بعض مناطق المغرب الأوسط، كإقليم بني راشد من أعمال تلمسان،[355] وزيت الزيتون المنتشر بكثرة بلاد زواوة وفي الجبال المحيطة بمدينة قسنطينة التي تكثر بها أشجار الزيتون.[356]

ومن العادات المألوفة عند سكان المغرب الأوسط تناول السماط أو ما يسمى بالباروك الذي يعدونه من الفواكه أو اللحم، ويتناولونه في بعض المناسبات، فقد كان الولي محمد بن عمر الهواري يفضل أكل السماط عقب انتهائه من نظم تأليف، أو من فعل ديني، وكان يقول: "لا بد للسماط للجالس ومن يمشي".[357]

وفضلا عن نبات الخروب الذي يتناوله سكان بعض الجبال المحيطة لتلمسان، والشحم المالح الذي يتناوله سكان صحراء توات، كان البعض من الفقراء في بوادي المغرب الأوسط يتناولون الطيور الميتة [358] لشدة فقرهم وذلك في غير أوقات المجاعة؛ فماذا عن نوعية غذائهم في أوقاتها؟

وعليه فإن اختلاف الغذاء وتنوعه بين مختلف أقاليم المغرب الأوسط أمر طبيعي، راجع إلى طبيعة كل منطقة ومدى صلاحية أرضها لإنتاج الغذاء وتوفر الكلأ للماشية، فإذا كان الغذاء معيارا أساسيا لتحديد ما إذا كان مستوى المعيشة راقيا أم متدنيا لكل منطقة، ما هي مميزات مستوى المعيشة في مختلف مناطق المغرب الأوسط؟.

---

[350]- الشريف التلمساني: **روضة الأزهار في الصلاة على النبي المختار**، ورقة 29 أ.

[351]- الوزان: **وصف إفريقيا**، 1 / 58، 61.

[352]- **المصدر نفسه**، 2 / 134.

[353]- ابن مرزوق: **المصدر السابق**، ص 190.

[354]- المازوني: **المصدر السابق**، ورقة 118 ب.

[355]- الوزان: **المصدر السابق**، 2 / 26.

[356]- **المصدر نفسه**، 2 / 103.

[357]- ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 104.

[358]- ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 26 ب.

- المدينة والبادية في المغرب الأوسط والمستوى المعيشي المتباين

إذا كانت درجة الفقر والغنى لأي مجال جغرافي تتحدد بناءً على عدة اعتبارات منها قوة النشاط الاقتصادي ووفرة عمرانه؛ فمن الطبيعي أن يختلف مستوى المعيشة بين مجال المدينة والبادية، و لم يكن ابن خلدون الذي أقر ذلك قد انطلق من فراغ وإنما بناءً على تجربة واسعة واقتناعه بهذه الاعتبارات التي يتحدد من خلالها تـــدني أو ارتفاع مستوى المعيشة لأي مجال جغرافي.[359]

يقول الوزان أن أهل بجاية كانوا "على قدر عظيم من الغنى يسلحون العديد من السفن الحربيـــة المختلفـــة ويرسلونها لغزو شواطئ إسبانيا"، وفي موضع أخر يقول: "يعيش السكان في فقر لأن الأراضي الزراعية خصبة لا تستطيع أن تنتج حبوبا"،[360] فالذي لا يتمعن في قوله جيدا يتوهم أنه متناقض في طرحه هذا، لكن الأمـــر عكس ذلك، لأنه يقصد بأهل بجاية كبرائها، أو حتى المشرفين على الأساطيل والمشتغلين بالغزو البحري، لأنه ربط غناهم بالسفن الحربية التي يملكونها، والتي اتخذت من مياه البحر المتوسط مجالا لتحركاتها، أما السكان فلا جدال أنه يقصد بهم عامة الناس ومنهم الفلاحين القاطنين في الأرياف والبوادي المحيطة بها؛ لأنه ربـــط حالـــة فقرهم هذه بنوعية الأرض ومدى صلاحيتها لإنتاج الغذاء الرئيس للسكان ألا وهو الحبوب.

أما عن المدن المحيطة ببجاية فقد وصف لنا عبد الباسط الملطي مدينة قسنطينة قائلا: "وبها النعم والخـــيرات والرخاء الغالب"،[361] وتتميز أيضا بكثرة صنائعها خاصة الأقمشة الصوفية التي يصدر منها إلى إفريقية، مـــع الزيت والحرير والكتان مقابل التمر والعبيد،[362] وتحيط بقسنطينة جبال خصبة الأراضي تنتج الزيتون والـــتين بكثرة، والذي يحمل منه إلى المدن المجاورة كالقالة وجيجل، وسكان جبال قسنطينة أغنياء جدا كما يـــصفهم الوزان لأنهم لا يدفعون الخراج، الأمر الذي جعلهم يمتنعون عن مزاولة التجارة لا في الـــسهول خـــشية مـــن الأعراب، ولا في المدن خوفا من السلطة.[363]

وقد كان جل أهل مدينة بونة تجار وصناع وحاكة، يبيعون كميات هائلة من قمـــاش الكتـــان في مـــدن إفريقية، أما عن باديتها التي تقطنها قبيلة مانداس العربية، فأراضيها خصبة صالحة لزراعة القمح الذي يصدر منه إلى تونس وجربة وغيرهما من مدن إفريقية والمغرب، كما تتميز أيضا بكثرة الماشية من البقر والغـــنم وتنـــتج كميات كبيرة من الزبد.[364]

وفي مقابل ذلك وصف الوزان حالة الفقر التي يعيشها سكان مسيلة بسبب كثرة الضرائب عليهم فيقول: "والسكان كلهم صناع أو فلاحون يرتدون لباسا رديئا لفقرهم، بسبب الأعراب الذين يسلبون مداخيلـــهم،

---

[359]- **المقدمة**، ص 335 - 336.

[360]- **وصف إفريقيا**، 2 / 50.

[361]- **الروض الباسم**، ص 40.

[362]- **المصدر نفسه**، ص 56، مارمول كربخال: **إفريقيا**، 3 / 11.

[363]- الوزان: **وصف إفريقيا**، 2 / 103.

[364]- **المصدر نفسه**، 2 / 62

وملك بجاية الذي أثقل كاهلهم بالضرائب، وقد اندهشت للفقر السائد بمسيلة عند مروري بها".[365]

في حين لم توجد إشارة صريحة حول مستوى المعيشة في تلمسان، غير أن أهلــها كــانوا ذوي اقتــصاد في المعاش واللباس والسكنى، لا لفقرهم وإنما اقتداءً بالسلف الصالح رضي الله عنهم بتعبير يحيى بن خلدون،[366] وتحدث العبدري عن أسواقها قائلا: "وبها أسواق قائمة"،[367] واستطاعت تلمسان أن تجني ثروات هائلة مــن وراء تجارتها مع بلاد السودان،[368] ودول أوروبا [369]حيث لعبت موانئها دورا كبيرا في ذلك خاصــة هــنين ووهران التي بالرغم من نشاط واجهتها البحرية إلا أن الوزان يصف حالة سكانها قائلا: "ويعيش الكثير مــن أهلها من مدخولهم، لكنها لم يسد فيها الرخاء، إذ لم يكن يؤكل فيها سوى خبز الشعير"،[370] ولا شــك أن ذلك راجع إلى قلة إنتاج القمح في هذه المنطقة، والحال كذلك بالنسبة إلى مدينة مستغانم التي يقــول عنــها الوزان: "لها ميناء صغير كثيرا ما تقصده السفن الأوروبية، لكن أصحابها لا يحققون أرباحا مهمة لشدة فقــر السكان".[371]

وتنتج الأقاليم المحيطة بمدينة تلمسان كميات هامة من القمح والشعير؛ كسهل البطحاء الذي يحقق لتلمسان دخل قدره 20 ألف مثقال، لأن أراضيه تنتج كميات هامة من القمح والشعير، وكذلك إقليم متيجة بالجزائر، كما أن إقليم بني راشد كان يحقق لتلمسان دخلا قدره 25 ألف مثقال، لأن أهله يربون الماشية وينتجون العسل ويصنعون المنسوجات،[372] وكانت بوادي تلمسان في الفترة المدروسة مجالا لممارسة التجارة أيضا فقد أشــار المازوني في فتوى سئل عنها قاسم العقباني توضح أن اليهود كانوا يمارسون النــشاط التجــاري في البــوادي أيضا.[373]

لكن في مقابل ذلك كانت بعض المدن المحيطة بتلمسان تعيش في فقر مدقع بسبب سيطرة الأعراب عليهــا والذين يجبرون سكانها على دفع الضرائب لهم؛ مثلما هو الحال بالنسبة لمدينة مازونة التي كان أغلب ســكانها نساجون أو فلاحون أثقل الأعراب كواهلهم بالضرائب،[374] أما الجبال المحيطة بتلمسان فمــستوى معيــشة سكانها يختلف من جبل لآخر بحسب ما ينتج من غذاء ومواد مصنعة؛ فقد كان جبل بني ورنيد يحقق لتلمسان دخلا قدره 12 ألف مثقال في السنة، نظرا لان أراضيه تنتج كميات هامة من الفواكه كالتين والكرز إضافة إلى

---

[365]- **المصدر نفسه**، 2 / 52.

[366]- **بغية الرواد**، 1 / 22.

[367]- العبدري: **الرحلة المغربية**، ص 9.

[368]- الوزان: **المصدر السابق**، 2 / 8 - 9.

[369]- Dufourcq **: *L' espagne catalane,*** p 320.

[370]- الوزان: **المصدر السابق**، 2 / 30.

[371]- **وصف إفريقيا**، 2 / 32.

[372]- **المصدر نفسه**، 2 /27 – 28، 37

[373]- الونشريسي: **المعيار المعرب**، 2 / 253.

[374]- الوزان: **المصدر السابق**، 2 / 36.

الحطب والفحم.[375]

وقد كان سكان جبل بني بوسعيد المجاور لمدينة تنس يملكون كميات وافرة من العسل وتنبت أراضيه الشعير بكثرة، وهي مجالا هاما لرعي الماعز، وينتج أهله الشموع والجلود التي يأخذونها إلى شاطئ تنس ويبيعونها للتجار الأوروبيين،[376] غير أن الجبال التي لا تنبت حبوبا فإن أهلها كانوا في ضيق من العيش؛ مثلما هو الحال بالنسبة لسكان جبل بني يزناسن، وجبل بني مطغرة؛ فقد كانت أراضيهما لا تنبت سوى القليل من الشعير، ولهذا فإن غذاء سكانهما كان يقتصر على نبات الخروب الذي ينبت في هذه الجبال بكثرة.[377]

وإذا كانت الصحراء كمجال جغرافي ينتمي للمغرب الأوسط أيضا؛ فإن مستوى معيشة السكان فيها يختلف من منطقة إلى أخرى أيضا، فصحراء توات التي كانت لا تنبت زرعا ولا ضرعا،[378] لجفافها حتى تسقى أرضها من ماء البئر ويتم استصلاحها بالأسمدة لتصبح صالحة للزراعة، كان أهلها مياسير بسبب تجارتهم مع بلاد السودان،[379] وقد كان يسكنها جماعة من اليهود الأغنياء لهم درب مخصص لسكناهم،[380] كما أن سكان صحراء فيجيج كانوا أثرياء أيضا لتعاطيهم التجارة مع بلاد السودان، ونساءهم ينسجن أغطية للأسرة في غاية الإتقان، كانت تباع بأثمان غالية في فاس وتلمسان وبعض المدن المجاورة.[381]

في حين كانت الصحاري التي يسكنها الأعراب لا يعيش أهلها إلا على الإعانات التي تقدمها لهم السلطة لاتقاء شرهم،[382] فلا مهنة لهم سوى التلصص والسطو على القوافل التجارية، مثلما هو الحال بالنسبة للأعراب القاطنين في صحراء أنكاد القريبة من تلمسان.[383]

إن درجة الفقر والغنى لسكان المدن والبوادي والصحراء تتحكم فيها عدة معايير تتعلق أساسا بمدى ما تنتجه أراضيها من غذاء وحجم المبادلات التجارية، ومدى تقدم الحرف أو تأخرها، فضلا عن قيمة الضرائب التي تفرض عن السكان، إننا نؤيد رأي ابن خلدون الذي يرى أن مستوى المعيشة يكون أحسن في الأمصار الكبرى من الأمصار الصغرى والمدن والقرى، لكن لا سبيل للإنكار أن هناك من المدن من يتميز بفاعلية كبيرة ونشاط اقتصادي (فلاحي وتجاري) كبير، فقد كانت بعض المدن الصغرى بمثابة الشريان الذي يزود مختلف الأمصار الكبرى بالمنتوجات وبدخل وافر مثل هنين والبطحاء بالنسبة لإقليم تلمسان، وكذلك قسنطينة وبونة بالنسبة لإقليم بجاية.

---

[375] – ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 151، الوزان: **المصدر السابق**، 2 / 44.

[376]– الوزان: **المصدر السابق**، 2 / 45.

[377]– **المصدر نفسه**، 2 / 43.

[378] – الونشريسي: **المعيار المعرب**، 2 / 232 (نازلة يهود توات).

[379]– الوزان: **وصف إفريقيا**، 2 / 133.

[380]– الونشريسي: **المصدر السابق**، 2 / 214 – 217، الوزان : **المصدر السابق**، 2 / 134.

[381]– الوزان: **المصدر السابق**، 2 / 132.

[382]– **المصدر نفسه**، 1 / 63.

[383]– **المصدر نفسه**، 2 / 11.

- السلطة والصلحاء وتحسين مستوى المعيشة في المغرب الأوسط

لم يكن مجتمع المغرب الأوسط في الفترة مدار البحث بمنأى عن ظاهرة الفقر؛ بـــل ثمـــة فئـــات كـــثيرة من الفقراء والمحتاجين -بخلاف الفئات التي ذكرناها سابقا- كانت في أدنى مستويات العيش، و لم تكن المصادر لتذكر لنا أوضاع هؤلاء إلا وقرنتها بصورة من صور التكافل الاجتماعي التي حظيت به من طـــرف بعـــض الجهات، لاسيما إن كانت نابعة من طرف الفئات الحاكمة رغبة منها في مدحهم وذكر أعمالهم الجليلة.

وفضلا عن أن هذه الفئات كانت تعيش من الصدقات ومن عائدات الأحباس من أموال وغـــلاة؛ فـــإن السلطة لم تتوانى عن مساعدتهم أبدا كلما سنحت لها الفرصة، وخصوصا عند قيام أي خليفـــة بإصـــلاحات جديدة داخل المجتمع، فقد ذكر لنا ابن قنفذ أن السلطان المتوكل على الله الحفصي كان "يدخل المال الكـــثير للضعفاء والواردين عليه من الشرفاء".[384]

وذكر لنا ابن مرزوق أيضا أن أبا الحسن المريني "أعطى لضعفاء أهل تلمسان اثنا عشر ألف دينار واثنا عشر ألف كساء، ومن الطعام مطامير لا تحصى كثرة" عند دخوله إليها،[385] وقد روى لنا ابن مريم أن السلطان أبا محمد بن أبي تاشفين قد زار الشيخ أبا الحسن أبركان وترك عنده دراهم كثيرة ليفرقها كيفما يشاء لكن الشيخ رفض ذلك وردها عليه، ونفس المهمة كلف بها هذا الشيخ من طرف السلطان أبي فارس المريني عندما دخـــل تلمسان، حيث أرسل له مع أحد قواده خمسة آلاف شاة ليفرقها على المساكين لكن الشيخ أبركان رفض ذلك وردها عليه،[386] ولا شك في أن رفض هذا الصالح مسؤولية تولي هذه المهام نابع من كونه يـــشك في حليـــة أموال السلطان، فأراد أن ينزه نفسه عن التعاطي معها.

ولقد برز دور الصلحاء بقوة في مجتمع المغرب الأوسط في الفترة المدروسة، للتخفيف من درجة الفقر والرفع من مستوى معيشة أفراد هذا المجتمع، وذلك بتشجيع الأغنياء وحثهم على الصدقة التي اتخذها هؤلاء الصلحاء مسلكا لمساعدة الفقراء؛ وإن كان يطغى عليها جانب خيالي ممزوج بالكرامات في أغلب الأحيان.

فقد تصدق "أبو الفضل بن محمد القرشي القرطبي" (تـــ 662 هـــ/ 1263م) لأحد فقراء بجايـــة ممـــن لا يملكون قوت يومهم بصرة من الدراهم، و لم يكن المال لينقص منها بالرغم من شراء الفقير عدة أشياء حـــتى تيسر حاله،[387] وقد كان أبو عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق يهب المال لمن يريدون التجارة فيجنون من وراء ذلك أرباحا طائلة،[388] وكان يشتري بالقليل من المال الأشياء غالية في حقيقتها، فقد اشترى كبـــشا بربـــع درهم، كما لم يكتف هذا الصالح بذلك بل كان يكتال من زرعه للضعفاء طوال السنة، ويخرج لهم مقدرا من

---

[384]- **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، ص 195 .

[385]- **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولاي أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401هـ- 1981م ص 192 - 193.

[386]- ابن مريم: **البستان**، ص89 ــ 90.

[387]- الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 161.

[388]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 162.

المال والقمح صدقة كل جمعة،[389] وكان مجيب الدعاء يدعوا لمن به فقرا أو مرضا أو مصيبة فتتيسر حاله، وكان أبو الحسن علي بن ميمون ضعيفا فقيرا كثير العائلة فدعا له الشيخ فصحّ جسمه وأصبح ذو مال كثير.[390]

وقد تصدق أحد الصلحاء بكل ماله المقدر بـ 500 دينار والذي كان ينوي به شراء ما يحتاجه لرحلة الحج إلى امرأة شريفة شكت له حالها وحال بناتها فآثرها على نفسه، حتى أنه رأى في المنام أن النبي ρ يخبره بأن الله قد أرسل ملكا ليحج في مكانه واستمر في ذلك كل عام جزاءً على ما فعله حيال تلك المرأة الشريفة.[391]

وقد أصبحت الزاوية المكان الذي يأوي إليه هؤلاء الفقراء والمحتاجين لأنهم وجدوا فيها ما يحتاجون من الخيرات التي ترد على شيوخها، فقد كان الشيخ محمد الهواري الذي تأتيه الصدقات والنذور من كل البلاد يتصدق بها كلها على الفقراء ولا يترك لنفسه شيئا، وكان يحث كل الواردين عليه من تجار وأغنياء "بإخراج الزكاة وأنها مطهرة للمال"،[392] ومثله في ذلك الشيخ الحسن أبركان الذي كانت تأتيه الصدقات من كل البلاد حتى من السودان؛ فيجمع كميات كبيرة من الذهب ولا يذخر لنفسه منه شيئا بل يفرقه على المساكين وطلاب العلم،[393] و لم يكتف الشيخ الصالح أحمد الغماري بتفريق ما يصله من الذهب والذي يقدر بمائة والمائتين أو الصدقات على الفقراء والمساكين، بل كان يقوم بخدمة المرضى منهم بنفسه ويحمل الطعام والماء إلى منازلهم ويطمئن على أحوالهم.[394]

وذكر لنا الوزان أن أحد الأولياء الصلحاء القاطن في إقليم البطحاء قد اشتهر بالغنى وكانت تصله الصدقات من كل البلدان لأن صيته قد ذاع في الأفاق؛ فيجمع سنويا من ذلك مبلغ يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف مثقال فيطعم به كل الفقراء، فكانت زاويته ملجأ للغرباء حتى كثر عدد مريديه.[395]

ولا ننسى دور شرفاء المغرب الأوسط أيضا ممن كانت حالهم ميسورة في تحسين مستوى المعيشة، من خلال أعمال البر والتكفل بالفقراء، فيقول أبو عبد الله محمد الشريف عن أحد الشرفاء: "وأما محمد الأصغر بن محمد بن خالد بن عمران بن صفوان مكث بزاوية أبيه بمديونه بحوز تلمسان أقام بحقها، وكان يكسي العريان ويطعم الجائع ويفدي الأسارى وكان مقصودا لذلك".[396]

فإضافة إلى البعد الديني والتعليمي التي اتسمت به الزوايا في المغرب الأوسط كانت تضطلع بدورها أكثر في

---

[389]- **المصدر نفسه**، ص 160، 163.

[390]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 165.

[391]- ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 26 أ - 26 ب.

[392]- ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 56، 104- 105.

[393]- **المصدر نفسه**، ص 129.

[394]- **المصدر نفسه**، ص 194 - 195.

[395]- **وصف إفريقيا**، 2 / 28 - 29.

[396]- **روضة الأزهار في التعريف بآل محمد المختار**، ورقة 32 أ.

الميدان الاقتصادي والاجتماعي من خلال عمليات التضامن هذه والتكفل بالفقراء والمحتاجين والإنفاق عليهم.

ولا سبيل للإنكار أن بعض الفئات ميسورة الحال في المغرب الأوسط قد ساهمت في تحسين مستوى معيشة الأفراد؛ فقد ذكرت لنا كتب النوازل صورا هامة من تكفل ذوي الكفاف بالفقراء في مجتمع المغرب الأوسط، "فقد سئل عمران المشدالي عمن تصدق من أضحيته على فقير هل يسوغ للفقير بيع ما تصدق به عليـــه مـــن ذلك"،[397] وسئل أيضا ابن مرزوق: "عن قوم يعينون أشجارا من التين والعنب للضعفاء والمساكين".[398]

ومن خلال صور التضامن والتكافل هذه نستطيع القول أن السلطة والصلحاء في مجتمع المغرب الأوسط قد شكلا ثنائية كان إحداثياتها متوازيين إن لم نقل أن الثقل قد مال في كثير من الأحيان إلى جهـــة الـــصلحاء، ففرضت الأولى نفسها على المجتمع بقوة الملك والسلطان، وفرضت الثانية نفسها بقوة الكرامـــات والزهـــد والإيمان وبساطة العيش وخوارق العادات، وساهم كل منهما إلى جانب بعض الفئات ميسورة الحال في تحسين مستوى المعيشة فيه، والتقليل من درجة الفقر والمساهمة في رأب فجوة التفاوت الطبقي بين فئات هذا المجتمع.

إن دراسة مستوى المعيشة لا يرتكز فقط على هذه المعطيات التي اعتمدنا عليها، بل تتعدى إلى دراسة نسبة الأمية أو المستوى الثقافي أيضا، غير أنه من الصعب إثبات ذلك في غياب معطيات دقيقة نتوصل من خلالها إلى معرفة نسبة التعلم في مجتمع المغرب الأوسط، فضلا عن دراسة الحالة الصحية لهذا المجتمع والتي آثرنا الحديث عليها بوضوح لاحقا.

إن مستوى المعيشة في مجتمع المغرب الأوسط في الفترة ما بين (588-927 هـــــ/1192 - 1520م) تعـــد مسألة نسبية متغيرة تبعا للظروف التي يعيشها هذا المجتمع سياسية كانت أو اقتصادية؛ فإذا كانت أزمة الجوع أو الوباء من بين العوارض أو الأزمات المفاجئة التي تؤدي إلى حدوث خلل في مستوى المعيشة لمجتمع المغـــرب الأوسط، فما هي أسباب حدوث هذه المجاعات؟ .

ثانيا: المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط -قراءة في الأسباب-

1- أسباب حدوث المجاعات

من المعلوم أن المجاعة تأتي كنتيجة حتمية عن جملة من المسببات والتي أرجعها ابن خلدون إلى "قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة، فيقل احتكار الزرع غالبا، وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمر الوجود ولا على وتيرة واحدة، فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة، والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر الزرع والثمار والضرع على نسبته، إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلى الزرع وعجز عنه أولوا الخصاصة فهلكوا، وكان بعض السنوات الاحتكار مفقود فشمل الناس الجوع".[399]

---

[397]- الونشريسي: **المعيار المعرب**، 1 / 36.

[398]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 60 أ.

[399]- **المقدمة**، ص 282.

ومن هذا النص يمكن أن نستخلص أسباب المجاعات في نقطتين أساسيتين هما كما يلي:

* أسباب بشرية: تمثلت في كثرة الضرائب على الفلاحين وتدهور الوضع السياسي بسبب الحروب والفتن، فضلا عن قلة احتكار (تخزين) الناس للزرع.

* أسباب طبيعية: ارتبطت وثيق الارتباط بالعامل المناخي ومدى وقع تغيراته على الزرع والضرع، وسنحاول التفصيل في كل سبب على قدر ما تجود علينا المصادر من معطيات.

أ- الأسباب البشرية

أ1- الضرائب وأثرها على النشاط الفلاحي

لا سبيل إلى الإنكار أن الضرائب بمختلف أنواعها تعتبر من أهم الموارد المالية التي تساهم بدرجة أكبر في دخل الدولة، فلا غرو فقد ربط ابن خلدون هذه الضرائب بعمر الدولة والتي تكتفي في بداية عهدها بفرض الضرائب الشرعية كالزكاة والعشور والخراج والجزية، في حين تستحدث الدولة آخر عمرها ضرائب ومغارم جديدة، وبذلك تكثر الوظائف على الفلاحين والتجار والباعة في الأسواق "ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال بذلك يتزايد إلى أن تضمحل".[400]

ومن المعلوم أن دولة الموحدين وحتى نهاية القرن 6 هـ/12م قد انتهجت سياسة ضرائبية محكمة، لاسيما وأنها قد نبذت ما استحدثه المرابطون من ضرائب ومغارم لا شرعية أواخر دولتهم،[401] فخلال القرن 6 هـ/12م كانت ضرائب الموحدين شرعية اقتصرت على الزكاة والعشور والخراج[402] والجزية وأخماس المعادن والغنائم، وكانت الدولة تستوفي من بلاد المغرب الأوسط وحده جباية وافرة، فأتسع خراجها على عهد الخليفة أبي يعقوب (يوسف بن عبد المؤمن) حيث كان "يرتفع إليه خراج إفريقية وجملته كل سنة وفر مائة وخمسين بغلا هذا من إفريقية وحدها خلا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها"،[403] وقد كان يصلها أيضا في فترات أخرى: "من إفريقية أربعة آلاف فرس ومائة وخمسين حملا من المال الصامت، وكان الذي وصل من تلمسان ونظرها ألف فرس وخمسين حملا من المال الصامت".[404]

لقد اتبعت الدولة الموحدية في ذلك سياسة حازمة مع عمال الجباية محاسبة لهم حسابا عسيرا، فقد كانت

---

[400]- **المصدر نفسه**، ص 263.

[401]-**رسائل موحدية**،1 / 64 (الرسالة 6)، ابن القطان: **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990م، ص 193 - 194.

[402]- يقصد بالزكاة عند الموحدين زكاة الفطر، أما العشور فيقصد بها زكاة الحرث والماشية، أنظر: ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 302، أما الخراج في الدولة الموحدية فيشير ابن أبي زرع أن عبد المؤمن بن علي هو من فرضه بعد عودته من غزوة المهدية سنة 555 هـ/ 1160م حيث يقول: "وكسرها من بلاد إفريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولا وعرضا فأسقط من التكسير الثلث من الجبال والشعراء والأنهار والسباخ والطرقات والحزون، وما بقي قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق، فهو أول من أحدث ذلك في المغرب" أنظر: **روض القرطاس**، ص 260، لكن عز الدين عمر موسى يشير إلى أن هذه الرواية تخلط ما بين طريقة جباية الخراج وفرضه، لأن الخراج موجودا قبل فترة الموحدين بكثير، أنظر: **النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي**، ص 180- 203.

[403]- المراكشي: **المعجب**، ص 181.

[404]- ابن صاحب الصلاة: **المن بالإمامة**، ص 331.

تقوم بنقلهم من مكان إلى آخر حتى لا تشتد شوكتهم، فإذا تبين أنهم غصبوا كان مصيرهم الامتحان أو العقاب بمصادرة أموالهم، فقد عوقب لهذا السبب شيخ كومية أبي زكريا بن حيون وابنه الذي كان مشرف تلمسان وغيرهم سنة 579 هـ/1183م،[405] ومثلهم كان مصير العديد من عمال الجباية في مناطق أخرى من بلاد المغرب، وكل ذلك من أجل الحفاظ على أموال الرعية والدولة من النهب، وقد جعلت الدولة الموحدية القبيلة هي الوحدة الأساسية لجمع هذه الضرائب في البلاد الشرقية والغربية على حد سواء.[406]

وبفضل هذه السياسة الضرائبية المحكمة تمكنت الدولة الموحدية من توفير موارد ضخمة قامت باستغلالها في مختلف المشاريع العمرانية وبناء وتشييد المرافق الضرورية في المدن والبوادي على حد سواء،[407] وخصوصا فترة حكم الخليفة يعقوب المنصور (580-595 هـ/1184- 1198م).[408]

غير أن هذه السياسة الضرائبية بدأت في فترة ما بعد موقعة العقاب تسير نحو الاضمحلال لجملة من الأسباب؛ من بينها العامل الطبيعي كتوالي سنوات القحط والمجاعات وما نجم عنه من غلاء في الأسعار، بالإضافة إلى العامل السياسي بسبب كثرة الفتن والثورات فتعذرت الجباية وتناقص الخراج،[409] فلا ريب أن الموحدين قد استحدثوا ضرائب ومغارم جديدة من أجل تجاوز هذه الأزمة وسد نفقات الجيش، والأسوأ من ذلك استخدام هذا الجيش في جمعها،[410] ولا شك في أن ذلك قد سرع عملية الانحطاط الاقتصادي الذي شهدته الدولة في هذه الفترة،[411] ولعل ذلك ما يفسر أيضا موجة المجاعات والغلاء التي لم يكن العامل الطبيعي وحده هو السبب في حدوثها.

ومجتمع المغرب الأوسط لم يسلم من هذه التعسفات الضريبية في نهاية الحكم الموحدي، ثم زمن الدولة الحفصية المسيطرة على الأجزاء الشرقية منه في أغلب فتراته المتأخرة، والذي يهمنا هنا هو: معرفة نظامها الجبائي بحكم المجال الجغرافي الذي اخترناه للدراسة.[412]

ـ النظام الضريبي للدولة الحفصية

بالإضافة إلى الضرائب الشرعية من زكاة وخراج وجزية وعشور؛ فقد تعددت المجابي زمن الحفصيين

405– ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 155.

406– عز الدين عمر موسى: **المرجع السابق**، ص 176- 179.

407– محمد زنبير: **أزمة الحكم الموحدي في النصف الأول من ق 7 هـ/ 13م** ، ص 14.

408– ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 286.

409– أنظر: ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 252 - 253، 266 - 267، 339، محمد المغراوي: **الموحدون وأزمات المجتمع**، ص 164- 173.

410– يتبين ذلك من خلال إلغاء الخليفة الرشيد ثم الواثق المغارم المفروضة قبلهم والاقتصار فقط على الضرائب الشرعية، أنظر: ابن عذاري: **المصدر السابق**، 284، 455.

411– ويري بعض الباحثين أن سقوط الدولة الموحدية يعزى بالدرجة الأولى إلى العامل الاقتصادي ومن بينه ضعف مداخيل الجباية، راجع: محمد زنبير: **المرجع السابق**، ص 9 - 23.

412– وقد آثرت بداية الحديث عن النظام الضريبي الحفصي بحكم أسبقية ظهور السلطة الحفصية عن الإمارة الزيانية تساوقا مع التسلسل الكرنولوجي لتاريخ هذين الحكمين.

مشكلة بذلك ثقلا على مختلف الفئات العاملة، أين فرضت جملة من المكوس على التجار والحرفيين والباعة بالأسواق[413] في بجاية وأعمالها، وذلك ما كشفت عنه مسألة الفقيه أبي العباس أحمد البجائي الشريف، والتي استفتى فيها ابن الحاج التلمساني (تـ 930 هـ/ 1523م) حول موضع كثر فيه الظلم والجور وانتشرت فيه مختلف الآفات كشرب الخمر، وكثرت فيه أعمال المكس على الباعة في الأسواق؛ وهناك من اضطر إلى المكوث في هذا الموضع لأخذ العلم عن علمائه دون قدرته على تغيير المنكر إلا قليلا، فهل يجوز له شراء المبيعات التي عليها مكس إن تحتم عليه الأمر دون أن يقع في المهالك؟ فكان جواب الفقيه المذكور: هو هجرة المكان المقصود وعدم المكوث فيه إلا إذا انسدت به السبل، وأن العلم لا يأخذ إلا من يلتمس فيهم الورع، كما أنه لا يشتري من المبيعات إلا ما يحتاج إليه" ويتجنب شراء المأخوذ في المكس من غاصبه ويشترى مما بقي على ملك صاحبه"،[414] وذلك ما يوضح أيضا موقف الفقهاء المعارض لأعمال المكس وسائر الأعمال التي لم يقرها الشرع.[415]

إضافة إلى مختلف الخطايا والمغارم التي تلزم السلطة الأفراد على دفعها، كالغرامة المالية التي يدفعها المسجون حتى يطلق سراحه،[416] ولا ننسى أيضا أنه في حالة الحرب أو الثورات تفرض الدولة على الرعية ضرائب جديدة، كما أن الثوار المناهضين للسلطة كانوا غالبا ما يفرضون الجباية على أهل المناطق التي يحتلونها قسرا، فقد تحالف الوزير سليمان بقسنطينة مع صاحب بسكرة يوسف بن مزني "ونازلوا جبل أوراس واقتضوا جبايته ومغارمه".[417]

ولا شك في أن الرعية قد ضاقت ذرعا بهذه السياسة الضرائبية المجحفة، وكانوا كثيرا ما يمتنعون عن دفع الضرائب ويتعنتون، فقد شكا أمير بجاية للسلطان أبي عنان المريني أيام دخوله إلى المغرب الأوسط "ما تلقاه من أهل عمله من الامتناع من الجباية والسعي في الفساد"،[418] ولم يكن أبو الحسن المريني ليحط الربع من المغارم في بجاية عندما دخلها سنة 749 هـ/ 1348م،[419] إلا لأنه يعلم بثقلها على الرعية من جهة،[420] ومن جهة ثانية استمالة الرعية وتحسين صورته في مخايلهم، وهذا الأمر له دلالة قوية على حساسية مسألة الضرائب والمغارم بالنسبة للدولة والرعية معا.

---

[413]– البرزلي: **جامع مسائل الأحكام**، 5 / 205 - 206.

[414]– ابن مريم: **البستان**، ص14- 16.

[415]– راجع بخصوص مسألة إغرام ذوي الجنايات والإجرام زيادة على ما أقرته أحكام الشريعة في العهد الحفصي: الشماع الهنتاتي: **مطالع التمام ونصائح الأنام ومنجاة الخواص والعوام**، تحقيق عبد الخالق أحمدون، المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1424هـ – 2003.

[416]– البرزلي: **جامع مسائل الأحكام**، 5 / 208.

[417]– ابن خلدون: **العبر**، 7 / 621.

[418]– **المصدر نفسه**، 7 / 601، **التعريف بابن خلدون**، ص 93.

[419]– **المصدر نفسه**، 7 / 559.

[420]– شملت سياسته تلك كل البلاد ففي بلاد الجريد رفع عنها مغرما يسمى القطيع، أنظر: ابن مرزوق: **المسند**، ص 236.

كما لا ننسى أيضا إصلاحات السلطان الحفصي الواثق في المجال الجبائي " فقد رد الأرض التي قطع أبوه شجرها على أهلها ومحا رسوما ووظائف كانت على الناس"،[421] ومثله فعل السلطان أبو فارس (797 هـــ-838 هـــ/1394 -1434م) حيث ألغى الضرائب غير الشرعية "ورفع المظالم عن الخلق ".[422]

و لم تكن محاولة الإصلاح هذه نابعة من السلطة الحاكمة فقط، بل برز دور الصلحاء أيضا لوضع حد لهذه المظالم والتجاوزات في حق أموال الرعية، فقد طالب العالم الصوفي سعادة الرياحي من عامل الزاب منصور بن فضل بن مزني بإعفاء الناس من المكوس والظلمات، لكنه امتنع عن ذلك وقرر هذا العالم الصوفي محاربته "واعتزم على الإيقاع به فحال دونه عشائر أصحابه".[423]

ونظرا لكون هذه المغارم كانت تساهم بجزء هام في الجباية التي يستفيد منها المخزن الحفصي؛ فقد سهر على تنظيم عملية جمع الضرائب تنظيما محكما، فكان عمال الجباية يقبضون المال بحضور الشهود ويقوم القابض بتسليم البراءات المعلمة التي يتولى تحريرها كتاب فيحصل المستخلص للجباية على براءة تختلف نوعيتها حسب طبيعة الضريبة، فمنها براءة أكرية المخزن أو أكرية الحبس وأخرى تسلم لمكتري إقطاعات الجند من قبل المنتفع بها من قائد الجند أو نائبه، وتمنح أيضا لأهل الذمة بعد دفعهم الجزية.[424]

وتولت السلطة جمع الضرائب من أصحاب النفوذ من الولاة والقواد وشيوخ القبائل والأعراب، وقد اعتمدت في ذلك أيضا على حملات المحلة السلطانية في المدن والقرى والبوادي على حد سواء، والتي غالبا ما تترك آثارا سلبية؛ لأنها غالبا ما تتجاوز حدود مهامها خاصة عندما تقوم بحملات تأديبية على المناطق الرافضة لدفع الجباية، فتكثر بذلك أعمال النهب من طرف الجند لانتزاع الأموال من الرعية عنوة، ناهيك عن كون هذه الحملات كانت تقوم في طريقها بإتلاف المزروعات والمواشي.[425]

و لم تكن هذه المحلات هي الجهاز الأساسي لجمع الضرائب في الدولة الحفصية فهناك من الخطط المخزنية التابعة للسلطان تتولى هذه المهام أيضا، ومن هؤلاء: صاحب الأشغال[426] وحاكم البلاد وحاكم الفحص والقائد والقبائل المخزنية وعامل الجباية وأعوانه من كتاب وشهود وقباض وأصحاب المكوس،[427] وإلى جانب

---

[421]- ابن قنفد: **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، ص 137.

[422]- ابن قنفذ: **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، ص 195.

[423]- ابن خلدون: **العبر**، 6 / 81 - 85.

[424]- البرزلي: **جامع مسائل الأحكام**، 5 / 209.

[425]- محمد حسن: **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، 1 / 531.

[426]- وهي الخطة التي استمدها الحفصيون من النظام الموحدي حيث كان متوليها يشرف على استخراج الأموال وجمعها وضبطها وصرفها، وكان هو المسؤول عن الأعمال المالية في الولايات وعن محاسبة العمال بأمر من الخليفة، وكان لصاحب الأشغال كتّاب يقيدون المجابي ويضبطونها بحضور شهود، وبعد ذلك ترفع إلى الخليفة في الخرائط فيختمها بخاتمه، وتدفع الأموال كلها إلى أمين المخزن لحفضها، أنظر: ابن خلدون: **المقدمة**، ص 232، ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 227، 237، 241، عز الدين عمر موسى: **الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم**، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1411هـــ-1991، ص 169.

[427]- محمد حسن: **المدينة والبادية**، 1 / 532.

ذلك اعتمدت الدولة الحفصية على القرية كوحدة أساسية لجمع الضرائب، فيتولى لذلك أعيان القرى ويقومون بتسجيل أسماء المطالبين بدفع الجباية وجميع الوظائف المخزنية التي تسلط عليهم، ثم يتم تسليمها إلى أعوان السلطان.[428]

وبالرغم من هذه الجهود المضنية في جمع الضرائب، فإنه لا يخفى أن الجهاز الضرائبي في ظل الدولة الحفصية قد عرف خللا في بعض الأزمنة خصوصا في أواخرها، فقد سبق وأن أشرت إلى مختلف المكوس والمغارم المستحدثة، فكثرت بذلك الاتجاهات المطالبة بجمع الضرائب، وعمد أمراء القرى وغيرهم من ذوي السلطة إلى غصب أموال الناس بالباطل، فساد الظلم والغصب في المدن والقرى والبوادي على حد سواء.

- النظام الضريبي للدولة الزيانية

لم يكن النظام الضريبي في الدولة الزيانية بأحسن حال منه في الدولة الحفصية، بالرغم من وصية أبي حمو الزياني لابنه وولي عهده قائلا له: "لا يحملنك حب المال على المسامحة في جور العمال، فإنه إذا هلكت الرعايا عدمت الجباية، وإذا عوملت الرعية بالرفق كثر فيها النماء والرزق"،[429] لكن شتان بين الواقع السياسي وما جاءت به مثل هذه الوصايا النظرية التي لم تكن سوى حبرا على ورق.

وكغيرها من الدول أيضا عرفت الدولة الزيانية نظاما ضرائبيا كان في كثير من جوانبه امتدادا للنظام الضريبي الموحدي أيضا، فشكلت هذه الضرائب الحجر الزاوية بالنسبة للواردات المالية للدولة الزيانية، ومن جملتها الزكاة وهي الصدقات التي تجمعها الدولة من الأغنياء عينا ونقدا وتودع في بيت مال المسلمين، أما العشور فهو ضريبة الأرض والمستمدة من ضريبة الخراج،[430] وبحكم وجود أقلية غير مسلمة في مجتمع الدولة الزيانية فقد كانت تفرض عليهم الجزية، حيث قدرت الجزية المفروضة على يهود البادية خلال القرن 9 هـ/ 15م على سبيل المثال بـ 4 دنانير أي ما يعادل 40 درهما بالوزن الشرعي.[431]

اكتفت الدولة الزيانية في بداية عهدها بفرض ضرائب قليلة، حيث قدرت قيمة المكوس المفروضة على التجار المسلمين 2.5% من جميع البضائع أو المال الناتج عنها، و10% على بضائع التجار اليهود والنصارى، ولم تستمر الدولة الزيانية بنفس هذه الوتيرة بل أحدثت مكوس ومغارم جمركية لا حصر لها، والتي بلغت أشدها أواخر عهد دولة بسبب ضعفها ورغبتها في المحافظة على الجهاد ضد النصارى.[432]

وأهم هذه الضرائب ضريبة جمركية تعرف بالعشر،[433] والتي من الواضح أن التجار يدفعونها عن سلعهم

428- البرزلي: **جامع مسائل الأحكام**، 5 / 206.

429- **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، ص 9.

430- المازوني: **الدرر المكنونة**، 1 / 153 أ -161 ب، (نازلة سئل عنها الوغليسي)

431- الونشريسي: **المعيار المعرب**، 2 / 253.

432- الوزان: **وصف إفريقيا**، 2 / 23، مارمول كربخال : **إفريقيا** 2 / 301 - 302،
Dufourcq : ***L'espagne catalane***, p 521, Atalla Dhina : ***Le royaume Abdelouadide***, p 174 -175

433- وهي التي سنها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على التجار غير المسلمين الذين يدخلون بضائعهم لدار الإسلام نتيجة للمعاملة التي يتلقاها التجار المسلمون في دار الحرب، حيث أمر أن يؤخذ من التجار الذميين نصف العشر، ومن التجار المسلمين ربع العشر إذا بلغ ثمن السلعة

عند أبواب المدن، أين كان التاجر يتعرض إلى معاملة قاسية من طرف من يتولى تلك المهمة من أهل الذمة يهودا أو نصارى، فيقومون بتفتيش التاجر المسلم إن كان في حوزته سلع يريد إدخالها خفية وهربا من دفع المغارم عليها، وحتى النساء لم يسلمن من هذا التعسف عند أبواب المدن فتتولى يهوديات تفتيشهن، مما يدل ذلك على لجوء الدولة الزيانية في هذه الفترة إلى تولية أهل الذمة خاصة اليهود في أعمال الجباية، وهذا ما جعل لهم سلطة على المسلمين، وكل هذه التجاوزات كانت بتلمسان وأعمالها؛ حتى قام أبو الحسن المريني بإلغائها عندما استولى على تلمسان سنة 735 هـ/ 1334م، ولم يعد بعد ذلك للذمي ولاية على مسلم في أعمال المجابي في تلك الفترة.[434]

غير أن السلطان عبد الواحد بن محمد بن تاشفين الزياني (814- 827 هـ/ 1411- 1424م) كان قد اتخذ أعوانا من اليهود لجباية الأموال أيضا، وقبض الأعشار من التجار الأجانب المترددين على سواحل المغرب الأوسط، فاستغلّ اليهود هذه المكانة وتطاولوا على الرعية بشتى أنواع التعدي وأكل أموال الناس بالباطل وتوظيف ضرائب متنوعة.[435]

لكن من الواضح جدا أنه في أواخر ق 9 هـ/ 15م أصبح متولي مهنة قبض العشر في تلمسان، يسمى صاحب الباب أو المعشر، والذي يختار من ذوي البيوتات العريقة هناك، وتختلف قيمة العشر من دون شك حسب نوع السلعة وحجمها، حيث قدرت قيمة عشر ثلاثة قرون مملوءة بالزبد الجيد بنحو 20 دينارا،[436] فلا شك أن المغارم والمكوس التي تأخذ على السلع عند أبواب المدن قد أثرت حتما على العلاقات الإنتاجية بين المدن والبوادي، أو بين المدن نفسها داخلية كانت أم مدن ساحلية.

وقد عرفت الدولة الزيانية إدارتين للجمارك: الأولى بوهران[437] والثانية بهنين في حين كانت الإدارة المركزية لهما بتلمسان، وقد قررت الدولة الزيانية أخذ العشر من قيمة السلع كضريبة جمركية على السفن الأجنبية الوافدة للتجارة، فكان أبو حمو الثاني (760-791 هـ/1358- 1388م) يأخذ العشر من التجار الأجانب أيضا،[438] ولكن السلطان عثمان بن يغمراسن (681- 703 هـ/1282- 1303م) تنازل عن نصف العشر لملك الأرغون، رغبة منه في تنشيط الحركة التجارية بين بلاده والممالك النصرانية.[439]

وطريقة استخلاص الضرائب في الدولة الزيانية لا تختلف كثيرا عنها في الدولة الحفصية، فكانت تجمع عن

مائتي درهم فأكثر، وللإمام الحق أن يزيد في قيمة العشر أو ينقص منه إلى نصف العشر أو يرفعه إذا رأى مصلحة في ذلك، راجع: حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن: **النظم الإسلامية**، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، 1970م، ص 255.

[434]- ابن مرزوق: **المسند الصحيح**، ص 285.

[435]- ابن الأعرج: **زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ**، نسخة مصورة عن مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 170، 3 / 96 أ.

[436]- عبد الباسط: **الروض الباسم**، ص 63 - 65.

[437]- مارمول كربخال: **إفريقيا**، 2 / 302.

[438]- **المصدر نفسه**، 2 / 301.

[439]- وذلك بناء على المعاهدة التي وقعها السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 696 هـ- 1286م، أنظر:
Dhina : ***Les Etats de l'Occident musulman***, p 479.

طريق شيخ القبيلة "الذي يدفع لأعوان السلطان مبلغا من المال جرى الاتفاق عليه"، أما أهل القرى الذين يمتنعون في بعض الأحيان عن دفع الضرائب فإن السلطان عندئذ يتولى الأمر بنفسه أو يرسل بعض أجناده لجمعها بالقوة.[440]

أما خطة صاحب الأشغال[441] فقد كانت معروفة أيضا بالدولة الزيانية، وممن تولاها محمد بن أحمد بن سعود الخزاعي التلمساني في عهد السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن،[442] وإبراهيم الآبلي[443] لفترة قصيرة في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول في حدود سنة 708 هـ/1308 م،[444] ويحيى بن أبي العيش الخزرجي التلمساني الإشبيلي الأصل قبل سنة 775 هـ/ 1373م في عهد السلطان أبي حمو الثاني.[445]

وقد سبق أن أشرنا أن الدولة الزيانية قد فرضت على التجار والباعة في الأسواق جملة من المغارم: "كالمغرم على الحطب والبيض والدجاج وسائر المرافق التي يفتقر إليها القوي والضعيف وإجحاف الضعيف بها أشد"، ناهيك عن المغرم الذي فرضته في حالة سرقة المخزن أو اختفاء سلعة منه؛ حيث يحمل الولاة التجار مسؤولية غرمها سواء بتغريم مقدار خمسة من المخازن أو بأخذ السلع منهم.[446]

لقد تعدت هذه الضرائب مجراها الشرعي في تلمسان وأعمالها، ولم تكتف السلطة بذلك بل استحدثت ألقاب ومظالم لم يظهر مثلها في مكان آخر، مثل ما يسمى "الحبل والمطوى" والذي يسمى بالبربرية "إيبزغدن" وهو مطالبة من يخرج مسافرا من وطنه بسبب الفقر والحاجة ولم يترك مستغلا، يطالب بدفع هذا المغرم من

---

[440]- عطا الله: **الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدولة بني زيان،** ضمن كتاب: **الجزائر في التاريخ،** 3 / 487.

[441]- أنظر عن هذه الخطة: بوزياني الدراجي: **نظم الحكم في دولة بني عبد الواد،** الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993م، ص 179، خالد بلعربي: **الدولة الزيانية في عهد يغمراسن،** ص 134- 135، المنوني: **ورقات عن حضارة المرنين،** ص 83 - 84، عيسى الحريري: **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني،** ط1، الكويت: دار العلم 1405هـ - 1985م، ص 270.

[442]- يحيى بن خلدون: **بغية الرواد،** 1 / 208، رفيق خليفي. **البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط،** ص 205.

[443]- هو محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري التلمساني الشهير بالآبلي شيخ العلوم العقلية، أصله من الأندلس من أبلة من بلاد الجوف، انتقل أبوه وعمه إلى تلمسان وعملا في بلاط سلطانها يغمراسن، فتزوج أبوه ابنة القاضي محمد بن غلبون فكانت ولادته سنة 681 هـ - 1282م، ونشأ في رعاية جده القاضي فكان ميالا لأخذ العلوم فنبغ فيها خصوصا العقلية منها، وتتلمذ على يده ثلة من علماء المغرب أمثال: ابن خلدون والمقري وغيرهم، وكانت وفاته سنة 757 هـ - 1356م، أنظر: ابن خلدون: **التعريف بابن خلدون،** ص 40 – 41، 49، 53، يحيى بن خلدون: **المصدر السابق،** 120/1، ابن القاضي: **جذوة الاقتباس،** 1 / 340، المقري: **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض،** تحقيق سعيد أعراب وعبد السلام الهراس، المغرب- الإمارات العربية: للجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، 1400هـ- 1980 60/5، نفسه: **نفح الطيب،** 244/5، التنبكتي: **نيل الابتهاج،** ص 411 – 416، نفسه: **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج،** تحقيق عبد الله الكندري، ط 1، بيروت: دار بن حزم، 1422هـ- 2002، ص 319، ابن مريم: **البستان،** ص 214 – 219، رفيق خليفي. **البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط،** ص188-200.

[444]- ابن خلدون: **المصدر السابق،** ص 51.

[445]- يحيى بن خلدون: **بغية الرواد،**104/1، ابن الأحمر: **روضة النسرين،** ص 80، رفيق خليفي. **البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط،** ص 152.

[446]- ابن مرزوق: **المسند،** ص 285.

البلاد ليسافر إليها وإن غاب لسنوات طويلة يطالبون ذريته بدفع هذا المغرم عنه،[447] فضلا عن أن أهل الدور المنتفعين بالماء في تلمسان كانوا يدفعون وظيفا على ذلك.[448]

ولا يفوتنا أن نشير إلى حالات الحروب والفتن التي تفرض بسببها ضرائب جديدة على الرعية من طرف السلطة أو الثوار المناهضين لها أو من طرف احتلال خارجي، عندئذ تفرض الجباية عن المناطق التي تخضع للطرف المناهض وهذا ما أكدته مصادرنا من خلال نماذج كثيرة، إذ يشير ابن خلدون عند الحديث عن استبداد أبي سالم المريني على الجزائر واستئثاره بجبايتها لصالحه فيقول: "وأقام سالم على أمره من الاستبداد بتلك الأعمال واستضافة جبايتها لنفسه"،[449] ولا شك أن ذلك يضر بالرعية كثيرا ويؤدي إلى انتشار الفقر بينهم.

ولا يفوتنا القول هنا أن الدولة الزيانية كانت في إحدى فتراتها تدفع الجباية للدولة المرينية، يقول ابن خلدون: "و لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكا على تلمسان، ومقيما فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم مؤديا الضريبة التي فرضها عليه".[450]

ولا ريب في أن الرعية قد ضاقت ذرعا من هذه السياسة الضرائبية المجحفة حتى قام أبو الحسن المريني بإسقاط هذه المظالم والغصوبات عن تلمسان وأعمالها عند احتلاله لها سنة 735 هـ/1334م.[451]

أفرزت ثقل هذه المغارم على التجار سلوكات عديدة داخل المجتمع الزياني، فقد يستعين التاجر بأحد الصلحاء لإدخال سلعه دون علم هذا الولي بوجود سلع في راحلة التاجر، فيسلم التاجر من دفع المغرم عليها ببركة هذا الولي حسب اعتقادهم،[452] وقد يلجأ التاجر أيضا إلى استخدام الحيلة من أجل إدخال سلعه خفية تفاديا لدفع العشر عليها، ولا شك أن العقاب يكون عسيرا إذا ما علم صاحب الباب بمثل هذه المخالفات، عندئذ يلجأ التاجر إلى طلب الوساطة من ذوي الجاه أو العلم لحل مثل هذه المشاكل.[453]

وقد كانت الدولة الزيانية تعفي من الضرائب بعض الفئات ممن كانت ترجوا خدماتهم، فقد أعفى السلطان الزياني أبو سعيد عثمان بن يغمراسن فئة الجند النصارى من الضرائب بموجب المعاهدة التي عقدت بينه وبين

---

[447]- **المصدر نفسه**، ص 285 - 286.

[448]- ابن مرزوق الحفيد: **نوازل**، ورقة 25 ب.

[449]- **العبر**، 7 / 287 - 288.

[450]- **المصدر نفسه**، 7 / 757.

[451]- ابن مرزوق: **المسند**، ص 286.

[452]- فقد روى لنا ابن مرزوق هذه الواقعة التي وقعت لأحد التجار في تلمسان مع الشيخ أحمد بن منصور فقال: "سمعت الناس يوما يتحدثون عنه فقالوا أحواله اليوم غريبة وهي: أن رجلا كان له متاع خارج البلد، وشيء من الفلفل يحمله على بغلته، لأن يدخل به البلد وكان عليه مغرم ثقيل. فلقي الشيخ أبا العباس وهو داخل البلد فحلف عليه التاجر أن يركب ورائه فركب، فلما رآه ركب هرب رجاء أن لا يتعرض له في الباب فيسلم من المغرم، فلما دخل قال له البواب سيدي أحمد: ما هذا الذي تحتك فقال له: وأي شيء يكون تحتي؟ المتاع والفلفل -في معرض التهكم- فقال له أدخل يا سيدي، فلما دخل إلى البلد جاء التاجر إلى دابته فقال له: يا بني حيرتني فإن زرعك هذا سئلت عنه فقلت: كذا، فقال له التاجر: هو والله ما قلت يا سيدي، وكان الشيخ يضنه زرعا"، أنظر: ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 180 .

[453]- عبد الباسط: **الروض الباسم**، ص 63 - 65.

ملك الأراغون سنة 696 هـ/ 1296م[454] السابق ذكرها .

ونظرا للمكانة الرفيعة التي يتمتع بها العلماء في مجتمع الزياني؛ فإن السلطة غالبا ما تعفي البعض منهم من مختلف الضرائب، فقد أعفى السلطان أبو تاشفين العالم التاجر أحمد بن عمران البجائي من "مغارم ووظائف السلع وأعطاه مع ذلك مائتي دينار ذهبا" [455] لمكانته العلمية والدينية، وقد أقطع أحد الأمراء لتلميذ أحمد بن يوسف الراشدي محمد بن علي المصراتي أرضا وأعفاه من ضرائبها [456] لصلاحه وورعه.

وقد برز دور الصلحاء بقوة أيضا كطرف معارض للسلطة ضد أشكال المكوس والمغارم المفروضة على عامة الناس، فقد شارك الصوفي أبو عبد الله بن شعيب مع العامة في ضرب المكاس محتجا بقوله: "ليس في الشريعة مكس"،[457] وقد اختار أهل العباد مكانا بالقرب من موضع ضريح أبي مدين لممارسة التجارة حتى يدخلون السلع دون دفع الضرائب عليها حتى ضاقت المجابي في تلك الفترة فشكا العامل هؤلاء إلى السلطان وأراد أن يهدم هذا الموضع فدعا عليه والد بن مرزوق فمات شرّ ميتة،[458] وقد كان الناس الملزمين بدفع الضرائب يهربون إلى حرم الشيخ أحمد الغماري ليستجيروا به حتى يدفع الظلم عنهم.[459]

هذا باقتضاب عن النظام الضريبي الذي عرفه المغرب الأوسط زمن الدراسة، ولسنا هنا في معرض التفصيل بقدر ما يهمنا أن نعرف المظالم والتجاوزات التي مورست ضد الرعية باستحداث السلطة وبعض المستبدين لمغارم ووظائف غير شرعية، ومدى تأثير ذلك على النشاط الفلاحي بالدرجة الأولى.

فإذا كان عالم البادية هو المتضرر بالدرجة الأولى من مظاهر الظلم والغصوبات؛ فما هي أهم الضرائب التي فرضت على البوادي والقرى؟ وما هي آثارها على النشاط الفلاحي في المغرب الأوسط؟

ـ ضرائب عالم البادية: دراسة وتقييم

لئن كان النشاط الفلاحي يمثل حجر الزاوية بالنسبة لعالم البادية،[460] وعصب قوام اقتصاد المغرب الأوسط في الفترة الوسيطة، فإن أي خلل يصيب هذا النشاط سوف يؤثر حتما على الغذاء والإنتاج معا،"فالفلاحة هي العمران ومنها العيش كله والصلاح جله، وفي الحنطة تذهب النفوس والأموال، وبها تملك المدن والرجال... وببطالتها تفسد الأحوال وينحل كل نظام"،[461] وفي ذات السياق يضيف ابن العوام

454- Dhina **: *Les Etats de l'Occident musulman,*** p 479.

455– التنبكتي: **نيل الابتهاج**، 2 / 90، نفسه: **كفاية المحتاج** ، ص 43.

456– ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 113ب.

457– الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 173.

458– ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 229.

459– ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 220 - 221.

460– تجد الإشارة إلى أن من العلماء من كان يشتغل في البادية بالفلاحة، فقد كان ابن مرزوق يمتهن ذلك، كما أن ابن الحاج التلمساني (تـ 681 هـ/1281م) الذي استوطن تلمسان كان هو وبنوه من بعده يحترفون الفلاحة، أنظر: ابن مرزوق: **المسند**، ص 147، يحيى بن خلدون: **بغية الرواد** 1 / 48 - 49.

461– ابن عبدون. **رسالة في الحسبة**، نشر: ليفي بروفنسال تحت عنوان: ***Le Traité d'Ibn 'Abdùn*** ضمن Journal Asiatique. Paris, 1934, p 3.

الإشبيلي (ق 6 هـــ/ 12م) قائلا: "بالغراسات والزراعات تكثر بمشيئة الله الأقوات".[462]

ولا شك في أن البادية كانت المصدر الرئيس لجباية الدولة إضافة إلى موارد أخرى، ولهذا يكون الفلاحون أكثر الناس تضررا بالإجراءات الضريبية المتعسفة،[463] وبالرغم من أن ابن خلدون قد اعتبر أن قيمة "المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة وكثرتها في الأمصار لا سيما في آخر الدولة"[464] وهذا أمر طبيعي، إلا أن الضرائب المستحدثة في عالم البادية تشكل لا محالة حجر العثرة أمام تطور النشاط الفلاحي.[465]

ومن المعلوم أن جملة الضرائب الشرعية التي تأخذ من أهل البادية المشتغلين بالفلاحة في المغرب الأوسط هي زكاة الحرث والماشية والخراج[466] والعشور التي أشار إليها المازوني على أنها مما يدفع للفقراء من الزرع.[467]

إن سياسة الموحدين الضريبية وتنظيمهم الجبائي المحكم سواء في المدن أو البوادي –كما أسلفت– قد آتت أكلها مما أدى إلى استقرار الزراعة وتشجيع الناس عليها في فترة ما قبل معركة العقاب،[468] لكن من المؤسف أننا لا نملك معلومات حول مختلف المغارم المستحدثة في البوادي الدولة الموحدية فترة ما بعد العقاب، غير أننا نعلم أن مداخيل الجبايات في هذه الفترة قد تقلصت بسبب اضطراب الأحوال السياسية،[469] وتراجع النشاط الفلاحي في هذه الفترة عما كان عليه، ولعل ذلك كان أحد الأسباب المساعدة على الانهيار الاقتصادي الذي عرفه الموحدون أواخر دولتهم.

فإضافة إلى الضرائب القانونية المذكورة عرفت بادية المغرب الأوسط فترة ما بعد الموحدين جملة من المغارم والإتاوات وهذا ما بينته لنا بعض نوازل الفترة بوضوح، والتي شملت كل الفئات العاملة داخل هذا المجال كأهل الصنعة أو الحراثين أو الجنانين يفرضها عليهم السلطان أو عماله أو أشياخ القبائل، وهذه المغارم كانت تدفع إما نقدا أو زرعا أو دقيقا أو شمعا.[470]

---

[462]– **كتابة الفلاحة**، مدريد، 1802م 1 / 1- 2.

[463] – لقد تجسدت لنا البادية كمصدر جباية مهم للدولة من خلال وصية المعز لدين الله الفاطمي لبلكين بن زيري الصنهاجي يوم استخلفه على إفريقية والمغرب، قائلا: "إن نسيت ما أوصيتك فلا تنس ثلاثة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية،.. وافعل مع أهل الحاضرة خيرا"، أنظر: ابن الخطيب: **أعمال الأعمال (القسم المغربي)**، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1964م، ص 65، ابن عذاري : **البيان المغرب**، 3 / 263، ابن ظافر الأزدي: **أخبار الدول المنقطعة**، تحقيق عصام هزايمة وآخرين، ط1، الأردن: مؤسسة حماد – دار الكندي، 1999م، 1 / 34، ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، (د.ت)، 1 / 286.

[464]– **المقدمة**، ص 338.

[465]– محمد حسن: **المدينة والبادية**، 1 / 530.

[466]– برنشفيك: **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، 2/ 198- 200، وتجدر الإشارة هنا إلى أن زكاة الحرث والماشية زمن الموحدين كانت تجمع عينا ونقدا، وتستفيد الدولة منها عينا لأنها تقوم بتخزينها في مطامير حتى يستعملها الجيش عند مروره في حملاته العسكرية، وقد يجمع هذا الزرع في مكان واحد ليشغل في أوقات الحاجة، أما الخراج فقد أسلفت الذكر أن عبد المؤمن قد فرضه على الأراضي الصالحة للزراعة وأسقط الثلث الذي تمثله الجبال وكل المناطق التي لا تصلح للزراعة، راجع: عز الدين عمر موسى: **النشاط الاقتصادي**، ص 175- 176.

[467]– **الدرر المكنونة**، 2 / 32 أ (نازلة سئل عنها أبو عبد الله الزواوي) .

[468]– عز الدين عمر موسى: **المرجع السابق**، ص 180- 203.

[469]– محمد زنبير: **أزمة الحكم الموحدي**، ص 22 .

[470]– المازوني: **المهذب الرائق** ، ورقة 55 ب، المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 38 أ (نفس النازلة).

ومن جملة المغارم المفروضة على أهل بوادي المغرب الأوسط من الفلاحين وظيفا يخص الثمار يسمى بنصف الأثمن،[471] وغرامة الأزواج الحارثة وإتاوة أخرى تأخذ على الأراضي الرعوية أطلق عليها اسم خراج الجبال،[472] إضافة إلى وظيفة مغرم الماء التي كانت سائدة في تلمسان وأعمالها، حيث كان ساقي الجنات يضطر إلى دفع مغرم للبراءة لصاحب الحوز والحراس، وهو من جملة المغارم التي ألغاها أبو الحسن المريني عند استيلاءه على المغرب الأوسط.[473]

وقد كانت هذه المغارم والمجابي في بادية المغرب الأوسط تجمع لفائدة عدة جهات؛ [474] وأولها الدولة[475] أو إلى الأشخاص التابعين لها كبعض الأمراء المتسلطين،[476] أو لصالح بعض أشياخ العرب المتغلبين على القرى،[477] أو بعض الملاك العقارين الذين يكترون الأرض لصغار المزارعين،[478] أو بعض أشياخ القبائل،[479] وبعض أشياخ الرعية المتجبرين،[480] ولهذا عرف النظام الجبائي في بادية المغرب الأوسط خللا كبيرا؛ فتعددت المجابي والمغارم وكثرت الجهات المطالبة بها، مشكلة لا محالة عائقا كبيرا أمام تطور النشاط الفلاحي داخل هذا المجال.

ومن البديهي أن يشكل هذا النظام الجبائي المتعسف ثقلا على الفلاحين، فهذه الضرائب تمثل في الواقع أكثر من نصف المحصول، كما أنها غالبا ما كانت تسبق عمل الفلاح غير آبهة إن كان حرثه سيسلم من أي جائحة طبيعية أو من تجاوزات السلطة،[481] فلا غرو فقد اعتبر بعض الفقهاء تسلط السلطان الجائر على الزرع جائحة أيضا.[482]

وهروبا من هذه المغارم الثقيلة لجأ أغلب الفلاحين إلى طلب الوساطة من ذوي الجاه والنفوذ ليشفعوا لهم عند السلطة أو الجهات المسؤولة ليخلصوهم منها، فقد سئل الوغليسي "عمن له أرض للحراثة ويعجز عن رفع المظالم التي ينشئها العامل على الحراثين، فيأتي لذي سلطة وجاه ويقول له: أشترك معك في حرث الأرض على أن تلزم لي جميع المغارم والملازم"،[483] وسئل ابن مرزوق أيضا: "عن رجلين اشتركا في حراثة أرض فأعطى كل واحد منهما ما يلزم من البذر والغرامة وسائر الملازم، ثم بعد ذلك جاء غاصب فغصب بقر أحد

---

[471]- المازوني: **المصدر السابق،** 1 / 509 ب (نازلة سئل عنها محمد بن مرزوق)، 2 / 43 ب (نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني)

[472]- **المصدر نفسه،** 2 / 32 أ (نازلة سئل عنها أبو عبد الله الزواوي) .

[473]- ابن مرزوق: **المسند،** ص 285 – 286، ابن مرزوق الحفيد: **نوازل**، ورقة 25ب.

[474]- راجع عن محصلي الضرائب في بادية إفريقية الحفصية: محمد حسن : **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي،** 1 / 530.

[475]- المازوني: **المصدر السابق،** 43/2 ب – 44 ب (نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني، ونازلة أخرى سئل عنها محمد بن مرزوق).

[476]- **المصدر نفسه،** 1 / 37 أ (نازلة سئل عنها محمد بن العباس) .

[477]- **المصدر نفسه،** 1 / 496 أ – 496 ب (نازلة سئل عنها محمد بن بلقاسم المشدالي)، ابن الأعرج: **زبدة التاريخ**، ورقة 96 ب.

[478]- **المصدر نفسه،** 2 / 46 ب (نازلة سئل عنها محمد بن مرزوق) .

[479]- **المصدر نفسه،** 2 / 32 أ (نازلة سئل عنها أبو عبد الله الزواوي) .

[480]- **المصدر نفسه،** 1 / 284 أ (نازلة سئل عنها علي بن عثمان البجائي) .

[481]- محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع،** ص 379.

[482]- المازوني: **المصدر السابق،** 2 / 49 ب (نازلة سئل عنها محمد بن العباس).

[483]- المازوني: **الدرر المكنونة،** 2 / 25 ب.

الشريكين". [484]

وما لجوء بعض الفلاحين إلى مثل هذه الشراكة إلا ليؤمنوا محصولهم من مظالم الجباة وكثرة المغارم عليهم بالرغم من فتوى هؤلاء الفقهاء -وعلى رأسهم الوغليسي- بعدم جواز هذه الشراكة، لأن القصد منها التملص من المغارم لا غير. [485]

ومن الثابت أيضا أن أعمال السخرة لصالح ذوي السلطة تعد مظهرا آخر من مظاهر الظلم المنتشرة في بادية المغرب الأوسط، وقد تحدث ابن خلدون عن هذه التجاوزات واستنكرها بشدة: "ومن أشد الظلمات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال وتسخير الرعايا بغير حق، وذلك أن الأعمال من قبيل المتمولات... فإن الرعية المعتملين في العمارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك، فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سخريا في معاشهم، بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم، فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجمل". [486]

لقد مست أعمال السخرة في بوادي وقرى المغرب الأوسط الجانب الفلاحي بدرجة أكبر، فلم تتوان النوازل بعرض البعض من صورها وأوجهها، فقد ذكر المازوني نازلة سئل عنها محمد بن مرزوق عن "رجل من أعيان القبائل يعطيه السلطان أرضا ينتفع بجبايتها، فيعتمد على من تحت شياخته في زمن الحرث، فيأخذ منهم زرعا (أي بذرا) اغتصابا، ويأمرهم أن يحرثوه في أرض اغتصبها لآخر معهم ببقرها، ويكلف فيه العمل على الخماسين أو على أرباب البقر، ثم إذا حان حصاده كلفهم أيضا وبما حوش عليه غيرهم بحصاده ودرسه ودوره وتصفيته وكيله ونقله على دوابهم لمخزنه ويجعل عليهم في ذلك بعض خدامه يحركهم فيه فيفعلوا عن قهر منه". [487]

ولا مراء بأن أعمال السخرة هذه قد حولت صغار الفلاحين إلا أجراء؛ فقد كانوا يعملون ويكدون مقابل أجر زهيد يتمثل في خمس الإنتاج، [488] خاصة وأن العمل بنظام الخماسة كان منتشرا في بوادي المغرب الأوسط، [489] إذ كان الفلاح يعيش تحت رحمة الملاك وهو رهينة للفقر والجوع، ومستواه المعيشي لا يحسد عليه، بالرغم من أنه الطرف الذي ينتج أكثر، إلا أن مردوده ضئيل لا يفي بحاجاته الضرورية خاصة إذا كان يعمل كأجير، كما أن العلاقة بين ملاك الأراضي والمزارعين الصغار قد كانت غير متكافئة مهما اختلفت طبيعة هذه العلاقة والنظام الإنتاجي القائم بينهما.

---

[484]- **المصدر نفسه،** 2 / 23 أ .

[485]- **المصدر نفسه،** 2 / 25 ب .

[486]- **المقدمة**، ص 271.

[487]- **المصدر السابق،** 2 / 38 ب .

[488]- المازوني: **الدرر المكنونة،** 2 / 25 ب (نازلة سئل عنها أبو عبد الله الزواوي).

[489]- المازوني: **المهذب الرائق،** ورقة 102أ - 102ب.

ولعل ذلك لا يختلف كثيرا عما كان سائدا في أوروبا فترة العصور الوسطى،[490] والعلاقة الإنتاجية بين المزارعين وشيوخ الإقطاع المسيطرين على الأراضي؛[491] فإذا كان تخلف أوربا في تلك الحقبة إنما يعزى إلى هذا النظام، فكيف الحكم على المغرب الأوسط الذي عرف القطاع الفلاحي في بواديه وقراه على حد سواء هذا النوع من العلاقات الإنتاجية أيضا؟.[492]

لم تقتصر أعمال السخرة في بوادي وقرى المغرب الأوسط على الجانب الفلاحي؛ فقط بل شملت أعمال البناء أو حراسة متاع أو عشور أو دفن أو تجنيد عدد من الرماة للسفر خارج بلدهم، وغير ذلك من الأعمال جعلت الرعية ينفرون منها بطلب الوساطة عند ذوي الجاه أو العلم أو الصلحاء لتحريرهم من هذه المظلمة.[493]

لقد تعددت مظاهر الظلم التي طالت أهل البوادي والقرى نظرا إلى "فساد الزمان وعدم المبالاة بأكل أموال الناس بالباطل"،[494] وقد صرح بمظاهر الظلم وضعف أحكام القضاة في المغرب عموما أبو عمران المازوني القاضي قائلا: "وقد ضعفت في زماننا أحكام القضاة وبطلت بذلك أموال الناس، وتحصلت في ذمم الظلمة والعمال والخدام وأتباعهم، وخبثت الأموال بكثرة المعاملات الفاسدة".[495]

كما سجلت لنا نوازل الفترة العديد من صور الظلم التي تمارسها بعض الجهات المسؤولة على الرعية مثل التي تشير إلى"أمير قرية كثير الظلم والعداء على أهلها في أموالهم بسبب أو بغيره، ويأخذ البريء والمتهم بقول قائل"،[496] وكذلك: "رجل تاب إلى الله تعالى وكان قبل التوبة خبيث المكسب، كثير التخليط مما يتولى أمور الرعية يأخذ منهم الخطايا على جبايتهم، ويحدث على من تحت حكمه من الرعية حوادث لا سند لها إلا محض الباطل".[497]

وقد جسد لنا الرحالة ابن بطوطة أيضا البعض من مظاهر ظلم السلطة وتعدي الولاة على أموال الناس ببجاية في رحلته سنة 725 هـ/ 1324م، عندما رأى تحكم الحاجب ابن سيد الناس الإشبيلي الأصل في زمام

---

[490]– راجع في ذلك: هنري بيرين: **تاريخ أوربا في العصور الوسطى: الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، ترجمة عطية القوصي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م، ص 63 - 86.

[491]– محمد حسن: **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي 1 / 535**.

[492]– حول أنماط الإنتاج والعلاقة الإنتاجية بين المزارعين وملاك الأراضي في الغرب الإسلامي عموما أنظر: إبراهيم القادري بوتشيش: **العلاقات الإنتاجية بين المزارعين وأرباب الأراضي في المغرب والأندلس خلال القرن 6 هـ**، ضمن: **إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي**، ط1، بيروت: دار الطليعة، ص 77 - 83، محمد حسن: **المرجع السابق**، 1 / 411 - 433، محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع**، ص 374 - 389.

وإضافة إلى نظام الخماسة كنمط إنتاجي كان سائد في بادية المغرب الأوسط وجدت أنماط إنتاجية أخرى أو شركات مثل شركة المغارسة وشركة المزارعة، أنظر: المازوني: **المصدر السابق**، 1 / 514 أ، 2 / 23 ب – 24 أ، 25 ب، 26 ب .

[493]– المازوني: **المصدر السابق**، 2 / 38 أ (نازلة سئل عنها ابنا الإمام) .

[494]– **المصدر نفسه**، 2 / 59 أ (نازلة سئل عنها سعيد العقباني).

[495]– **المهذب الرائق**، ورقة 110ب.

[496]– الغرناطي: **نوازل**، ورقة 87 ب (نازلة سئل عنها محمد بن العباس).

[497]– المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 34 ب (نازلة سئل عنها علي بن عثمان البجائي).

الأمور كلها، وأكله أموال الناس بالباطل فيقول: "هذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين (المقصود بهم الحفصيين) وولاتهم".[498]

وقد برز دور الصلحاء أيضا في مجتمع المغرب الأوسط كطرف معارض ومعادي لأعمال الظلم الصادرة من السلطة أو بعض الجهات المتجبرة، فقد روى لنا ابن مرزوق الخطيب عن جده الذي دعى لأحد الشبان حتى يطلق سراحه بعد أن سجن من طرف وزير السلطان، لأنه كان يأتي له بمختلف مرافق البادية من فحم وحطب فوشى به أهل قبيله لكن الوزير أطلق سراحه عندما دعا ذلك الولي أي ابن مرزوق الجد،[499] كما شكا أيضا بعض الشرفاء الكائنين بوطن مغراوة من بلاد الشلف ظلم واليهم إلى الولي الصوفي أحمد الغماري فوضع حدا لذلك.[500]

و لم تكن مظاهر الظلم هذه نابعة من السلطة أو الجهات التابعة لها فقط فقد سبق وأن أشرنا إلى الأعراب المتحكمين في زمام بعض القرى، حيث كانوا طرفا آخر ساهم بقوة في أعمال الظلم الجبائي التي عانت منه الرعية وقد بينت لنا مصادر الفترة أبرز تلك المظاهر.

- القبائل الهلالية والتجاوزات في المجال الجبائي

لقد شكل العرب بعد الهجرة الهلالية طبقة متميزة في النسيج البشري للمغرب الأوسط، فلم يكن الأمير الحمادي الناصر بن المنتصر ليصالحهم على "نصف غلة البلاد من تمرها وبُرها"[501] إلا اتقاءً لشرهم، وحفاظا على إمارته من عيثهم وفسادهم، ولو كان ذلك على حساب ملاك الأراضي والمزارعين، الذين كانت أوضاعهم قاسية في ظل الحكم الحمادي؛ حيث كانت السلطة ترفع عنهم الخراج أيضا، حتى أسقطه الناصر بن علناس على أهل بجاية بعد تأسيسه لها.[502]

وبعد العصر الحمادي دأب الولاة والأمراء على مصالحة القبائل الهلالية المنتجعة في بلاد المغرب الأوسط أيضا، فبالرغم من أن الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي قد ألغى امتياز أخذ الغلة مناصفة إلا أنه "صيرهم جندا له وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد".[503]

وهكذا أغدقت الدولة الموحدية على العرب الهلالية واسترضتهم بالإقطاعات مكافأة لهم على خدماتهم من جهة واتقاء شرهم من جهة أخرى، فنالت قبيلة زغبة إقطاعات في نواحي المغرب الأوسط، يقول ابن خلدون: "ثم غالبوا زناتة عليها فغلبوهم في أكثر الأحايين، وأقطعتهم الدولة الكثير من نواحي المغرب الأوسط وأمصاره

---

[498]- **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985م، 1/ 161، رفيق خليفي. **البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط**، ص269.

[499]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 151 - 152.

[500]- ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 233.

[501]- عبد الواحد المراكشي: **المعجب**، ص 157.

[502]- ابن الأعرج: **زبدة التاريخ**، 3 / 5 ب.

[503]- عبد الواحد المراكشي: **المصدر السابق**، ص 157 - 158.

في سبيل الاستظهار بهم"،[504] كما أقطعت أيضا لبني يزيد -إحدى بطون زغبة- أرض حمزة (البويرة حاليا) وأصبحت تستخدمهم في أعمال الجباية على قبائل صنهاجة وزواوة.[505]

كما حضي عرب الهلالية في ظل الدولتين الحفصية والزيانية بالعديد من الامتيازات والإقطاعات، فقد أقطعت الدولة الحفصية وطنا من أرض حمزة يسمى "كدارة" لصالح داود بن هلال رئيس قبيلة بني عامر بن زغبة لموالاته لها،[506] فالعرب في ضل الدولة الحفصية هم " أهل البادية فعددهم جم ولهم إقطاعات كثيرة وشوكتهم قوية".[507]

و لم تتوان الدولة الزيانية عن انتهاج هذه السياسة؛ فقد أقطع السلطان يغمراسن بن زيان (633-681 هـ/1236-1283م) لقبائل سويد الموالية له مناطق ببلاد البطحاء وسيرات،[508] وغيرها من الإقطاعات التي استفادت منها القبائل العربية المنضوية تحت لواء مملكة تلمسان الزيانية.

وحتى نوازل الفترة لم تتوان عن ذكر مسألة إقطاع السلطان لأمراء بني هلال وسليم مواطن في المغرب الأوسط في غير موضع؛ فيقول المازوني: "سئل الإمام الحافظ سيدي محمد بن مرزوق عن رجل كان يحرث زوجا من أرض الخراج.. ثم أنعم السلطان هذه الأرض على بعض أمراء العرب"،[509] ويقول أيضا: "سئل شيخنا وسيدنا أبو الفضل العقباني عن رجل مات وعليه دين وترك أرضا من بلاد السلطان التي أخذها العرب كما علمتم، أخذ العرب وبيده ظهير[510] من قبل السلطان بتلك البلاد".[511]

وبفضل هذه الامتيازات أصبح لعرب المغرب الأوسط سلطة مكنتهم من التطاول على الرعية؛ خاصة في المجال الجبائي، فقد سبق وأن أشرنا إلى أن أشياخ العرب كانوا من الأطراف المستفيدة من الجباية،[512] فهناك من القبائل العربية التي تحولت إلى قبائل مخزنية أسندت إليها مهمة جمع الضرائب في البوادي؛ شأن بني يزيد من زغبة زمن الموحدين -كما أسلفت- وكذلك كان الشأن لقبائل المنبات المخزنية في ظل الدولة الزيانية، إذ فرضت هذه القبائل ضريبة مرور على كل التجار العابرين للطريق الرابط بين هنين وتلمسان،[513] وكان الأمراء

504- **العبر**، 6 / 87.

505- **المصدر نفسه**، 6 / 87 - 88.

506- **المصدر نفسه**، 6 / 107.

507- العمري: **مسالك الأبصار**، ص 63.

508- ابن خلدون: **المصدر السابق**، 6 / 96.

509- **الدرر المكنونة**، 2 / 46 ب .

510- الظهير: مصطلح مغربي ظهر في العهد الموحدي، وهو رسالة رسمية من السلطان ويقصد به الإنعام والإكرام والتنويه والتحرير من الكلف المخزنية، وتسمى الأراضي التي تقطع بموجبه أراضي الظهير، أنظر: برنشفيك: **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، 35/2، محمد حسن: **المدينة والبادية**، 309/1، محمد بن شريفة: **من ألفاظ الحضارة في الأندلس والمغرب كلمة "ظهير" مثالا**، الأكاديمية، عدد 14، 1998، ص 100-118.

511- المازوني: **المصدر السابق**، 2 / 45 أ .

512- **المصدر نفسه**، 1 / 496 أ – 509 ب (نازلة سئل عنها محمد بن بلقاسم المشدالي، وأخرى سئل عنها محمد بن مرزوق).

513- ابن خلدون: **العبر**، 6 / 124.

منهم يأخذون الجباية من شعوب زناتة الخاضعين لهم، ويدفعون قسطا أكبر من هذه الأموال للسلطة الزيانية.[514]

ولئن كان هؤلاء العرب يعملون كجباة في ظل الدولة؛ إلا أن السلاطين لم يستطيعوا أن يخضعوهم لنظام صارم بشأن الجباية؛كما نوهت بعض نوازل الفترة التي صورت لنا الظروف القاسية التي يعيشها أهالي القرى والبوادي في ظل سطوة هؤلاء العرب على أموالهم؛ بأخذ الوظيف عليهم،[515] والزيادة في قيمة الغرامات المفروضة عليهم، ومعاقبتهم بالسجن ظلما لأتفه الأسباب، ويقول المازوني في نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني "عن رجلين سلط الله عليهما بعض العرب.. وآخر حبسه بعض العرب في غرمة حرثه وحرث أهل وطنه إذا لم يكونوا تحت ولايته، بل أبقوا له إذا وقع ذلك عند فساد السلطان، فلم يفلته حتى أخذ منه ثلاثة دنانير فأطلقه ثم جاء العربي وطلب أهل الوطن بزكاة مواشيهم فاتفق معهم على أن يأخذ عن كل واحد منهم دينارا فأخذ من بعضهم أكثر مما طلبه، وأجابوه بما شرط على غيرهم ممن لم يعطه".[516]

ولا شك أن إقطاع الدولة لصالح أمراء الأعراب جعلتهم ينتفعون بجباية هذه المناطق، ناهيك عن القرى التي يستولون عليها دون أي ظهير، وجورهم ظاهر في فرض الخراج على أهلها،[517] فضلا عن أعمال السخرة التي يكلفون بها الرعية ظلما، قال المازوني: "سألت الفقيه سيدي محمد بلقاسم المشدالي عن مسألتنا: أهل قرية استولى عليها بعض الأعراب –ولا يخفاكم حال العرب مع الرعية يطالبونهم بوظائف شتى كغرائم الجنات ووجائب الحرث يوظفون على الرجل حرث مضمن مثلا كل سنة، ويعينون له الأرض ويغرم عليها؛ حرثها أو لم يحرثها".[518]

وزيادة على الأراضي التي يقطعها السلطان للعرب كان يمنح لهم أعطيات ومرتبات فزادت بذلك سطوتهم أكثر فضاقت السلطة لتطاولهم، وضاقت الجباية نتيجة سوء تصرف هؤلاء وسطوتهم على الأراضي الزراعية دون أن يعطوا عليها مغارم للدولة، ويعبر ابن خلدون عن ذلك قائلا: "كان للدواودة بقسنطينة عطاء معلوم مرتب على مراتبهم زيادة لما بين أيديهم من البلاد في التلول والزاب بإقطاع السلطان، وضاق نطاق الدولة لهذه العصور فضاقت الجباية وصارت العرب يزدرعون الأراضي في بلادهم بالتلول ولا يحتسبون بمغارمها الدخل، ويمنعهم السلطان العطاء من أجل ذلك فتفسد طاعتهم وتنطلق بالعيث والنهب أيديهم".[519]

وفي المجال الجبائي أيضا ثمة إشارات مهمة أفادنا بها الوزان عن سيادة حالة الفقر في بعض مدن وبوادي وقرى المغرب الأوسط بسبب فرض الأعراب للمغارم على أهلها من جهة، واستيفاء الدولة للضرائب من هذه

---

[514]- ابن الأعرج: **زبدة التاريخ**، 3 / 96 ب.

[515]- المازوني: **المصدر السابق**، 1 / 496 أ .

[516]- **الدرر المكنونة**، 2 / 38 أ .

[517]- **المصدر نفسه**، 1 / 511 أ – 511 ب، 2 / 135أ (نازلة سئل عنها عبد الرحمن الوغليسي) .

[518]- **المصدر نفسه**، 1 / 496 أ (نازلة سئل عنها محمد بن بلقاسم المشدالي).

[519]- **العبر**، 6 / 901 .

المناطق من جهة ثانية، فقد كان سكان مسيلة يعيشون في فقر مدقع: لأن "جيرانهم الأعراب الذين يسلبونهم مداخيلهم، وملك بجاية الذي أثقل كاهلهم بالضرائب"،[520] والحال نفسه بالنسبة لسكان مدينة مازونة الذي كان فقرهم بسبب إثقال الأعراب كواهلهم بالضرائب.[521]

وقد كان لتعسفات الأعراب وتجاوزاتهم في المجال الجبائي من دون شك دور كبير في تراجع النشاط الفلاحي بالمغرب الأوسط،كما أن تسلط أشياخ القبائل من الأعراب أو غيرهم وأمراء القرى يدل على غياب الشبه التام للسلطة السياسية في بوادي وقرى المغرب الأوسط.

وفي الحقيقة لا توجد إشارة صريحة تدلنا مباشرة على أن النشاط الفلاحي في المغرب الأوسط قد تراجع لكثرة الضرائب على الرعية، إلا أنه من البديهي أن يحدث ذلك خاصة إذا كان الفلاح محاصر بجملة من الصعوبات التي تعترض طريقه، بدءً بالجوائح الطبيعية وثقل المجابي عليه وانتهاءً بنمط الإنتاج السائد وطبيعة العلاقة غير المتكافئة التي تربطه بمالك الأرض، فضلا عن أعمال السخرة، ومختلف مظاهر الظلم والتعدي، ولهذا عادة ما كان الفلاح يلجأ إلى تكوين شراكة، أو العمل كأجير هروبا من المغارم وخوفا من الآفات الطبيعية حتى يتفادى الخسارة أو يخفف من وطئتها.

ولا شك أن كل هذه المعوقات التي تهدد الفلاح قد تؤدي به إلى التواني عن نشاطه الفلاحي أو حتى الهجرة من البوادي إلى المدن بحثا له عن فرص العيش الأسهل؛ وهو الأمر الذي أشار إليه ابن خلدون: "اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب، فإذا كان الاعتداء كثيرا عاما في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها وإن كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته".[522]

إن تراجع النشاط الفلاحي بسبب ثقل الضرائب كان يؤدي حتما إلى نقص الأقوات، والسلع المجلوبة من البوادي إلى المدن، فتكون نادرة الوجود في الأسواق فترتفع أثمانها،فـــ "المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجته ثم تزيدها المكوس غلاءً، لأن الحضارة إنما تكون عند انتهاء الدولة في استفحالها، وهو زمن وضع المكوس في الدول لكثرة خرجها حينئذ.. والمكوس تعود إلى البياعات بالغلاء لأن السوقة والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مئونة أنفسهم، فيكون المكس لذلك داخلاً في قيم المبيعات وأثمانها"،[523] ولهذا يحدث الغلاء في الأسعار الأمر الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى حدوث المجاعات، و لم يكن ابن خلدون قد أدرج كثرة الضرائب وما ينتج عنها من تراجع في النشاط الفلاحي كسبب

---

[520]- **وصف إفريقيا**، 52/2.

[521]- **المصدر نفسه**، 36/2.

[522]- **المقدمة**، ص 269.

[523]- **المصدر نفسه**، ص 345.

أول في حدوث المجاعات إلا لأنه يعي خطورة ذلك جيدا.

2- الحروب والفتن

إذا كان تيار من الفقهاء قد اعتبر أن الجيش والحروب من الجوائح، تخضع لنفس الأحكام التي تخضع لها أنواع الجوائح الطبيعية إذا ما تضرر بها زرع أو حرث أو ضرع، إلا لأنهم قد قدروا حجم الخسائر التي تأتي من ورائها، وإذا كانت الكوارث الطبيعية حالة مؤقتة تزول مهما طالت مدتها؛ فإن الحروب هي حالة شبه دائمة تنجم عنها نتائج وخيمة على البنيتين الاقتصادية والديمغرافية معا، فضلا عن الخراب العمراني الذي يأتي من وراءها في المدن والبوادي على حد سواء.[524]

ولا مناص من أن المغرب الأوسط (من أواخر ق 6 هـ/12م إلى بداية ق 10 هـ/ق 16م) قد عرف حالة شبه دائمة من الاضطراب السياسي، لأن هذه الفترة قد طبعتها حروب وفتن داخلية لا حصر لها سجلتها لنا كتب التاريخ السياسي والحولي بدقة، ولسنا هنا بصدد ذكر هذه الأحداث السياسية بقدر ما يهمنا أن نبين مكانته ضمن العوامل المساعدة على حدوث المجاعات وغلاء الأسعار، وذلك ما سنبينه من خلال بعض المقتطفات من الأحداث السياسية المبينة في الجدول الآتي:

جدول 04: يمثل أهم الأحداث السياسية التي عرفها المغرب الأوسط في الفترة المدروسة

السنة	المكان	الحدث	الآثار الناتجة عنه	المصدر/المرجع
581-606 هـ/ 1185-1209م	بجاية والمغرب الأوسط	هجوم بنو غانية على بجاية ومناطق عديدة من المغرب الأوسط.	-أعمال النهب، وإفساد الزروع، والأنعام. – الخراب العمراني لبعض مدن كأرشكول، وتاهرت – وقوع مجاعة محلية ببجاية، ثم أعقبها وباء سنة 588 هـ/1192.	ابن خلدون: **العبر**، 6 / 511، 585، 7 / 151-161، 392- 410، ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 180 - 181.
588 هـ/ 1192م	قسنطينة	حصار بنو غانية لقسنطينة	– قطع بنو غانية للماء على أهل قسنطينة. – اشتداد الحصار على أهلها.	ابن قنفد: **الفارسية**، ص 103، ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 17.
605 هـ/ 1208م	تلمسان	حصار بنو غانية وأحلافهم لتلمسان.	– تخريب العمران. – نهب الزروع.	عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 252.

[524]– حسين بولقطيب: **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، ص 88 - 117.

609 هـ/ 1212م	الأندلس والمغرب	واقعة العقاب الشهيرة.	-خراب اقتصادي وعمراني. -وفناء أهل المغرب الذين شاركوا في المعركة. - انحطاط ديمغرافي.	مجهول: **الذخيرة السنية**، ص 24.
640 هـ/ 1242م	تلمسان	توجه السلطان الحفصي أبو زكريا الأول لاحتلال تلمسان.	- أعمال النهب والقتل. - أخذ الجباية من أهلها بعد احتلالها.	الزركشي: **تاريخ الدولتين**، ص 29، ابن خلدون: **العبر**، 7 / 166-167.
659هـ / 1260م	مليانة	ثورة أبو علي الملياني، وخروجه عن الحفصين وحصار هؤلاء لمدينة مليانة.	اشتداد الحصار على أهل مدينة مليانة.	ابن خلدون: **العبر**، 7 /656- 658.
670 هـ/ 1271م	تلمسان	-حصار السلطان المريني لتلمسان. - تخريب قبائل بنو توجين لتلمسان.	قيام بنو توجين بعمليات النهب والعبث والفساد للقرى المحيطة بتلمسان؛ بقطع الثمار وإفساد الزروع وإحراق القرى والضياع انتقاما من يغمراسن.	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 405 - 406، ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص 66، السلاوي: **الاستقصاء**، 33/3.
-669 -673 674 هـ/ -1299 -1274 1275م	الجزائر	ثورة أهل الجزائر، ثم حصار الحفصيين لها.	عمليات القتل وانتهاب المنازل.	ابن خلدون: **العبر**، 7 / 675-274.
-679 680 هـ/ -1280 1281م	قسنطينة	ثورة ابن الوزير بقسنطينة، وحصار صاحب بجاية الأمير أبي فارس لها.	اشتداد الحصار على أهلها.	ابن قنفد: **الفارسية**، ص 139- 140، ابن خلدون: **العبر**، 6/ 687.

689-697 هـ/ 1290-1297م	تلمسان	تحركات السلطان المريني يوسف بن يعقوب المتكررة على تلمسان وحصاره لها.	تحطيم القرى المجاورة لها، ونسف زروعها.	ابن خلدون : **العبر**، 194/7-197،ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص 86، السلاوي: **الاستقصاء**، 69/3، 76-77.
698-706 هـ/ 1298-1306م	تلمسان	الحصار الطويل لبني مرين على تلمسان، واحتلالهم بعض مدن المغرب الأوسط.	- بناء مدينة تلمسان الجديدة (المنصورة). - غلاء شديد في الأسعار - مجاعة عظيمة. - خراب عمراني لكثير من المدن مثل مدينة برشك.	ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 194، 197، يحيى بن خلدون: **بغية الرواد**، 1/ 118-125، التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص 130-131، ابن خلدون: **العبر**، 197/7- 198، ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص 69، ابن مريم: **البستان**، ص 27، 126، السلاوي: **الاستقصاء**، 3 / 86.
686 هـ/ 1287م	بلاد بنو توجين ومغراوة.	توجه عثمان بن يغمراسن إلى بلاد توجين ومغراوة وما وراءها لإرضاخ عمال الحفصيين عليها لسلطته.	إتلاف الزروع والاستيلاء على حبوب بني توجين واحتكارها بمازونة تحسبا لحصار مغراوة لها.	ابن خلدون: **العبر**، 7/ 191.
714هـ / 1314م	تلمسان	تحرك السلطان المريني أبو سعيد إلى تلمسان.	أعمال التخريب للعمران وإتلاف الزروع ونهب الأموال.	ابن خلدون: **العبر**، 7 / 211- 210، ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 528-527.
726هـ / 1325م	بجاية	حصار أبو تاشفين لبجاية وبنائه لمدينة تيمرزدكت.	غلاء في الأسعار ببجاية واشتداد الحصار عليها.	ابن خلدون: **العبر**، 7/ 223.
732-737هـ /	تلمسان والمغرب الأوسط	تحرك السلطان المريني أبو الحسن وحصاره تلمسان لمدة 3	-أعمال النهب، والسلب، واكتساح الجيش المريني لمنازل بتلمسان.	الزركشي : **تاريخ الدولتين**، ص 72 - 73، يحيى بن خلدون: **بغية الرواد**،

1331-1336م		سنوات، واحتلاله للمغرب الأوسط بأكمله.	- بلغ عدد الموتى من الطرفان 80 ألف شخص. - بناء مدينة المنصورة.	1 / 140-144، ابن خلدون: **العبر**، 6 / 778، ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص 72، ابن مريم: **البستان**، ص 184.
752-758 هـ/ 1351-1356م	بجاية- قسنطينة- المغرب الأوسط	حملة السلطان أبو عنان على المغرب الأوسط.	أعمال حرق لقسنطينة وقت حصارها.	مجهول: **زهرة البستان في دولة بني زيان**، ورقة 5 أ – 5 ب، 7أ، الزركشي: **تاريخ الدولتين**، ص 93-96، ابن قنفد: **الفارسية**، ص 186.
754 هـ/ 1353م	قسنطينة	حصار بنو مرين لقسنطينة.	غلاء شديد.	ابن قنفد: **الفارسية**، ص 180.
761 هـ/ 1359م	تلمسان	توجه أبو سالم المريني إلى تلمسان لاحتلالها.	تخريب العمران، وإتلاف زروع القرى المحيطة بها.	مجهول: **زهرة البستان**، ورقة 36 أ – 37 ب.ابن خلدون: **العبر**، 7 / 261.
770 هـ/ 1368م	بلاد الديالم	تحرك السلطان أبو زيان إلى بلاد الديالم.	انتساف خيراتها وتحطيم زروعها، ونهب مداشرها.	ابن خلدون: **العبر**، 7 / 274.
771 هـ/ 1369م	تلمسان وقصور بنو عامر في الصحراء	تحرك السلطان المريني عبد العزيز إلى تلمسان واستيلائه عليها	تخريب قصور بني عامر في الصحراء وانتهاب معسكر السلطان أبي حمو.	ابن خلدون: **العبر**، 7 / 277.
767-777هـ /136-1375	قسنطينة	الحصارات المتكررة لقسنطينة من قبل صاحب بونة الأمير عبد الله.	قطع أشجارها وهتك زروعها وتخريب منازلها .	ابن قنفد: **الفارسية**، ص 191.
781هـ / 1379م	بونة وتدلس	-نزول النصارى ببلد العناب - أخذ النصارى لتدلس	إدخال هلع كبير في نفوس الناس.	ابن قنفد: **الفارسية**، ص 196.
792هـ	تلمسان	الصراع حول الملك	تضرر تلمسان نتيجة ذلك	ابن خلدون : **العبر**،7 /

/ 1389م		بين أبي زيـــان و أبي تاشفين.	الصراع.	306.
866هـــ / 1461	هنين	إغارة مراكب للإفرنج على المسلمين.	إخافة المارة.	عبد الباسط الملطي: **الروض الباسم**، ص 43.
866 هـــ/ 1461م	وهـــــران وبجاية	إغارة مراكب الإفرنج على سواحل وهران وبجاية.	إخافة السبل ووقوع كثير من أهل المدينتين في الأسر.	عبد الباسط الملطي: **الروض الباسم**، ص61.
914هـــ / 1508م	وهران	الاحتلال الإســـباني لوهران.		ابن مـــريم: **البـــستان**، ص 40.

- الحروب والفتن وعلاقتها بحدوث المجاعات:

تعد الحروب والفتن من أبرز الكوارث التي هددت حياة وأمن إنسان المغرب الأوسط بشكل شبه دائم، مما يجعلنا نميل إلى رأي ثلة من الفقهاء القائل بأن الحروب تعد من الجوائح فهي "من فعل الآدمي الذي لا يمكن تضمينه" ولا الاحتراس منه.[525]

لقد تعددت الحوادث التي عاشها المغرب الأوسط بدءً باحتلال بني غانية لبجاية إلى غزوة العقاب الشهيرة سنة 609 هـــ/1212م، والتي تضرر منها المغرب ككل، ثم الصراع بين الإمارات الثلاث (الحفصية والزيانية والمرينية)، إضافة إلى الفتن والثورات الداخلية من طرف القبائل المعارضة للسلطة أو العرب، فضلا عن تحرشات النصارى بسواحل المغرب الأوسط، دون أن ننسى في ذلك الصراع على الحكم بين مختلف الفئات الحاكمة وما نتج عنه من تبديد للمال والأنفس.

فإذا كانت الحروب غالبا ما تؤدي إلى حدوث مجاعات وغلاء في الأسعار، فإن الحصارات وكمرحلة متقدمة في السياسة الحربية، كان الهدف من إقامتها أساسا إصابة الناس بالجوع، فتنقطع عليهم جميع المرافق، وذلك مثل ما فعله يوسف بن يعقوب المريني عندما حاصر تلمسان الحصار الطويل (698-706 هـــ/1298-1307م) حيث يقول ابن الأحمر تعليقا على ذلك: "وهو في ذلك يشدد عليهم الحصر ويقول: لأواصلنه عليهم حتى أقتلهم جوعا"،[526] وكانت النتيجة حدوث مجاعة عظيمة بتلمسان شكتها العامة والخاصة، وسجلت حيثياتها العديد من المصادر بأسلوب يوحي لنا بفداحة هذه الكارثة.

إن أهم الطرق التي يلجأ إليها العدو لتضييق الخناق على المدينة المراد الدخول إليها؛ هو قطع عنصر الماء على أهلها، فقد قطع بنو غانية عند حصارهم لمدينة قسنطينة الماء على أهلها،[527] حتى اشتد عليهم الحصار

[525]- عادل مبارك: **أحكام الجوائح**، ص 172.

[526]- **روضة النسرين (تاريخ الدولة الزيانية)**، ص 69،

[527]- ابن قنفد: **الفارسية**، ص 103.

"وقد كان بلغ أهلها من الحصار إلى حال مؤذنة بالدمار وانتهوا من الجدِّ والتضييق إلى ما أغصهم من الريق"،[528] كما لجأ أبو الحسن المريني عند حصاره لتلمسان أيضا إلى قطع منبع ماء خارج أسوارها، لكن أهلها لم يتضرروا بذلك لكثرة مواردها المائية.[529]

وغالبا ما يلجأ العدو المحاصر أيضا إلى شل الحركة التجارية داخل المدينة المحصورة من أجل تجويع الناس، وذلك بوقوفه حاجزا أمام القوافل والجلابين للبضائع الوافدين عليها، فقد توعد يوسف بن يعقوب المريني بالعقاب الشديد على من يتسلل بالأقوات لتلمسان وهو محاصر لها،[530] وكذلك قام أبو الحسن المريني عندما حاصر تلمسان؛ حيث منع القوافل التجارية من الدخول إليها.[531]

ويعمد المحاصرون أيضا إلى شل الحركة التجارية للمدينة المحاصرة من خلال ضرب وتعطيل مراكزها التجارية الحيوية، فقد استعمل بنو مرين ميناء هنين كورقة ضغط في حصارهم لتلمسان، كما عمد أبو الحسن المريني إلى قطع الطريق الرابط بين تلمسان وبين هنين لمنع كل الإمدادات من الأموال والسلع التي تأتيها عن طريق البحر.[532]

و لم تكن المدن هي المتضرر الوحيد من الحصارات والحروب، بل كانت وطأتها شديدة على البوادي والقرى أيضا كما هو ملاحظ في الجدول السابق، فإذا كانت المدن تمتاز بحصانتها العسكرية خصوصا الكبرى منها مما يسمح لها بالصمود في وجه الحصار وإن طال أمده، فإن البوادي لم تكن لتتوفر على ذلك مما يجعلها سهلة المنال بالنسبة للعدو.

وكثيرا ما كانت البوادي أوقات الحروب عرضة لعمليات السلب والنهب التي تشمل المزروعات والأنعام من قبل الجيش المار بها، حتى يضمن غذاءه فضلا عن عمليات التخريب والنسف والحرق وإتلاف الزروع،[533] وثمة نص مهم أورده ابن الأحمر يبين لنا تضرر بوادي وقرى المغرب الوسط جراء الحروب المتكررة بين بني مرين وبني عبد الواد فيقول: "ثم ارتحل حتى أحاط بتلمسان ويغمراسن لها محاصرا، فقاتلها وانتسف ضياعها وجناتها، وبعث السرايا على بواديها وأحوازها ينهبون ويخربون القرى والعمارات، ولم يزل يغمراسن نهبة سيوف بني مرين إلى أن مات".[534]

إن الحروب والحصارات كانت تؤدي إلى تراجع في النشاط الزراعي والرعوي في البوادي، لأن الفلاحين

---

[528]- ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 179.

[529]- العمري: **مسالك الأبصار**، ص 90.

[530]- ابن خلدون: **العبر**، 7 / 458.

[531]- العمري: **مسالك الأبصار**، ص 90.

[532]- Mahmoud –Agha Bouayed**: *Le port de Hunayn,trait d'union entre le Maghreb central et l'Espagne au Moyen Age***, dans: ***Relacíones de la Peninsula Ibérica con El Maghreb siglos XIII - XVI; Actas del coloquio***. (Madrid; 17-18 décembre 1987), Madrid, Instituto Hispano-Arabe de cultura, 1988, p 342.

[533]- بوداود عبيد: **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع و التاسع الهجريين (ق 13- 15م) – دراسة في التاريخ السوسيو – ثقافي**، وهران: دار الغرب، ص 158- 160.

[534]- **روضة النسرين (تاريخ الدولة الزيانية)**، ص 37.

مهددون بالجوع والإفلاس في أي لحظة يمر بها الجيش ويتلف محصولهم، عندئذ يصابون بالفقر ويجدون أنفسهم عاجزين عن دفع ما عليهم من كراء أو ضرائب، الأمر الذي كان يجعلهم يعزفون عن خدمة الأرض، وهذا ينتج عنه انحطاط اقتصادي شامل نظرا لقلة الإنتاج.

ونظرا لأن البوادي هي المعول الرئيس للمدن بمختلف المنتوجات الضرورية، فإن الحركة التجارية بينهما كانت تتعطل في أوقات الحروب والفتن، سواء بسبب تلف المحصول أو الخوف من التنقل، فترتفع أثمان مختلف السلع الغذائية في أسواق المدن نتيجة قلتها فتحدث المجاعة.

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن الجيش عندما اقتحامه للمدن والبوادي كان يأخذ الجباية من السكان قسرا، لتكون هذه الأموال مصدر رزق له، مما يتسبب في إضعاف الرعية وإفقارهم أكثر، وذلك ما فعله السلطان أبو زكريا الحفصي عندما احتل تلمسان سنة 640 هـ/1242م فاستوفى من أهلها الجباية،[535] وكذا فعل السلطان أبو عنان عندما ارتحل إلى بسكرة بجيشه "ونازلوا جبل أوراين واقتضوا جبايته ومغارمه".[536]

كما تتسبب الحصارات والحروب في حدوث انحدار ديمغرافي للمجتمع نتيجة تزايد نسبة الوفيات، فقد سجلت لنا المصادر الفناء الديمغرافي لسكان المغرب عموما بعد انهزام الموحدين في معركة العقاب الشهيرة سنة 609 هـ/1212م،[537] كما أن الحروب التي قامت بين المرينيين والزيانيين قد أفضت إلى مقتل 80 ألف شخص من الطرفان،[538] وإن كان الرقم المفصح عنه يتسم بالمبالغة الكبيرة والتضخيم إلا أنه من جهة أخرى ينبئنا عن الخسائر البشرية المعتبرة، ويعبر عن شناعة الفعل ونتائجه الديمغرافية الوخيمة.

ولا ننسى أيضا أن الحروب كانت تفرز فئة من المعاقين وذوي العاهات والمشوهين خلقيا، وتفرز فئة من الأسرى أيضا، يكون مصيرهم في الغالب الاسترقاق والعبودية أو حتى القتل، ولا شك في أن ذلك كان يمس البنية الديمغرافية، فثمة إشارة مهمة أوردها ابن الأحمر حول مصير بعض سكان تلمسان الذين وقعوا في الأسر عند بني مرين أثناء حروبهم مع بني عبد الواد فيقول: "وبعث السلطان أبو عنان بقومه من بني عبد الوادي في السلاسل كالأسرى فأدخلوا على فاس على تلك الحالة، وسجنوا ثم أطلقوا بعد ذلك، وصاروا ينقلون الرمل على الحمير".[539]

كما أن ظاهرة القرصنة الأوربية وتحرشات النصارى الأسبان على سواحل المغرب الأوسط، والتي بلغت أشدها أكثر أواخر القرن 9 هـ/15م،[540] قد أدت أيضا إلى وقوع العديد من سكان المغرب الأوسط في الأسر، ناهيك عن حالة الرعب والخوف التي تثيرها هذه الحملات في نفوس الناس، فضلا عن عمليات النهب

---

[535]- الزركشي: **تاريخ الدولتين**، ص 29، ابن خلدون : **العبر**، 7 / 166-167.

[536]- السلاوي: **الاستقصا**، 3 / 204.

[537]- مجهول: **الذخيرة السنية**، ص 24.

[538]- الزركشي: **المصدر السابق**، ص 72 - 73.

[539]- **روضة النسرين (تاريخ الدولة الزيانية)**، ص 75.

[540]- بوداود عبيد: **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط**، ص 174- 175.

والسلب التي تتعرض لها سفن التجار المسلمين على أيدي هؤلاء، فقد عمدت طائفة من القطلانيين إلى التعرض لجفن في مرسى وهران يحتوي على زرع كان ملكا لتجار أندلسيين.[541]

ولا شك أن الحروب والحصارات قد كانت تترك آثار سيئة في نفوس السكان، تجعلهم في حالة دائمة من الخوف؛ خوفا من الجوع وخوفا من الدمار والهلاك.

وقد خلفت الحروب والفتن خرابا عمرانيا طال العديد من المدن والقرى، فقد خلف احتلال بنو غانية للمغرب الوسط خرابا عمرانيا لتاهرت وأرشكول،[542] ولكن في مقابل ذلك تم بناء مدن عسكرية محصنة أثناء هذه الحروب كانت تتخذ كقواعد عسكرية تنطلق منها الجيوش، مثل مدينة تيمززدكت التي بناها السلطان الزياني أبو تاشفين أثناء حصاره لبجاية سنة 726 هـ/1325م، وحشدها بالأقوات والجنود، والتي كان مصيرها الخراب على أيدي بني مرين،[543] وكذا مدينة تلمسان الجديدة التي بناها يوسف ابن يعقوب المريني بالقرب من تلمسان وهو محاصر لها الحصار الطويل، إضافة إلى مدينة المنصورة التي بناها أبو الحسن المريني وزودها بكل المرافق الضرورية، وبقيت معلما تاريخيا يشهد على بصمات هؤلاء إلى اليوم.

لقد تضرر المغرب الأوسط جراء الفتن المتواصلة تضررا كبيرا، وقد أشار ابن خلدون إلى حالة الضعف التي آلت إليها دولة بني عبد الواد بسببها فيقول: ".. وأبي حمو وأبي تاشفين من قبله قياسا متورطا في الغلط بعيدا من الإصابة لما نزل بسلطان بني عبد الواد من الضعف والزمامة وما أصاب قومهم من الهلاك والشتات بأيديهم وأيدي عدوهم".[544]

وفضلا عن التحرشات الخارجية التي كان يتعرض لها المغرب الأوسط وبعض الفتن الداخلية بين مختلف القبائل المعارضة للسلطة الحاكمة، كانت الفتنة التي سببها تعنت العرب الهلالية المنتجعين بأراضي المغرب الأوسط وصحاريه أشد وطأة على السلطة والسكان معا.

- فتنة الأعراب الهلالية بالمغرب الأوسط وأثرها على الاقتصاد

لم تكن تعسفات العرب الهلالية القاطنين بالمغرب الأوسط لتقتصر على المجال الجبائي فقط بل تعدته إلى أكثر من ذلك بكثير، وذلك بالتحكم في ملكيات الناس والتسبب في فقرهم، وهذا ما أشارت إليه نوازل الفترة ومنها نازلة ذكرها المازوني وسئل عنها محمد بن بلقاسم المشدالي؛ وقد ارتأينا أن نذكرها حرفيا كما يأتي: "وعادتهم (أي العرب) مع أهل القرية، أن الرجل منهم يسكن داره ويشتغل مشتغلاته ويعطي الوظيف الذي عليه، وإن أراد بيع شيئا من ربحه منعوه، حتى أن الرجل تصيبه السنة الشديدة وعنده من ربحه ما يبيع شيئا ولا يقدر يبيع، وإن باع شيئا منعوا المشتري من الشراء، يستغلونه هم لأنفسهم إن غاب البائع، وإن رحل الرجل وترك داره أخذوا الكراء ممن يسكنها، وربما يكريها وكيلهم على يده، ويوم يقدم ربما لبلده لا يمنعونه من

[541]- Dhina **: *Les Etats de l'Occident musulman***, p 518.

[542]- ابن خلدون: **العبر**، 5 / 585.

[543]- **المصدر نفسه**، 7 / 233.

[544]- **المصدر نفسه**، 6 / 569.

شيئه، هذا حالهم مع أهل القرية يموت الرجل جوعا ولا يجد من يشتري داره، وإذا سافر عن بلده تبقى الدار يستغلها.. وإذا رجع إلى بلده أخذ داره ثم أن الرجل منهم يسافر لبلد آخر ويجد به من يشتري منه داره التي يعرفها المشتري بتقدم رويته إياه، فيبيعها منه ثم أن المشتري يأتي داره ويحاول على نفسه مع العربي صاحب البائع إما بوجاهة أو صنيعة".[545]

وهكذا كان عيش أهل القرى آنذاك، في ظل تلك الأوضاع القاسية نتيجة سطوة العرب المسؤولين في بعض القرى[546] على أملاكهم، والتسبب في تجويعهم من خلال إفساد معاملاتهم بل التسبب في هجرتهم من قراهم أيضا.

لقد نوه ابن خلدون في أكثر من موضع إلى الحال الذي آل إليه المغرب الأوسط بسبب الفتن التي يسببها هؤلاء الأعراب قائلا: "والحال بالمغرب الأوسط لهذا العهد ما شرحناه مرارا من تغلب العرب على الضواحي والكثير من الأمصار، وتقلص ظل الدولة عن القاصية وارتدادها على عقبها إلى مراكزها بسيف (ساحل) البحر، وتضاؤل قدرتها على الكثير من الأمصار والقنوع بالتضريب بينهم والإغراء بعضهم ببعض".[547]

إن ابن خلدون أراد بذلك أن يوضح ضعف الدولة وانحسار سلطتها في الحواضر الساحلية، ومحاولة تفادي الصدام مع الأعراب عملت على إرضائهم بالمال والإقطاعات، لكن ضعف سيطرتها على المناطق البعيدة خاصة الصحراء حتما أثر على التجارة مع السودان، مما أجبرها على إعطاء الأولوية أكثر للتجارة البحرية، خاصة في المرحلة المتزامنة مع نشاط الجمهوريات الإيطالية، فقد سبق وأن أشرت إلى الدور البارز لمدينتي بجاية[548] وهنين[549] في هذا المضمار.

ومن المعلوم أن المغرب الأوسط وقبل مجيء أعراب بني هلال كان له دور نشيط في التجارة الصحراوية، فكانت ورجلان وتلمسان وتيهرت[550] من أهم المحطات التجارية للقوافل الآتية من بلاد السودان مصدر الذهب والرقيق الأسود، خصوصا في العهد الرستمي،[551] فيصف الباروني ورجلان: بأنها "مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وغيرها، فيخرجون منها التبر ويضربون في بلادهم

---

[545]- **الدرر المكنونة**، 1 / 496 أ – 496 ب.

[546]- المازوني: **المهذب الرائق**، ورقة 31 أ.

[547]- ابن خلدون: **العبر**، 7 / 290.

[548]- عن التجارة البحرية لبجاية والجمهوريات الإيطالية راجع:

Dominique Valerian**:** ***Bougie port Maghrébin***, p 503 ,555-587,

Allaoua Amara**:** ***L'animation de la façade maritime du Maghreb central (VIII^{e} -XII^{e} siècle)***, Revue des Lettres et Sciences Humaine Université Emir A.E.K. Constantine.N° 6. Oct. 2005, p 6-9,

صالح بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي، ص 317 – 339،**

[549] Mahmoud –Agha Bouayed: ***Le port de Hunayn***, p325-352

[550]- حول التجارة الصحراوية بين السودان وتيهرت راجع: جودت عبد الكريم يوسف: **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص 233-287.

[551]- بحاز إبراهيم: **الدولة الرستمية (160– 296 هـ/ 777–909 م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية**، ط 2، القرارة– الجزائر: جمعية التراث، ص206–218، محمد عيسى الحريري: **الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي: حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس**، ط 3، الكويت، دار القلم، 1408هـ–1987م، ص 210–213، محمد بن عمرو الطمار: **الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج**، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983م، ص 97.

سكة باسم بلادهم الإباضية".[552]

غير أن هجرة الأعراب الهلالية نحو المغرب الأوسط في القرن 5 هـ/11م قد غير من التراتبية السكانية لهذا الفضاء الجغرافي، فاستقر عدد كبير من منهم في الصحراء لملاءمتها لهم في نمط عيشهم ولشبهها ببيئتهم الأصلية، فقد تغلب عرب أولاد سباع على ريغ وورجلان وقسمتا بينهم،[553] في حين استقر عرب المعقل في صحراء تلمسان وعاثوا في نواحيها الفساد، حتى رماهم السلطان الزياني يغمراسن بعرب بني عامر لردعهم، وأتبعهم بأفواج من بني يزيد –من زغبة–، ولو لم يكن يغمراسن يعي خطورة عرب المعقل على المصالح التجارية لمملكته وعلى أمن الناس والتجار لما حاربهم ببني عامر الموالين له، وأيا ما كان الأمر فإن بني عامر وبني يزيد استوطنوا بعد تغلبهم على عرب المعقل في تلك المنطقة.[554]

لقد كان عرب بنو عامر يقيمون بحدود مملكتي ووهران ويرحلون إلى صحراء تيكورارين، وعددهم نحو ستة آلاف يستأجرهم ملك تلمسان لأنهم من خيرة الفرسان وأشجعهم،[555] كما كان يسكن في صحراء أنكاد المجاورة لتلمسان قوم من العرب يسمون الهدج –وهم نحو خمسمائة فارس– لهم ممتلكات، ويتلقون إعانات من ملوك تلمسان غير أنهم لا يعرفون سوى القتل والنهب، وقد كان عرب خراج وهو بطن من ذوي عبيد الله يسكنون في صحراء بني كومي وفجيج ويمتلكون أراضي زراعية كثيرة، لكنهم يتلقون إعانات مالية من ملك تلمسان، حتى يأمن شرهم وسطوتهم لأنهم لصوص؛ وهم يقدرون بنحو أربعة آلاف فارس من عادتهم الرحيل في فصل الصيف إلى نواحي تلمسان.[556]

ولا شك أن وجود الأعراب في الصحراء –مع العلم أنهم لا يعرفون الاستقرار وإنما هم دائمي الترحال– قد كان يشكل حجر العثرة بالنسبة للتجارة الصحراوية للمغرب الأوسط، وذلك من خلال عمليات السلب والنهب التي يتعرض لها التجار والمسافرين المارين بمضاربهم، فقد وصف لنا ابن خلدون عملية النهب التي تعرض لها من طرف عرب المعقل أثناء مروره بصحراء المغرب الأوسط،[557] وقد انتهب العرب أيضا محلة السلطان أبي حمو عندما فرّ هاربا إلى صحراء تلمسان.[558]

لقد أرّقت تصرفات العرب هذه وامتهانهم للصوصية والحرابة وقطع الطريق على المسافرين والقوافل عامة الناس والفقهاء على حد سواء، لذا تناولت نوازل الفترة الحديث عن تلك الظاهرة باستفاضة واهتمام كبيرين، تتصدرها النازلة التي سؤال عنها الفقيه أبو العباس أحمد المريض، وسئل بدوره عنها شيخه ابن عرفة فقيه

[552]– سليمان باشا الباروني: **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، تحقيق أحمد كروم وآخرين، ط 3، قسنطينة: دار البعث، 1423 هـ – 2002، ص 241.

[553]– ابن خلدون: **العبر**، 6 / 73.

[554]– **المصدر نفسه**، 6 / 90.

[555]– الوزان: **وصف إفريقيا**، 1 / 51.

[556]– الوزان: **وصف إفريقيا**، 1 / 56.

[557]– **التعريف بابن خلدون**، ص 180-181.

[558]– **المصدر نفسه**، ص 123.

تونس، وذلك سنة 796 هـ/1393م حول محاربة قطاع الطرق من أعراب المغرب الأوسط الذين يقدر عددهم بعشرة آلاف فارس أو أكثر، اشتهروا بشن الغارات واستحلال دماء الناس وحرماتهم في وقت ضعف فيه السلطان أو من ينوبه عن مقاومتهم وردعهم، بل كان يداريهم بالأعطيات حتى يأمن شرهم على خاصة نفسه وعرشه، لكنهم تمادوا في غيهم وظلمهم، الأمر الذي جعل بعض الفقهاء يدعون الناس لقتالهم واعتبروا ذلك جهادا يثاب عليه فاعله، استنادا لما جاء في المدونة، لكن طرف آخر من الفقهاء أنكر عليهم ذلك، فرد عليهم فقهاء الطائفة الأولى بأدلة قاطعة تقرر مبدأ جهادهم، فكان جواب ابن عرفة: "جميع ما ذكر من قتال هؤلاء وجهادهم والإشارة لثواب مجاهدتهم ورجحانه على جهاد الكفار غير مبتدئين قتال المسلمين حق صحيح لا ينبغي لمسلم مخالفته".[559]

ولهذا أمر فقهاء المغرب الأوسط الناس بأن لا يبيعوا لهؤلاء الأعراب المتسلطين المعروفين بالنهب كل ما يقوي شوكتهم، ويزيد في غاراتهم من كراع أو غيره، ومنعوهم من أن يبيعوا لهم القمح في أوقات الشدة والرخاء، وحتى الشعير لأنهم يعلفونه لخيولهم فتقوى شوكتهم على المسلمين.[560]

ونتيجة لهذه الوضعية عاش أهل القرى والبوادي ومرتادو الصحراء الرحل في خوف دائم من هؤلاء الأعراب،[561] الذين كانوا خطرا يهدد أمنهم في كل لحظة يباغتونهم فيها وينتهبون أموالهم ويستحلون دمائهم وحرماتهم، حتى أن الغالبية من ساكني القرى والبوادي يفرون بأنفسهم وعيالهم ومتاعهم خوفا من لصوصية الأعراب، وغالبا ما يعهد أعيانها إلى مصالحة هؤلاء الأعراب على مبالغ من المال تصل أحيانا إلى مائة دينار ذهبا حفاظا على قراهم من الاندثار.[562]

وفضلا عن عمليات النهب والسلب التي يقوم بها هؤلاء الأعراب في حق أموال الناس ؛ فإن قبائلهم القاطنة في الصحاري تأخذ على القوافل التجارية إتاوات أثناء مرورها بديارها، يقول الوزان: "غير أن القوافل التي تقطع صحاريها تؤدي حتما إلى أمرائهم إتاوة هي عبارة عن قطعة قماش تساوي دينارا عن كل حمل"،[563] ولذلك كان العرب يملكون العديد من سلع السودان والثياب والنحاس، وغير ذلك مما يملكه أهل الحضر.[564]

ولهذا غالبا ما يعمد السلاطين إلى مصالحتهم على إعانات مالية ضخمة، حتى يحافظوا على أمن الطريق الصحراوي لتجارة القوافل، "لكن العرب المقيمين بالصحاري المجاورة لمملكتي تلمسان وتونس يعيشون جميعا من ساداتهم، فكل أمير يتوصل من الملك بإعانات مالية ضخمة يوزعها على قبيلته ليتقي الفتن ويعيش معهم في

[559]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 2/ 84 ب- 85 أ، الشماع: **مطالع التمام**، ص 129-141، الونشريسي: **المعيار**، 6/ 153- 156.

[560]- المازوني: **المهذب الرائق**، ورقة 22 ب.

[561]- المازوني: **الدرر المكنونة** ، 2 / 136 أ (نازلة سئل عنها عبد الرحمن الوغليسي).

[562]-**المصدر نفسه**، 2 / 136 أ – 136 ب (نازلة سئل عنها عبد الرحمن الوغليسي).

[563]- **وصف إفريقا**، 1 / 60.

[564]- **المصدر نفسه**.

سلم وعلاقة ودية".[565]

ولما لم تأمن السبل في صحراء المغرب الأوسط بالنسبة للتجار والمسافرين، فقد ظهرت مهنة جديدة امتهنها الأعراب الموالون لسلطة؛ ألا وهي "البذرقة" أو الخفارة لحراسة القوافل والتجار من لصوصية نظرائهم الأعراب،[566] يقول ابن خلدون: "أقمت عندهم ليالي حتى هيأ لي الطريق وبذرق لي مع رفيق من العرب وسافرت إلى قفصة"، وقال أيضا: "وبعث معي ابن أخيه عيسى في جماعة من سويد تبذرق بي ويتقدم إلى أحياء حصين"، وقال في موضع آخر: "ونزلنا على أولاد يعقوب بن موسى من أمرائهم وبذرق بي بعضهم إلى حلة أولاد عريف أمراء سويد"،[567] ولهذا كان بعض العرب الموالين للسلطة الزيانية من خيرة الفرسان وأشجعهم يسهرون على تحقيق الأمن وصيانة الطرقات، وفصلا عن ذلك فإنهم يدعون لسلطان بني زيان على منابر مدنهم وقراهم في جميع المناسبات الدينية تعبيرا عن ولائهم لها.[568]

وقد سئل بعض الفقهاء حول الخفر هل هو حلال أم حرام في نازلة ذكرها المازوني، فيقول: "سئل قاضي الجماعة سيدي عيسى الغبريني عما يؤخذ عن سبيل الخفر، هل هو حلال أم حرام؟ وهل يفصل بين الجاه والشجاعة أم لا؟ فأجاب: الحمد لله؛ الذي رأيته فيما قبل عن الشيخ أبي الحسن الصغير أنه إن كان بجاهه لم يجز وإن كان لشجاعته وقوته جاز، وأفتى شيخنا ابن عرفة رحمه الله تقع بالجواز لأنه رد أن مشيه معهم وانقطاعه عن أسبابه واشتغاله وتركه لها ليس بواجب عليه، وكان أفتى بذلك لبعض مرابطي أعراب أفريقية وكتب له ذلك بخطه، وكان يذهب بالقوافل من تونس إلى قسنطينة وغيرها بجعالة معلومة."[569]

ونتيجة للخطر الذي شكله الأعراب القاطعين للطرقات على حياة المسافرين والتجارة وتهديدهم للنشاط الاقتصادي؛ برز دور الصلحاء في تلك الفترة للمساهمة في التخفيف من الآثار السلبية لهذه الفتنة التي عاشها سكان المغرب الأوسط، فقد قام أحد رابطين وهو سعادة الرياحي –من قبيلة رياح– بالنزول في موضع مرور المسافرين والقوافل وقام بتعميره بمختلف العمارات واتخذ به سوقا، وكان قد جعل ذلك المكان مأوى للمسافرين والتجار، حتى يقطع أعمال الحرابة التي يمتهنها لصوص الأعراب مما شكل عائقا أمامهم، لذا عملوا على التردد إلى موقعه ليلاً لنهبه وإفساده، حتى أمره الناس بالرحيل عن ذلك الموضع ليخلص نفسه، لكن الفقهاء أكدوا له أن قطع تلك المفسدة شرف عظيم وعمل جليل، والأفضل طلب الصلح مع هذه الفئة وتهديدهم إن لم يقلعوا عن هذا الفساد.[570]

واتقاء لأعمال النهب التي تتعرض لها القوافل كان التجار كثيرا ما يلجئون إلى استخدام الحيل مع هؤلاء

---

[565]–**المصدر نفسه،** 1 / 63.

[566]– مجهول: **زهر البستان،** ورقة 47 ب .

[567]– **التعريف بابن خلدون،** ص 65، 122، 180.

[568]– ابن الأعرج: **زبدة التاريخ،** 3 / 96 ب.

[569]– **الدرر المكنونة،** 2 / 49 ب.

[570]– المازوني: **المصدر السابق،** 2 / 84 أ (نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني).

حتى يفلتوا منهم؛ حيث روى لنا عبد الباسط الملطي عن التجار الذين توجهوا من تلمسان وغيرها إلى فاس برسم التجارة، وعند بيعهم ما حملوه إليها من البضائع توجهوا عائدين لكنهم خشوا أن يعترض طريقهم الأعراب قاطعوا الطريق، فاهتدوا إلى حيلة حيث اشتروا حميرا ليحمل بضائعهم وأموالهم وغطوها وقاموا بتلطيخ أبدانهم بالغراء وطحال الغنم المدقق، حتى يوهموا الأعراب أنهم مجاذيم (مرضى بالجذام) يجولون بحميرهم وعليها أحمالهم، فهرب الأعراب خوفا من العدوى، حتى أنهم وضعوا لهم أنواع المآكل في الطريق وأشاروا إليهم من بعيد ليأكلوا، وهكذا وصل هؤلاء التجار إلى بلادهم سالمين بفضل هذه الحيلة.[571]

لقد كانت أعمال اللصوصية والنهب من طرف الأعراب تشكل عائقا أمام النشاط التجاري، وبالتالي ضعف اقتصاد المغرب الأوسط، غير أنه لا ينبغي أن نساير المستشرقين في طرحهم الذي يحمل الهجرة الهلالية المسؤولية الكاملة في الانحطاط الحضاري والاقتصادي للمغرب عموما،[572] بل نقول دون مغالاة أن تعسفات الأعراب التي أشرنا إليها كانت إحدى الأسباب التي أدت إلى ضعف اقتصاد المغرب الأوسط، وحتى إفقار الناس وتجويعهم وليس هو السبب الوحيد، وهو الطرح الذي تبناه الباحث عطاء الله دهينة حول الوضع المتردي الذي وصل إليه الاقتصاد المغربي في القرن 8 هـ/14م نتيجة تدهور الوضع الفلاحي بسبب جملة من الأسباب منها ما هو مناخي ومنها ما هو سياسي،[573] وقد استمر هذا الوضع من الانحطاط حتى سقوط بعض سواحل المغرب الأوسط في يد الاحتلال الإسباني نتيجة كل هذه العوامل، وهذا ما دلت عليه مصادر الفترة.

كما أننا لا نستطيع أيضا الحكم على انهيار اقتصاد المغرب الأوسط تماما، أو القول بأن التجارة القوافلية له مع بلاد السودان قد قضت نحبها، فإلى وقت متأخر ذكر لنا الوزان الدور الذي ساهمت به بعض مناطق في تلك التجارة رغم العوائق التي تسبب فيها الأعراب،[574] فيقول عند الحديث عن مملكة تلمسان التي تمتد "من البحر المتوسط إلى تخوم صحراء نوميديا، ذلك هو السبب الذي من أجله لم تفتأ هذه المملكة تتضرر من تعسفات الأعراب القاطنين بالجزء المجاور للصحراء، وكان ملوك تلمسان دائما مضطرين إلى أن يهدئهم بأداء إتاوات جسيمة وتقديم الهدايا لهم، لكن لم يستطيعوا قط إرضاءهم جميعا، وقلما توجد في البلاد سبل آمنة، ومع ذلك فالسلع تروج بكثرة في مملكة تلمسان لقربها من نوميديا، ولأنها تشكل مرحلة في الطريق المؤدية إلى بلاد السودان".[575]

وقد أشار الباحث الفرنسي **Dominique Valerian** إلى أنه لم يحدث انهيار حضاري ولا انحطاط في المغرب بسبب الهجرة الهلالية خلال القرن 5 هـ/11م؛ وإنما حصلت الأزمة في القرن 8 هـ /14م وانتهت في القرن

[571]- عبد الباسط: **الروض الباسم**، ص 58 - 59.

[572]- من بين هؤلاء المستشرقين: الهادي روجي إدريس: **الدولة الصنهاجية: تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م**، ترجمة حماد الساحلي ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م، 1 / 245 - 292، 2 / 268 - 272.

[573]- Atallah Dhina: ***Les Etats de l'Occident musulman***, p. 344.

[574]- لا يفوتنا أن نسجل هنا أن الأعراب لم يكونوا وحدهم المشتهرين بالسلب والنهب؛ بل حتى البربر مارسوا هذه العملية لكن بشكل أقل حدة، يقول ابن خلدون: "وأخَذَهُم سكان الجبال من البربر بالنهب من كل ناحية". أنظر: **التعريف بابن خلدون**، ص 98.

[575]- **وصف إفريقا**، 2 / 8 - 9.

9 هـ/15م،[576] والمتزامنة مع ظهور الطاعون الأسود الذي حدث في منتصف المائة الثامنة، ولكن في الحقيقة لم تنتهي هذه الأزمة، فقد عرف المغرب الأوسط في هذا القرن أيضا إضافة إلى فتن التي كان سببها الأعراب، وضعف السلطة الحاكمة التي استنزفت كل مالها وطاقتها في الصراعات والتناحرات الداخلية والخارجية، فضلا عن فساد الأحكام وضعف سيطرة السلطة على مختلف الأقاليم التابعة لها والبوادي والقرى التي أصبحت تحت سيطرة الأعراب،[577] إضافة إلى ازدياد معتبر في نشاط ظاهرة القرصنة الأوربية وتحرشات النصارى الإسبان على سواحل المغرب الأوسط، والتي انتهت في الأخير باحتلال البعض منها في أوائل القرن العاشر الهجري.

كما ذهب بعض المستشرقين أمثال جورج مارسي وغوتيه والهادي روجي إدريس إلى القول أن العرب الهلالية هم السبب في انهيار اقتصاد المغرب الأوسط، وتحوله من اقتصاد زراعي إلى اقتصاد رعوي،[578] غير أن النصوص المصدرية النوازلية[579] منها والجغرافية بينت لنا أن الزراعة -إلى جانب الرعي- ظلت قائمة في المغرب الأوسط حتى في الفترة المتأخرة بالرغم من كل المعوقات، فقد وصف الوزان حال قبيلة مرداس العربية المنتجعة لبادية بونة بقوله: "وفي خارج المدينة تحرث البادية على مسافة نحو أربعين ميلا عرضا وكلها صالحة للقمح، وتسكنها قبيلة عربية تدعى مرداس، تزرع الأرض وتملك عددا كبيرا من البقر والثيران والغنم وتعطي هذه الماشية الزبد بكثرة إلى حد أن الأعراب يكادون لا يحصلون في مقابله على المال عندما يحملونه للبيع في عنابة".[580]

ولعل ازدياد النشاط الرعوي في المغرب الأوسط جاء كنتيجة ملحة لاتساع نطاق النشاط التجاري مع دول أوروبا وازدياد الطلب على البضائع كالجلود والأصواف من طرف التجار الأوروبيين،[581] كون الأصواف مادة أولية لحرفة النسيج والخياطة التي كانت منتشرة بكثرة في المغرب الأوسط -كما سبق وأن أشرنا- وأهم الحرف المنتشرة في مدنه وبواديه على حد سواء.

لقد كانت الفتن التي تسبب فيها العرب الهلالية من أهم الأسباب التي أدت إلى حدوث المجاعات بطريقة غير مباشرة، بالرغم من أن ابن خلدون لم يكن قد خصها كسبب مع جملة الأسباب التي ذكرها، إلا أنه من دون شك قد أدرجها ضمن الحروب والفتن، لأنه نوه كغيره من مؤرخي وفقهاء الفترة في أكثر من موضع بخطورة هذه الفتنة على سكان المغرب الأوسط، وعلى الفئات الحاكمة التي وجدت نفسها عاجزة عن إرضائهم في كثير من الأحيان.

- قلة ادخار الناس للزروع والأقوات

576- ***Bougie port Maghrébin,*** p 209, 230, 375,633.

577- المازوني: **المهذب الرائق**، ورقة 29 ب، المازوني: **الدرر المكنونة**، 1 / 496 أ، 511 أ ، 2 / 135 أ

578- علاوة عمارة: **الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط**، ص 49 - 50.

579- لقد أشرت سلفا في غير ما موضع إلى العديد من النصوص الفقهية التي تناولت الحديث عن النشاط الزراعي، وكيف أن العرب ملاك الأراضي كانوا يوظفون عليها مزارعين، وهذا يدل على أنهم أعوزتهم الخبرة في المجال الزراعي، غير أنهم لم يهملوه.

580- **وصف إفريقيا**، 2 / 62.

581- بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي**، ص 135، علاوة عمارة: **المرجع السابق**، ص 61.

ومن جملة الأسباب التي كانت تؤدي إلى حدوث المجاعات أيضا هي قلة اهتمام الناس بادخار وتخزين الطعام، والذي نعتبره سببا ثانويا يزيد من توقع حدوث المجاعات إذا توفرت أحد الأسباب الأساسية الذي ذكرها ابن خلدون، وهو يوضح في ذلك قائلا: "الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات، فغلا الزرع وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا، وكان بعض السنوات الاحتكار مفقودا فشمل الناس الجوع".[582]

ولا شك أن ادخار الطعام والمال وغير ذلك ضروري حتى يأمن الناس في معاشهم حال حدوث أزمات أو مجاعات، ولا غرو فإن قلة الادخار كما يشير ابن خلدون يزيد من توقع حدوث المجاعة.

ولقد اعتبر الادخار من جملة وصايا الملوك التي أفردها السلطان الزياني أبي حمو بالعناية قائلا: "اعلم يا بني: أنه ينبغي لك أن لا تفارق ذخيرة من الذخائر تجدها في زمن المناكد والمناكر مما غلا ثمنها وخف محملها كالياقوت والجواهر الثمينة العظيمة، التي لها نفاسة وخطر وقيمة، لأنها ربما اعتراك أمر من أمور دنياك فتجد تلك الذخيرة تدافع بها ما أهمك واعتراك، وتصادم بها أعدائك، وتقيم بها أودك وتصلح بها أمرك، فإن اقتناء الذخائر معونة على الشدائد والضرائر".[583]

لقد كانت المطمورة جزءً لا يتجزأ من مرافق الكثير من الأسر في المغرب الأوسط في مدنه وبواديه على حد سواء، وهذا ما دلت عليه نوازل الفترة بكثرة،[584] حيث كانت تستعمل لتخزين الفائض من الزرع تحسبا لسنوات الشدة وأوقات البرد والثلج[585] لمنع حدوث المجاعة.

ولا سبيل إلى الشك من أن قلة عناية الناس بالادخار كان قد زاد من توقع حدوث بعض المجاعات الواقعة في المغرب الأوسط، مثل المجاعة الواقعة بتلمسان جراء الحصار المريني الأول، والذي دام قرابة التسع سنوات، فقد نفد خلالها مخزون عامة الناس بسرعة، بدليل هلاك عدد كبير منهم جوعا، في حين بقي مخزون السلطان الزياني حتى يوم الفرج، وهذا ما يرويه ابن خلدون قائلا: "حدثني شيخنا محمد بن إبراهيم الآبلي قال: جلس السلطان أبو زيان صبيحة يوم ذلك الفرج وهو يوم الأربعاء في خلوة من زوايا قصره، واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة؟ فقال له: إنما بقي عولة اليوم وغدا، فاستوصاه بكتمانها"،[586]

وعلى أساس أن أبا الحسن المريني عندما عاود الحصار على تلمسان، واستمر في حصارها قرابة أربع سنوات لم يشكوا أهلها من الجوع أبدا، فيقول ابن فضل الله العمري في ذلك: "ولم يظهر منهم وهن ولا خور

---

[582]- **المقدمة**، ص 282.

[583]- **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، ص 103.

[584]- أنظر المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 8 ب، 10 أ، 20 أ، 40 ب، 85 ب.

[585]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 160.

[586]- **العبر**، 7 / 199.

لانقطاع الميرة؛ لما كان عندهم من المخزون حتى قدايد اللحوم ومسليات الشحوم"،[587] وما يجعلنا نعترف أن الناس لم يدخروا بكثرة أو لم يهتموا بالادخار قبل هذه المجاعة، هو اهتمامهم بذلك أكثر بعد انقضائها، فضلا عن اهتمام السلاطين أيضا بالادخار أكثر قبل حدوث هذه المجاعة بدليل أن زرعهم لم ينفد إلى يوم الفرج من هذا الحصار.

ومنه فإن قلة ادخار الناس للغذاء يعد من العوامل المساعدة على توقع حدوث المجاعات إذا توفرت أحد الأسباب المؤدية إلى ذلك بشرية كما ذكرناها سابقا أو طبيعية كما سنذكرها كالآتي؛ فما هي أهم العوامل الطبيعية المتسببة في حدوث المجاعات في المغرب الأوسط خلال الفترة المدروسة؟.

ب - العوامل الطبيعية

1- العامل المناخي

لعل أول من تفطن إلى أهمية المناخ[588] وتأثيره على صيرورة الحضارات هو ابن خلدون، فقد وضح في جزء من مقدمته أثر المناخ في طبائع الناس وعاداتهم، مبرزا بذلك حتمية المناخ من خلال العديد من المواقف، أهمها بالنسبة إلينا دور المناخ في سيادة حالتي الجوع والرخاء، فالأقاليم المعتدلة والمتمثلة في الإقليم الرابع والثالث والخامس؛ تكون في نظره صاحبة الحظ الأكبر من التحضر لما يتوفر فيها من العلوم والصنائع والمباني ومختلف الأقوات والفواكه والحيوانات، وأغلب معاملات سكانها بالنقدين العزيزين (الذهب والفضة)،[589] أما الأقاليم غير المعتدلة والتي تشمل الإقليم الأول والثاني والسادس والسابع، فسكانها أقل تحضرا ويعيشون في خصاصة ويقتصر غذائهم على الذرى والعشب، وبناؤهم بسيط جدا من الطين والقصب، ولا يتعاملون بالنقدين العزيزين بل يقتصرون في معاملاتهم على النحاس أو الحديد أو الجلود.[590]

ففي الحقيقة لم تكن كل مناطق الإقليم المعتدل تعيش في رخاء كما أشار ابن خلدون قائلا: "اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب، ولا كل سكانها في رغد من العيش"، فيرى أن اختلاف المناطق في طبيعة العيش والغذاء وكل ما تجود به الطبيعة؛ إنما يكون بسبب اختلاف المناخ والتضاريس بين المناطق الصحراوية والسهلية وحتى بين البوادي والحواضر،[591] وهي نفس الرؤيا التي يتبناها **Ladurie** فيما بعد حيث يرى في دراسته حول المناخ "أن الموقع الجغرافي وطبيعة التضاريس يتحكمان في نوعية المناخ السائد في أي بلد

---

[587]- **مسالك الأبصار**، ص 90.

[588]- تجدر الإشارة إلى أن الدراسات المناخية قد قطعت أشواطا كبيرة في أوروبا، خاصة مع أصحاب الحتمية المناخية الذين حاولوا إبراز دور المناخ في المسار التاريخي للحضارات، والعلاقة بين المناخ والمجتمع، ودور المناخ في تحديد مصير الإنسان، وغيرها من الإشكاليات التي كانت محل اهتمامهم، ولعل أهم هذه الدراسات، دراسة ***Lerroy Ladurie*** حول تاريخ المناخ، ودراسة "وستكتون" ومساعديه حول مناخ المغرب، مستعملين في ذلك تقنيات علمية دقيقة بالرجوع إلى جذور الأشجار الذي يكشف سمكها ونحافتها عن السنوات المطيرة والجافة، لمزيد الإطلاع حول ذلك انظر: محمد الناصري: **الكوارث الطبيعية والحتمية التاريخية**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، العدد 15، 1989- 1990م، ص 73 - 67، حسين بولقطيب: **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، ص 18- 20.

[589]- **المقدمة**، ص 85.

[590]- **المصدر نفسه**، ص 85 - 86.

[591]- **المصدر نفسه**، ص 91 - 92.

من البلدان".[592]

غير أنه لا يهمنا هنا سوى العوارض الدورية التي تصيب الحضارات، والذي يكون المناخ السبب الرئيسي فيها، وقبل الحديث عن مختلف هذه العوارض أو الكوارث في المغرب الأوسط كمجال للدراسة، لابد أن نلقي نظرة بسيطة حول المناخ السائد في هذا المجال الجغرافي المتنوع والواسع.

إذا كان المغرب الأوسط يتسم بالتنوع في تضاريسه فإن تحديد المناخ لهذا المجال ليس بالأمر الهين، خاصة وأن المصادر لا تتناول الحديث مباشرة عن نوعية المناخ في مختلف مناطق المغرب الأوسط، بل تكتفي ببعض الإشارات اليسيرة، وذلك بذكر الجو السائد في مدينة ما عرضا ضمن سياق حديثها أو وصفها لبعض مميزاتها، فمدينة تلمسان "هي أشد بلاد عدوة المغرب الأوسط بردا وتجلدا"،[593] وشتاءها كثير الأمطار والثلوج.[594]

ويسود مدينة تلمسان مناخ متميز نظرا لموقعها الوسطي، فلا هو رطب لبعدها عن البحر قليلا، ولا هو حار صيفا شأن المدن الواقعة في السهول والهضاب، كما أنها لا تتأثر برياح السموم الحارة التي تأتي من الصحراء لأن جبال الأطلس تكون بمثابة الجدار الواقي من هذه الرياح فلا يكون صيفها شديد الحرارة، غير أن شتائها يكون شديد البرودة كثير الثلوج والأمطار، وقد يستمر ذلك حتى في فصل الربيع،[595] ولهذا فإن طبيعة مناخ تلمسان يعيق لا محالة النشاط الفلاحي بها، ولعل ذلك هو السبب الذي جعل أهل تلمسان يحرصون على تخزين المواد الغذائية في أهراء ومطامير تحسبا لمثل هذه الأوقات.[596]

ويتميز مناخ مدينة تيهرت أيضا بشدة البرد وكثرة الغيوم والثلج، وكذلك مدينة قسنطينة فهي "شديدة البرد والثلج كثيرة الرياح لعلوها وارتفاعها"،[597] وغيرها من الإشارات التي لا ترسم لنا تصورا واضحا عن مناخ المغرب الأوسط ككل.

ولقد أمدنا الوزان ببعض الإشارات حول مناخ بلاد البربر عموما، وإن كان قد ركز في طرحه هذا حول ميقات بدء فصول السنة وانتهائها داخل هذا المجال، مشيرا إلى بعض الاضطرابات المناخية التي تحدث خلالها وقد تؤدي إلى حدوث مجاعات، فإذا سقط المطر في فصل الربيع ما بين 23 أفريل و5 ماي فإن محصول السنة سيتضرر بأكمله،[598] كما أن هبوب الرياح الجنوبية القادمة من الصحراء والتي تتسم بالحرارة الشديدة والجفاف في غير فصل الصيف من شأنها أن تفسد الغلاة وتمنع الفواكه من النضج، وإذا استمر هبوبها مدة طويلة فإنها تؤدي إلى إتلاف المحاصيل الزراعية وحرقها،[599] وهو ما يسبب أزمة غذائية حقيقية.

---

[592]- حسين بولقطيب: **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، ص13، نقلا عن:

Lerroy Ladurie**:** ***Histoire du climat du puis L'an mil***, paris, 1967.

[593]- ابن مرزوق: **المسند**، ص 222.

[594]- ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 166 - 167.

[595]- محمد بن رمضان شاوش: **باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ص 2 .

[596]- فيلالي: **الأحوال الصحية لسكان تلمسان في عهد بني زيان**، ص 167.

[597]- مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص 166- 167، 178.

[598]- **وصف إفريقيا**، 1 / 79 - 80، مارمول كربخال: **إفريقيا**، 1 / 30 - 31.

[599]- **المصدر نفسه**،1 / 81، **المصدر نفسه**، 1 / 31.

لكن بالرغم من ذلك فإن كل هذه المصادر لم تمدنا بتصور واضح عن مناخ المغرب الأوسط، فلا بدّ أن نجري مقاربة حول ما كتب في بعض الدراسات الحديثة التي تناولت مناخ الجزائر الحالية، على اعتبار أن المناخ أو الطقس العالمي عموما في نظر بعض علماء الجيولوجيا لم يحدث عليه تغيرات جذرية منذ القدم،[600] والأمر كذلك بالنسبة لمناخ شمال إفريقيا التي كانت تخضع لمناخ شديد التشابه بالمناخ الحالي والذي يتسم بجفاف في فصل الصيف، وأمطار غير منتظمة قد تكون وبالا. [601]

فمن المعلوم أن مناخ الجزائر الحالية يتنوع أيضا بتنوع التضاريس المشكلة لها، فنميز في الجزائر ثلاثة أقاليم مناخية متباينة هي:

*مناخ البحر الأبيض المتوسط: ويسود المناطق الشمالية الساحلية، ويتميز بفصلين متباينين فيكون شتاءه ممطر وطويل، أما صيفه فهو حار وجاف، وتتسم طبيعة هذا المناخ بعدم الانتظام إذ يتجلى ذلك في زيادة نسبة الأمطار حتى تؤدي إلى حدوث الفيضانات، أما في فصل الصيف فيحدث الجفاف في بعض الفترات.[602]

*مناخ الإستبس: ويسود المناطق الداخلية ويمتد إلى الجهات الجنوبية، فهو مناخ انتقالي بين مناخ الصحراء في الجنوب ومناخ البحر الأبيض المتوسط في الشمال، وصيفه حار وجاف وشتاءه بارد وقليل الأمطار وقليل الرطوبة.

*مناخ الصحراء: يسود في المناطق الجنوبية ويحتل مساحة أكبر في الجزائر ويتميز بالحرارة والجفاف طوال السنة تقريبا. [603]

وعليه فإن جملة هذه المناخات التي نفترض أنها كانت السائدة في المغرب الأوسط قد فرضت عليه طبيعة قاسية، خصوصا إذا ما أصابها اضطراب أو خلل يتعلق بدرجة أولى بنسبة الأمطار المتساقطة.

-الماء في المغرب الأوسط وعلاقته بحدوث المجاعات

وعلى اعتبار أن الماء يعد من العناصر الأساسية التي تؤدي إلى وجود الغذاء، فإن المناخ هو المتسبب الرئيسي في توفر هذا العنصر أو عدمه، ولكن من الصعب جدا تحديد كمية التساقط بالنسبة للمغرب الأوسط في الفترة الوسيطية لانعدام إشارات مصدرية حول ذلك، لكن لا يسعنا القول سوى أن المناخ المتوسطي السائد في بعض جهات المغرب الأوسط يتسم بعدم الانتظام في التساقط[604] كما أسلفت

---

[600]– صاحب الربيعي: **المتغيرات المناخية العالمية وتأثيرها على المياه العذبة**، ط 1، سوريا: دار الحصاد، دار الكلمة، 2002م، ص 95، محمد الأمين البزاز: **الجراد والجوع والأمراض في المغرب خلال العصور القديمة والوسطى**، المناهل، العدد: 69 – 70، 2004، ص267، 287.

[601] Crssell st **:** ***Histoire de L'Afrique du Nord***, paris, 1913-1928, t:I, p 99.

[602]– فرنان بروديل: **المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فليب الثاني**، تعريب: مروان أبي سمرا، ط 1، بيروت: دار المنتخب العربي، 1413هـ–1993م، ص 63- 64، خليفي عبد القادر: **الطبيعة وأثرها على الإنسان في الجزائر**، مجلة مواقف، معسكر: منشورات المركز الجامعي مصطفى اصطمبولي، العدد 03، ديسمبر 2008، ص 149 - 150.

[603]– حليمي عبد القادر علي: **جغرافية الجزائر (طبيعة – بشرية – اقتصادية)**، ط 1، الجزائر: مكتبة الشركة الجزائرية، 1968م، ص93 - 95.

[604]- Nedjem ed-dine hentati **:** ***L'Eau dans la ville de L'Occident musulman médiéval d'Après les sources juridiqes malikites***, Revue d'Histoire magrébine, 28eme, année 2001, N:102 - 103, P 163.

كما أن المناخات الأخرى كالمناخ الإستبسي والمناخ الصحراوي يتميز صيفها بالحرارة والجفاف خصوصا المناطق الصحراوية منها،[605] الأمر الذي جعل من الماء وتناقصه من فصل لآخر مشكلة عانى منها إنسان المغرب الأوسط.

لقد أفاضت كتب الرحلات والجغرافيا الحديث عن الماء وجوده أو عدمه من خلال وصفها لبعض مدن المغرب الأوسط، على اعتبار أن عنصر الماء يعد من الشروط الأساسية التي يراعى توفيرها عند اختطاط المدن والأمصار، فهو من أهم السمات التي يتحدد من خلالها أهمية المدينة والمصر، فوجود ماء شروب ومنابع مياه معتبرة هو رمز لتمدن أو تحضر أي مجال عمراني.[606]

فمدينة بجاية على سبيل المثال لها "عينان اثنان من الماء أحدهما كبيرة، منها شرب أهل البلد، ولها نهر جار على نحو ميلين منها، يحتف به البساتين ليس إلا أن يصب في البحر"،[607] وتتمتع مدينة بونة أيضا بمياه عذبة وهي مصدر شرب أغلب أهلها لأنها صالحة لذلك.[608]

وقد اشتهرت مدينة تلمسان بغزارة مياهها وكثرة أنهارها،[609] ولذلك فإن أهل تلمسان لم يشكوا قط من نقص الماء عندما حاصرهم أبو الحسن المريني وقطع منبع الماء الذي يأتيها من خارج أصوارها، بل اكتفوا بالارتواء من العيون التي هي داخل المدينة،[610] ومدينة مستغانم هي الأخرى كانت وافرة المياه "فلا يكاد بيت منها يخلوا من ينبوع ماء"،[611] أما مدينة قسنطينة فبها واد عظيم تحفه بساتين وأجنة خصبة،[612] غير أن هذه الثروة عرضة للنضوب في حالة اضطرابات المناخ وقلة التساقط.

لكن في مقابل ذلك بينت لنا المصادر أن بعض المناطق كانت تشكوا من قلة المياه، كما هو الحال بالنسبة لمدينة وهران، حيث كان أهلها يلاقون مشقة كبيرة في جلب الماء من العيون، حتى قام الشيخ إبراهيم التازي بإدخال الماء إليها وأراح أهلها من المشقة.[613]

كما أن أهل مرسى الخرز كانوا يعانون من قلة الماء حتى أنهم كانوا يشربون من الآبار،[614] ومثلهم في ذلك مثل العرب القاطنين بالصحراء، أين كان الماء قليل عندهم حتى بلغ ثمن الشربة الواحدة في أحد الفترات إلى ربع دينار،[615] ويضيف الوزان حول وضعيهم تلك: "وهؤلاء قوم في غاية الكرم (العرب)، مع أن الناس لا

---

[605]- حليمي عبد القادر: **المرجع السابق**، ص 94 - 95.

[606]- ابن خلدون: **المقدمة**، ص 121، 324، سعيد بنحمادة: **الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين 7 و 8 هـ / 13 و 14 م، (إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات)**, ط 1، بيروت: دار الطليعة، 2007م، ص 97 - 98.

[607]- العمري: **مسالك الأبصار**، ص 55.

[608]- مجهول: **الإستبصار في عجائب الأمصار**، ص 127.

[609]- **المصدر نفسه** ، ص 176.

[610]- العمري : **المصدر السابق**، ص 90.

[611]- مارمول كربخال: **إفريقيا**، 2 / 350.

[612]- عبد الباسط: **الروض الباسم**، ص 40.

[613]- ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 156.

[614]- الحميري: **الروض المعطار**، ص 538.

[615]- يحيى بن خلدون: **بغية الرواد**، 2 / 240 - 241.

يمرون بمضارب خيامهم لجفاف أرضهم"،[616] ولهذا فقد كان هناك تباين ما بين قلة أو كثرة وجود الماء بين مختلف مناطق المغرب الأوسط.

ولقد بينت لنا بعض نوازل الفترة الوجه الحقيقي لمعاناة إنسان المغرب الأوسط جرّاء نقص الماء، وذلك من خلال المنازعات التي كانت تحدث حول هذا العنصر بين مختلف الأفراد، خصوصا بين أهل الأرياف المشتغلين بالفلاحة.[617]

ونظرا لأن الماء يعد عنصرا أساسيا في النشاط الزراعي فإن عمليات السقي كما جسدت لنا بعض النوازل؛ قد أفرزت بين المزارعين مشاكل لا حصر لها، أهمها التزاع بين الأعلين والأسفلين حول أحقية السقي من ماء الوادي الذي يقل في الصيف ويكثر في الشتاء، فأفتى الفقهاء في كل الحالات بعدم منع الماء على الأسفلين ولو كان قليلا، وهدم كل السدود التي توضع لمنع وصول الماء حتى يصل للأسفلين، على أن بعض الفقهاء فضلوا الأولين خاصة في حالة قلة الماء.[618]

كما أن مجرى المياه الذي يمر على أرض الغير كان من شأنه أن يحدث مشاكل بين المزارعين بسبب الضرر الذي يلحق بمن يمر الماء بأرضه إلى أرض شخص آخر أو إلى داره أو حمامه، فقد أفتى الفقهاء في مثل هذه الحالات لصالح المتضرر.[619]

لم يكن الماء عنصر تنازع بين أهل الريف المزارعين فقط، وإنما شكل محور تعارض بين مجالين مختلفين هما الريف والمدينة، كما جسدته لنا إحدى النوازل ابن مرزوق التي تدور وقائعها حول نزاع أهل تلمسان الحضريين الذين ينتفعون بمجرى ماء يمر بدورهم ومدارسهم وحماماتهم، مع المزارعين الذي ينتفعون أيضا بهذا المجرى بعد خروجه من المدينة لسقي جناتهم؛ حيث طالب هؤلاء الحضريين المزارعين بالاشتراك معهم في إصلاح ما هدمه مجرى الماء من جدارات الدور، بعد أن طالب صاحب الجدار الحضريين بذلك، لأنهم يصرفون غسلاتهم وصرف مياه المطر المنحدرة على دورهم، وكان جواب ابن مرزوق بعدم إلزامية أرباب الجنات ولا أرباب الدور بإصلاح ما تهدم بسبب مجرى الماء.[620]

لقد بينت لنا المصادر النوازلية أيضا وجها من أوجه نظام السقي في المغرب الأوسط، فقد كانت عمليات السقي تتم بين الشركاء أو الورثة في الماء، في شكل دورات أسبوعية تنقسم بدورها إلى خمسة أجزاء في اليوم حيث يتداول الناس عليها من الفجر إلى الضحى ومنه إلى الزوال ومنه إلى العصر ومنه إلى المغرب ثم الليل.[621]

إن اعتماد المزارعين في الأرياف على عمليات السقي يدل على قلة الأمطار وعلى عدم انتظامها، ولهذا غالبا

[616]- **وصف إفريقيا**، 1 / 60.

[617]- محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع**، ص 370.

[618]- الونشريسي: **المعيار المعرب**، 8 / 402.

[619]- المازوني: **المهذب الرائق**، ورقة 32 أ.

[620]- ابن مرزوق الحفيد: **نوازل**، ورقة 25 ب – 26 أ، الونشريسي: **المصدر السابق**، 8 / 43 - 44.

[621]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 1 / 512 أ، (نازلة سئل عنها الشريف محمد المدعو أحمو) .

ما يعمد هؤلاء إلى إحداث بئر أو سانية لأنهم يحتاجون إلى الماء بكثرة، خصوصا المشتغلين منهم في الفلاحة والحرف؛ بخلاف أهل الدور الذين لا يحتاجون سوى القليل من الماء الشروب.[622]

وتجليات نقص عنصر الماء في المغرب الأوسط سجلتها لنا أيضا كتب الحسبة من خلال إشارتها لبعض السلوكات التي كانت منتشرة داخل المجتمع؛ وهي "اجتماع الجم الغفير والملأ الكثير -منهن الإماء- على السقايات والأفران لسقي الماء، أو لطبخ خبز فيطلن الوقوف هنالك لغير ما أتين له بل لاستدعاء الحديث مع فسقة العبيد وبعض الأحرار"،[623] ولعل حاجة هؤلاء إلى الماء جعلتهم يخرجون للسقي، ويستغلون ذلك في انتهاك بعض الحرمات.

ونظرا لأهمية عنصر الماء بالنسبة لأي مجتمع فأن نقصه يؤدي إلى اضطراب عام؛ إذ غالبا ما كان يستعمل كنقطة ضغط من طرف العدو، لتضييق الخناق على المدينة المراد حصارها، وذلك بقطع منابعه؛ فقد سبق وأن أشرنا إلى فعل بني غانية عند حصارهم مدينة قسنطينة؛ بأن قطعوا الماء على أهلها حتى كادوا أن يهلكوا لولا لطف الله بهم،[624] وإلى فعل أبي الحسن المريني عندما كان محاصرا لتلمسان بأن قطع منبع ماء خارجها، ولولا كثرة المياه بها لتضرر أهلها جراء ذلك.[625]

إن أهمية هذا العنصر أيضا جعلت السلطة تقوم بوضع ولاة على المياه تابعين لجهاز القضاء، واستحدثت خطة صاحب المياه،[626] رغبة منها في تنظيم توزيع المياه، كما استحدثت في ذلك مغارم على الماء كان يدفعها المنتفعين به سواء من أهل المدن،[627] أو من أهل القرى لسقي جنانهم.[628]

إن النشاط الزراعي ينبني أساسا على وجود الماء، هذا الأخير الذي يساهم بدرجة أكبر في توفير الغذاء، ولا شك أن حدوث الجفاف كان يؤدي حتما إلى تضرر المحاصيل الزراعية فتحدث المجاعة، وعليه فقد عدت الجوائح المائية من قحوط أو فيضانات والناتجة أساسا عن تذبذب في المناخ، وما ينتج عنه من ندرة المياه أو كثرتها من أخطر الجوائح التي هددت المغرب الأوسط كما سنرى في العنصر الآتي.

- الجـــوائـــح

لئن تأتي الجوائح الطبيعية كنتيجة حتمية عن تقلبات في المناخ، فإنها عدت أيضا من أهم الأزمات، نظرا لما يترتب عنها من مجاعات وخصومات بين الباعة والمشترين وبين الأجراء والمستأجرين، وهذا ما سجلته لنا كتب النوازل والفتاوى وكتب الأحكام، ولقد أفتى الفقهاء في الغالب لصالح المتضرر،[629] لأن الرسول ρ نهى "عن

---

[622]- أبو يحيى المازوني: **المهذب الرائق** ، ورقة 31 أ.

[623]- العقباني: **تحفة الناظر وغنية الذاكر**، ص 80.

[624]- ابن قنفد: **الفارسية**، ص 103.

[625]- العمري: **مسالك الأبصار**، ص 90.

[626]- المازوني: **المصدر السابق** ، ورقة 7 أ.

[627]- ابن مرزوق الحفيد: **نوازل**، ورقة 25 ب.

[628]- ابن مرزوق: **المسند الصحيح**، ص 285 ، ابن مرزوق الحفيد: **المصدر السابق**، ورقة 25 ب.

[629]- محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع**، ص 286.

بيع السنين وأمر بوضع الجوائح"[630]، وقد اتبع الفقهاء في اجتهادهم هذا القاعدة الفقهية "نفي الضرر"، متخذين في ذلك عدة اعتبارات؛ كنوع الجائحة وقيمة المحصول المجاح ونوعيته، وقد ارتأينا أن نلخص مختلف هذه الأحكام بالنسبة لقضية الكراء في النقاط التالية:

* إسقاط الكراء على المحصول الذي تصيبه جائحة القحط، أو على الأرض التي منع القحط من زراعتها فلا كراء لربها.[631]

* إسقاط الكراء أيضا على المحصول الذي تصيبه جائحة الجراد.[632]

* عدم إسقاط الكراء عندما تجتاح الفراشة حقل الكتان، إلا إذا شهد شهود بأن الفراش كامن في الأرض وهو من عيوبها.[633]

أما الأرض التي يصيبها السيل ففي ذلك ثلاثة أوجه:

1- يحط على المكتري الكراء إذا دخل السيل في ثلث الموضع قبل الزراعة، ومنع من زراعته حتى خرج الإبان (وقت الزراعة).

2- يحط على المكتري أيضا الكراء إذا دخل بعد الزراعة ووقت الإبان باق و لم يتمكن الزرع حتى خرج وقت الإبان.

3- لا يحط على المكتري شيئا إذا دخل السيل بعد الزراعة وخروج الإبان وإصابة الزرع.[634]

و لم تسلم أرض الأحباس أيضا من مختلف التراعات القائمة بين ناظر الحبس والمكتري، فقد أفتى الفقهاء في هذه الحالة أيضا بنفس المقاييس، بالرغم من أن النظّار كانوا متشددين بكل ما يتعلق بأرض الأحباس.[635]

وهذا بالنسبة لقضية الكراء، أما في ما يخص البيع فإن الفقهاء قد خففوا قدر الإمكان عن المشتري خاصة إذا استوفت المسألة عددا من الشروط، وتجدر الإشارة هنا أن معنى وضع الجائحة؛ هو أن تكون الثمرة المعقود عليها في ضمان البائع "فيحط أو يسقط عن المشتري ما دفع من مال فتكون موضوعة"،[636] ويمكن أن نلخص هذه الأحكام في النقاط التالية أيضا:

* يوضع عن المشتري الثمن بمقدار ما أصابته الجائحة، خاصة إذا كان منشأها طبيعي، وكان مقدار

---

[630]- المازوني: **المهذب الرائق**، ورقة 215 أ.

[631]- ابن رشد: **الفتاوى**، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1407هـ - 1987، 1284/3، ابن مرزوق: **نوازل**، ورقة 11 أ، البرزلي: **جامع مسائل الأحكام**، 3 / 391، عبد الواحد المراكشي: **وثائق المرابطين والموحدين**، تحقيق حسين مؤنس، ط 1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1997، ص 264 - 265، المازوني: **المصدر السابق**، ورقة 106 ب.

[632]- الونشريسي: **المعيار المعرب**، 8 / 164.

[633]- ابن مرزوق الحفيد: **نوازل**، ورقة 11 ب.

[634]- ابن مرزوق الحفيد: **نوازل**، ورقة 11 ب، الونشريسي: **المعيار المعرب** ، 5 / 236 - 237.

[635]- عبد الواحد المراكشي: **وثائق المرابطين والموحدين**، ص 255 - 256، الونشريسي: **المصدر السابق** ، 8 / 171، محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع**، ص 286 - 287.

[636]- عادل مبارك: **أحكام الجوائح**، ص 342.

ما أصابته ثلث الثمر باتفاق الفقهاء.[637]

* يوضع عن المشتري الجائحة إذا كانت من القحط مهما كانت قيمة المحصول المجاح قليله أو كثيره.[638]

* ويختلف وضع الجوائح حسب نوعية المحصول المجاح، ففي البقول أفتى بعض الفقهاء بأنه يوضع عن المشتري قليلها وكثيرها،[639] غير أن هناك من قال أنها كسائر الثمار يوضع منه الثلث فما فوق.

* إذا نضج الثمر واستحق القطف فأصابته جائحة فلا يوضع عن المشتري شيء.[640]

* إذا بيعت الثمرة مع أصلها و أصابتها جائحة فلا وضع، و يكون ذلك من ضمان المشتري.[641]

* إذا بيعت عدة أصناف من الثمار كالعنب والتين في صفقة واحدة، فأصيب أحد الأصناف منها بجائحة فإن كل جنس يقدر بمفرده قيمة الثمر المجاح منه، فإذا كان الثلث أو أكثر فإنه يوضع عن المشتري مقدار ما أجيح، وإذا كان أقل لا يوضع عن المشتري شيئا.[642]

و لم تقتصر هذه الجوائح على القطاع الزراعي فقط بل طالت القطاعين التجاري والحرفي أيضا، وأصبح التجار والحرفيين يدعون الجائحة كلما عانوا من الكساد أو الخسارة، حتى يتملصوا من دفع ما عليهم من الكراء، وقد بينت لنا ذلك بعض النوازل؛ فقد سئل ابن رشد الجد عن حكم الفنادق المكتراة إذا قل النازل فيها، وعن الرحى إذا قل الطعام، وعن الحوانيت المكتراة إذا تراجعت التجارة؛ هل يعتبر ذلك من الجوائح التي تلزم عنها الحط من الكراء؟ فكان جوابه عدم اعتبار كل هذه الحالات من الجوائح،[643] وعموما فقد اعتبر أغلب الفقهاء أن الكساد والقلة الربح وغلاء الأسعار وغيرها من الانعكاسات المترتبة عن المجاعات والكوارث ليست من الجوائح.[644]

إن الأحكام الفقهية المتعلقة بالجوائح عديدة لا يمكن حصرها، ففيها يتفق الفقهاء تارة، ويتعارضون تارة أخرى، غير أنه لا يهمنا من ذلك سوى مختلف الجوائح التي وقعت في المغرب الأوسط في الفترة الممتدة ما بين(588-927 هـ/1192 -1520م)، والتي جمعتها من ثنايا المصادر والموضحة في الجدول الآتي:

جدول 05: يوضح أهم الجوائح الواقعة بالمغرب الأوسط في الفترة المدروسة

الزمان	المكان	نوع الجائحة	النص	المصدر / المرجع

637– ابن جزي الغرناطي: **القوانين الفقهية**، بيروت: دار القلم، (د.ت)، ص 253.

638– أبو إسحاق الغرناطي: **الوثائق المختصرة**، تحقيق مصطفى ناجي، ط 1، الرباط: مركز إحياء التراث المغربي، 1408هـ– 1988، ص 31.

639– أبو الوليد الباجي: **فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام**، تحقيق محمد أبو الأجفان، الدار العربية – المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 253، المازوني: **المهذب الرائق**، ورقة 215 ب.

640– ابن جزي : **المصدر السابق**، ص 253 – 254.

641– عادل مبارك : **المرجع السابق**، ص 342.

642– ابن جزي: **المصدر السابق**، ص 253 – 254، ابن مرزوق الحفيد: **المصدر السابق**، ورقة 15ب.

643– ابن رشد: **فتاوى ابن رشد**، 3 / 1282– 1284، المازوني : **المهذب الرائق**، ورقة 107ب.

644– ابن سلمون: **العقد المنظم**، 1 / 253.

610 هـ/ 1214م	بجاية	مجاعة بسبب قحط	"ووقعت مجاعة ببجاية.. إلى أن أخصب الناس في العام التالي".	الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 135، التادلي: **التشوف إلى رجال التصوف**، ص 429، **رسائل موحدية**، 2 / 182.
617 هـ/ 1220م	المغرب والأندلس	مجاعة غلاء بسبب القحط والجراد	"في سنة سبع عشرة كان الغلاء الشديد بالمغرب والقحط والجراد".	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 354.
620 هـ/ 1223م	المغرب	قحط، وانحباس في المطر	"وفيها كان في المغرب من الغلاء ما يعبر عنه.. وذلك أن المطر انحبس عنهم من سنة ست (عشرة) إلى تسع عشرة".	ابن نظيف الحموي: **تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان**، ص 84.
624 هـ/ 1226م	المغرب والأندلس	جراد	"وفي سنة 624 هـ/ 1226م اشتد الغلاء بالمغرب والأندلس، وفيها كان الجراد المنتشر بالمغرب".	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 359،
637 هـ/ 1239م	المغرب	قحط وقلة الأمطار	"وكانت أكثر بلاد المغرب غالية الأسعار بسبب كثرة الفتن وقلة الأمطار في تلك الأمصار".	ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 351.
النصف الأول من ق 7 هـ/ ق 14م	بجاية	جفاف	"كنت ببجاية فأصاب الناس جفوف عظيم وقلت المياه وجف (نهر) أمسيون".	الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 151، التنبكتي: **نيل الإبتهاج**، ص 320.
677 هـ/ 1278م	المغرب	الجراد	"وفيها كان الجراد العام بالمغرب".	السلاوي: **الإستقصا**، 89/3.
679 هـ/ 1280م	المغرب	الجراد	"وفيها كان الجراد ببلاد المغرب أكل جميع زروعها فلم يترك بها مخضرا".	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص535.
679 هـ/ 1280م	إفريقية	ظهور آية في الزرع	"وفيها أيضا رأى الناس آية عظيمة أكل القمح فريكا ثم عدم سنبله فكان البقر الذي أكل ذلك الزرع تلف وكان ذلك في جميع إفريقية".	الزركشي: **تاريخ الدولتين**، ص 45.
683 هـ/ 1284م	المغرب	قحط شديد	"كان بالمغرب قحط شديد لم ير الناس قطرة ماء حتى كان اليوم السابع والعشرون من رمضان"	السلاوي: **الإستقصا**، 89/3.
687 هـ/ 1288م	المغرب	هبوب رياح شرقية وقحط	"وفي آخر سبع وثمانين وستمائة كانت الريح الشرقية المتوالية والقحط	ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 583.

	الشديد".			
العبدري:**الرحلة المغربية**، ص 9.	"ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلدا حلت به زمانة الزمان, وأخلت به حوادث الحدثان, فلم تبق به علالة و لا تبصر في أرجائه للضمئان بلالة".	قحط	تلمسان م ليكش	688 هـ/ 1289م
ابن خلدون: **العبر**،7 / 454.	"وكان أصاب الناس أعوام اثنين وتسعين (وستمائة) وما بعدها قحط".	قحط	المغرب	692 هـ/ 1292م
السلاوي: **الإستقصا**، 3 / 179.	" وفيها كان المطر العظيم والثلج الكثير بالمغرب وعدم الفحم والحطب".	نزول مطر وثلج كثير	المغرب	723 هـ/ 1323م
ابن بطوطة: **عجائب الأنظار**، 1 / 158.	"فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها وذلك في إبان القيظ".	حر شديد (قيظ)	مليانة	725 هـ/ 1324م
ابن الحاج النميري: **فيض العباب**، ص 258- 259. ابن مريم: **البستان، ص** 177.	"أرسل الله المزن مثقلة عشارها متراكمة أمطارها مترامية تيارها".	اجتياح السيل لمحلة أبي عنان المريني	قسنطينة	758 هـ/ 1356م
ابن الخطيب: **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، 3 / 61.	"وانتهى أمر هذه السنة الشهباء الإضاحية إلى العشر الآخر من يناير العجمي الموافق لأخريات ربيع الأول من العام 763هـ... عظم الجفاف وعصفت الريح الرجف".	جفاف، هبوب رياح	ا لمغرب	763هـ/ 1361م
يحيى بن خلدون: **بغية الرواد** 1 / 155.	" وفي العشرين من شهر ربيع الثاني كانت الزلزلة العظمى بالجزائر".	زلزال	الجزائر	766 هـ/ 1364م
يحيى بن خلدون: **بغية الرواد،** 1 /325 – 326،ابن قنفد: **أنس الفقير**، ص 149، المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 48 ب .	" واشتملت هذه السنة...على مجاعة شديدة أكل فيها بعض الناس بعضا لريح ذات إعصار أهلكت زرع صائفتها وحيوانها ".	مجاعة شديدة بسبب هبوب رياح ذات إعصار	المغرب الأوسط وعموم المغرب	776 هـ/ 1374م
ابن مريم : **البستان،** ص 40.	" ...نزلت ثلجة عظيمة...".	نزول ثلجة عظيمة	تلمسان	ق 9 هـ/ 15م
ابن القاضي : **لقط الفرائد** ، 2 / 842 .	" كان بالمغرب غلاء عظيم ومجاعة مفرطة ووباء جارف و لم ينزل في هذه السنة نقطة مطر ".	غلاء عظيم ومجاعة ووباء بسبب قلة المطر	المغرب	927 هـ/ 1520م

ـ جوائح المغرب الأوسط وإشكالية المكان والزمان

من المعلوم أن الجوائح هي كوارث طبيعية ناتجة عن تحولات بيئية لعدة أسباب، وتؤدي إلى تغير في النظام السائد للكون، ويترتب عنها خسارة مادية وبشرية كبرى،[645] والمغرب الأوسط ككل المجتمعات قد عرف جوائح لا حصر لها كان سببها بالدرجة الأولى تغيرات في المناخ.

وتجدر الإشارة أيضا أن هناك جوائح تؤدي إلى حدوث مجاعات شديدة كجائحة القحط لسنوات 617 هـ/1220م و 637 هـ/1239م و727 هـ/1326م و 776 هـ/1374م، كما أن هناك جوائح لا تؤدي إلى حدوث مجاعات لكنها تفرز جملة من المشاكل بين المتعاملين الاقتصاديين على اختلاف أصنافهم، وعادة ما يكون للفقهاء الدور البارز في حلها، وذلك يتبين من خلال بعض النوازل الفقهية الخاصة بالفترة.[646]

ومن خلال الجدول المسجل أعلاه فإننا نميز نوعين من الجوائح من حيث المجال الجغرافي: جوائح عامة تصيب عموم المغرب، لكن لسنا على علم إن كانت تشتمل المغرب الأوسط بالضرورة، لانعدام المادة المصدرية الدالة على التخصيص، وإنما أخذنا النص على ظاهريته وعمومه، فآثرنا تسجيلها على سبيل المقاربة والإفتراض، وجوائح محلية تصيب المغرب الأوسط أو إحدى مدنه، كما أننا قد قمنا بتسجيل الجوائح التي وقعت بإفريقية على أساس أن المجال الذي اخترناه للدراسة تكون أجزائه الشرقية خاضعة للسلطة الحفصية في أغلب الفترات.

وكما هو موضح في الجدول أعلاه فإن عدد الجوائح قد بلغت ذروتها خلال القرن 7 هـ/13م خصوصا في أوائله، فالمصادر اهتمت بذكر مثل هذه الحوادث ربما رغبة في ربط الانحدار السياسي الذي عرفته الدولة الموحدية في آخر عهدها بالحالة الاقتصادية والديمغرافية لها، ولا غرو فإن الجوائح عدت أيضا من العوامل التي عجلت بسقوط دولة الموحدين نظرا للعجز الاقتصادي الذي سببته له وهي في مرحلة الاحتضار.[647]

وقد عرف القرن 8 هـ/14م جوائح خطيرة أدت إلى حدوث مجاعات، سواء على المستوى المحلي، أو على مستوى بلاد المغرب ككل، أهمها المجاعة الواقعة سنة 776 هـ/1374م بسبب هبوب رياح ذات إعصار، فلا شك أن المصادر المغربية وحتى كتب النوازل قد اهتمت بتسجيلها نظرا لخطورتها ووقعها الكبير على المغرب عامة والمغرب الأوسط خاصة.

أما فترة القرن 9 هـ/15م والنصف الأول من القرن 10 هـ/16م لم نسجل فيه عدد كبير من الجوائح، فلا شك في أن المصادر قد أغفلت تسجيل ذلك، أضف إلى ذلك أن كتب النوازل كانت تشير إلى وقوع هذه الجوائح عرضا ضمن سياق حديثها عن بعض المشاكل المترتبة عنها دون أن تهتم بذكر سنة حدوثها، مما شكل لنا عجزا في التتابع الزمني لهذه الظاهرة.

ـ جوائح المغرب الأوسط والتنوع الطبيعي

تعددت الجوائح التي اجتاحت المغرب الأوسط في الفترة مدار البحث واختلفت من حيث طبيعتها من قحط

---

[645]– أحمد صدقي الدجاني: **عن مفهوم الكارثة الطبيعية**، الأكاديمية، 1409م، ص 15.

[646]– أنظر على سبيل المثال: المازوني : **الدرر المكنونة**، 2 / 44 ب (نازلة سئل عنها محمد بن مرزوق).

[647]– محمد المغراوي: **الأزمات الطبيعية وانعكاسها على الدولة والمجتمع**، ص 164 - 173.

ورياح وجراد وزلازل وثلج وسيل وسنحاول الآن الحديث عن كل واحدة منها كما يلي:

- الجوائح المائية

"وهي الجوائح التي يسببها قلة الماء ومده"[648] من قحوط وفيضانات ناتجة أساسا عن تدبدب في المناخ وعدم انتظام التساقط؛ ويشير ابن خلدون إلى ذلك قائلا: "فطبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف، ويقل ويكثر الزرع والثمار والضرع على نسبته"،[649] ولا شك في أن المغرب الأوسط كغيره من المجالات الجغرافية الأخرى، قد عرف سنوات مطيرة وأخرى جافة، نتج عنها حدوث القحط والتي هي من أخطر الجوائح المائية على الإطلاق، لأنها هددت حياة وغذاء أفراد المجتمع، و لم يكن الفقهاء أن يجتهدوا بالفتوى لصالح المتضرر بجائحة القحط إلا لعلمهم بشدة وقعها عليه.

ومن حيث الكم تأتي جوائح القحط كما هو موضح في الجدول أعلاه في المرتبة الأولى، فهي أكثر الجوائح وقوعا في المغرب والمغرب الأوسط، خصوصا فترة القرن السابع الهجري أين بلغت ذروتها، ثم تناقص حدوثها في القرون المتتالية.

و لم تكن جائحة القحط لتهدد الأمن الغذائي للإنسان وإنما هددت معاشه واكتسابه، لأن المتضررين بها ليس هم المزارعون المشتغلون في الأرض فقط؛ وإنما هددت أصحاب الحرف أيضا وحالت دون الاستمرار في نشاطهم أثناء حدوثها، على أساس أنها تقوم على توفر عنصر الماء كالدباغة والصباغة والأرحية والحدادة، فنقص الماء يؤدي إلى تعطل قيامها وهذا ما يلحق أضرارا بالاقتصاد عامة.

أما جائحة السيل فإن المصادر لم تسجل لنا مجاعة كان سببها السيل أو الفياضات، سوى أنها تسبب أضرارا اقتصادية تمثلت أساسا في إتلاف المزروعات، مما يسبب مشاكل بين المتعاملين الاقتصاديين، وقد تحول مثل هذه الجوائح دون تحقيق بعض الطموحات السياسية أيضا؛ فقد حطم السيل محلة أبي عنان المريني وأدى إلى تعطيل حركته إلى إفريقية سنة 758 هـ/1356م.[650]

أما جائحة الثلج فباعتبارها من الجوائح المائية أيضا، إلا أنها لم تسبب في حدوث مجاعات، فالثلج الذي نزل بتلمسان في القرن 9 هـ/15م قد أفضى إلى خسائر عمرانية واقتصادية، تمثلت في انهدام الديار وتعطل الأسواق،[651] لكن المصادر لم تتحدث عن حدوث مجاعة بسبب ذلك، فضلا عن أن الثلج الكثير قد كان يؤدي حتما إلى إتلاف الزروع والحيوان، و تراكمه وكثرته يعيق الحركة والتنقل، ويتسبب ذلك أيضا في تعطيل التجارة بين المدن والبوادي، لأنه يؤثر على سير القوافل التجارية.

- الجراد والرياح وباقي الظواهر الكونية

648- سعيد بنحمادة: **الماء والإنسان في الأندلس**، ص 154.

649- **المقدمة**، ص 282.

650- ابن الحاج النميري: **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، تحقيق محمد بن شقرون، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 258 - 259، ابن مريم: **البستان**، ص 177.

651- ابن مريم: **المصدر السابق**، ص 40.

وتأتي جائحة الجراد في المرتبة الثانية بعد الجوائح المائية من حيث الخطورة؛ فهو من أخطر الكوارث الطبيعية التي تهدد الأمن الغذائي للإنسان لأنه سريع التكاثر والانتشار، خصوصا إذا ما لم يسقط مطر كثير في فصل الربيع، فلا تمت بويضاته فيتكاثر أكثر،[652] وتكمن خطورته في إتلاف الزروع، ولعل أخطر أنواعه على الإطلاق حسب ما يقره علماء الزراعة هو الجراد الصحراوي.[653]

في الحقيقة لم تسجل لنا المصادر مجاعات حدثت بالمغرب الأوسط كان سببها الجراد، على عكس ما شهده بقيت مناطق المغرب الإسلامي، والذي لا نستبعده أن موجات الجراد لكل تلك الفترات قد اجتاحت المغرب الأوسط على أساس أنه سريع الانتشار.

أما الرياح فإن المغرب الأوسط تجتاحه أنواع عديدة منها ما تكون شديدة، وتتسبب في إتلاف الزرع والضرع معا، خاصة منها الرياح الجنوبية أو الصحراوية المعروفة الآن رياح السيريكو، وتعتبر جائحة الرياح ذوات الأعاصير أيضا من أشد الجوائح التي تهلك الزرع والحيوان معا، ويتسبب حدوثها في وقوع مجاعات شديدة مثل المجاعة الواقعة في المغرب الأوسط سنة 776 هـ/1374م وعموم المغرب، لأنها أهلكت زرع الصائفة والحيوان معا،[654] فإذا هبت في غير فصل الصيف فإنها تؤدي إلى إتلاف وحرق المحاصيل الزراعية، وأما الرياح الشرقية فهي أيضا تتسبب في إتلاف المحاصيل الزراعية، خاصة وأنه يصاحبها قحط شديد.[655]

وتعد ظاهرة الكسوف من الظواهر الكونية؛ التي لا تسبب ضررا لا على حياة الإنسان ولا على غذائه، على عكس الزلازل التي تخلف من ورائها خسائر مادية وبشرية معتبرة، غير أن المصادر لم تسجل لنا سوى زلزال واحد وقع بالجزائر سنة 766 هـ/1364م [656] دون ذكر النتائج المترتبة عنه، وبذلك تعتبر المصادر المغربية عموما قليلة الوعي بتسجيل مثل هذه الظواهر الكونية على خلاف المصادر المشرقية.[657]

ولا شك في أن بوادي المغرب الأوسط قد تضررت كثيرا على إثر هذه الجوائح الواقعة في الفترة مدار البحث؛ فلا غرو فإنها قد أهلكت الزرع والضرع، وأدت إلى تعطيل النشاط الزراعي والرعوي معا، والفلاح إذا ما تضرر محصوله بهذه الجوائح، يكون عرضة للإفلاس؛ وهذا لأنه يجد نفسه عاجزا عن دفع تابعاته المالية من المكوس والمغارم التي كانت السلطة تفرضها عليه، أو لبعض الجهات التابعة لها، و لم تكن المدن بمعزل عن هذا الضرر وإن لم نقل أنها المتضرر الأكبر في أوقات المجاعات، لأن الفلاح يجد مطمورته التي يخزن فيها الزرع تحسبا لمثل هذه الأوقات؛ في حين كانت المدن إذا ما يتضرر المحصول بجائحة وتقل الصابة -بتعبير المصادر-،

---

[652]- عبد الهادي التازي: **ظاهرة التعاون في التاريخ الدولي للمغرب "الجراد"**، مقال ضمن: **الكوارث الطبيعية – آفة الجراد–** ، الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1989م، ص 76.

[653]- محمد الحبيب بن الخوجة: **الجراد بين الدراسات الحديثة وبين التصورات الموروثة**، ضمن: **الكوارث الطبيعية**، ص 61.

[654]- يحيى بن خلدون: **بغية الرواد، 1** / 325 - 326.

[655]- الوزان: **وصف إفريقيا، 1** / 81.

[656]- يحيى بن خلدون، **المصدر السابق، 1** / 155.

[657]- أنظر ما كتب عن ذلك عند: مصطفى أنور طاهر: **نصوص تاريخية لمؤرخين دمشقيين عن زلازل القرن 12**، عدد 27، 1974م، ص 55 – 108، نشر في. ***Bulletin d'études orientales,*** tom XX VII, Anneè:1974.

تعيش أزمة غذائية حقيقية، لأنه يتعذر على الجلابين جلب منتوجاتهم إلى المدن، أو أنهم يجلبون منها القليل وتكون بأثمان عالية، فيندر وجود السلع في الأسواق ويحدث الغلاء فتقع الخصاصة التي تتحول إلى مجاعة من دون شك.

2- الأوبئة وأسباب حدوثها

بالرغم من أن الأوبئة والطواعين تندرج ضمن الآفات السماوية أو العاهات التي لا يد للإنسان فيها بل هي مقدرة من الخالق سبحانه وتعالى، إلا أن التأليف الطبية وكذا التأليف التي كتبت عن الطب النبوي، قد رصدت لنا جملة من الأسباب منها طبيعية ومناخية ومنها ما هو روحاني، ومنها ما يكون ناتجا عن الحروب والمجاعات ويمكن لنا أن نلخصها فيما يأتي:

أ- فساد الهواء والماء

إن فساد الهواء في نظر أغلب الأطباء يعد العامل الرئيس المسؤول عن حدوث الأوبئة نظرا لأن الناس يشتركون جميعهم في استنشاقه وعليه فإن فساده يعني هلاكهم بالجملة،[658] وتحول الهواء وإحالته إلى الفساد يكون سواءً في الكيف أو في الجوهر، ففساده في الكيف يكون بفساد كيفياته العرضية دون فساد الجوهر، فتزيد أو تنقص على مقدارها الطبيعي، أما تغيره في الجوهر فيكون بفساد فصوله الجوهرية وتعفنه وخروجه عن حالته الطبيعية.[659]

ويكون فساد الهواء بسبب جملة من العوامل نلخصها كما يأتي:

* بفعل الرطوبة والحرارة الزائدتين وكثرة التعفن.[660]

* مخالطة الهواء لأبخرة حارة يابسة متعفنة.

* مخالطة الهواء لأبخرة متعفنة كتلك التي تخرج من مطامير الطعام التي يطول اختزانها، أو من المواضع التي يجمع فيها "الرشح من خزر السفن" أو الهواء المتصاعد من أفضية الآبار التي يموت فيها الحيوان.[661]

* ويتغير الهواء أيضا ويفسد إذا خالط أبخرة أجساد الموتى المتعفنة، خصوصا إذا ما كان هذا الهواء راكدا وكانت جثث الموتى كثيرة؛ مثلما هو الحال في الحروب، حيث أن القدماء كانوا يجتنبون مجاورة المقابر في سكناهم خوفا من أبخرة الموتى المتصاعدة منها.

* مخالطة الهواء لأبخرة السباخ والبطائح المتغيرة المياه والخنادق وأبخرة مناقع الكتان وأبخرة مواضع السروب وأكداس الأزبال.[662]

* وقد يفسد الهواء أيضا بسبب كثرة العمران لما ينتج عنه من العفن والرطوبات، وهو السبب الذي أقره ابن

---

[658]- ابن زهر: **كتاب الأغذية**، ص 143.

[659]- ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص 166.

[660]- ابن زهر: **التيسير في المداواة والتدبير**، ص 450، الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص 333.

[661]- ابن خاتمة: **المصدر السابق**، ص 166 - 167.

[662]- ابن زهر: **المصدر السابق**، ص 144- 145، نفسه: **التيسير في المداواة والتدبير**، ص 453، ابن خاتمة: **المصدر السابق**، ص 171.

خلدون قائلا: الوباء "سببه في الغالب فساد الهواء لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة"،[663] ولعل فساد الهواء يؤثر حتما على الحيوانات فتمرض وتموت، فتتأثر من جثثها المتعفنة النباتات والأشجار والثمار فتتعفن هذه الأخيرة، فيزيد ذلك من فساد الهواء المحيط بها.[664]

وعن فساد الهواء وعن الأسباب المؤدية إلى ذلك ثمة إشارة أوردها العقباني؛ والتي تدل على انعدام شروط النظافة في بعض مدن المغرب الأوسط خصوصا تلمسان، فقد كانت الطرقات تعج بالأزبال وجيف الحيوانات، فضلا عن الرحاضات التي تخرج من القنوات وطين المطر المجتمعة بالشوارع، كما أن قيام بعض الحرفيين في المدن بأعمالهم كان يؤدي إلى تنجس الطرقات، ومثل ذلك ما كان يفعله الخرازون بتلمسان حيث كانوا يبسطون جلود البقر في طريق المارة فيؤذونهم بذلك، وكل هذا يدخل في باب منكرات الشوارع التي حذر منها الشرع.[665]

و لم يكن الهواء الفاسد العامل الرئيسي فقط المتسبب في حدوث الأوبئة، وإنما تتسبب المياه الفاسدة أيضا في حدوث العديد من الأمراض الأوبئة والحميات الدقيقة والأورام الطاعونية والجرب، وكذلك الحصى في الكلى والمثانة، خاصة منها المياه الراكدة والمتغيرة حتى النتانة.[666]

والمدن التي تتسم بمياهها الفاسدة في المغرب الأوسط نادرة الوجود؛ فلم تسجل لنا المصادر الجغرافية سوى مدينتين هما تنس ومرسى الخرز؛ فمدينة تنس مياهها غير صالحة للشرب رديئة؛ أين يصفها أحد الشعراء في بيت مقتطف من أرجوزة نظمت حول فساد هوائها ومياها ذكرها البكري:

وماءها من فج ما خصت به   نحس يجري على ترب نجس[667]

وكذلك مرسى الخرز فماءها فاسد أيضا، لأن مصدر شرب أهلها كان من بئر وبيئة تعرف ببئر أزراق، ويقال عن فساد مياهها مثلا شعبيا يتداوله أهلها فيقولون: "طعنة بمرزاق خير من شربة من بير أزراق ".[668]

وقد ذكر ابن مرزوق أن شرب الناس في الحج للمياه الراكدة كان سبب حدوث العديد من الأمراض الخطيرة التي أكثرها يكون في البطن، وهي تؤدي إلى مرض عدد كبير من الحجاج بسبب ذلك،[669] ولاشك في أن رحلة الحج إضافة إلى الرحلات التجارية كانت عاملا مساعدا على نقل الأمراض والأوبئة إلى مختلف البقاع ومنها المغرب الأوسط.

ب- اضطراب المناخ وتغير فصول السنة

لا تقتصر الانعكاسات السلبية لتغيرات المناخ على حدوث القحوط والفيضانات فقط؛ وإنما تسببت أيضا

---

[663]- **المقدمة**، ص 282.

[664]- ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص 169 - 171.

[665]- **تحفة الناظر وغنية الذاكر**، ص 65 - 67.

[666]- ابن زهر: **التيسير في المداواة والتدبير**، ص 454 - 456، 458.

[667]- البكري: **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، ص 63.

[668]- **المصدر نفسه**، ص 55، الحميري: **الروض المعطار**، ص 539.

[669]- **المناقب المرزوقية**، ص 246.

في حدوث أوبئة فتاكة هددت حياة الإنسان في العصور الوسطى، وجعلته دائما عرضة لهذه الأمراض المفاجئة.

وقد يتسبب اضطراب فصول السنة وتبدلها في ظهور الأمراض الوبائية؛ كأن يكون فصل الربيع باردا يابسا، والخريف يكون على طبيعة الربيع والشتاء على طبيعة الصيف،[670] ويتعفن الهواء أيضا إذا كانت السنة ربيعية، فيؤثر ذلك في الحيوان والنبات والإنسان على حد سواء،[671] كما أن التذبذب في تساقط الأمطار يؤدي أيضا إلى حدوث أمراض وبائية، ففي فترات القحط يتغير الهواء ويفسد وتحدث بذلك أوبئة مثل الرمد وأنواعا من السعال والبحح وانبعاث الدم من المقعدة.[672]

ولعل هبوب الرياح الشمالية وسقوط الأمطار الغزيرة في فصل الصيف (في شهري جويلية وأوت) يفسد الهواء ويعفنه؛ فتحدث بذلك أمراضا خصوصا الحمى الوبائية،[673] وعموما تكثر الأمراض الوبائية والطواعين في أواخر فصل الصيف والخريف أكثر من باقي فصول السنة بسبب "كثرة اجتماع الفضلات المرارية الحادة وغيرها في فصل الصيف، وعدم تحللها في آخره، وفي الخريف لبرد الجو وردغة الأبخرة والفضلات التي كانت تتحلل في زمن الصيف، فتنحصر وتسخن وتتعفن فتحدث الأمراض العفنة، ولا سيما إذا صادفت البدن مستعدا قابلا، رهلا قليل الحركة كثير المواد، فهذا لا يكاد يفلت من العطب".[674]

كما أن صيف مناخ البحر الأبيض المتوسط كان يمتاز بكثرة وقوع الأوبئة والأمراض،[675] وكون مدن ساحل المغرب الأوسط خاضعة لهذا المناخ؛ فإن أهلها يكونون أكثر عرضة للأمراض والأوبئة من باقي المدن الأخرى البعيدة عن الساحل.

جـ المجاعات و غلاء الأسعار

قد تحدث الأوبئة نتيجة ظهور المجاعات وغلاء الأسعار،[676] لكن لا يجب أن نسلم بذلك دائما فقد تحدث مجاعة ولا يتبعها وباء والعكس كذلك، وهذا ما رأيناه بالنسبة للمجاعات الواقعة في المغرب الأوسط، فالمجاعة التي حدثت ببجاية سنة 588 هـ/1192م أعقبها وباء شديد؛[677] في حين كانت المجاعة الشديدة التي حدثت بتلمسان زمن الحصار المريني لها (698 هـ- 707 هـ/ 1298-1307م)[678] لم تذكر المصادر أي وباء كان

---

[670]- ابن خاتمة : **تحصيل غرض القاصد**، ص 170.

[671]- الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص 333.

[672]- ابن زهر: **التيسير في المداواة والتدبير**، ص 453.

[673]- **المصدر نفسه**، ص 449، نفسه: **كتاب الأغذية**، ص 143، ابن خاتمة: **المصدر السابق**، ص 170، الوزان: **وصف إفريقيا**، 1/ 79، مارمول كربخال: **إفريقيا**، 1/ 31.

[674]- ابن قيم الجوزية: **الطب النبوي**، ص 40 - 41.

[675]- بروديل: **المتوسط والعالم المتوسطي**، ص 67.

[676]- ابن خلدون: **المقدمة**، ص 282.

[677]- ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 181.

[678]- يحيى بن خلدون: **بغية الرواد**، 1/ 118 - 125، ابن خلدون: **العبر**، 197/7- 198، التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص 130 - 131.

قد نتج عنها، ولا شك في أن ذلك راجع قبل كل شيء إلى طبيعة كل منطقة ومدى قابليتها للأوبئة، إذا ما توفرت بعض الوسائط كالجوع مثلا؛ فمدينة بجاية هي من دون شك كانت أكثر عرضة لمثل هذه الأمراض لأنها مطلة على البحر وتخضع للمناخ المتوسطي؛ على عكس مدينة تلمسان التي جاءت في موقع وسطي بين البر والبحر، فهي أقل عرضة لمثل هذه الأمراض إلا ما جاءها عن طريق العدوى.

فأوقات المجاعة تفرض على الناس نمطا غذائيا جديدا يكون في أغلبه غير خاضع لشروط الصحة لأن همهم الوحيد هو أن يسدوا رمقهم من الجوع، فيقتصر غذائهم آنذاك على أكل الحبوب المتعفنة والفاسدة من طول الإختزان، وأكلهم اللحوم الرديئة كلحم الجيفة ولحوم مختلف الحيوانات، من السنانير والفئران ولحوم الكلاب وأكلهم مختلف البقول والنباتات البرية، وبعض الأغذية الغريبة التي لم يعتادوا على أكلها،[679] وقد كان أكل أهل المغرب الأوسط بنفس هذا النمط أيضا في أوقات المجاعات؛ فقد أكل أهل تلمسان في المجاعة التي ألمت بهم بسبب الحصار المريني أنواعا شتى من الحيوانات التي تنفر منها النفوس السوية وتعافها كالسنانير والفئران والكلاب،[680] ومن شدة الجوع أصبح السكان يعرضون غائطهم إلى الشمس حتى ييبس ويأكلونه،[681] ولهذا بالرغم من ذلك لم يتعرض أهل تلمسان حينها لأي وباء إن لم تكن المصادر قد أهملت ذكر ذلك.

وفضلا عن ذلك فإن ندرة الماء الشروب في المجاعات التي يكون سببها القحط يؤدي بالناس إلى شرب المياه القذرة والراكدة في البرك، مما يزيد من احتمال حدوث الأوبئة في أوقات القحط الشديد، وتحدث الأوبئة أيضا في أوقات المجاعات نتيجة فساد الهواء بسبب كثرة عدد الموتى كما أسلفنا الذكر.

د- أسباب فلكية وروحانية

إن هناك من يرجع أسباب حدوث الأوبئة إلى أمور فلكية كاجتماع الكواكب واتصالها مع بعضها البعض، كاجتماع المريخ وزحل في البروج النارية، ويجعل ابن الخطيب ذلك سببا أقصى لحدوث الأوبئة فيقول: "سبب أقصى وهو الأمور الفلكية من القرانات التي تؤثر في العالم حسب ما يزعمه أرباب صناعة النجوم ويأخذه الطبيب مسلما عنهم".[682]

غير أن بعض العلماء فصلوا بين سبب حدوث الوباء وسبب حدوث الطاعون، ويرجعون سبب حدوث الوباء إلى فساد الهواء، بينما يرجعون حدوث الطاعون إلى سبب روحاني يتمثل في أنه وخز من الجان،[683] استنادا للحديث النبوي الشريف الذي يرويه أبو موسى الأشعري عن رسول الله ρ إذ يقول: "فناء أمتي بالطعن

---

[679]- ابن زهر: **التيسير في المداواة والتدبير**، ص 459، نفسه: **كتاب الأغذية**، ص 145، ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص 171، ابن خلدون: **المقدمة**، ص 282، الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص 333.

[680]- السلاوي: **الاستقصا**، 3 / 86.

[681]- ابن الأحمر: **روضة النسرين (تاريخ الدولة الزيانية)**، ص 69.

[682]- **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، ص 38.

[683]- محمد المواق: **الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية**، ص 107.

والطاعون، قيل يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: وخز أعدائكم من الجن وفي كلّ شهداء".[684]

فالطاعون هو وخز من الجان وقد منعه الله عن المدينة إنما لوجود ملائكة مكلفين من الله بحمايتها من الدجال والجن الطاعن،[685] وقد ربط العلماء وخز الجان أو طعنه بأمور فلكية متمثلة في ظهور الثريا وسقوطها، والثريا هي النجم، فإذا سقطت الثريا وغابت تكثر الأمراض والطواعين، وإذا طلعت ترتفع كل الأمراض والعاهات عن كل قطر،[686] وذلك استنادا للحديث النبوي القائل: "إذا ارتفع النجم رفعت العاهة عن كل بلد"،[687] فبطلوع الثريا أو ظهورها تزول الأهوية الفاسدة المتعفنة، وفي مدة غيابها يكون الهواء فاسدا وخيما، وهذه المدة إنما يكون فيها طعن الجن الذي بسببه يحدث الطاعون.[688]

وقد كان أفراد مجتمع المغرب الأوسط يعتقدون أيضا بهذا السبب الروحاني، وأن سبب الأمراض العامة التي تصيب عدد أكبر من الناس إنما هو الجن؛ فقد دعى أبو ولجوط المعروف بأبي تابرنوست جماعة من الجن إلى شيخه أبي محمد عبد الخالق بن ياسين وحملهم مسؤولية إصابة أهل بلده بأمراض كثيرة، وطلب منهم أن يظهروا له واحدا منهم فلما ظهر له قال له هذا الجن مبرئا لطائفته: "ما أضررنا أحد وما مرضوا إلا من تغير هواء بلدهم".[689] فهذه الرواية تحمل طابعا خياليا إلا أنها تؤكد لنا وجود هذا الاعتقاد في ذهنية عامة المجتمع.

هـ- المناطق الأكثر عرضة للأوبئة والأمراض

تختلف كل منطقة في قابليتها للإصابة بالوباء بحسب خصائصها الطبيعية والجغرافية والمورفولوجية، فبلاد الساحل تكون أكثر عرضة للوباء نظرا لحرارتها ورطوبتها الزائدتين، فهي تتأثر بالأبخرة المتصاعدة من البحر، خصوصا إذا كان البحر يقابلها من جهة الجنوب دون وجود حائل بينهما، أما إذا كان البحر يحيط بها من كل جانب كما هو الحال في الجزر البحرية، فإن احتمال إصابتها بالوباء تكون أعظم،[690] وقد سبق وأن أشرنا إلى أن المناطق الساحلية الخاضعة للمناخ المتوسطي تكون عرضة لمثل هذه الأمراض في فصل الصيف،[691] وكذلك هو الحال بالنسبة لبعض مناطق المغرب الأوسط الساحلية.

---

[684]- أحمد بن حنبل: **المسند**، القاهرة: مؤسسة قرطبة، 4/ 395 ، حديث رقم 19546.

[685]- السيوطي: **ما رواه الواعون في أخبار الطاعون**، ورقة 169 ب.

[686]- ابن قيم الجوزية: **الطب النبوي**، ص 39، محمد الرصاع: **الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية**، ص 116 - 119، التنبكتي: **شفاء السقم**، ورقة 169 ب - 170 أ.

[687]- الطبراني: **المعجم الصغير المسمى الروض الداني**، تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمرير، ط 1، بيروت- عمان: المكتب الإسلامي- دار عمار، 1405هـ - 1985م، 1 / 81، حديث رقم 104، وأورده الإمام أحمد بن حنبل بروايتين مختلفتين، أنظر: **المسند**، 2 / 341، 2 / 388، حديث رقم 8476 و 9027.

[688]- التنبكتي: **المصدر السابق**، ورقة 174 أ.

[689]- ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 89 أ.

[690]- ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص 175، ابن الخطيب: **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، ص 43، التنبكتي: **شفاء السقم**، ورقة 177ب.

[691]- بروديل: **المتوسط والعالم المتوسطي**، ص 67.

وتكون البلاد الواقعة في القطب الجنوبي المعرضة للرياح الجنوبية دون أن يكون لها حائل من هذه الرياح أشد عرضة للوباء، وخصوصا التي تحيط بها الجبال من وراءها فتبقى الرياح الجنوبية محصورة في داخلها ويكون استعدادها لقبول الوباء أعظم، في حين عدت البلاد الواقعة في القطب الشمالي التي تكون معرضة للرياح الشمالية أقل عرضة للإصابة بالأمراض الوبائية.[692]

وأما البلاد الواقعة في المشرق والمغرب فهي متوسطة الحال في استقبالها للوباء نظرا لاعتدال الريحين الشرقية والغربية، غير أن البلاد الواقعة في المغرب تكون أكثر عرضة للوباء من البلاد الواقعة في المشرق نظرا للرطوبة الغالبة على الريح الغربية، بخلاف الريح الشرقية التي تكون يابسة بطبيعتها.

كما أن البلاد التي تكون سهلية هي أكثر عرضة للوباء من الجبال، لأن هوائها يكون أكثر استعدادا للفساد، خصوصا إذا كان بجانبها أودية وبطائح والتي تنعكس عليها أشعة الشمس فترتفع درجة حرارتها وتكثر فيها الرطوبة نتيجة للأبخرة المتصاعدة منها، وكذلك يكون الهواء في هذه المناطق راكدا، في حين تكون البلاد الواقعة في الجبال الباردة قليلة التعرض للوباء بسبب قلة الرطوبة.[693]

وهناك من يظن بأن الأماكن الوبائية يكون وقع الوباء على أهلها أخف، لأنهم قد ألفوا مثل هذه الأهوية الفاسدة، وتعودوا على المصابرة عليها،[694] وقد كان يوجد في المغرب الأوسط مدينتين وبيئتين على اتفاق أغلب المصادر الجغرافية على ذلك وهما تنس ومرسى الخرز؛ فمدينة تنس وبيئة كثيرة الأمراض لا يسلم من يدخل إليها، خصوصا الغرباء غير المعتادين على هوائها،[695] ويضيف صاحب الاستبصار بأن "بها فئران ضخمة"،[696] هذا وقد أثبت الطب الحديث أن الجرذان تعتبر من الوسائط التي تنقل جرثومة الطاعون إلى الإنسان، أما مرسى الخرز فهي كذلك مدينة فاسدة الهواء وأهلها يمتازون عن غيرهم بصفرة ألوانهم وبها حيات كثيرة، فضلا عن أن هاتين المدينتين تمتازان بفساد مياههما وهذا ما أشرنا إليه سلفا.

وتختلف الإصابة بالوباء من مجتمع لآخر بحسب طبيعة كل مجتمع ونمط عيش أفراده، فتكون المناطق الآهلة بالعمران أكثر عرضة من غيرها نظرا لتولد العفن والرطوبات التي تفسد الهواء، وقد ضرب لنا ابن خلدون في ذلك مثلا ببعض المدن مثل مصر (القاهرة) بالمشرق وفاس بالمغرب.[697]

وبخلاف الأرياف التي تقل فيها الأمراض بسبب نقاء هوائها لقلة العفن والرطوبات ولأنها قليلة السكان والعمران أيضا، اعتبر ابن خلدون أن المدن تكون أكثر عرضة للأمراض نتيجة تلوث الهواء وركوده بسبب كثرة العمران والسكان وكثرة الصنائع، وخصوصا في تلك المدن المحاذية للمياه الفاسدة، والمستنقعات التي تكثر

---

[692]- ابن خاتمة: **المصدر السابق**، ص 175.

[693]- ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص 176.

[694]- ابن الخطيب: **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، ص 47.

[695]- البكري: **المغرب**، ص 62 -61، مؤلف مجهول: **الاستبصار**، ص 133، الحميري: **الروض المعطار**، ص 138.

[696]- **الاستبصار**، ص 133.

[697]- **المقدمة**، ص 323 - 324.

فيها الحشرات الناقلة للأمراض، وكذلك بسبب كثرة النفايات وانعدام شروط النظافة.

ولذلك يرى ابن خلدون أن بناء المدن يخضع لجملة من الشروط من بينها صحة الهواء وحركته وتموجه،[698] فصحة الهواء ووفرة المياه وصلاحها للشرب شروط أساسية يجب أن تراعى عند اختطاط المدن والأمصار "فالمدن التي لا تراعى فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب".[699]

وكما يسلم من الوباء أهل العمود (أهل الخيم) والرحالين من العرب بإفريقية، وغيرها من المناطق التي يسود فيها نمط عيش البداوة، وذلك لعدم انحسار الهواء في مثل هذه المناطق وبالتالي قلة إمكانية فساده،[700] كما يسلم منه أهل الصحراء مثل أهل السودان حيث يقول الوزان: "ولم يظهر (الطاعون) قط في أرض السودان"،[701] وخصوصا من يغلب على عيشهم الطابع الرعوي، لأنه تبين أن البراغيث التي تتسبب في نقل الطاعون تنفر من روائح بعض الحيوانات كالأحصنة والبقر والجمال والخرفان.[702]

وتختلف إمكانية الإصابة بالوباء والأمراض أيضا من مجتمع لآخر بحسب نمط غذائهم وشرابهم؛ فالمجتمعات التي يغلب على أهلها أكل الفواكه الرطبة والأغذية العفونية السريعة التحول كالحيتان والألبان، وشربهم يكون من المياه الراكدة في بطون الأودية والمياه الكبريتية، وكذا المناطق التي تنبع فيها المياه الحارة يكون أهلها عرضة للأوبئة والأمراض أكثر من غيرها.[703]

وفي هذا المجال يرى ابن خلدون أن أهل الأمصار والحضر أكثر عرضة للأمراض الوبائية من أهل البوادي لخصب عيشهم وكثرة التنوع في أغذيتهم وتناولهم الفواكه رطبة ويابسة، بخلاف أهل البوادي فأغذيتهم غير متنوعة، فضلا عن أن أهل الأمصار قليلوا الرياضة فهم ساكنون على الدوام، في حين يمارس أهل البوادي رياضات عدة كركوب الخيل والصيد وغيرها.[704]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد خص بعض المناطق بأمراض معينة فأرسل الطاعون للشام والحمى للمدينة، و ذلك يتضح جليا من خلال الحديث الذي روي عن النبي ρ إذ قال: "أتاني جبريل عليه السلام بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام، والطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم، ورجز على الكافرين".[705]

و- فئات الناس الأكثر عرضة للوباء

[698]- **المصدر نفسه**، ص 323 - 324، 386، Ahmed Aroua**: *sante et civilisation chez ibn khaldoun,*** مجلة التاريخ- عدد خاص بملتقى ابن خلدون، النصف الأول من سنة 1984م. الجزائر، ص 73 – 74.

[699]- **المصدر السابق**، ص 323.

[700]- ابن الخطيب: **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، ص 43.

[701]- **وصف إفريقيا**، 1 / 85.

[702]- سميرة المزكلدي: **المجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط**، ص 34.

[703]- ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص 176.

[704]- **المقدمة**، ص 386 ، Ahmed aroua**: *sante et civilisation chez ibn khaldoun,*** p 74.

[705]- أحمد بن حنبل: **المسند**، 5 / 81، حديث رقم 20786، محمد الرصاع: **الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية**، ص107.

وتختلف الإصابة بالوباء بين فئات الناس بحسب طبقاتهم وأجناسهم وأعمارهم، فالضعفاء "وأهل الشظف" أكثر عرضة للوباء من غيرهم بسبب مجاورتهم الجنائز وضيق المساكن والتراكم وسوء التدبير لجهلهم؛ خصوصا في طبقات اللفيف (العبيد).[706]

كما أن أول المتأذي بالطواعين والأوبئة هم الأطفال والصبيان لكثرة الرطوبة المتواجدة في أجسامهم،[707] وكذلك من تغلب على مزاجه الحرارة والرطوبة وهو في سن الشباب؛ وخصوصا الشواب من النساء، وكذلك من كان بطبعه كثير الطعام والنوم ولا يبالي بإدخال الطعام على الطعام، ويتناول أغذية سريعة التحول فإن احتمال تعرضه للمرض يكون أعظم،[708] فضلا عن أن الوباء يختلف وقعه على الناس بحسب طباعهم فذوي المزاج السيئ يكونون أكثر عرضة للمرض من ذوي المزاج المعتدل.[709]

ونلاحظ مما سبق أن الأطباء قد حصروا جملة أسباب الأوبئة في ثلاث نقاط رئيسية هي:فساد الأهوية وفساد المياه وفساد الأغذية،[710] لكن قد يكون للوباء سبب غير معلوم؛ حيث سلم الأطباء حينها بأنه غضب من الله سبحانه وتعالى.[711]

ويتحكم في حدوث الوباء أيضا عدة اعتبارات ذكرناها تتعلق بطبيعة المناخ السائد لكل منطقة واختلاف تموقعها الجغرافي، وتارة تتعلق باختلاف عيش السكان وعوائدهم ونمط غذائهم، وأجناسهم وأعمارهم وطباعهم.

إن كل هذه الأسباب المذكورة أعلاه -وفي مقدمتها فساد الأهواء- والتي أقرها الطب الإسلامي والطب الأوروبي على حد سواء زمن العصور الوسطى، وكلاهما قد استمدا هذه النظريات من الطب اليوناني القديم، لم تعد في نظر الطب الحديث سوى أسباب عامة، خاصة مع سلسلة التطورات الحاصلة في مجال علم الأوبئة، فقد تمكن العالم الفرنسي ألكسندر ييرسين من عزل البكتريا أو العصيات المسؤولة عن حدوث الطاعون والتي تعرف علميا باسم ***yersinia pesty*** نسبة إليه، ثم تمكن باحث آخر سنة 1898 من اكتشاف الدويبة الطفيلية الناقلة لجرثومة المرض، وهي برغوث ينقلها إلى الجرذان وبعض القوارض ومن ثم إلى الإنسان،[712] ثم تلتها بعد ذلك اكتشافات عديدة للفيروسات والبكتيريا المتسببة لمختلف الأمراض الوبائية الأخرى.

---

[706]- ابن الخطيب: **المصدر السابق**، ص47 - 48.

[707]- ابن الخطيب: **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، ص 48، الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص 335.

[708]- ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص 178.

[709]- ابن زهر: **التيسير في المداواة والتدبير**، ص 450، 459.

[710]- **المصدر نفسه**، ص 450.

[711]- ابن زهر: **كتاب الأغذية**، ص 146.

[712]- محمد الحداد: **تمجيد الموت: صورة الوباء في القرن التاسع عشر**، ص 116، عبد الكريم الخطابي: **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية**، ص 149، **الموسوعة العربية العالمية**، 27 / 48.

الفصل الثاني

مجاعات وأوبئة المغرب الأوسط والسعي لتجاوزها

أولا: المجاعات والأوبئة التي اجتاحت المغرب الأوسط

ثانيا:جهود لتجاوز أزمات الجوع والوباء

أولا: المجاعات والأوبئة التي اجتاحت المغرب الأوسط

المجاعات الواقعة بالمغرب الأوسط:

تعتبر ظاهرة الجوع التي تعددت أسبابها من أهم الأزمات التي شهدها المغرب الأوسط في الفترة الوسيطية، بالرغم من أن عملية تأمين الغذاء كانت الشغل الشاغل لهذا المجتمع كغيره من المجتمعات الأخرى، وبطريقة بدت أكثر تحضرا عما كانت عليه قبل هذه الحقبة، إلا أن المجاعات ظلت أحد الثوابت اللصيقة بتاريخه، فما هي أهم المجاعات التي اجتاحت هذا المجال الجغرافي في الفترة الممتدة ما بين (588-927 هـ/1192 - 1520م) ؟ وهذا ما سنراه موضحا في الجدول الآتي:

جدول 06: أهم المجاعات الواقعة بالمغرب الأوسط

سنة المجاعة	مكان وقوعها	النص الدال على ذلك	المصدر / المرجع
588 هـ /1192م	بجاية	" فأقام السيد (أبو زيد) على هذه الحال والمجاعة تشتد والوباء يزيد حتى عم الموتان"	ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص181.
610 هـ /1213م	**بجاية**	" ووقعت مجاعة ببجاية فذهب أبو زكريا يحيى بن أبي علي المشهور بالزواوي (تـ611 هـ) إلى العامل"	الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 135، **رسائل موحدية**، 182/2.
614- 615- 616 هـ /1217- 1218- 1219.	**المغرب**	"وفي سنة ست عشرة وستمائة كان المحل العظيم والمجاعة التي شكاها الظاعن والمقيم وتناهى الحال في مزيد السعر إلى مالا نهاية له، وكان ابتداء الحال فيه في السنتين المتقدمتين لهذه السنة المؤرخة."	ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص266- 267.
617 هـ /1220م	**المغرب**	"وفي سنة سبع عشرة كان الغلاء الشديد بالمغرب والقحط والجراد "	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 273، مجهول: **الذخيرة السنية**، ص 57.
620 هـ /1223م	**المغرب**	"وفيها كان في المغرب من الغلاء ما لا يعبر عنه"	ابن نظيف الحموي: **التاريخ المنصوري**، ص84.
624 هـ /1226و	المغرب والأندلس	"وفي سنة أربع وعشرين وستمئة اشتد الغلاء بالمغرب والأندلس "	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 274.

630 هـ /1232م	المغرب	"وفيها حلت بلاد المغرب وكثر فيها الجوع والوباء"	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 361.
632 هـ /1234م	المغرب	"فضاقت الأرض بما رحبت على الناس لانقطاع المرافق والمواد وارتفعت الأسعار وعدمت الأقوات"	ابن عذاري : **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 318 -319.
634هـ/1236م	المغرب	" وفيها كان الغلاء المفرط الذي انتهى فيها الربع الواحد من الدقيق إلى سبعة وثلاثين درهما"	ابن عذارى : **البيان المغرب (الموحدي)** ، ص339.
635هـ/1237م	المغرب	" وفيها اشتد الغلاء والوباء بالعدوة فأكل الناس بعضهم بعضا"	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 362.
النصف الأول من القرن 7هـ/13م	**بجاية**	" كنت ببجاية فأصاب الناس جفوف عظيم"	الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 151، التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص320.
677هـ/1278م	المغرب	"وفيما كان الجراد العام بالمغرب"	السلاوي: **الاستقصا**، 3/ 89.
679هـ/1280م	المغرب	" وفيها كان الجراد ببلاد المغرب أكل جميع زروعها فلم يترك بها مخضرا"	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 535.
683هـ/1284م	المغرب	" كان بالمغرب قحط شديد لم ير الناس قطرة ماء حتى كان اليوم السابع والعشرون من رمضان "	السلاوي: **الاستقصا**، 3/ 89.
688هـ/1289م	تلمسان (مليكش)	" ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلدا حلت به زمانة الزمان، وأخلت به حوادث الحدثان، فلم تبق به علالة ولا تبصر في أرجائه للضمئان بلالة"	العبدري: **الرحلة المغربية**، ص 9.
692هـ/1292م	المغرب	" وكان أصاب الناس أعوام اثنين وتسعين (وستمائة) وما بعدها قحط"	ابن خلدون: **العبر**، 7/ 454.
693هـ/1293م	المغرب وإفريقية ومصر	" وفيها كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب وإفريقية ومصر، هلك فيها خلق كثير"	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 539-540.
من 698- إلى 707 هـ /1298- 1307م	تلمسان	"وأضر هذا الحصار في إضافته بأهل البلد (تلمسان) وغلاء أسعارها وهلكت الناس بالجوع"	ابن مرزوق: **المناقب المرزوق**، ص 194، يحيى بن خلدون: **بغية الرواد** 1/ 121- 125، التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص 130-

			132،ابن خلدون: **العبر**، 197/7- 198،ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص 126 – 127.
701هـ/1301م	المغرب	" وفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة كان القحط بالمغرب"	السلاوي: **الاستقصا**، 3/ 178.
724هـ/1323م	المغرب	"وفي سنة أربع وعشرين وسبعمائة كان الغلاء العظيم والمجاعة الشديدة بالمغرب"	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 544، ابن القاضي: **لقط الفرائد**، 2/ 179.
726- 727 هـ /1325ـ 1326م	بجاية	"فاشتد الحصار على أهل بجاية وغلت أسعارهم وتلاشي أمرهم.	يحيى بن خلدون: **بغية الرواد**، 137/1– 138، ابن خلدون: **العبر** 7 / 223.
749 هـ/1348م	إفريقية	"وانتفضت إفريقية على السلطان أبي الحسن واشتد القلق في الطعام، فبلغ قفيز من القمح ثمانية دنانير كبيرة والشعير على الشطر في دلك"	ابن الشماع: **الأدلة البينة النورانية**، ص97 - 98.
750هـ/1349م	قسنطينة	" وكانت قسنطينة في حصار بني مرين، وفي ضيق وغلاء شديد من سنة أربع وخمسين وسبعمئة"	ابن قنفذ: **الفارسية**، ص 180.
776هـ/1374م	المغرب الأوسط ككل	" واشتملت هذه السنة على مجاعة شديدة"	يحيى بن خلدون: **بغية الرواد**، 1/ 325 – 326، ابن قنفذ: **أنس الفقير وعز الحقير**، ص 149، المازوني: **الدرر المكنونة**،48/2 ب.
ق 8هـ/14م	المغرب الأوسط	وسئل "عبد الرحمن الوغليسي البجائي (تـ 786 هـ) هل يجوز سلف المبلول من الحنطة...لأجل غلاء السعر"	المازوني : **الدرر المكنونة** 41/2 ب.
ق 8هـ/14م	المغرب الأوسط	وسئل أيضا الوغليسي "عمن ألجأته الضرورة لسلف القمح والشعير... وحاجة ألجأته في مسغبة وقعت بالجميع"	المازوني: **الدرر المكنونة**، 41/2 ب.
ق 8هـ/14م	المغرب الأوسط	وسئل "عبد الرحمن الوغليسي عن رجل أخذ دراهم من رجل مستغرق الذمة... وكان في سنة المجاعة"	المازوني: **الدرر المكنونة**، 2/ 27 ب.
842هـ/1438م	تلمسان	" وكان بتلمسان غلاء شديد ومجاعة "	ابن صعد: **روضة النسرين**، ص

			221،ابن مريم: **البستان**، ص 33.
ق 9 هـ/15م	المغرب الأوسط	"وسئل سيدي منصور الزواوي (كان حيا سنة 850 هـ، عن رجل باع مملوكة في سنة مسغبة"	المازوني: **الدرر المكنونة**، 2/ 72 ب.
ق 9 هـ/15م	المغرب الأوسط	وسئل الزواوي أيضا " عن بدوية رهنت بيتا لها في الشدة "	البرزلي: **جامع مسائل الأحكام**، 4/ 160 - 161.
ق 9 هـ/15م	المغرب الأوسط	"وسئل شيخنا وسيدنا أبو الفضل العقباني (تـ 854 هـ/1350م) عن رجل قام على آخر في دار متخلفة عن أبيه... فقال له المقدم عليه نعم ابتعتها منها في عام المسغبة وأنت في حضانتها"	المازوني: **الدرر المكنونة**، 2/ 18 ب.
ق 9 هـ/15م	المغرب الأوسط	"وسئل أبو الفضل العقباني عن بكر يتيمة مهملة فرت بنفسها زمن المسغبة "	المازوني: **الدرر المكنونة**،1/ 275 ب – 276 أ.
ق 9 هـ/15م	المغرب الأوسط	"وسئل شيخنا أبو الفضل العقباني عن رجل أصابته المسغبة فيما فرط من الزمان حتى أشرف على الهلاك"	المازوني : **الدرر المكنونة**، 1/ 201 أ. الونشريسي: **المعيار المعرب**، 4 / 290.
ق 9 هـ/15م	المغرب الأوسط	"وسئل سيدي قاسم العقباني عن رجل غاب غيبة طويلة ... وبعد مدة حدث الغلاء الواقع في هذه المسغبة الماضية قريبا"	الونشريسي: **المعيار المعرب**، 100/5.
ق 9 هـ/15م	المغرب الأوسط	" وسئل أبو القاسم العقباني عن امرأة ترتب في ذمتها لرجل ثمن قمح، ورهنت في ذلك دارها فلما تم أجل الرهن جاء إلى المرأة فوجدها مريضة هي وزوجها وذلك في سنة المسغبة ".	الونشريسي: **المعيار المعرب**، 102/5.
ق 9هـ/15م	المغرب الأوسط	"وسئل أيضا (أبو الفضل العقباني) عن شهادة السماع إذا شهد بها في مدة عشرين سنة لما كان الوباء كثيرا والجوع المفرط"	المازوني: **الدرر المكنونة**، 2/ 72أ.
ق 9 هـ/15م	تلمسان ضواحيها	"فتبعهم أنا والشيخ (أحمد بن يوسف الراشدي من أهل ق 9 هـ) وكان العام مسغبة"	ابن الصباغ القلعي : **بستان الأزهار**، ورقة 28 ب.
927هـ/1520م	المغرب	"كان بالمغرب غلاء عظيم ومجاعة مفرطة ووباء جارف و لم يترل في هذه السنة نقطة مطر"	ابن القاضي : **لقط الفرائد**، 842/2.

1- المجاعات في المغرب الأوسط وإشكالية الزمان والمكان

إن إشكالية الزمن في العديد من المصادر التاريخية شكلت عقبة وحالت في كثير من الأحيان دون بناء نسق تاريخي متكامل حول أي ظاهرة تاريخية يمكن تتبعها ودراستها مثل ظاهرة المجاعة، و لم تكن المصادر الفقهية ولا المنقبية تعتني بذكر ذلك إلا ناذرا مما يحول دون بناء تسلسل كرونولوجي لمختلف المجاعات التي اجتاحت المغرب الأوسط في الفترة مدار البحث.

ولتجاوز هذه العقبة فإننا آثرنا تسجيل بعض المجاعات ذات الزمن المجهول كما هو موضح في الجدول، والتي ورد ذكرها في المصادر الفقهية والمنقبية، وربطنا حدوثها بقرن معين من الزمن بناءً على بعض المقاربات، وذلك بالنظر إلى الفترة التي عاش فيها الفقيه الذي سئل عن النازلة التي ذكرت فيها أي مسغبة في كتب النوازل، أو بالنظر أيضا إلى الفترة التي عاش فيها الولي الذي تختص المصادر المنقبية بذكر مناقبه وتحدث في فترة حياته عن مسغبة.

لقد ارتبط أواخر القرن السادس الهجري بمجاعة شديدة اجتاحت مدينة بجاية الموحدية، والذي كان سبب حدوثها سوء الأوضاع السياسية بسبب هجوم بني غانية عليها واحتلالهم لها،[713] و لم تلبث هذه المنطقة أن عاشت مجاعة أخرى في مطلع القرن السابع الهجري يرجح أن تكون سنة 610 هـ/1213م، نتيجة لظروف طبيعية قاهرة بسبب حدوث القحط،[714] لتتوالى المجاعات بعد ذلك في هذا القرن وبوتيرة مستمرة في المغرب كله، وبمعدل مجاعة كل سنتين أو ثلاث وقد تدوم المجاعة حتى ثلاثة سنوات، مثلما هو الأمر في المجاعة التي حدثت في المغرب من سنة 614 هـ/1217م إلى 616 هـ/1219م -كما هو موضح في الجدول أعلاه- وكل هذه الظروف الصعبة التي مرت بها الدولة الموحدية قد عجلت بنهايتها، بعد أن كانت قد دخلت في طور الاحتضار بدءً من هزيمة العقاب الشهيرة سنة 609 هـ/1212م.[715]

و لم تتوقف المجاعات فترة ما بعد الموحدين؛ بل استمرت أيضا وبوتيرة شبه دائمة، وإن كانت في الغالب تحدث بسبب عوامل طبيعية، وكذا بسبب الظروف السياسية في قليل من الأحيان، مثل المجاعة التي اجتاحت تلمسان إبان سنوات الحصار المريني المضروب عليها، أما القرن الثامن الهجري فقد عرف عدد المجاعات هبوطا نسبيا عما كان عليه من قبل، وسجل هذا القرن مجاعة عظيمة اجتاحت المغرب، والمغرب الأوسط على حد سواء سنة 776 هـ/ 1364م،[716] وفي مقابل ذلك عرف المغرب الأوسط فترة القرن التاسع الهجري ارتفاعا في عدد المجاعات وهذا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المجاعات ذات الزمن المجهول، في حين لم تسجل لنا المصادر في بداية القرن 10 هـ/16م خاتمة هذه الدراسة سوى مجاعة واحدة كان حدوثها بالمغرب سنة 927

[713]- ابن عذاري: **البيان المغرب، (الموحدي)**، ص 181.

[714]- الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 135.

[715]- لمزيد من الإطلاع حول دور المجاعات والأوبئة في التعجيل بسقوط دولة الموحدين أنظر: محمد المغراوي: **المغرب في العصر الموحدي، جدلية القوة والأزمة** ضمن أعمال ملتقى: **المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب** تنسيق بوبكر بوهادي وبوجمعة روبان، 25- 26 أكتوبر 2002م، نشر جامعة شعيب الرزالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الجديدة، شعبة التاريخ، 2004م، ص 86 - 94.

[716]- يحيى بن خلدون: **بغية الرواد**، 1/ 325- 326.

هـ/1520م.[717]

أما مكان وقوع هذه المجاعات؛ فهو إشكالية أخرى صاحبتها في هذه الدراسة، وهذا لأن المصادر التاريخية بمختلف أنواعها قليلا ما تحدد لنا جغرافية المجاعة، مما يسبب لنا عجزا خصوصا إذا ما كان الفضاء الجغرافي لهذه الدراسة واسعا كالمغرب الأوسط، وقد قمنا بتسجيل بعض المجاعات الواقعة في المغرب وإفريقية على أساس أن هذه المجاعات قد تكون مست المغرب الأوسط أيضا، دون أن تشير المصادر إلى ذلك، فعلى سبيل المثال لا الحصر فقد تكون المجاعة الواقعة سنة 693 هـ/ 1293م قد شملت المغرب الأوسط أيضا لأن المصادر ذكرت أنها قد عمّت المغرب وإفريقية ومصر.[718]

وعلى خلاف المصادر المنقبية التي واجهتنا فيها مشكلة زمن المجاعة فإن المكان الجغرافي لأي مجاعة تذكرها أمر من السهل استقرائه من هذه المصادر، وذلك بالنظر إلى مكان استقرار الولي، أو المكان الذي تنقل إليه، في حين شكل لنا المكان في كتب النوازل مشكلة أخرى إذ من الصعب تحديد جغرافية المجاعة، لأن الفتوى التي ذكرت في خضمها قد يكون مصدرها من شخص يكون مكان استقراره غير مكان استقرار المفتي أساسا، فآثرنا نسب مكان مثل هذه المجاعات إلى المغرب الأوسط عموما.

وإن كانت المصادر التاريخية تحدد لنا مكان وقوع المجاعة في بعض الأحيان، فإن هذا التحديد لا يتجاوز أسوار المدن، في حين ظلت المجاعات التي اجتاحت البوادي والقرى نسيا منسيا، مع أن المجاعات التي يكون سبب حدوثها الحروب والحصارات يكون المتضرر الأول منها القرى والبوادي المحيطة بالمدن -كما أسلفنا- وقد سبق وأن ذكرنا أن لفظ المسغبة يحتمل في اللغة معنى العطش، ولهذا فإن المجاعات المسجلة بهذا اللفظ في الجدول أعلاه قد يكون حدوثها بسبب القحط ما دامت قد ذكرتها المصادر بلفظ المسغبة.

وعليه فإن التتبع الكمي والكرونولوجي لمختلف المجاعات الواقعة في المغرب الأوسط أمر يصعب تحديده بدقة لأن مشكلة زمان ومكان المجاعة لا يمكن تجاوزها كليا مما يجعلنا نتعامل في هذه الحالات ببعض المقاربات والأحكام العمومية.

2- مجاعات ذات صدى كبير

2-2- مجاعة 588 هـ / 1192م

لقد سبق وأن أشرنا أن سبب حدوث المجاعة ببجاية هو حدث سياسي ارتبط بهجوم بني غانية على هذه المنطقة، لكن الغريب في الأمر أن المصادر التي أرّخت للدولة الموحدية لا تذكر هذه المجاعة، فقد انفرد ابن عذاري المراكشي الذي لا يعتبر معاصرا للدولة الموحدية وإنما نقل عن بعض المعاصرين لها، فهل يعني هذا أن المؤرخين الذين عايشوا الدولة الموحدية وأرخوا لها -كابن صاحب الصلاة- قد عمدوا إلى التستر على هذه المجاعة، باعتبارها مرتبطة بحدث سياسي يمثل تمرد عن سلطة الموحدين ورفض تبعية بعض

717- ابن القاضي: **لقط الفرائد**، 2/ 842.

718- ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 539 - 540.

الأشخاص في بجاية لها، خصوصا هؤلاء المتآمرين عليهم مع بني غانية؟ أم أن المصادر قد أغفلت ذكرها بسبب محدوديتها الجغرافية أي بالأحرى عدم شموليتها مناطق واسعة من مغرب الموحدين جملة؟

لقد صور لنا ابن عذارى هذه المجاعة في مشهد مؤثر يوحي لنا بفداحتها وحدة وقعها على سكان بجاية، فضلا عن الخسائر البشرية التي لم تستطع بجاية استيعابها خاصة وقد أعقبها وباء عظيم.[719]

2-3- مجاعة سنة 688 هـ / 1386 م

في الحقيقة لم تصرح المصادر عن وقوع هذه المجاعة؛ سوى أن العبدري الذي مرّ بتلمسان سنة 688 هـ/1289م،كان قد تحدث عن أحوالها بصيغة توحي لنا أنها كانت في شدة من الحال؛ بل وأنه ينوه عن حدوث قحط عندما يقول: "ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلدا حلت به زمانة الزمان، وأخلت به حوادث الحدثان، فلم تبق به علالة ولا تبصر في أرجائه للضمئان بلالة"،[720] وما يدل على ذلك أيضا حديث العبدري عن تعذر أهل مليكش التي هي من أعمال تلمسان عن القيام بواجب الضيافة إزاء جمع من الحجاج قد مروا بهم، نتيجة سوء الأوضاع الاقتصادية، فضلا عن أنه أشار إلى بعض المظاهر التي يكثر انتشارها في مثل هذه الأوقات وهي اللصوصية، وانتشار اللصوص بكثرة في الطريق الرابط بين تلمسان ورباط تازا.[721]

2-4- مجاعة في تلمسان (698 -707هـ/ 1299 - 1307م)

وقد كان سبب حدوث هذه المجاعة أيضا أحداث سياسية صعبة عاشتها تلمسان، نتيجة الحصار المريني ليها في الفترة الممتدة ما بين (698- 707 هـ/1299-1307م)، وبالرغم من أن مصادر كثيرة قد اعتنت بذكر هذه المجاعة، إلا أنها لا تحدد لنا زمن هذه المجاعة بل ذكرتها محصورة في مجال زمني يشمل كل سنوات الحصار، دون أن تذكر بدايتها تحديدا، في حين ذكرت المصادر واتفقت على أن هذه المجاعة قد انتهت بعد زوال الحصار المريني على تلمسان مباشرة، فهل معناه أن هذه المجاعة قد بدأت مع بداية الحصار واستمر حدوثها حتى نهاية الحصار؟ أم أنها حدثت بعد سنة أو سنتين من بدأ الحصار؟ وهو الرأي الذي نرجحه على أساس أن هذه المجاعة قد بدأت بعد أن نفذت الأقوات وفرغت المخازن من الطعام، ولعل قول ابن خلدون أصدق دليل على ذلك فيقول: "واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضاقت أحوالهم".[722]

لقد نبأتنا المصادر التي تناولت الحديث عن هذه المجاعة عن فداحتها وعن حجم الخسائر البشرية في تلمسان، فضلا عن تضرر المناطق المجاورة لها من القرى والبوادي من هذا الحصار سواءً على المستوى الاقتصادي أو العمراني،[723] لهذا فلا شك أن هذه المجاعة قد طالت المناطق التابعة لحكم الزيانيين، وإن كانت

---

[719]- **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 181.

[720]- **الرحلة المغربية**، ص 9.

[721] – **المصدر نفسه**، 9 ، 131- 132.

[722]- **العبر**، 7/ 198.

[723]- ابن الأحمر: **روضة النسرين**، ص 67.

بعيدة عن منطقة الحصار أو عن الحاضرة تلمسان.

5-2- مجاعة سنة 776 هـ/ 1374م

لم يختص حدوث هذه المجاعة بمجال المغرب الأوسط فقط وإنما شملت عموم المغرب، فقد كان سبب حدوثها عوامل طبيعية تمثلت في هبوب رياح شرقية أهلكت الزرع والضرع معا،[724] ومما يدل على أن هذه المجاعة تمثل حدث هام في تاريخ المغرب عموما وتاريخ المغرب الأوسط خصوصا؛ هو اهتمام عدد كبير من المصادر بذكرها، فضلا عن أن كتب المناقب والنوازل التي لم تعتاد على ذكر زمن المجاعة قد ذكرت هذه المجاعة محددة زمنيا دون غيرها من المجاعات الأخرى الواقعة بالمغرب الأوسط، فابن قنفذ يذكرها قائلا: "وفي هذه السنة كانت المجاعة العظيمة بالمغرب، وعم الخراب"،[725] فضلا عن أنه يشير إلى بعض مظاهرها التي تضمنتها أحد نوازله والتي سئل عنها الفقيه أبو عزيز البجائي (تـ747 هـ/1346م) دون أن يعنى بذكر أي تفاصيل عن هذه المجاعة أو بعض مظاهرها.[726]

ومن ثم فإن المغرب الأوسط قد عرف مجاعات شديدة اختلفت المصادر في ذكرها لمثل هذه الأزمات، ومدى وقعها على المجتمع، فعلى اعتبار أن الأوبئة قد تكون أحد أسباب حدوث المجاعات؛ فما هي أهم الأوبئة والأمراض التي عرفها المغرب الأوسط في الفترة مدار البحث؟.

ب- الأوبئة والأمراض المنتشرة في المغرب الأوسط

تندرج دراسة الأوبئة ومختلف الأمراض التي عرفها المغرب الأوسط في الفترة الممتدة ما بين (588-927 هـ/1192 -1520م) ضمن التأريخ للوضع الصحي لهذا المجال الجغرافي الواسع، علما بأن المصادر التي أرخت له مهما اختلفت أنواعها ومشاربها لم تكن لتعتني بذكر ذلك تفصيلا، وإنما تشير لهذه الأوبئة والأمراض عرضا ضمن سياقات معينة، فضلا عن أن الدراسات التاريخية الحديثة التي اعتنت بدراسة مجال المغرب الأوسط لم تتعرض لذلك كثيرا سوى بعض الأبحاث اليسيرة،[727] والتي لا ننكر أنها أفادتنا مع ما استقيناه من شذرات مبعثرة في ثنايا المصادر في تكوين تصور يقترب من الوضوح حول الأوضاع الصحية للمغرب الأوسط؛ فما هي إذن أهم الأوبئة التي اجتاحت المغرب الأوسط؟ وما هي الأمراض المنتشرة داخل هذا المجتمع؟.

1- أهم الأوبئة التي عرفها المغرب الأوسط

لقد ذكر الوزان أن الوباء يظهر في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات، أو خمسة عشرة سنة أو خمسة

---

[724]- يحيى بن خلدون: **بغية الرواد**، 1 / 325 - 326.

[725]- **أنس الفقير وعز الحقير**، ص 149.

[726]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 48 ب.

[727]- ومن هذه الأبحاث نذكر خاصة ما كتبه عبد العزيز فيلالي عن الأحوال الصحية للمجتمع الزياني ضمن دراسته: **تلمسان في العهد الزياني**، 243/1 - 257.

وعشرين سنة،[728] لكن لسنا نعلم أن مقولته هذه تنطبق على المغرب الأوسط أيضا كمجال للدراسة؛ في غياب مادة مصدرية تسمح لنا ببناء تتابع كرونولوجي لمختلف الأوبئة التي شهدها المغرب الأوسط، ويمكن أن نلخصها في الجدول الآتي:

جدول 07: أهم الأوبئة الواقعة في المغرب الأوسط في الفترة الممتدة ما بين (588-927 هـ/1192 -1520م)

سنة الوباء	مكان وقوعه	العبارات الدالة عليه في المصدر أو المرجع	المصدر / المرجع
588 هـ/1192م	بجاية	"وأقام السيد (أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن) على هذه الحال والمجاعة تشتد والوباء يزيد حتى عم الموتان"	ابن عذاري: **البيان المغرب**، (**الموحدي**)، ص 181.
610 هـ /1213م	المغرب	"وفيها كان الوباء بالمغرب والأندلس"	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 272، مجهول: **الذخيرة السنية**، ص 49، الناصري: **الاستقصا**، 3 / 4.
630 هـ /1232م	المغرب	"وفيها خلت بلاد المغرب وكثر فيها الجوع والوباء"	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 276.
635 هـ /1237م	المغرب	"وفيها اشتد الغلاء والوباء بالعدوة فأكل الناس بعضهم بعضا، وكان يدفن في الحفرة الواحدة المائة من الناس"	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 362- 263.
656 هـ /1258م	إفريقية	"في هذه السنة شمل الناس بتونس وغيرها مرض، واعتل السلطان المستنصر أياما، ثم أفاق، وكان يقال: إنه سببه ما تأدى إلى إفريقية من زخامة قتلى بغداد حين فعل التتر بهم ما فعل"	ابن قنفذ: **الفارسية**، ص 121.
693 هـ /1293م	المغرب	"وفيها كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب وإفريقية ومصر، هلك فيها خلق كثير"	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 539-540، الناصري: **الاستقصا**، 3 / 90.
740 هـ /1339م	الجزائر	"إلى أن توفي (أبو عبد الله الرندي) في سنة أربعين في وباء كان قد احترم فيه جماعة توجهوا صحبة مولانا المرحوم (أبي الحسن المريني) إلى الجزائر"	ابن مرزوق: **المسند**، ص 261.

[728]- **وصف إفريقيا**، 1 / 85.

748-749-750هـ/1347 - 1348 - 1349م	المغرب الأوسط والعالم كله	"ثم جاء الطاعون الجارف فطوى البساط بما فيه"	ابن بطوطة: **تحفة الأنظار**، 161/1. ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**: ص 187، نفسه: **المسند**، ص264 – 265، ابن خلدون: **التعريف بابن خلدون**، ص 64 – 65، نفسه : **العبر**، 6 / 713، ابن الشماع: **الأدلة البينة**، ص 98، ابن قنفذ: **شرف الطالب**،2 / 653، نفسه: **أنس الفقير**، ص87 ،المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 15 ب ،ابن مريم: **البستان**، ص 126، السلاوي: **الاستقصا**، 3 / 181.
أواخر 765 هـ /1363م	المسيلة وطن قبيلة رياح	"ثم نزل بالوزير عبد الله بن مسلم داء الطاعون، الذي عاود أهل العمران عامئذ من بعد ما أهلكهم سنة سبع وأربعين قبلها، فانكفأ به ولده وعشره راجعين، وهلك في طريقه وأوصلوا شلوه إلى تلمسان فدفن بها".	ابن خلدون: **العبر**،7 / 265.
805 هـ /1402م	إفريقية	"وفي هذه السنة وقع الوباء بتونس وجهاتها، وبسببه رجع الخليفة (أبو فارس عبد العزيز) من حركته إلى الحضرة ومكانتها.	ابن قنفذ: **الفارسية**، ص 199.
845 هـ /1441م	تلمسان والمغرب ككل	"وتوفي (ابن زاغو المغراوي التلمساني) يوم الخميس وقت العصر رابع عشر ربيع الأول سنة 845 هـ/1441م في الوباء".	القلصادي: **الرحلة**، ص101، 105- 106، ابن القاضي: **لقط الفرائد**، 752/2، ابن الأعرج: **زبدة التاريخ**، 71/3 أ، ابن مريم: **البستان**، ص43، التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص630، نفسه: **كفاية المحتاج**، ص60 - 62.
847 هـ /1443م	تونس ونواحيها	"وفي أوائل عام سبعة وأربعين (وثمانمائة) كان الوباء بتونس ونواحيها "	الزركشي: **تاريخ الدولتين**، ص 141، التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص529-530
856 هـ /1452م	المغرب	"وفي هذه السنة كان وباء عظيم بالمغرب يسمى وباء عزونة"	ابن القاضي: **لقط الفرائد**، 2 / 761.

871 هـ /1466م	تلمسان	"وتوفي (ابن العباس التلمساني) بالطاعون آخر عام 871 هـ/1466م ودفن بالعباد"	ابن مريم: **البستان**، ص224، التنبكتي : **نيل الابتهاج**،ص547.
886هـ/1481 م	المغرب	"وفي هذه السنة أيضا كان وباء بالمغرب"	ابن القاضي: **درة الحجال**، ص 203.
نهاية القرن 9 هـ /15م	المغرب	"زهري لم ينجو منه إلا القليل"	الوزان: **وصف إفريقيا**، 1 / 59.
926 هـ /1519م	تلمسان المغرب	"ظهر الوباء في أول ربيع منها (سنة 926 هـ/1519م) وغاية ما بلغ في اليوم أربعمائة نفس في آخر جمادى منها بموافقة وسط يومية، وذهب في آخر شعبان، وكان إقباله من ناحية تلمسان"	ابن القاضي: **لقط الفرائد**، 841/2.
927 هـ /1520م	المغرب	"كان بالمغرب غلاء عظيم ومجاعة مفرطة ووباء جارف ولم يترل في هذه السنة نقطة مطر"	ابن القاضي : **لقط الفرائد** 2 / 842.

- الأوبئة في المغرب الأوسط: انتشارها وطبيعتها

إنه من الصعب تحديد جغرافية للوباء؛ فهناك أوبئة محلية تصيب المغرب الأوسط أو إحدى حواضره فلا خلاف فيها، وهناك أوبئة عامة تصيب بلاد المغرب كله بل العالم بأسره، كما هو الحال بالنسبة لوباء 749 هـ/1348م، لكن على خلاف هذا الوباء الذي نعلم يقينا أنه شمل المغرب الأوسط، لسنا نعلم إن كانت الأوبئة الأخرى قد أصابته أيضا أم لا؛ لانعدام مادة مصدرية تثبت أو تنفي ذلك، فعلى الأرجح أن يكون المغرب الأوسط قد أصيب بالبعض من هذه الأوبئة، لأن مثل هذه الأمراض تكون سريعة الانتشار، والعدوى منها تكون عن طريق الاحتكاك التجاري والعلمي بين مختلف بلدان المغرب، خاصة وأن المغرب الأوسط كان يشكل منطقة عبور نحو المشرق للحج والتجارة وطلب العلم.

أما بالنسبة للأوبئة التي عرفتها إفريقية والتي آثرت أن أسجلها بحكم المجال الجغرافي الذي اخترته، لكن الحكم على أن هذه الأوبئة قد شملت المغرب الأوسط أيضا يبقى مسألة نسبية لنفس الأسباب المسجلة سابقا.

وإنه بالنظر إلى وتيرة ظهور الأوبئة ببلاد المغرب من جهة يسمح لنا بالقول أنها كانت دورية تظهر على رأس كل خمس سنوات، أو عشر سنوات، مما يؤكد بذلك قول الحسن الوزان، لكن من جهة أخرى إذا نظرنا إلى الأوبئة التي سجلت المصادر حدوثها بالمغرب الأوسط لا يسمح لنا بالقول أنها أوبئة دورية، لأن فترات ظهورها متباعدة جدا تفوق بكثير الخمسة والعشرين سنة، ونستثني من ذلك وباء سنة 740 هـ/1339م، ووباء 749 هـ/1348م والذي من المحتمل أن يكون ابن مرزوق يقصد به طاعون 749 هـ/1348م نفسه

وذلك يفهم من سياق حديثه.[729]

ومن المؤسف أن المصادر التي ذكرت هذه الأوبئة لا تفصل الحديث حول طبيعتها، أو من أي نوع تكون فهي لا تفرق بين الوباء والطاعون وهما صنفان مختلفان، مما يصعب علينا تحديد نوعية الوباء ومميزاته ومدى خطورته، بخلاف الطاعون الأسود الذي أجمعت المصادر التي ذكرته أنه وباء من صنف الطواعين بأشكاله الثلاثة المذكورة سابقا.

كما أن قلة وجود مدن موبوءة في المغرب الأوسط لا يفسر بأن هذا المجال كان في معزل عن الإصابة بمختلف الأمراض والأوبئة والطواعين، فقد سبق وأن فصلنا في جملة الأسباب التي تؤدي إلى فساد الهواء والمياه في مدن التي لم تكن موبوءة أصلا، ومن بين هذه الأسباب عدم مراعاة شروط النظافة خصوصا في الأمصار الكبرى كثيرة العمران والصنائع فتكثر بها الرطوبات، والعفن فيفسد الهواء ويتسبب ذلك في حدوث مختلف الأمراض والأوبئة.[730]

ويجب علينا أن نفرق أيضا بين الأوبئة المتوطنة في المناطق الموبوءة كمدينتي تنس ومرسى الخرز، وبين الأوبئة الوافدة التي تأتي من مناطق بعيدة، وتشمل غالبية الناس مثلما هو الحال بالنسبة لطاعون 749 هـ/1348م.

ولا شك في أن الأوبئة الواقعة في سنوات 588 هـ/1192م و 630 هـ/1232م و 635 هـ/1237م و 693 هـ/1293م، والتي وقعت عقب حدوث مجاعات شديدة في مختلف مناطق المغرب والمغرب الأوسط، كان سبب حدوثها هو سوء التغذية وفسادها، لكن في مقابل ذلك هناك أوبئة لم تذكر المصادر سبب حدوثها، ولا تذكر أنها قد حدثت بعد مجاعة مما يجعلنا نجهل أسبابها.

وإضافة إلى مختلف الطواعين يعد مرض الجذام على رأس قائمة الأوبئة المنتشرة في المغرب الأوسط،[731] فهو مرض معدي برائحته، ولم يشمل هذا المرض عامة الناس فقط، وإنما مس شرائح مهمة من المجتمع، ومنهم العلماء والصالحون.

ولعل من أصعب الأوبئة التي عرفها المغرب الأوسط أيضا على غرار بلاد الغرب الإسلامي في أواخر القرن 9 هـ/15م؛ ذلك المرض الجلدي المسمى "بالزهري" أو "داء الإفرنج"، والذي حمله إليهم اليهود القادمين من الأندلس بعد أن طردهم الملك "فرديناند"، فانتقل إلى المغاربة عن طريق الاتصال الجنسي بين عدد منهم مع النساء اليهوديات، "وهو منتشر بكثرة في بلاد البربر ولا يكاد يسلم منه إلا القليل"، فهو يعد أيضا من الأوبئة الفتاكة لأنه "فضيع بأوجاعه وبثوره وقروحه"، ولا يسلم منه إلا الأعراب القاطنين في شرق المغرب الأوسط والمغرب الأدنى، وكذا سكان البوادي وجبال الأطلس، والمصابون به يتجنبون الناس كالبرصان، فقد طردوا من

---

[729]- **المسند الصحيح**، ص 261.

[730]- ابن خلدون: **المقدمة**، ص 282.

[731]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 1 / 263 أ (نازلة سئل عنها سعيد العقباني).

بيوتهم ليسكنوا مع من هم مرضى بالبرص، خوفا من أن يتأذى الناس منهم.[732]

و لم يكن الإنسان في المغرب الأوسط المتضرر الوحيد من هذه الأوبئة، وإنما كانت الحيوانات عرضة أيضا لمختلف الأوبئة الفتاكة؛ كون هذا النوع من الأمراض كان مشتركا بين الإنسان والحيوان على حد سواء، ويؤدي ذلك حتما إلى شل النشاط الرعوي داخل هذا المجال.

وإذا كانت هذه هي أهم الأوبئة التي ضربت المغرب الأوسط والمغرب الإسلامي في الفترة مدار البحث، فما هي أهم مميزاتها؟ وما مدى انتشارها؟

أ- طاعون منتصف المائة الثامنة: (748- 750 هـ/1348- 1349م)

ويعدّ هذا الطاعون من أعظم الأوبئة التي بليت بها البشرية على الإطلاق فترة العصور الوسطى، بعد سلسلة من الطواعين والأوبئة التي اجتاحت العالم القديم، وآخرها ما يسمى بطاعون "جوستنيان" سنة 552 م، والذي عم سائر أنحاء العالم بما فيها سواحل إفريقيا الشمالية.[733]

إن عام 749 هـ/1348م يعد في نظر أغلب الدراسات الحديثة تاريخ ولادة الطاعون في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط فترة العصور الوسطى،[734] على أن نقطة بداية هذا الطاعون لم تكن في هذا المجال بل كانت في آسيا الصغرى، وتحديدا في منطقة تعرف ببلاد الخطا، وهي بلاد الصين بلسان العجم، مثلما ذكر ابن خاتمة بحسب ما نقله من بعض تجار النصارى الذين قدموا إلى المرية،[735] وقد حددت الدراسات الحديثة نقطة بدايته أيضا وهي المنطقة الممتدة حول بالكاش (شمال منغوليا) نظرا لأن هذه المنطقة كانت مرتبطة بالدورة التجارية العالمية،[736] أما زمن حدوثه فيذكر ابن الخطيب أنه ابتدأ سنة 734 هـ /1334م بحسب ما نقله عن الرحالة المغربي ابن بطوطة.[737]

وعن طريق حركة التجارة العالمية،[738] ورحلات الحج أيضا انتشر هذا الطاعون انتشارا سريعا في أغلب جهات العالم، فمن بلاد الخطا نقطة بدايته انتقل إلى بلاد العجم وتركية، إلى أرض الحبشة وديار مصر وبلاد الشام سنة 749 هـ/1348م، ثم إلى العراق وبغداد والبصرة سنة 750 هـ/1349م، وعبر الطريق التجاري البحري تسرب هذا الطاعون إلى بحر قزوين ثم القسطنطينية، ثم موانئ البحر المتوسط فوصل إلى مسينة سنة 747 هـ/1347م، ثم انتقل إلى نابلي وبيزا وجنوة ومرسيليا والبندقية والإسكندرية سنة 749 هـ/1348م حتى بلغ أرض الفرنجة ومنها إلى شمال الأندلس إلى أقصاها، أما في الجناح الغربي فقد بلغ بعض الجزر البحرية كصقلية وسردانية وميورقة ويابسة، ومن صقلية انتقل إلى إفريقية سنة 749 هـ/1348م، ثم شمل بلاد المغرب

---

[732]- الوزان: **وصف إفريقيا**، 1 / 84.

[733]- محمد الأمين البزاز: **الجراد والجوع والأمراض**، ص 296.

[734]- أحمد السعداوي: **المجاعات والأوبئة**، ص 39.

[735]- **تحصيل غرض القاصد**، ص 173.

[736]- محمد الأمين البزاز: **الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14م**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 16، 1991م، ص109.

[737]- **مقنعة السائل**، ص 45.

[738]- حسين بولقطيب: **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، ص 51.

الإسلامي.[739]

ومن ثم فقد عمّ هذا الطاعون سائر العالم تقريبا و"تحيَّف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها" على حدّ تعبير ابن خلدون،[740] الذي عاصر هذا الطاعون وفقد فيه عائلته والعديد من مشايخه.

وقد كان هذا الوباء الخطير يعد من صنف الطواعين ومن حسن الحظ أن الطبيب ابن خاتمة الذي عاصره أعطانا جملة من أعراضه، التي ظهرت على الناس في بلده المرية وهي تنطبق حتما على باقي مناطق العالم خاصة وأنها لم تنفرد بأعراض خاصة بصنف واحد من الطاعون؛ بل شملت الأصناف الثلاثة منه -والتي أشرنا إليها سالفا- لأنها في نظر ابن خاتمة "مرض واحد بالنوع والسبب، مختلف بالكيفيات والأعراض".[741]

تبدأ هذه الأعراض بظهور كرب وعرق غير عام دون ارتفاع في درجة الحرارة على المريض، ثم يظهر عليه فتور في اليوم الثاني واضطراب كلي مصحوب بتشنج وبرد في الأطراف وعطش مراري "سمج متواتر"، أو يحس المريض بثقل في صدره وضيق في التنفس ويصاحب ذلك نفث دم، أو نخس في أحد الجانبين أو تحت النهدين، ويظهر عليه أيضا عطش شديد وسعال وسواد في اللسان أو تورم في الحلق حتى يصعب عليه بلع أي شيء، مع شعوره أيضا بالاختناق ووجع في الرأس ودوار وغثيان مع انطلاق "فضول سمجة" منه.[742]

وهذه في الغالب تكون أعراض صنف الطاعون الرئوي وهو أشد الطواعين فتكا بالناس على الإطلاق، كما يشير ابن خاتمة أيضا إلى ظهور أعراض الطاعون العقدي على الناس وقتئذ، وهي ظهور نتوء تحت الإبط أو في الأرنبتين أو خلف الأذنين، وكذلك ظهور أعراض الصنف الثالث من الطاعون وهو الطاعون الإنتانمي أو القروح السود التي تظهر في مواضع معينة من الجسد خصوصا في الظهر والعنق.[743]

ونظرا لأهمية هذا الطاعون كحدث عالمي فترة العصور الوسطى فإنه لاقى عناية خاصة لدى كتاب الحقبة، مقارنة بالأوبئة والطواعين الأخرى الواقعة في نفس الفترة، فالمصادر العربية أطلقت على هذا الوباء العديد من التسميات أهمها: الطاعون الجارف، الطاعون الأعظم، الوباء العام، الوباء الأول، الموتان، في حين أطلق عليه في أوروبا اسم "الطاعون الأسود" (***LA PESTE NOIRE***)، وكلمة "***PESTE***" كانت تطلق قديما على الوباء.[744]

لقد تعددت الكتابات العربية التي تناولت الحديث عن هذا الوباء واختلفت مشاربها من مصادر تاريخية ورحلاتية [745] وطبية وفقهية، دون أن ننسى كتب التراجم والأنساب وكتب المناقب والتصوف، فعبَّر كل

---

[739]- ابن خاتمة: **المصدر السابق**، ص 173، محمد الأمين: **الطاعون الأسود**، ص110، محمد حسن: **المدينة والبادية**، 2/ 605.

[740]- **المقدمة**، ص 38.

[741]- **تحصيل غرض القاصد**، ص 165.

[742]- **المصدر نفسه**، ص 164.

[743]- **المصدر نفسه**.

[744]- عبد الكريم الخطابي: **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية**، 2 / 149.

[745]- لقد كانت رحلة ابن بطوطة هي الرحلة الوحيدة التي ذكرت هذا الطاعون كون ابن بطوطة (779 هـ/ 1377م) قد عاصر هذا الحدث وفقد فيه أمه.

ذلك عن ثقل هذا الحدث وانعكاساته السلبية على الناحية الديمغرافية، وعلى العمران والثقافة والاقتصاد على حد سواء.

ب - وباء 845 هـ/1441م ووباء 856 هـ/1452م

من المؤسف أننا لا نعلم تفاصيل كثيرة عن هاذين الوبائين، ولا نعرف ما إذا كانا من صنف الطواعين أو من صنف الأوبئة الفتاكة، لأن المصادر لم تشر إلى ذلك سوى أنها تذكر أن وباء 845 هـ/1441م كان قد وقع بالمغرب الأوسط، وشمل بلاد المغرب جملة، في حين وقع وباء 856 هـ/1452م بالمغرب دون أن تؤكد أو تنفي المصادر أنه قد طال المغرب الأوسط أيضا، لكن في مقابل ذلك تذكر المصادر تسميات عُرف بها هاذين الوبائين، فوباء 845 هـ/1441م سمي "بتقصيص الضفرة"،[746] ووباء 856 هـ/1452م سمي "بوباء عزونة"،[747] غير أن هاتين التسميتين والتي من الأكيد أنهما لم تأتيا من فراغ يعتريها الكثير من الضبابية، خاصة وأن المصادر لم تبين لنا لماذا أطلقت عليهما تلك التسميتين؟ وهل هذه التسميات نابعة من منطلق علمي؟ أم أنها مجرد تسميات شعبية فضفاضة نابعة عن وقع هذه الأوبئة على عامة الناس؟.

أما باقي الأوبئة والطواعين الواقعة بالمغرب الأوسط وبلاد المغرب؛ فلا تعطينا المصادر تفاصيل عنها مثلما هو الحال بالنسبة لطاعون 749 هـ/1348م، فهي لا تذكر سوى سنة وقوعها ومكانها، وما ينجر عنها من خسائر بشرية في بعض الأحيان، وأحيانا لا تذكر سوى مكان وقوعها دون زمانه، بل تكتفي بذكر بعض المظاهر الناتجة عنها، مثلما هو الحال بالنسبة للوباء الذي وقع في تلمسان أثناء مزاولة الفقيه الرصاع دراسته بها حوالي 829 هـ/ 1425م، وهذا عن أهم الأوبئة التي عرفها المغرب الأوسط في الفترة مدار البحث؛ فما هي إذن أهم الأمراض التي كانت منتشرة داخل هذا المجتمع زمن الدراسة؟

2- الأمراض المنتشرة بالمغرب الأوسط

لم تكن الأوبئة والطواعين تشكل الهاجس الوحيد في المخيال الجماعي لأفراد مجتمع المغرب الأوسط، وإنما عاني هذا المجتمع من مجموعة من الأمراض المتوطنة ساهمت بدرجة أكبر في تدهور الوضع الصحي، والتي سببها في الغالب قلة الوعي الصحي وانعدام شروط النظافة لا سيما بين أوساط الطبقات الفقيرة وعامة الناس.

وقد كان يعرف بين أفراد مجتمع المغرب الأوسط داء يسمى "بالداء العضال"؛ وهو كل مرض مزمن لا يبرأ منه صاحبه مدى الحياة إلا بمعجزة ربانية، فمن بين أعراضه؛ أن المريض به لا ينطق ولا يبصر ولا يستطيع الحراك، فهو شبه غائب عن الحياة.[748]

ولا تقل أمراض البطن التي كانت منتشرة في المغرب الأوسط خطورة عن الطواعين، فالمبطون كالمطعون له أجر شهيد، بناءً على حديث النبي ρ: "الشهداء خمسة المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم والشهيد في

---

[746]- ابن القاضي: **لقط الفرائد**، 2 / 752.

[747]- **المصدر نفسه**، 2 / 761.

[748]- ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 19ب، 32ب.

سبيل الله"،[749] ولعل سبب هذه الأمراض في الغالب فساد الأغذية وتلوث المياه، وربما يكون ذلك أيضا "بسبب الماء البارد الذي يشربونه".[750]

ويعتبر مرض الزرب أو الإسهال الشديد من أشد أمراض البطن خطورة وفتكا بالناس عموما مهما اختلفت أعمارهم وأجناسهم؛ فقد توفي به الشيخ أحمد الماوسي سنة 874 هـ/1469م، بعد أن عانى منه لمدة أيام،[751] ومرض به المقريء أبو عبد الله محمد بن محمد القرموني التلمساني بسبب إفراطه في شرب نوع من اليتوع "المسمى بحب القبيل"،[752] ويذكر ابن قنفذ أن المغاربة كانوا يستعملون "النبق" لمداواة الإسهال الشديد أو مرض الزرب.[753]

ويعد مرض الفالج[754] أيضا من أخطر الأمراض التي هددت حياة سكان المغرب الأوسط، خصوصا وأنه شمل كل فئات المجتمع تقريبا -ومنهم الصلحاء أيضا- فقد مرض به الولي الصالح "أبو فرج المكي" ولم يشف منه إلا بمعجزة ربانية،[755] وقد توفي بهذا المرض أيضا السلطان المريني أبو عنان سنة 755 هـ /1354م.[756]

فضلا عن ذلك كانت الأمراض الجلدية منتشرة بكثرة والتي يكون سبب حدوثها في الغالب عوامل مختلفة؛ قد تكون مناخية أو بسبب تلوث المياه أو عدم توازن النمط الغذائي المتناول، ومن هذه الأمراض ما يكون مزمنا وفتاكا لا يبرأ إلا بمعجزة أو كرامة،[757] ومنها غير مزمن يبرأ بمجرد استعمال بعض الأدوية المركبة أو المراهم.

ومن بين هذه الأمراض الجلدية مرض القرع؛[758] الذي يصيب رؤوس الأطفال الصغار والنساء البالغات وكان الشفاء منه أمرا مستعصيا، ولا ننسى أن مرض البهاق والبرص اللذان يعتبران من الأمراض الجلدية المستعصية، في حين كان مرض الجرب وإن كان يصنف ضمن الأوبئة، إلا أنه يعتبر من الأمراض الجلدية المنتشرة داخل هذا المجتمع في تلك الفترة، إضافة إلى الدماميل والأورام المستعصية والتي تصيب الأطفال أكثر؛ فقد كان ابن مرزوق مبتليا بها في صغره.[759]

---

[749]- الإمام مالك: **الموطأ – رواية يحي الليثي–**، 1/ 131، حديث رقم 293، والحديث مروي بطرق كثيرة.

[750]- الوزان: **وصف إفريقيا**، 1 / 83.

[751]- ابن صعد: **روضة النسرين**، ص235 - 236.

[752]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 234.

[753]- **أنس الفقير وعز الحقير**، ص 133.

[754]- وهو استرخاء جانب من البدن بكليته -إن قيل مطلقا- فإن كان ببعض أعضائه قيل فالج عضو كذا - مقيد ، أنظر: عبد الكريم الخطابي: **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية**، ص 332.

[755]- الشريف التلمساني: **روضة الأزهار في التعريف بآل محمد المختار**، ورقة 75ب.

[756]- ابن مرزوق: **المسند**، ص 378.

[757]- ابن الصباغ القلعي: **أزهار البستان**، ورقة 33 أ، ابن مريم: **البستان**، ص80.

[758]- وهي قروح في الرأس متصلة يذهب معها الشعر وتسمى أيضا السعفة، أنظر: عبد الكريم الخطابي: **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية**، ص 334.

[759]- **المناقب المرزوقية**، ص 231.

ومن جملة الأمراض المنتشرة أيضا مرض الذبحة والسعال الديكي، الذي يسببه الجلوس على الأرض دون فراش في فصل الشتاء، وكذلك أمراض البرد،[760] كالزكام والسعال،[761] وصداع الرأس دون أن يكون مصاحبا للحمى في بعض الأحيان، وأمراض الأسنان التي كانت منتشرة بكثرة ولعل أنجع دواء لها كان عندهم يتمثل في القلع،[762] ويكون سببها في الغالب كما يعتقد الكثيرون شرب الماء البارد بعد تناول طعام ساخن مباشرة، إضافة إلى ما يعرف بألم النسا والركب "بسبب الجلوس على الأرض وهم لا يلبسون أي نوع من السراويل"،[763] وكذا مرض الكبد الذي يصيب الرجال والنساء على حد سواء،[764] إضافة إلى مرض الشلل،[765] ومرض السلس الذي مرض به الولي أبو إسحاق بن علي الخياط.[766]

في حين لم يكن المرض المعروف بالفتق[767] منتشرا بكثرة داخل هذا المجتمع، مثله مثل داء النقرس أو ما يعرف بداء الملوك، بسبب اعتياد هؤلاء على شرب الخمور وأكل الدجاج والأطعمة الفاخرة،[768] فلم نجد إشارة تدل على أن أحد سلاطين المغرب الأوسط قد أصيب بهذا المرض، في حين توفي السلطان عثمان بن يغمراسن سنة 703 هـ/ 1203م بمرض الديماس[769] الذي لا نعرف شيئا عن طبيعته.

أما الأمراض الخاصة بالنساء فلا ريب أنها كانت منتشرة أيضا، لكن الإشارات حولها نادرة؛ فهي من الأمور المسكوت عنها في مصادرنا، فقد ذكر لنا القلعي أن إحدى النساء جاءت للشيخ الولي أحمد بن يوسف الراشدي القلعي تشكوا له موت أولادها في بطنها، فدعا لها الشيخ وهي حاملا فولدت وعاش ابنها.[770]

وعلى غرار المجتمعات الأخرى كان البعض من أفراد مجتمع المغرب الأوسط يعانون من أمراض الأعصاب والذي يصاب به في الغالب الأطفال غير أنهم يشفون منه كلما كبروا، وكذلك النساء،[771] فقد مرض ابن الشيخ الهواري بمرض من هذا القبيل جعله يقوم بتصرفات طائشة تؤذي الناس من حوله حتى لقب بالهائج،[772] كما أن مرض الجنون كان موجودا في هذا المجتمع حيث كان الناس يضنون أن سببه مس من الجن فيلجئون

---

[760]- المازوني: **الدرر المكنونة** 1 / 62 ب – 63 أ، 64 ب.

[761]- ابن مرزوق: **المصدر السابق**، ص 234.

[762]- القلعي: **المصدر السابق**، ورقة 41 أ.

[763]- الوزان: **المصدر السابق**، 1 / 83.

[764]- ابن مرزوق: **المصدر السابق** ، ص 224.

[765]- **المصدر نفسه**، ص 227 – 228.

[766]- **المصدر نفسه**، ص 181.

[767]- هو "إنخرام يقع في شيء ملتحم متصل"، أنظر: عبد الكريم الخطابي: **الطب والأطباء في الأندلس**، ص 332.

[768]- الوزان: **وصف إفريقيا**، 1 / 83 ، 85.

[769]- ابن خلدون: **العبر**، 7 / 196.

[770]- **بستان الأزهار**: ورقة 20 ب .

[771]- الوزان: **المصدر السابق** 1 / 85.

[772]- ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 18.

إلى الرقية كدواء شرعي له لأنهم يؤمنون بنجاعته.[773]

ولا تفوتنا الإشارة هنا أن الحيوانات كانت عرضة لأمراض خطيرة أيضا هددت حياتها، فقد اعتنت بعض نوازل الفترة بذكر ذلك، فقد سئل محمد بن مرزوق حول حلِّية ذكاة ثور مريض صار يرمي مصارينه من دبره قطعا قطعا،[774] وربما كان ذلك نتيجة إسهال شديد، وكثيرا ما كانت الماشية الخاصة بأضحية العيد تتعرض أيضا لأمراض مفاجئة قد تؤدي بها إلى الموت.[775]

إن جل هذه الأمراض المنتشرة في مجتمع المغرب الأوسط لا تقل خطورة عن الأوبئة والطواعين خصوصا المزمنة منها، لأنها معا هددت حياة الأفراد وجعلت الوضع الصحي داخله في الفترة مدار البحث شبه منهار.

ثانيا: جهود لتجاوز أزمات الجوع والوباء

أ- جهود لتجاوز أزمة الجوع

أنتجت أزمة الجوع بمجتمع المغرب الأوسط سلوكات اجتماعية بين أفراده عبرت بوضوح عن الترابط الاجتماعي والتكافل فيما بينهم، فكانت عمليات التضامن زمن المجاعة من أبرز السمات التي طبعت هذا المجتمع على غرار المجتمعات الإسلامية الأخرى، والذي يحركه في ذلك الوازع الديني والأخلاقي أكثر من أي شيء آخر، فتجسدت الروح الجماعية التي تحلت بها مختلف فئاته في مواساة الضعفاء والوقوف إلى جانبهم زمن هذه الأزمات، وهذا على مستوى الشرائح والفئات الآتية:

1- دور السلطة في أوقات المجاعات

من المعلوم أن الدور السلطوي في المجتمع زمن المجاعة كان نابعا من منطلق رغبة السلطان في تثبيت أركان ملكه،[776] وذلك من أجل الحصول على شرعية للحكم،[777] على أساس موالاة الرعية له تستلزم عليه الوقوف إلى جانبهم في أوقات المحن، والنظر في أحوالهم عندما تحل بهم جائحة من جوع أو مرض، أو سيل أو عدو أو غير ذلك من الأزمات.[778]

وتندرج هذه السياسة ضمن البرامج المقررة على السلطان تطبيقها، ونلمس ذلك بوضوح في الوصايا الملكية التي صاغها السلطان أبو حمو لابنه ولي عهده، حتى يكسب ثقة الرعية ويستتب له الملك، ويقول في ذلك: "إن كان زمن القحط ومحل ومجاعة واقعة وازل، فترفق بهم في المخازن والمجابي، وتحسن لضعفائهم المحتاجين وتحابي، وتؤثرهم مما ادخرته لشدائدهم في زمن الرخاء من فوائدهم، فتعمر أسواقهم بما اختزنته من الطعام مما يقام به أود الناس في ذلك العام، فإذا كنت يا بني عاملا على هذا الأسلوب جبلت على محبتك كل القلوب، ودعت

---

[773]- التنبكتي: **كفاية المحتاج**، ص 45.

[774]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 1 / 166 أ – 167 ب، الونشريسي: **المعيار المعرب**، 2 / 19.

[775]- **المصدر نفسه**، 1 / 176 ب (نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني).

[776]- ابن الأزرق: **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، الدار العربية للكتاب،ص 201 .

[777]- محمد الأمين البزاز: **جول المجاعات والأوبئة بالمغرب**، ص99 .

[778]- ابن الأزرق: **المصدر السابق**، ص 584- 593، ابن رضوان المالقي: **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق محمد حسن إسماعيل وأحمد المزيدي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1425هـ- 2004، ص 123- 135، 156-161، 189-195، ابن أبي الربيع: **سلوك المالك في تدبير الممالك**، ص 97 - 98.

لك الرعية ببقاء الدولة والتمهيد والنصر والتأييد، وفي ذلك الصلاح التام لدولتك والخير العام لرعيتك"،[779] فإلى أي مدى تجاوزت مثل هذه الوصايا حدود ما هو مكتوب إلى الواقع الملموس؟ وما هي الإجراءات الميدانية التي اتخذتها السلطة لتجسيد نظرة الوصاية على المجتمع أوقات الأزمات والشدائد؟.

لقد أشارت المصادر إلى بعض جهود السلاطين أوقات المجاعة، والتي تندرج في إطار التأريخ لمآثر هذه الطبقة ومدحها وذكر أعمالها الجليلة، ونحن لا نشك في صحة هذه النصوص بقدر ما نجزم على هذا الغرض الذي أرخت من أجله.

ونستهل ذلك بالجهود التي قام بها الخليفة المستنصر الموحدي لتفادي المجاعة الواقعة بالمغرب سنة 616 هـ/1219م، حيث أمر بفتح مخازن الطعام الذي جمعه طوال سنوات الرخاء والخصب وتفريقه على الناس على أن تكون بثمن للأغنياء ومجانا للفقراء والمحتاجين، فكانت صدقاته حينئذ كثيرة، حتى استطاع الناس تجاوز هذه المحنة.[780]

والدور نفسه قام به السلطان الزياني أبو تاشفين أيام المجاعة الكائنة سنة 776 هـ/1374م حيث أمر "بفتح أهراء الزرع وإباحة بيعه للناس بعد الحط من سعره الذي اقتضته المجاعة رفقا بالناس وحفظا لنظام حياتهم"،[781] فأراد بذلك أن يخفف من وطأة الغلاء الذي فرضته المجاعة على الناس، وبذل الطعام بسعر يتناسب مع أغلب فئات المجتمع.

كما لم تكن هذه الجهود في أوقات المجاعة فقط بل امتدت إلى ما بعدها، فكانت بمثابة إجراءات اتخذها سلاطين المغرب الأوسط تحسبا لمجاعات أخرى؛ كاختزان كميات كبيرة من الأطعمة، أو بناء وتحصين المدن أو إعادة إعمارها خصوصا بعد المجاعات التي تكون الحروب والحصارات سببا في حدوثها، مثل المجاعة الكائنة بتلمسان جراء الحصار المريني لها، فلما انقضى الحصار وانصرف السلطان المريني بفلول جيشه "كان أول ما بدأ به الملك أبو حمو هدم مدينة يوسف بن يعقوب وإصلاح ما تثلم من تلمسان، وبنى الأسوار والستائر وحفر الخنادق وخزن فيها الطعام والآدام والملح والفحم والحطب وما لا حد له ولا حصر".[782]

ومن ثم فإن أهل تلمسان قد تعلموا من هذه المجاعة الشديدة كيف يحتاطوا لمثيلاتها مستقبلا، وأصبحت ثقافة الادخار بالنسبة للدولة الزيانية من الأولويات الأساسية، حتى أنهم لم يتضرروا إبان الحصار الذي فرضه أبو الحسن المريني عليهم مرة ثانية، فقد كان عندهم من المخزون ما يكفيهم لتجاوز هذه المحنة، "ولم يظهر منهم وهن ولا خور لانقطاع الميرة لما كان عندهم من المخزون حتى قدائد اللحم ومسليات الشحوم، ولم يتغير طعمها لأن بلاد المغرب يطول مكث المخزونات بها، فإنه ربما بقي القمح والشعير في بعض أماكنها ستين سنة لا يتغير ولا يسوس، ثم يخرج بعد خزن هذه المدة الطويلة يزرع وينبت، وخصوصا تلمسان في بر العدوة،

---

[779]- **واسطة السلوك**، ص 87 - 88.

[780]- ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 266 - 267.

[781]- يحيى بن خلدون: **بغية الرواد**، 2 / 326.

[782]- التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص 135- 136.

وطليطلة في الأندلس".[783]

ولهذا الغرض ولتلك المزايا اعتنى أهل تلمسان وسلاطينها بادخار الطعام في الأهراء والمطامير، وعلى غرار تلمسان عرفت بعض مناطق المغرب الأوسط بمطاميرها، وبطول مكث الزرع فيه دون أن تتلف، كقسنطينة التي شهد لها الإدريسي وأُعجب بأمر "الحنطة تقيم بها في مطاميرها مائة سنة لا تفسد".[784]

وقد سبق وأن أشرنا سابقا أن ثقافة الادخار واتخاذ الأهراء والمطامير لتخزين الطعام كانت منتشرة في مجتمع المغرب الأوسط "إذ كل أحد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت مترله لشهره أو سنته"؛[785] لكن بصور متفاوتة في الزمان والمكان، وقد أجادت المصادر بذكر مثل هذه التدابير التي دخلت حيز الثقافة الشعبية، وأصبح اتخاذ المطمورة عادة بارزة عند كل أسرة من أسر هذا المجتمع، وحتى نوازل الفترة لم تغفل ذلك؛ إذ أورد لنا المازوني عدد كبير من المسائل التي تشير إلى حدوث منازعات بين الأفراد بسبب تعرض مطاميرهم للغصب والتعدي والتلف،[786] كقرينة تؤكد لنا أهمية المطمورة في حياة أفراد مجتمع المغرب الأوسط، فقد كانت جزء من ممتلكاتم الهامة التي يجب حراستها والاهتمام بها والحفاظ عليها.

وقد ينحصر دور السلطة زمن المجاعات بالتكفل بفئات معينة كالعلماء والصلحاء فقط، حيث كان السلطان أبو يعقوب المريني يبعث لأسرة ابن مرزوق أثناء حصاره لتلمسان كل ما تحتاجه من الطعام تقديرا لعلمهم وصلاحهم،[787] من جهة ولاستمالتهم لصفه من جهة أخرى، وقد أرسل السلطان أبو تاشفين الزياني مع حاجبه القائد هلال بن عبد الله بمائدة بها مختلف الأطعمة إلى دار الولي الصالح عبد الرحمن بن يعقوب الصنهاجي في وقت مجاعة،[788] يحتمل أن تكون المجاعة الواقعة سنة 776 هـ/1277م، على أساس أن هذه المجاعة قد وقعت فترة حكمه كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك .

إن الإشارات التي رصدتها المصادر بخصوص دور السلطة إزاء مجتمع المغرب الأوسط زمن المجاعة لم تعبر عن كل حيثيات هذا الدور ومستوياته، كتخفيفها الضرائب على كاهل الرعية أو قيامها بالتوزيع الفوري للمساعدات من الطعام والأموال على الفقراء والمحتاجين في الأيام الأولى لظهور بوادر المجاعة، مما يجعلنا نجزم بغياب مثل هذه المساعي، وانحياز السلطة إلى مساعدة فئات معينة من المجتمع كالعلماء والصلحاء ممن ترتجي مساندتهم والرضى عنها، وتهمل الفئات المحتاجة، وهذا مؤشر يدل على طغيان الطبقية أوقات الأزمات أيضا، ومؤشر على أهمية طبقة العلماء والصلحاء في نظر السلطة، وإلا كيف نفسر عدم ذكر المصادر موت العلماء والصلحاء وذوي الجاه والسلطة بالمجاعة على خلاف عامة الناس الذين يشملهم مصطلح "الرعاع

---

[783]- العمري: **مسالك الأبصار**، ص 90.

[784]- **نزهة المشتاق**، 1 / 256.

[785]- ابن خلدون: **المقدمة**، ص 337.

[786]- **الدرر المكنونة**، 2 / 8 ب، 10 أ، 20 أ، 40 أ، 85 ب (نوازل سئل عنها أبو الفضل العقباني، وعبد الرحمن الوغليسي).

[787]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 194.

[788]- **المصدر نفسه**، ص 299.

والغوغاء" إذ يكون هلاكهم بالجوع قدرا لا مفر منه.

2- دور الفقهاء والقضاة أوقات المجاعات

وتندرج جهود الفقهاء والقضاة في مجتمع المغرب الأوسط زمن المجاعة ضمن مهامهم التنظيرية؛ سواءً على مستوى التشريع الفقهي بتقديم بعض الرخص أو على المستوى الفعلي للتخفيف من أثار هذه الأزمات على الناس، فقد أجاز الفقهاء بيع بعض الأراضي المحبسة على الفقراء وصرف ثمنها عليهم زمن الشدة خوفا عليهم من الهلاك جوعا،[789] فقد اجتهد أحد قضاة المغرب الأوسط وباع قاعة كانت ملكا لرجل غاب عن وطنه، وصرف ثمنها على أولاده في وقت المجاعة، واستشير قاضي الجماعة الفقيه قاسم العقباني في صحة هذا الاجتهاد فأقر صنيعه.[790]

وقد منع الفقهاء والقضاة أيضا على التجار زمن المسغبة احتكار السلع، وقاموا بحثّهم على إخراج الطعام المدخر وبيعه في الأسواق لحاجة الناس إليه بسعر معقول، كما أنهم شددوا العقاب على التجار إذا ما تبين امتناعهم عن إخراج سلعهم لبيعها، كما شددوا النكير على متلقي السلع في الفنادق وألزموهم بإنزالها إلى الأسواق ليدركها الضعيف والقوي،[791] وفضلا عن ذلك فقد أجاز فقهاء المغرب الأوسط التسعير على التجار في بعض الحالات؛ خصوصا إذا تجاوز هؤلاء حدودهم في البيع، وكان الغلاء متفاحشا،[792] فضلا عن أنهم قد منعوا الناس من بيع القمح والشعير زمن الشدائد للأعراب، حتى لا تقوى شوكتهم على المسلمين.[793]

إن ثنائية هذا الدور يعكس بوضوح مدى فعالية جهود الفقهاء والقضاة أوقات المجاعة، والذي كان أكثر تنظيما من دور السلطة، بالرغم من أن جهاز القضاء في المغرب الأوسط كان في الفترة المدروسة عرف بعض الضعف نتيجة فساد الأحكام، وضعف مداخيل القضاة؛ خصوصا في البوادي التي كان تحت سيطرة الأعراب.[794]

ومن جهة أخرى نتساءل عن غياب الفقهاء والقضاة والمحتسبين في الأسواق أوقات المجاعات، التي أفضت إلى بيع اللحوم المحرمة كلحم الميتة وبعض الحيوانات المحرمة، هل هو غياب نابع عن الإهمال؟ أم غياب يُفسِّر إيمان هؤلاء بمبدأ "الضرورات تبيح المحظورات"؟ علما بأن مراقبة الأسواق من هذه التجاوزات دور منوط بالمحتسب؛ فهو الشخص المسؤول عن منع بيع المحظورات والمحرمات، ومنع الغش في السلع والمكاييل أو التلاعب بالأسعار،[795] وبالرغم من أن خطة الحسبة التابعة لجهاز القضاء كانت موجودة بالمغرب

---

[789]- المازوني: **الدرر المكنونة** 2 / 60 أ (نازلة سئل عنها محمد بن مرزوق) .

[790]- الونشريسي: **المعيار المعرب** 5 / 100.

[791]- العقباني: **تحفة الناظر وغنية الذاكر**، ص 127 - 131.

[792]- **المصدر نفسه**، ص 135.

[793]- المازوني: **المهذب الرائق**، ورقة 22 ب.

[794]- **المصدر نفسه**، ورقة 29 ب، المازوني: **المصدر السابق**، 2 / 67 أ (نازلة سئل عنها الحفيد محمد العقباني).

[795]- السقطي: **آداب الحسبة**، نشر: ليفي بروفنسال و ج. كولان، باريس: المطبعة الدولية، 1931م، ص 8 - 10.

الأوسط،[796] إلا أن دور المحتسب كان شبه غائب داخل هذا المجتمع في الأوقات العادية،[797] حتى اضطر أحد القضاة إلى النظر بنفسه في أحوال السوق،[798] وذلك على خلاف ما جسده شخص المحتسب من دور بارز في الأندلس والمغرب الأقصى.[799]

ولقد بين لنا العقباني ذلك أيضا من خلال عرضه لبعض السلوكات الدنيئة الصادرة من بعض الباعة، فقد كان الجزارون بتلمسان يبيعون اللحم مخلوطا بالكرش والمصران، ومن الباعة من يخلط القمح الجيد بالرديء ويبيعه،[800] ناهيك عن الغش في الخبز، حيث ذكر أن ولاة الأسواق يغضون الطرف عن أصحاب الأفران الذين يغشون في صنع الخبز، مقابل إعطاء هؤلاء لولاة الأسواق رشاوي،[801] فقد بينت نوازل الفترة انتشار الرشوة في المغرب الأوسط،[802] ولهذا كان كثيرا من الناس خصوصا الصلحاء منهم لا يأكلون شيئا يباع في الأسواق "لاختلال المكاسب وغلبة المعاملات بالربى"،[803] الأمر الذي يجعلنا نقر بضعف خطة الحسبة وانحصار مهام المحتسب في المغرب الأوسط؛ هذا في الأوقات العادية ناهيك عن أوقات المجاعة.

3- دور التجار في أوقات المجاعة

لم يكن دور التجار زمن المجاعة يتجه اتجاها سلبيا فقط؛ والذي تجلى كما أسلفنا الذكر في اغتنامهم لفرصة حدوث المجاعة أو أزمة اقتصادية لتغلية الأسعار واحتكار السلع وعدم إخراجها إلى الأسواق، وغيرها من الأفعال المنافية للشرع والمضرة بعامة الناس.

فمن الغلط أن نعمم ذلك على كل تجار المغرب الأوسط، بالرغم من أن المصادر لم تتناول الحديث عن دورهم أوقات المجاعة، إلا أننا لا يمكن أن ننفي الدور الإيجابي الذي يجسده بعض التجار الميسورين في مثل هذه الأوقات، وهذا ما نستنتجه من خلال الموقف الذي قام به الولي يحيى بن أبي علي الزواوي (ت 611 هـ /1214م) إبان المجاعة الواقعة ببجاية سنة611 هـ/1214م، حيث قصد أعيان بجاية لجمع المال منهم حتى يتمكن من كراء فندق يجمع فيه المساكين والمحتاجين لمساعدتهم، ويندرج كبار التجار من دون شك ضمن ما أسماهم المؤلف بالأعيان، كما برز دور العامل في الفندق للمساهمة في هذا الموقف النبيل من خلال طلبه من الولي أن يحسب كراء الفندق عليه، لكن قوبل طلبه هذا بالرفض، وفضل هذا الولي أن يدفع له ما جمعه من المال.[804]

---

[796]- بوزياني الدراجي: **نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية**، ص 246.

[797]- محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع**، ص 70.

[798]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 70 ب (نازلة سئل عنها بعض فقهاء المغرب الأوسط).

[799]- محمد فتحة: **المرجع السابق**، ص 70.

[800]- العقباني : **تحفة الناظر وغنية الذاكر** ، ص 114- 115.

[801]- **المصدر نفسه**، ص 223.

[802]- المازوني: **المصدر السابق**، 1 / 494 ب – 495 أ (نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني).

[803]- موسى بن عيسى المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، ورقة 140ب.

[804]- ابن الزيات التادلي: **التشوف إلى رجال التصوف**، ص 429، الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 135.

غير أن الدور الإيجابي للتجار ذوي الكفاف أوقات المجاعة دور يكتنفه الغموض في ظل انعـدام إشـارات مصدرية لها دلالاتها، ونأمل أن نعثر على نصوص جديدة تزيح هذا الغموض وتبين دورهم الحقيقي كفئة مهمة في مجتمع المغرب الأوسط بصفتها المسؤولة عن تسيير تجارته والنهوض باقتصاده.

4- دور الأولياء أوقات المجاعة

أفردت الدراسات التاريخية الحديثة في الآونة الأخيرة اهتماما خاصا بتجربة الولاية بالمغرب الأوسط، متتبعة في ذلك كل حيثيات هذه الظاهرة، من لدن ظهورها إلى مرحلة النضج الفعلي والتطور الحاصل على مستوى مؤسساتها؛ من مؤسسة الرباط إلى مؤسسة الزاوية؛ حيث أضحت هذه الأخيرة تضاهي في مهامها ما هو منوط بالمسجد زمن أواخر الفترة الوسيطية.[805]

إن الدور الريادي الذي لعبه شخص الولي جعله المرشح لأن يكون بمثابة الزعيم الروحي في المجتمع، علما أن الاعتقاد به والإيمان العميق بكل الطقوس الصادرة عنه؛ من كرامات وخوارق ومكاشفات ظلت ذهنيـة راسخة في نفوس أفراد هذا المجتمع حكاما ومحكومين على السواء.[806]

ولسنا هنا بصدد الوقوف أو الإحاطة بكل جوانب ظاهرة الولاية أو التصوف، فما يهمنا هو معرفة دور الولي في أوقات الكوارث والمجاعات؛ فيكون حينئذ من المفيد طرح التساؤلات الآتية: هل جسدت ظاهرة الولاية أوقات المجاعة البديل الحقيقي لدى أفراد المجتمع؛ خصوصا الفقراء والمحتاجين منهم، في غياب دور السلطة وبعض الفئات الميسورة؟ ما مدى فعالية ونجاعة الدور الذي جسده الولي أوقات المجاعة والأوبئة؟ وما هو إيقاع الأداء الكرامي الذي يبديه الولي في نفوس أفراد هذا المجتمع ؟ وما هو دور القبور كأحد مقدسات مجتمع الأولياء زمن المجاعة والأوبئة؟ ما هو الدور الذي جسدته الزاوية كمؤسسة دينية واجتماعية في مثل هذه الأوقات.؟

إن الدور السياسي والاجتماعي الذي جسده الولي في المجتمع تجلى أكثر في أوقات الأزمات على اختلاف طبيعتها،[807] فالتصوف على حد تعبير أحد الباحثين هو "ظاهرة إنسانية أفرزها مجتمع متأزم خائف يواجه بهـا الخوف من الطبيعة"،[808] فلا غرو فقد ولدت ظاهرة الولاية من رحم الأزمة، كما أن "الفكر الكرامي ينشط

805- تجسدت هذه الدراسات فيما كتبه كل من: الطاهر بونابي: **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 – 7 هـ / 12 – 13 م**، (وهو بصدد إنجاز رسالة دكتوراه حول التصوف في المغرب الأوسط في القرنين: 8 – 9 هـ / 14- 15م)، عبيد بودواو: **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط**، آمال لدرع: **الحركة الصوفية في بلاد المغرب الأوسط خلال العصر الزياني (633 هـ – 1236م/ 962 هـ – 1555م)**، وهي بصدد التحضير لرسالة دكتوراه بعنوان: (**الخطاب المنقبي ودوره في بلورة الحدث التاريخي الاجتماعي في بلاد المغرب الأوسط في العصر الزياني**).

806- الطاهر بونابي: **المصدر السابق**، ص 172.

807- نللي سلامة العامري: **الولاية و المجتمع (مساهمة في التاريخ الديني و الاجتماعي لافريقية في العهد الحفصي)**، تونس: منشورات كلية الآداب بمنوبة، 2001م، ص 259.

808- الشادلي عبد اللطيف: **التصوف والمجتمع (نماذج من القرن العاشر الهجري)**، المغرب: منشورات جامعة الحسن الثاني، 1989م، ص 315.

إبان مرحلة الأزمات" ليطرح البديل لها رغبة في تجاوزها.[809]

فقد سبق وأن أشرنا إلى الدور الاجتماعي الذي جسده الأولياء في محاولة تحسين مستوى معيشة بعض فئات مجتمع المغرب الأوسط الفقيرة والتقليل من حدة الفقر في هذا المجتمع بأساليب شتى، إما عن طريق الأداء الكرامي أو الدعاء أو عن طريق تشجيع الصدقة وحث الفئات الميسورة عليها، وأشرنا أيضا إلى وقوف الولي في وجه بعض السلوكات أو الآفات المنتشرة في المجتمع أهمها ظاهرة اللصوصية، وكيف يترل الله العقاب بمجرد دعاء الولي أو غضبه على اللصوص.

أما الدور السياسي للولي فيتمثل أساسا في مواقف المعارضة التي أبداه إزاء السلطة وأعوانها خصوصا المكلفين منهم بجمع الضرائب؛ فقد كان الولي بمثابة الحامي الرئيس للعامة والضعفاء من أنياب الظلمة عن طريق إبداءه لبعض الطقوس الفعالة أهمها الكرامة والدعاء.

أ- الولي وتفاعله مع الكوارث الطبيعية

على اعتبار أن الكوارث الطبيعية مثلها مثل بعض الأزمات الأخرى تكون نتاجا عن "تجليات قوى غيبية مبادرة عن إرادة الآلهة"[810] فإن مواجهتها في الاعتقاد الصوفي سمة تحلى بها أولياء الله دون غيرهم، فهم في نظر هذا المسلك يمثلون دور الوساطة بين الله وعباده؛ [811] وعليه فإن مهمتهم تكمن "في إطار التقسيم الاجتماعي للعمل هي تنظيم العلاقات مع الغيب"[812] أي مع الله عز و جل.

لقد جاء في أحد النصوص المستوحاة من كتب المناقب ما يأتي:" إذا غلت أسعاركم وقلت أمطاركم وضعفت ثماركم وتنكرت قلوبكم وعميت عن الرشد مسامعكم وكثرت النميمة والغيبة في خياركم وجارت عليكم ملوككم فالتجئوا إلى الله بالأولياء الذين خلف ظهوركم يؤمنكم الله.. مما تخافون"؛[813] فالنص يمثل خطابا دينيا إصلاحيا موجها إلى الناس ليبين لهم أن الكوارث الطبيعية كغيرها من الأزمات المذكورة إنما هي عقاب إلهي مسلط من السماء نتيجة ما اقترفه البشر من ذنوب، ومحرمات،[814] فهو دعوة صريحة للإنابة إلى الله والتوبة والإقلاع عن الذنوب والتقرب من أوليائه، فهو بذلك يدعوا لبعث مجتمع بديل مثالي خالي من الشوائب ألا وهو مجتمع الأولياء أين يكون الناس في أمان بالقرب منهم.

ولعل ما يؤكد صحة هذا الاعتقاد عندهم مقولة ابن عباد الرندي الذي عايش القحط الحاصل بالمغرب عقب حدوث الطاعون الأسود لسنة 749 هـ/1348م: "إن الذي ينافي الاستسقاء إنما هو النكرات التي

---

[809]- إبراهيم القادري بوتشيش: **واقع الأزمة والخطاب "الإصلاحي" في كتب المناقب والكرامات (أواخر ق 6 هـ وبداية ق 7هـ/12-13م)**، ضمن أعمال ملتقى: **الإسطوغرافيا والأزمة**، ص 26، 29 - 30، 49.

[810]- الشاذلي عبد اللطيف: **المرجع السابق**، ص 111.

[811]- عبيد بوداود: **ظاهرة التصوف بالمغرب الأوسط**، ص 248.

[812]- الشاذلي عبد اللطيف: **التصوف والمجتمع**، ص 112.

[813] - نللي سلامة العامري: **الولاية و المجتمع**، ص 317، نقلا عن **مناقب أولياء تونس** (م) 18555، ورقة 10 أ.

[814]- **المرجع نفسه**، ص 326.

يفعلها عوام الناس والرعية ولا أحتاج لذكرها لكثرتها، فيكون ما أصيبوا به من القحط عقوبة لهم أو تأديبا على ما صنعوا من ذلك، فيحتاجون عند أخذهم في الاستسقاء إلى التوبة والإقلاع مما اقترفوه من ذلـــك لعلـــهم يرحمون، ولذلك أكثر ما يكون في الاستسقاء الاستغفار".[815]

وقد أعطتنا كتب المناقب والتراجم صورا واضحة عن دور الأولياء بالمغرب الأوسط زمن الدراسة في زمن الكوارث خصوصا أوقات في الجفاف، وحسبنا في ذلك ما ذكره الغبريني عن الولي أبي الحسن الحرالي (تـــــ 637 هــ/1239م)؛ أنه عندما أصاب الناس جفاف ببجاية دعا الله بأن يمطرهم فاستجاب الله له وأمطـــرهم مطرا غزيرا وأخذ يغسل ويشرب منه ويقول "مرحبا بقريب عهد من ربه".[816]

وقد نزل المطر على أهل العباد بعد طول الجفاف ببركة الولي الذي نزل عندهم؛ وهو الشيخ واضح الذي اشتهر أمره في الشلف في أواسط القرن السابع مع أصحابه من الفضلاء فامتلأت آبارهم وسواقيهم وانتجعوا بمواشيهم؛ فاعتزموا على رؤيته والتبرك به.[817]

وتجدر الإشارة إلى أن كرامة الاستسقاء لم تكن بسبب القحط فقط، فقد تحدث في حالات استثنائية بسبب تدهور الأوضاع الأمنية أين يلجأ العدو إلى حصار مدينة ما ويقطع عنها الماء، وهو ما جرى لأهل بلد قسنطينة عندما حاصرهم بنو غانية فلجئوا إلى وليهم "أبي الحسن علي بن خلوف" ليستسقي لهم فلبى ذلك، وأمطرهم الله مطرا غزيرا تحطم بسببه سد بنو غانية وخلص أهل قسنطينة من هذا الحصار.[818]

ولعل كرامة الاستسقاء كانت تختص أكثر بالمناطق الزراعية شبه الجافة مثل تلمسان وبجاية، في حين كانت تغيب في المناطق غير الصالحة للزراعة "فليس من قبيل الصدفة خلو كتاب "**المقصد الشريف والمترع اللطيـــف في التعريف بصلحاء الريف**" من أية كرامة متعلقة بالمطر".[819]

وعليه فإن كرامة الاستسقاء ليست إلا بديلا عن الأزمة وتدل بذلك على دور الولي وقربه من الله عز وجل ومن المجتمع، فترول الغيث إنما هو رحمة من عند الله ليطهر به عباده ويغسلهم من الذنوب ويدخلـــهم حيـــاة جديدة نقية خالية من الشوائب؛ وذلك هو دلالة الماء في الاعتقاد الصوفي.[820]

2- الولي وأزمة الجوع

على اعتبار أن المغرب الأوسط قد عرف مجاعات شتى كانت نتائجها وخيمة على أفراد هذا المجتمع؛ خصوصا الفقراء والمحتاجين منهم، فإن ذلك جعلهم يبحثون دائما عن حل لهذه المشكلة بشتى الطرق، فوجدوا في الأولياء خير بديل لحلها خصوصا في غياب دور السلطة، والتي وقفت عاجزة أمام تلبية كل متطلبات مجتمع

---

[815]- **الرسائل الكبرى**، فاس: مطبعة المعلم العربي الأزرق، 1320هــ، ص 219 .

[816]- **عنوان الدراية**، ص 151.

[817]- موسى بن عيسى المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، ورقة 30 ب.

[818]- ابن قنفد: **الفارسية**، ص 103.

[819]- الشاذلي عبد اللطيف: **التصوف والمجتمع**، ص 115، آمال لدرع: **الحركة الصوفية بالمغرب الأوسط**، ص 343.

[820]- بوتشيش: **واقع الأزمة**، ص 34، الشاذلي: **المرجع السابق**، ص 115.

برمته في مثل هذه الأوقات، بالرغم من أن هؤلاء الأولياء لم يكونوا في الغالب من أهل اليسر، إلا أنهم استطاعوا التفاعل مع هذه الأزمة وتجاوزها بكل سهولة.

لم يكن الجوع هاجسا مؤرقا في مجتمع الأولياء وإنما كان من السمات المحمودة التي ألفوها، خاصة وأن المسلك الصوفي ينبني أساسا على الزهد في ملذات الدنيا ومنها شهوة البطن،[821] ولم يكن نقص الطعام عندهم يعد مشكلة كما هو عند عامة الناس، وإنما حصول البركة في طعامهم القليل كرامة اختصوا بها دون غيرهم، فقد يأتيهم الطعام ولا يعلموا مصدره، ولم يكن الطعام لينقص من مجالسهم بالرغم من كثرة عدد المتناولين منه؛ كما هو الحال بالنسبة لوالد بن مرزوق،[822] وقد كان الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي أيضا يدعوا في مجالس الطعام بالبركة فيأكل منه الجمع الغفير،[823] وقد أصاب أحد الصلحاء الجوع لعدة أيام فلقي في طريقه رجلين صالحين، أعطاه أحدهما سبعة تمرات كانت كفيلة بسد جوعه.[824]

وقد استطاع هؤلاء الصلحاء تجاوز أزمة الجوع في أوقات المجاعة؛ لأن الله يرحمهم لصلاحهم ويرزقهم من حيث لا يعلمون، فقد دعا الولي أحمد الماوسي بأن يرزقه الله طعاما عندما أصابته هو وأهله فتنة الجوع فيقول: "يا رب أنا أرضى بفعلك مستطيع لما قدرت به وأردته بفضلك وجودك، وهؤلاء الأطفال لا يطيقون ذلك، فقد مسهم الضرر وأنت أرحم الراحمين"، فاستجاب الله له ولم تمر ساعة من الزمن حتى جاءه رجل من معارفه بحمل من القمح وحملين من الحطب، وفي ذات السياق تضيف رواية أخرى أن هذه المجاعة اشتدت وفرغت مخازن الطعام حتى لم يطق أولاد هذا الولي ذلك الجوع فبعث الله له رزقا متمثلا في تليس من القمح وجده أمام باب داره.[825]

وقد بين الولي أبو حفص الرغوني بفضل كرامته لأحد الرجال جاءه بزكاة ماله في وقت مسغبة؛ أنه لم يحتج قط إلى هذه الزكاة، وأنه لو أحب أن تكون داره من فضة لكانت وفعلا رآها الرجل قد تحولت إلى ذلك؛ ثم قبض هذا الولي على التراب فانقلب ذهبا، عندئذ انصرف الرجل حاملا ماله وهو مدهوشا من كرامة هذا الولي.[826]

وفي الغلاء الشديد الواقع في محلة أبي عنان سنة 758 هـ/1356م كانت تصل لأبي عبد الله الشريف التلمساني كتب موسومة بـ: "تدفع لسيدي عبد الله" فإذا فتحها وجدها بيضاء غير مكتوبة، وفيها ذهب لم يعرف من أين مصدرها، لكنه استعان بها في تجاوز هذه المحنة.[827]

[821]- بونابي: **التصوف في الجزائر**، ص 161.

[822]- **المناقب المرزوقية**، ص 236.

[823]- ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 19 أ، 32 أ.

[824]- ابن مريم: **البستان**، ص 35.

[825]- ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 230.

[826]- موسى بن عيسى المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، ورقة 137ب.

[827]- ابن مريم: **المصدر السابق**، ص 177.

كما أن الولي محمد بن عبد الجبار الفجيجي (تـــ 950 هـــ/1543م) استطاع أن يتجاوز محنة الجوع زمن غلاء كان قد وقع بتلمسان، بحيث أتاه رجل بتيلسا من قمح على حمار وقصعة سمن ومعزة إلى خيمته، واستطاع بذلك أن يكرم ضيوفه الذين قدموا عليه من المغرب.[828]

و لم تكن كرامة تجاوز الجوع التي تحدث للأولياء؛ خصوصا في أوقات المجاعة لتتم فقط بأمور مادية كأن يرزقهم الله بطعام أو مال، بل تجاوزها إلى أمور معنوية تمثلت على سبيل المثال في نوم الولي زمن المجاعة حتى لا يهلك بسبب الجوع؛ وحسبنا في ذلك ما حدث للولي أحمد الغماري (تـــ 874 هـــ/1469م) في المجاعة الواقعة بتلمسان سنة 842 هـــ/1438م، فقد نام طويلا في مسجد الحلفاويين، فلما استيقظ ظن أنه لم ينم سوى ساعة واحدة، والحكمة من ذلك "أن الله غيبه عن فتنة الجوع لطفا وكرامة كما فعل سبحانه بأهل الكهف"،[829] وكل هذه الحالات كانت تعبر أساسا عن تفاعل هؤلاء الأولياء مع أزمة الجوع وكيف أن الله حماهم منها لصلاحهم وتقواهم، فما هي مواقفهم مع الناس أوقات هذه الأزمة؟.

لقد أمدتنا كتب المناقب والتراجم بصور واضحة عن المواقف النبيلة التي أبداها بعض أولياء المغرب الأوسط إزاء الفقراء والمحتاجين في أوقات المجاعة؛ أهمها ما ذكره لنا الغبريني عن الولي يحيى بن أبي علي الزواوي حيث قام إبان المجاعة الواقعة ببجاية سنة 611 هـــ/1214م بجمع المال من أعيانها، واكترى به فندقا جمع فيه الفقراء والمحتاجين واشترى لهم ما يكفيهم من اللباس والطعام وأغناهم بذلك عن السؤال.[830]

وقد تصدق أبو عمران بن إسحاق بكل ماله الذي ورثه والمقدر بـــ 400 دينار على المساكين زمن مجاعة؛ بالرغم من حاجة أولاده إلى هذا المال؛ وعندما توفي هذا الولي ترك أولاده وزوجته في حالة شديدة من الفقر، حتى جمع الناس لهم صدقة على قبره واشتروا لهم دارا بهذا المال.[831]

وقد كان لوالد ابن مرزوق الحفيد مطامير من القمح والفحم واللحم المؤخر الذي يعده -والمسمى بالمسلى أو الخليع- والزيت، ويتصدق بكل ذلك في أيام الثلج فلا يرجع إلى بيته حتى يفرغ المطمورتين، كما أنه كان يتصدق بالخبز كل يوم وبالثياب كل سنة،[832] وتضيف رواية أخرى أن عم ابن مرزوق قد تصدق بكل غلاة داره وقت أن كانت تلمسان في حالة من الضيق،[833] وقد فرج الله عن أهل تلمسان بعد الحصار المريني الطويل لها والمجاعة العظيمة التي عانوا منها، بعد أن أكلوا من طعام عرس ابن مرزوق الحفيد الذي أعد بمناسبة اليوم السابع من زواجه.[834]

---

[828]- **المصدر نفسه**، ص 288.

[829]- ابن صعد : **روضة النسرين**، ص 222، ابن مريم : **البستان**، ص 33.

[830]- التادلي: **التشوف إلى رجال التصوف**، ص 429، الغبريني: **عنوان الدارية**، ص 135.

[831]- موسى بن عيسى المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، ورقة 139ب.

[832]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 190 - 191.

[833]- **المصدر نفسه**، ص 237.

[834]- ابن مريم: **المصدر السابق**، ص 33.

وقد جاء أحد الفقراء إلى الولي عبد الرحمن بن علي الصنهاجي يشكوا له جوع عياله في سنة مجاعة، فأخرج له الولي من الفرن خبزا لعياله، مع أنّه كان أحوج الناس إلى هذا الخبز لأن خادمة داره جاءته تشكوا جوع أهله فردّ عليها بأنّ الخبز ذهب به من هو أحوج به أكثر من أولاده.[835]

وقد كان الولي محمد بن يوسف السنوسي يأمر أهله بالصدقة لاسيما أوقات الجوع؛ ويقول: "من أحب الجنة فليكثر من الصدقة خصوصا في الغلاء"، وفي كثير من الأحيان كان يتولى التصدق بنفسه،[836] كما استطاع الولي يحيى بن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز أن يسد حاجيات سلطان تلمسان إبان الغلاء الواقع بها، حيث زوده بالزرع الذي أراده علما بأن دار هذا الشيخ لا تخلوا من الزرع أبدا بسبب بركته وصلاحه.[837]

و لم تكن كرامات تجاوز أزمة الجوع لتنقطع بعد موت الأولياء، بل تستمر في نظر المجتمع حتى بعد موتهم، فقبورهم كانت بالنسبة إليهم من مقدسات العامة والمزارات التي يلجؤون إليها من كل حدب توسلا بهؤلاء الصلحاء في تفريج الكروبات؛ خاصة وهم يعتقدون بأن الدعاء عند قبورهم مستجاب، وحتى في أوقات المجاعة عرفت قبور الأولياء إقبالا كبيرا؛ وحسبنا في ذلك ما فعله ابن قنفد الذي زار قبر الولي أبي مدين شعيب زمن مجاعة سنة 776 هـ/1374م؛ فدعا عند قبره أن يخفف الله عنه مشقة السفر، ويأمنه من الخوف فيقول مخاطبا قبر أبي مدين: "يا سيدي أبا مدين نحن أضيافك وقد نزلنا بجوارك، ولنا معك وسيلة عهد متصل قريب غير منفصل، والغرض تيسير الانتقال والحفظ في كل الأحوال؛ اللهم إنا نتوسل إليك بأنبيائك وأوليائك، يسر لنا في ذلك يا قريب يا سميع الدعاء يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام! وكررت الدعاء مرارا وصليت على سيدنا محمد ρ وحمدت الله وانصرفت فيسر الله تعالى عليّ فيما طلبته ووقع ما أمّلته".[838] فسهل الله له في سفره وانقلب الشر كله خيرا ببركة هذا الولي؛ ويقول في ذلك: "انتهى سفرنا على وفق اختيارنا والحمد لله وذلك عندنا معهود من كرامات الشيخ أبي مدين τ والدعاء عند قبره مستجاب".

وقد أشار ابن قنفد أيضا إلى وجود جماعة من المتسولة أو الفقراء والمحتاجين بإزاء قبر أبي مدين زمن هذه المجاعة؛[839] لعل الزائرين يشفقون عليهم ويتصدقون عليهم بما يحملونه إلى هذه القبور من طعام ومال، ولا شك أن الزوايا في هذه الأوقات قد كان لها دور كبير أيضا في توزيع الصدقات التي يأتي بها الزائرون فيتصدق بها شيوخها على الفقراء.

والحضور الصوفي أوقات المجاعة في المجتمع بالرغم من أنه كان قويا، إلا أن هذا الدور كان قد غلب عليه الطابع الخيالي أكثر من الجانب الفعلي؛ بل كانت معظم الحلول التي يبثّها هؤلاء الأولياء آنية و لم تكن سارية المفعول، واقتصرت في كثير من الأحيان على نطاق الفرد أكثر من الجماعة، كما أن تشبث

---

[835]- ابن مرزوق: **المصدر السابق**، ص 299.

[836]- ابن مريم: **البستان**، ص 243.

[837]- **المصدر نفسه**، ص 307.

[838]- **أنس الفقير**، ص 150.

[839]- **المصدر نفسه**، ص 151- 150.

العامة بهؤلاء الأولياء وإيمانهم العميق بهم لم يكن في الغالب نابعا من منطلق ديني؛ لأن التوسل كان لأغراض دنيوية: تتمثل في طلب الغيث حتى يتوفر الغذاء وطلب الصدقات وتسهيل مشقة السفر وتفريج الكروبات.

ب- الأوبئة والأمراض والسعي لتجاوزها

1- السلطة وشؤون الصحة في المغرب الأوسط

لم تكن المصادر التي أرخت للمغرب الأوسط لتوافينا بمعلومات تبين لنا مدى اهتمام السلطة بشؤون الصحة، ولا حتى مدى تفاعلها مع الأوبئة التي اجتاحت هذا المجتمع، ولا الإجراءات التي اتخذتها إزاءها، فلا شك أنها لا تختلف كثيرا عن الجهود التي بذلتها أوقات المجاعة، خصوصا ما إذا كانت هذه الأوبئة كنتيجة عنها فالأمر سواء.

ومن المؤسف أيضا أننا لا نملك معلومات حول ما إذا كانت السلطة في المغرب الأوسط قد اتخذت أماكن خاصة لمرضى الجذام تكون بعيدة عن التجمعات السكنية، حتى لا يؤذون الناس بأبخرتهم مثلما هو الحال بالمغرب الأقصى، فقد كانت الدولة تجمع المصابين بهذا الداء في حارات خاصة بعيدة عن المدن تعرف "بحارات الجذامى" لتكون مساكنهم تحت مجرى الريح الغربية حتى تحمل أبخرتهم بعيدا.[840]

غير أنه ثمة إشارة مهمة أوردها المازوني كفيلة أن تزيل بعض الغموض؛ فلقد ذكر قضية عزل الإمام لمرضى الجذام عن الناس حتى لا يتأذوا منهم، وذلك من خلال عرضه لبعض آراء الفقهاء الأوائل حول ذلك؛ والأهم من هذا أنه بيّن رأيه بحيث رأى أن يعزلهم الإمام إذا "كثروا وعمروا محجب البر"[841] على حد قوله.

فالدور السلطوي في المغرب الأوسط إزاء مختلف الأمراض والأوبئة يكتنفه الكثير من الغموض؛ فإذا كان بناء البيمارستانات يدخل ضمن اهتمامات الدولة بشؤون الصحة فكيف كان وضع هذه المؤسسة في المغرب الأوسط؟.

البيمارستانات في المغرب الأوسط

تكتسي هذه المؤسسة أهمية قصوى داخل المجتمع ووجودها يحدد من خلاله درجة تقدم المستوى الصحي أو تأخره لهذا المجتمع، كما أنه يعكس مدى وعي الدولة واهتماماتها بصحة السكان وسلامتهم.

ويرتكز وجود البيمارستانات بالمغرب عموما في الحواضر الكبرى والمدن، في حين ينعدم وجودها في الأرياف والبوادي حيث تقل الخدمات الصحية داخل هذا المجال، وتجليات عدم تجاوز مثل هذه المؤسسات أسوار المدينة أو الحاضرة يظهر بوضوح من خلال ما رواه ابن بطوطة في رحلته حينما مرض أحد أصحابه بمدينة مليانة وهو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر النفزاوي قاضي الزواج بتونس، وخرجوا منها وقد اشتد به

[840]- حسين بولقطيب: **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، ص 56.

[841]- **المهذب الرائق**، ورقة 34 ب.

المرض فتوفي خارجها وهم في طريقهم إلى تونس دون أن يتلقى أي رعاية صحية، فأعادوه إلى مليانة فقـــبروه هناك.[842]

وعلى خلاف ما حضيت به بعض المؤسسات الدينية والثقافية كالمساجد والزوايا والكتاتيب والمدارس من ذكر لدى مؤرخي المغرب الأوسط، لم يكن البيمارستان كمؤسسة اجتماعية تحظى بنفس الاهتمام لدى هؤلاء باستثناء بعض الإشارات المحتشمة.

فقد ذكر الوزان عندما وصف مدينة بجاية بأن بها بيمارستانات بصيغة الجمع تدل على تعددها،[843] ولعل ذلك يعكس مدى اهتمام السلطنة الحفصية بهذه المؤسسة وبصحة السكان وسلامتهم، وأشارا بن أبي زرع إلى أن السلطان يوسف بن يعقوب المريني كان قد شيد البيمارستانات حين بنى تلمسان الجديدة،[844] مما يجعلنـــا نتساءل حول ما إذا كان بنو مرين هم أول من أحدثوا البيمارستانات بتلمسان؟ أم أن مثل هذه المؤســـسات كانت موجودة بها قبل مجيء يوسف بن يعقوب المريني أساسا؟.

إنه من الصعب ترجيح رأي على آخر في غياب مادة مصدرية دقيقة، لكـــن ســـلاطين الدولـــة الزيانيـــة قد اهتموا أيضا بتشييد مؤسسة البيمارستان مثل الحفصيين، فقد أشار يحي بن خلدون إلى وجود بيمارستانات في تلمسان فترة حكم السلطان أبي تاشفين الزياني.[845]

وإضافة إلى الدور الصحي الذي تجسده البيمارستانات من الاهتمام بالمرضى ووصف الدواء المناسب لهم، كان لهذه المؤسسة دور آخر تجلى بوضوح زمن المجاعة، فالبيمارستانات اعتبرت بمثابة الملاجئ الخيرية التي يأوي إليها غالبية الفقراء والمساكين، بعد أن تجمعهم الدولة هناك حتى يسهل عليها توزيع الصدقات عليهم والاهتمام بهم على أكمل وجه، وفي ذلك يقول يحي بن خلدون: "ثم اقتضى نظره الكريم (السلطان أبو تاشفين الزياني) أن ضمهم أجمعين ببيمارستانات يأتيهم فيها رزقهم بكرة وعشيا شتاء السنة"،[846] ومن الواضح جليا أنـــه لم يكن ليذكر ذلك إلا ليبرز مزايا هذا السلطان، والدور الذي جسده إبان المجاعة التي اجتاحت تلمـــسان ســـنة 767 هـــ/1365م والتي سبق الإشارة إليها.

ومن جهة أخرى قد تكون الدولة انتهجت هذه السياسة مع الفقراء والمساكين تحسبا لوقوع الأوبئة الـــتي غالبا ما تعقب المجاعات، فيكون هؤلاء الناس في مأمن من التعرض لها بسبب توفر شروط الصحة كالنظافـــة والغذاء السليم داخل مؤسسة البيمارستان.

وبالرغم من الضبابية التي تعتري الكثير من المصادر حول وجود مؤسسة البيمارستان ودورها في المغـــرب الأوسط، إلا أن هذه المؤسسة قد جسدت دورا مزدوجا داخل هذا المجال: دور صحي ودور تـــضامني علـــى

---

[842]- **تحفة النظار في غرائب الأمصار**، 1 / 158.

[843]- **وصف إفريقيا**، 2 / 50.

[844]- **روض القرطاس**، ص 512.

[845]- **بغية الرواد**، 2 / 326.

[846]- **بغية الرواد**، 2 / 326.

الأقل للتقليل من حجم الأزمات وشدة وقعها على المجتمع.

2- الحركة الطبية بالمغرب الأوسط ودورها في دفع الأوبئة والأمراض

من المعلوم أن دراسة الحركة الطبية في المغرب الأوسط تندرج ضمن التأريخ للحياة الثقافية والعلمية وحتى الموروث الشعبي، خاصة وأن هذه الدراسة لا تقتصر على دور الأطباء وحدهم، وإنما تشمل دور الطب الشعبي في العلاج، وما ينضوي تحته كدور الأولياء ودور بعض الفئات التي تمارس هذا النوع من الإشـفاء داخـل المجتمع.

أ- الطب والأطباء في المغرب الأوسط

إن علم الطب وكباقي العلوم الطبيعية والتجريبية ينبني أساسا على التجربة والمشاهدة الحسية والاسـتقراء،[847] فهو ذلك العلم الذي "يبحث في بدن الإنسان من جهة ما يصح ويمرض والتماس حفظ الصحة وإزالة المرض"،[848] بمختلف الأدوية والأغذية النافعة لذلك،[849] ولهذا يجب أن يكون متوليّ هذه المهنة إنسانا عالما حاذقا عارفا بأصولها حتى لا يقع في أخطاء قد تكون نتائجها وخيمة على الفرد والمجتمع على حد سواء .

وعلى غرار أطباء المغرب الإسلامي استمد أطباء المغرب الأوسط علومهم وممارستهم الطبية من مـوروث ثقافي امتدت جذوره إلى عصر أطباء اليونان أمثال جالينوس وأبقراط، وكذا أطباء المشرق والأندلس،[850] فإلى أي مدى ساهم أطباء المغرب الأوسط في إرساء منظومة علمية متكاملة تجمع بين كل العلوم، ما هي مكانـة الطب والأطباء داخل هذا المجتمع؟ إلى أي مدى ساهم الأطباء في دفع مختلف الأمـراض والأوبئـة؟ وهـل استطاعت هذه الفئة التوفيق بين التدوين الطبي والإشفاء الطبي ؟ .

وسنحاول الإجابة على هذه التساؤلات على قدر ما تجوده علينا المصادر، خاصة وأنها قد سجلت لنا أسماء العديد من الأطباء الذين عاشوا بالمغرب الأوسط في الفترة الممتد ما بين (588-927 هـ/1192 -1520م) وهي مدونة في الجدول الآتي:

جدول06: يبين أسماء أطباء المغرب الأوسط زمن الدراسة

اسم الطبيب وكنيته	مولده ووفاته	أصله	مكان استقراره	رحلاته العلمية	المصدر / المرجع
أبو عبد الله محمد بن عبد الله خالد البجائي المعروف بابن النباش	/	بجاية	مرسية	/	ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، 3 / 80.

[847]- ابن الخطيب: **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، ص 43.

[848]- ابن الأكفاني الأنصاري: **إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد**، نشره فؤاد سزكين وآخرين، معهد تاريخ العلوم العربية –فرانكفورت– ألمانيا، 1426هـ 2005، ص 221.

[849]- ابن خلدون: **المقدمة**، ص 455.

[850]- الحسن السائح: **الحضارة الإسلامية في المغرب**، ط 2، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1986م، ص 229 - 231.

أبو إسحاق الداني (أمين البيمارستان وطبيب بالحضرة (مراكش) وكذلك ولداه في دولة المستنصر)	عاش في ظل الدولة الموحدية	الأندلس	بجاية ثم مراكش		ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، 3 / 128.
علي بن عتيق بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن مؤمن الأنصاري الخزرجي	523 - 598 هـ/ 1128-1201م	قرطبة	فاس	بجاية	ابن الأبار: **التكملة**، 221/3، ابن عبد الملك المراكشي: **الذيل والتكملة**،256/1/5-264، ابن القاضي: **جذوة الاقتباس**، 2 / 482.
أبو عبد الله محمد بن سحنون المعروف بالندرومي طبيب الناصر ثم المستنصر الموحدي	580- 634 هـ/1184م-1237م	أصله من ندرومة ومولده بقرطبة	ندرومة ثم إشبيلية		ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، 3 / 132، نويهض: **معجم أعلام الجزائر**، ص 330.
أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعيد بن حريث بن عاصم بن مضاء الجياني القرطبي	تـ 592 هـ/1195م	الأندلس	بجاية		السيوطي: **بغية الوعاة** 1 / 323.
علي بن موسى بن محمد بن شلوط	توفي نحو 610 هـ/1213م	بلنسية	تلمسان	رحلة حج	ابن الآبار: **التكملة**، 227/3، عبد الملك المراكشي: **الذيل والتكملة**،41/1/5، أحمد عيسى: **معجم الأطباء**، ص314، محمود الزعبي: **أطباء من التاريخ** 2/ 95.
أبو العباس أحمد بن خالد المالقي	تـ 660 هـ/1261م	مالقة	بجاية	الأندلس، مراكش	الغبريني:**عنوان الدارية**، ص 100- 101.
أبو جعفر أحمد بن جريح الذهبي	تـ 660 هـ/1261م بتلمسان	المغرب الأقصى	المغرب الأقصى	إفريقية تلمسان	ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، 3 / 132.
أبو الحسن علي النميري الششتري	تـ 668 هـ/1269م	الأندلس	بجاية، بلاد الشام		الغبريني: **عنوان الدارية**، ص 210- 213.

أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي ابن أندراس (مختص بأمراض النساء)	تـ 674 هـ/1275م	مرسية	بجاية		الغبريني: **عنوان الدارية**، ص 101- 102.
سعيد بن حكم بن عمر بن أحمد بن عبد العزيز بن حكم القرشي الطبيرى أبو عثمان	601-680 هـ /1204-1281م	الأندلس	إفريقية	بجاية	المراكشي: **الذيل والتكملة**، 4 / 28-31.
أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد السلام الدلسي	ق 7 هـ/13م	تدلس	بجاية		الغبريني: **عنوان الدارية**، ص 294.
أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الخزرجي الشاطبي	تـ 691 هـ/1291م	شاطبة	بجاية	رحلة حج	الغبريني: **عنوان الدارية**، ص 126.
أبو الحسن المروزي	ق 7 هـ/13م		بجاية		الغبريني: **عنوان الدارية**، ص 168.
حمزة بن علي بن إبراهيم بن أحمد اللخمي (طبيب للسلطان الحفصي أبي زكريا (684- 70 هـ /1285-1301م)	كان حيا فترة حكم السلطان أبي زكريا	من بني العزفي رؤساء سبتة	الثغور الغربية ببجاية وضواحيها		ابن خلدون: **العبر**، 6 / 784.
أبو الحسن يحيى بن إبراهيم بن محمد بن الحاج المعافري	ولد سنة 627 هـ /1229م	الشاطبة	/	بجاية	الوادي آشي: **برنامج الوادي آشي**، ص 68.
أبو القاسم أحمد بن سعيد عطار (صيدلاني)	حيا فترة حكم السلطان أبو حفص (683 - 694 هـ / 128- 1294	دانية	بجاية		ابن قنفد: **الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية**، ص147.
أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الخليل مفرّج الأموي المعروف ابن الرومية وابن العشاب (عالم نبات)	561- 637 هـ	إشبيلية	إشبيلية	دخل بجاية قبيل 613 هـ/ 1216م	ابن الخطيب: **الإحاطة** 1 / 83 – 85، المراكشي: **الذيل والتكملة**، 1/1/487-518، المقري: **نفح الطيب**، 2 / 596.

أحمد بن علي بن أبي العباس أحمد الملياني المكنى أبا عبد الله وأبا العباس	توفي بغرناطة سنة 715هـ/ 1315م.	مراكش	تلمسان ثم الأندلس		ابن الخطيب: **الإحاطة،** 143/1، ابن القاضي: **جذوة الاقتباس** 147/1، نفسه: **لقط الفرائد** 595/2، الونشريسي: **الوفيات،** 595/2، المراكشي: **الإعلام،** 1 / 373- 375.
أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأوسي الأندلسي المعروف بابن الرقام طبيب (مدرس للطب)	توفي سنة 715 هـ/ 1315م	مرسية	بجاية ثم غرناطة		ابن الخطيب: **الإحاطة،**2/ 49. Margarita castells **:** ***Medecins andalous au maghreb*****, Siecles** VII-IX / XIII- XV, p 119 -120.
أبو علي حسن المراكشي طبيب السلطان الحفصي أبي يحيى أبي بكر وطبيب أمير قسنطينة أبي عبد الله	حيا فترة تغلب أبي الحسن المريني على المغرب الأوسط	مراكش	قسنطينة تلمسان		ابن قنفد: **الفارسية،** ص 163، 166، ابن مرزوق: **المسند،** ص 382.
أبو يعقوب بن أندراس، (طبيب السلطان الحفصي أبي يحيى أبي بكر)	كان حيا في نفس الفترة		قسنطينة		ابن قنفد: **الفارسية،** ص163.
ابن حمزة والد القائد أبي عبد الله بن الحكيم (طبيب السلطان أبي يحيى أبي بكر)	كان حيا في نفس الفترة		قسنطينة		ابن قنفد: **الفارسية،** ص163.
أبو العباس أحمد بن شعيب (طبيب أبي الحسن المريني وكاتبه) وهو نباتي أيضا	كان حيا في نفس الفترة		تلمسان		ابن مرزوق: **المسند،** ص 375، 382.
أبو علي المغيلي	كان حيا في نفس الفترة	مغلة من تلمسان	تلمسان		ابن مرزوق: **المسند،** ص 382.
أبو الحسن يحيى المعافري المعرف بابن الحاج، الشاطبي النجار (طبيب وصيدلاني)	625 - 718 هـ /1227-1318م	الأندلس	بجاية		ابن الطواح: **سبك المقال** ص 194- 195، الوادي آشي: **برنامج،** ص 68.

أبو الحسن علي بن الطبيب أبي زكريا يحيى التلالسي	توفي في عهد أبي تاشفين الأول (718- 749 هـ / 1318-1348م).	تلمسان			عبد الحق معزوز- لخضر درياسي: **جامع الكتابات الأثرية العربية بالجزائر**، كتابة رقم 2، ص 14 - 15.
محمد بن محمد بن عبد الله بن عيشون بن عمر اللخمي	تـ 720 هـ/1320م	مرسية	بجاية، المرية		ابن القاضي: **درة الحجال** ص 172.
أبو العباس أحمد بن عبد السلام الشريف الحسني المغيلي		مغيلة			طبيب له تأليف في الطب لم أقف له على ترجمة.
حسن بن علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفد القسنطيني	694-750 هـ/ 1294م-1349م	قسنطينة	قسنطينة	رحلة إلى المشرق	ابن قنفد: **أنس الفقير**، ص86-88. نويهض: **معجم أعلام الجزائر**، ص 370.
أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي الجرائحي (طبيب جراح)	توفي بعد سنة 767هـ/ 1365م	تلمسان	تلمسان		يحيى بن خلدون : **بغية الرواد** 72/2، المقري: **أزهار الرياض**، 59/5-60، ابن مريم: **البستان**، ص160، نويهض: **معجم أعلام الجزائر**، ص 63.
عبد الله الدباغ المالقي المتطبب	معاصرا للآبلي (تـ 757 هـ / 1356- م)	الأندلس	تلمسان	فاس	المقري: **أزهار الرياض**، 61/5، ابن مريم: **البستان**، ص 158.
أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني المعروف بالعلوي (طبيب مشرح جراح)	710-771هـ	من قرية العلويين من أعمال تلمسان	تلمسان	تونس ـ فاس	ابن خلدون: **التعريف بابن خلدون**، ص 69-70، ابن مريم: **البستان**، ص 164-173.
أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد بن أبي حجلة التلمساني	725- 776 هـ/ 1325 - 1375م	تلمسان	القاهرة	الحجاز دمشق	الزركلي:**الأعلام** 268/1-269، نويهض: **معجم أعلام الجزائر**، ص 364- 365.

إبراهيم بن أحمد التلمساني المعروف بالثغري (طبيب وصيدلاني ومتطبب)	ق 8 هـ/ ق 14م معاصرا لابن خلدون	تلمسان	تلمسان		ابن مريم: **البستان**، ص166، أبو القاسم سعد الله : **تاريخ الجزائر الثقافي** 1/ 105- 106.
عبد الرحمن بن قنفذ القسنطيني	تـ 802 هـ / 1399م	قسنطينة	قسنطينة		ابن القاضي: **درة الحجال**، ص 331، الونشريسي: **الوفيات**، 2/ 713.
أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب بن قنفد القسنطيني الشهير "بابن قنفد"	740- 810 هـ/ 1339 - 1407م	قسنطينة	قسنطينة	فاس	ابن قنفد: **أنس الفقير**، ص 10-13، التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص109-110، نفسه: **كفاية المحتاج**، ص53، المراكشي: **الإعلام** 16/2-18، الزركلي: **الإعلام**، 1/ 117 .
محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن الإمام أبو الفضل التلمساني	توفي سنة 845 هـ/1441م	تلمسان	تلمسان	تونس- المشرق- بلاد الشام	السخاوي: **الضوء اللامع**، 10/ 74، ابن مريم: **البستان**، ص 220- 221.
موشي بن سمويل بن يهوذا الإسرائيلي المالقي ابن الأشقر (تدريس الطب)	حيا سنة 866 هـ /1461م	مالقة بالأندلس	تلمسان		عبد الباسط: **الروض الباسم**، ص 44- 45.
محمد بن علي بن فشوش (طبيب ومدرس للطب)	حيا سنة 866 هـ/1461م	تلمسان	تلمسان		عبد الباسط: **الروض الباسم**، ص 44.
عبد الرحمن المكنى بأبي زيد شاب	حيا سنة 866 هـ/1461م		وهران		عبد الباسط: **الروض الباسم**، ص 63.
أحمد بن يونس سعيد القسنطيني عرف بأبيه	813 -87 هـ /1410 - 1473م.	قسنطينة	قسنطينة		التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص 126.الزعبي: **أطباء من التاريخ**، 2/ 104.

محمد بن يوسف عمر بن شعيب السنوسي (الطب والصيدلة)	تــ 895 هــ/ 1489م.	قرية من ضواحي تلمسان	تلمسان		الشفشاوني: **دوحة الناشر**، ص 122، ابن مريم: **البستان**، ص237- 248، ابن مخلوف: **شجرة النور**، ص 266.
عبد الباسط المالطي	تــ 920 هــ /1514م.	مصر		تلمسان وهران (المغرب الأوسط)	عبد الباسط: **الروض الباسم**، ص 44، 63، عز الدين محمد كمال الدين: **عبد الباسط الحنفي مؤرخا**،

1- فئة الأطباء في المغرب الأوسط

مقارنة بالكم الهائل الذي سجلته لنا المصادر من أسماء الفقهاء والمحدثين والأدباء والعلماء والمتصوفة بالمغرب الأوسط، فإن عدد أسماء الأطباء التي سجلتها ذات المصادر قليل جدا، مع العلم أنني ركزت هنا على الأطباء المدرسون والممارسون للمهنة التطبيب فقط، دون الالتفات إلى العلماء المهتمين بالعلوم العقلية عموما، وإن كان الطب يندرج ضمن هذا الصنف من العلوم، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر شيخ التعاليم العقلية "محمد بن إبراهيم الآبلي" شيخ ابن خلدون، فبالرغم أن المصادر تذكر إلمامه ونبوغه في العلوم العقلية، إلا أننا لا نستطيع تصنيفه مع جملة الأطباء لأن المصادر لم تصرّح بذلك.

وتجدر الإشارة هنا أنني قمت بتسجيل أسماء الأطباء غير المستقرين في المغرب الأوسط أيضا، لأن هذا المجال كان معبرا لهم أثناء رحلاتهم العلمية لأخذ العلوم الطبية أو بثها، وحسبنا في ذلك الرحالة عبد الباسط الذي أخذ علم الطب عن أطباء في تلمسان وأجازوه في ذلك، ثم درسه لأحد الشبان من وهران يدعى "عبد الرحمن المكنى بأبي زيد شابّ"، ودون أن ننسى أيضا أسماء الأطباء الذين كانت أصولهم من المغرب الأوسط إلا أنهم غير مستقرين به بل عاشوا في مجتمعات أخرى، وبثوا فيها العلوم الطبية ونذكر على سبيل المثال الطبيب الذي عاش في مصر "ابن أبي حجلة التلمساني" .

ومما لا شك فيه أن عدد الأطباء قليل جدا مقارنة بالأعداد الهائلة من الفقهاء والمحدثين والأدباء والمتصوفة، ويعزى ذلك ربما إلى صعوبة ممارسة هذه المهنة وحساسيتها من جهة، فهي تحتاج إلى مهارة واسعة واطلاع كبير، ومن جهة أخرى ربما يكون هذا النقص بسبب اندفاع النخبة العلمية إلى الاهتمام بالعلوم النقلية، وإهمالهم لبعض العلوم العقلية ومن بينها الطب.

كما أن كل الأطباء المسجلة أسماؤهم في الجدول إنما كان مكان استقرارهم في الأمصار الكبرى كبجاية وتلمسان وقسنطينة، الأمر الذي يجعلنا نؤيد ابن خلدون الذي يري أن صناعة الطب إنما يحتاج إليها في الأمصار الكبرى والمدن، أكثر من البوادي لجملة من الاعتبارات التي تخص النظام الغذائي والجانب البيئي لكل

منهما، وكذا طبيعة عيش كل مجتمع وعاداته وتقاليده.[851]

وكما هو ملاحظ في الجدول فإن هؤلاء الأطباء قد اختلفت أصولهم فمنهم الأندلسيون ومنهم ذوي الأصول المحلية ومنهم من المغرب الأقصى، ومنهم من نجهل أصولهم، فالأطباء ذوي الأصول الأندلسية كان عدد تواجدهم كبيرا بالمغرب الأوسط؛ فهم نتاج الهجرات الأندلسية التي تسارعت وتيرتها مع مستهل القرن السابع الهجري، نظرا للأوضاع السياسية المزرية التي كانت الأندلس تعيشها آنذاك، فالهجرة الأندلسية قد عززت تأثيرها العلمي والحضاري في بلاد المغرب الأوسط أكثر بمساهمة هؤلاء المهاجرين في ميدان الطب والصيدلة.[852]

وفضلا عن ذلك فإن المصادر تشير إلى وجود أطباء من يهود الأندلس ماهرين بالطب، حيث ساهموا في تطوير العلوم الطبية وبثها بالمغرب الأوسط،[853] فإضافة إلى الشخصية المسجلة في الجدول أعلاه أشار ابن مرزوق إلى وجود طبيب يهودي في تلمسان ماهر بالطب والصيدلة دون أن يذكر اسمه، وذلك زمن تغلب السلطان أبو الحسن المريني عليها، حيث مرض هذا الأخير وصنع له الطبيب اليهودي دواء، لكن أبا الحسن المريني شكك فيه فلم يتراجع عن رفضه لدواء هذا الطبيب، حتى أجمع أطباء عصره على براعته في التطبيب وصنع الأدوية.[854]

ولقد تعددت اختصاصات هؤلاء الأطباء في ميدان العلوم الطبية؛ فمنهم عالمون بالطب مدرسون له ومعالجون، ومنهم من اختص في ميدان الجراحة والتشريح، وإن كانا قد سجلنا اسمين فقط في الجدول من الأطباء الذين اهتموا بذلك وهما: أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني المعروف بالعلوي ، وأبو عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي الجرائحي، وهناك من اختص بطب النساء والتوليد، ومن المؤسف أن المصادر لم تسجل لنا سوى طبيبا واحدا مختصا في هذا المجال وهو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن أندراس، فضلا عن الصيدلة والعطارة وعلم النبات والتي كانت جزء لا يتجزأ من اهتمامات هؤلاء الأطباء.

و لم تقتصر معارف هؤلاء الأطباء على العلوم الطبية فقط، وإنما تعددت اهتماماتهم لتشمل باقي العلوم سواء العقلية منها أو النقلية، فقد كان أبو العباس بن خالد المالقي إضافة إلى تضلعه في علم الطب ملما بأصول الفقه وأصول الدين والحكمة والطبيعيات والإلهيات وعلم المنطق،[855] وكان أبو الحسن النميري الششتري طبيبا

---

[851]- **المقدمة**، ص 384 - 386.

[852]- حول الهجرة الأندلسية وتأثيرها الحضاري والعلمي على بلاد المغرب الأوسط أنظر: رفيق خليفي: **البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط**، ص39-62، نصيرة عزرودي: **الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب الأوسط من القرن 2هـ حتى نهاية ق 8 هـ**، رسالة ماجستير- جامعة الإسكندرية، 1428هـ- 2007م، محمد طالبي: **الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين**، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد 26، رجب- شعبان 1395هـ، جويلية- أوت 1975م، ص 46 ، 81.

[853]- عبد الباسط: **الروض الباسم**، ص 44 - 45.

[854]- **المسند**، ص 382 - 381.

[855]- الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 100 - 101.

قارضا للشعر متفننا في علوم الحكمة والتصوف،[856] وقد كان أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني طبيبا عالما بالحساب والهيئة والفرائض والهندسة والفلاحة؛ إضافة إلى الفقه والعربية وعلم الشريعة والمنطق،[857] ومن ثم فإن أغلب أطباء المغرب الأوسط كانوا بارعين في علوم عديدة.

و لم يكن هؤلاء الأطباء يمارسون مهنتهم بمعزل عن أمور السياسة حيث كان العديد من هذه الشخصيات "أطباء بلاط"، يختصون بمعالجة السلاطين والأمراء وحاشيتهم دون غيرهم، فاتخاذ السلطان طبيبا لنفسه يعد من أولويات الملك، وهذا ما أوصت به كتب الأدب السلطاني، وحسبنا في ذلك ما وصّى به السلطان أبو حمو موسى ابنه قائلا: " يابني واختر لنفسك طبيبا ماهرا عاقلا أريبا فاضلا ثقة محبا ناصحا، ومع هذه الصفات لا تمكنه من نفسك حتى لا يكون أعلم منك بنفسك، فإن اتخاذ الطبيب فيه قوة للقلب وراحة للنفس وهو وإن كان له في الحكمة أوضح دليل، وكان كما وصفناه فهو في الحقيقة عليل، وإنما الطبيب إله السماء فنعم الطبيب ونعم الوكيل".[858]

ولاشك بأن أطباء السلاطين كانت لهم أجرة معلومة وأعطيات من الدولة عرفانا بمجهوداتهم، أما الطبيب العادي الذي يزاول مهنته في الدكان أو في مترله فهو يتقاضى أجرة من المرضى الذين يعالجهم؛ فقد أشار المازوني إلى ذلك وقال أنهم "إذا استأجروا على العلاج فإنما هو على البرء فإن برء العليل فله حقه، وإلا فلا شيء له".[859]

و لم تكن اهتمامات هؤلاء محصورة في ميدان الممارسة الطبية فقط، وإنما تقلد البعض منهم مناصب إدارية منها ما لها علاقة بالمجال الصحي، حيث تقلد الطبيب أبو إسحاق الداني الذي عاش في ظل الدولة الموحدية فترة حكم الخليفة المستنصر (610-620 هـ/1213-1223م) خطة أمين البيمارستان بمراكش،[860] ومنها ما هو تابع للمجال السياسي، فقد تولى الطبيب العشاب أبو العباس أحمد بن شعيب خطة الكتابة في تلمسان فترة حكم السلطان أبي الحسن المريني إضافة إلى كونه طبيبا لهذا السلطان.[861]

لوم تكن عائلة ابن زهر الأندلسية[862] الوحيدة التي توارث أفرادها ممارسة الطب في الأندلس، وإنما برزت في مجتمع المغرب الأوسط عائلات توارثت العلوم الطبية وهي عائلة ابن قنفذ القسنطينية، حيث سجلت لنا المصادر ثلاثة أطباء من هذه العائلة، وكذلك عائلة التلالسي في تلمسان، فبالرغم من أن المصادر المكتوبة لم

---

[856]- **المصدر نفسه**، ص 210 - 213.

[857]- ابن خلدون: **التعريف بابن خلدون**، ص 69 - 70.

[858]- **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، ص 20.

[859]- **المهذب الرائق**، ورقة 207ب.

[860]- ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ط 3، بيروت: دار الثقافة، 1401هـ-1981م، 3/ 128.

[861]- ابن مرزوق: **المسند**، ص 375.

[862]- وتضم عائلة ابن زهر الطبية الأسماء التالية: أبو العلاء ابن زهر وأبو مروان بن أبي العلاء بن زهر والحفيد أبو بكر بن زهر وأبو محمد بن الحفيد أبي بكر بن زهر، أنظر: ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، 3/ 103- 121.

تذكر لنا سوى اسما واحدا من هذه العائلة فإن المصادر الأثرية من جهتها ذكرت لنا اسما آخر من هذه العائلة مما يجعلنا نفترض أنها قد تكون من العائلات التي اهتمت بالعلوم الطبية أيضا وتوارثتها.

وعليه فإنه لا يمكن أن نجزم بأن المصادر قد سجلت لنا كل أسماء الأطباء المتواجدين بالمغرب الأوسط زمن الدراسة فلا شك أنها قد أهملت ذكر البعض منهم، ومع ذلك تبقى أعدادهم قليلة مقارنة بالفترة الزمنية الطويلة التي امتدت أكثر من ثلاثة قرون، والتي نشطوا خلالها على نطاق ضيق ومحدود، اقتصر على الأمصار والحواضر الكبرى، دون القرى والبوادي التي لم يكن أهلها بمنأى عن الإصابة بمختلف الأمراض والأوبئة الفتاكة، فما هو واقع الطب في المغرب الأوسط على المستوى التنظيري وعلى مستوى الممارسة الفعلية؟ ما هو دور الأطباء في دفع مختلف الأوبئة والأمراض؟.

2- واقع الطب في المغرب الأوسط

لا سبيل للإنكار بأن علم الطب كان من بين العلوم العقلية أو الطبيعية التي تدرس في حواضر المغرب الأوسط (بجاية-تلمسان- قسنطينة)، وذلك في المرحلة الثانية من التعليم، بعد أن يتمكن الطالب خلال المرحلة الأولى من حفظ القرآن الكريم وتعلم أصول اللغة العربية والقراءات بالكتّاب، ففي المرحلة الثانية يتلقى الطلاب مختلف العلوم النقلية والعقلية، ومن بينها الطب والصيدلة اللذان يعتبران علما واحدا لا يتجزأ في تلك الفترة، بحيث يترك لهم الحرية في اختيار المواد التي يدرسونها بحسب ميولاتهم الشخصية،[863] وقد كان يتولى تدريس العلوم الطبية في حواضر المغرب الأوسط أطباء أكفاء ماهرين بهذا العلم ملمين به بالرغم من أعدادهم القليلة، حيث يقدمون للطالب إجازة في الطب عقب انتهائه من أخذ الدروس.

وإضافة إلى الأندلس والمغرب الأقصى كانت حواضر المغرب الأوسط تعد حقيقة من أهم المراكز العلمية التي تدرس فيها العلوم الطبية،[864] بمساهمة الأطباء الأندلسيون مساهمة جليلة، خصوصا وأن الأندلس قد عرفت تطورا في المجال الطبي سيما في العصر المرابطي[865] والموحدي، فكانت هذه الحواضر تستقطب عددا كبيرا من الطلاب الوافدين عليها من كل الجهات، لأخذ علم الطب، وحسبنا في ذلك مساهمة الطبيب الأندلسي أبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي الأندلسي المعروف بابن أندراس، الذي استوطن بجاية متصدرا لحلقات تدريس الطب بها، فكان متخصصا بطب النساء والتوليد عارفا به، ولذلك اتخذه السلطان الحفصي المستنصر طبيبا خاصا له ولأهله إلى أن وافته المنية بتونس سنة 674 هـ/ 1275م.[866]

وقد كانت بجاية إحدى المحطات العلمية للطبيب الأندلسي محمد بن الرقام الأوسي ليدرّس الطب بها، وبعدها انتقل إلى غرناطة لاستكمال رسالته العلمية وتدريس الطب بها إلى أن وافته المنية هناك سنة 715 هـ/

---

[863]- فيلالي: **تلمسان**، 2 / 347 - 349.

[864] - Margarita çastells: ***Médecine andalous au Maghreb***, p 115.

[865]- محمد الأمين بلغيث: **الحركة الفكرية في الأندلس في عصر المرابطين 479 - 539 هـ/1085 - 1144م**، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 2002-2003، ص 465.

[866]- الغبريني: **عنوان الدارية**، ص 101 - 102.

1315م،[867] وكذلك الطبيب محمد بن علي بن فشوش والذي كانت تلمسان مستقرا له لنشر العلوم الطبية في مدارسها ومساجدها ولا ننسى أيضا مساهمة الطبيب اليهودي الأندلسي موشي بن سمويل-المعاصر له- في نشر العلوم الطبية بتلمسان بعد أن نزلها، فقد كان يجيز طلابه بعد تتمة إعطاء الدروس لهم.[868]

غير أن الجانب التنظيري لعلم الطب بالمغرب الأوسط لا يعكس واقع الممارسة الطبية به، فحال الطب والتطبيب داخل هذا المجتمع حال مزرٍ كما نوهت بذلك المصادر، والسبب في ذلك إدعاء كثير من الناس معرفة الطب وإتقان ممارساته دون أن يكونوا كذلك، وخير دليل على ذلك ما ذكره لنا الغبريني عن حال الصناعة الطبية بالمغرب الأوسط في القرن السابع الهجري قائلا: "وهذه الصناعة هي أشد الصنائع ضياعا في بلادنا، لأنه يتعرضها الغث والسمين ولا يقع بينهما التمييز إلا عند القليل من الناس".[869]

وقد أشار العقباني إلى هذه الظاهرة أيضا في القرن التاسع الهجري، وقبّح على من يدعون علم الطب وهم جاهلون به فيؤذون الناس في أجسامهم بالقطع والكي وإتلاف الأعضاء والسمع والبصر وغيرها من النتائج الوخيمة التي قد تؤدي بالمرضى إلى الموت، فقد روى لنا واقعة عن رجل من هؤلاء قام بصنع دواء لأحد المرضى وجربه عليه، وعندما علم أن نتيجة هذا الدواء كانت إيجابية فرح واستغرب من جهة لأنه لم يكن ينتظر ذلك.[870]

لقد شدد العقباني على أولئك الذين يدعون علم الطب، وذكر أنه شاهدهم في كثير من الأمصار والأقطار، وأمر بلزوم معاقبتهم من طرف الإمام بالضرب والسجن إذا ما قاموا بإلحاق الضرر بالمرضى، وإن لم يكن هؤلاء متعمدين في ذلك وحدث خطأ يُلزمون عندئذ بدفع الدية في حالة موت المريض، لأن ذلك يقوم مقام القتل الخطأ.[871]

وعليه فإن العقباني قد نبه كافة الأطباء بلزوم مشاورة السلطان في حالة ما إذا قاموا بتجريب دواء جديد على المرضى، وأن يجمع عليه كافة الأطباء الماهرين بالطب بأنه صالح لذلك حتى تبرأ ذمتهم إذا ما مات المريض أو تعرض لمكروه، فالصناعة الطبية في نظره تقتضي دراسة طويلة لعلم الطب وتجربة واسعة، وإلمام كبير بعلوم الأوائل حتى يصنف صاحبها في مصاف العالمين بالطب حقيقة.[872]

ومن ثم فقد انتشر الطب العامي في المغرب الأوسط على حساب الطب الذي يبنى على أسس علمية صحيحة، وذلك بالرغم من مساهمة الأطباء الأندلسيين في نشر العلوم الطبية داخل هذا المجال، مما يجعلنا نقرأ أن جهود الأندلسيين في تدريس علم الطب وممارسته لم تأت أكلها على خلاف العلوم الأخرى والصنائع والتي

[867]- ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، 3 / 69،

[868]- عبد الباسط: **الروض الباسم**، ص 44 - 45.

[869]- الغبريني: **عنوان الدارية**، ص 102.

[870]- **تحفة الناظر وغنية الذاكر**، ص 84 – 83.

[871]- **المصدر نفسه**، ص 86- 88.

[872]- **المصدر نفسه**، ص 84،88.

بات التأثير الأندلسي فيها جليا، فهل توجه أفراد مجتمع المغرب الأوسط للعلاج عند من يدعون علم الطب يعبر عن عدم الثقة في هؤلاء أو بالأحرى يعبر عن رفضهم للآخر؟

3- التأليف الطبي في المغرب الأوسط: دراسة وتقييم

وكغيره من العلوم النقلية أو العقلية حضي علم الطب بالمغرب الأوسط أيضا بجانب من الاهتمام، والذي تجلى بوضوح من خلال التدوين والتأليف لهذا العلم من طرف بعض الأطباء والصيادلة، الذين اهتموا بوضع مصنفات طبية لإزالة العتمة عن هذا العلم، والجدول التالي يوضح أهم هذه التآليف التي سجلتها لنا المصادر وهي كما يأتي:

جدول 07: التآليف الطبية لأطباء المغرب الأوسط

اسم الطبيب	مؤلفاته في الطب	المصدر / المرجع
عبد الرحمن بن علي بن أبي دلال	رجز ابن سينا في الطب	الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 205.
محمد بن أحمد بن محمد الأموي	له رجز نظم فيه بعض الأدوية المفردة	الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 102.
علي بن مؤمن الأنصاري (بن عتيق)	له مصنفات في الطب لم يذكر اسمها	المراكشي: **الذيل والتكملة**، 264/1/5 .
أبو العباس أحمد بن عبد السلام الشريف الحسني المغلي.	تأليف في الطب لم يذكر اسمه	مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية ضمن مجموع، رقم 1767.
ابن قنفذ القسنطيني	أنس الحبيب عن عجز الطبيب	ابن قنفذ: **أنس الفقير** ، ص 12.
إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني	قائمة مصطلحات صيدلية مرتبة على حروف المعجم	مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية ضمن مجموع رقم: 1777، سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**،1/ 105- 106.
محمد بن يوسف السنوسي	تفسير ما تضمنته كلمات خير البرية من غامض الصنعة الطبية	الزغبي: **أطباء من التاريخ** 327/2، فيلالي: **تلمسان**، 2 / 207
	شرح حديث: المعدة بيت الداء	ابن حمادوش: **لسان المقال**، ص 121. أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، 2 / 433.
	ورجز ابن البنا في الطب	ابن مخلوف: **شجرة النور**، ص 266.

على خلاف ما اشتهرت به العلوم الأخرى النقلية أو العقلية من إنتاج غزير في مجال التأليف خصوصا في ذلك الفقه والتصوف، لم يحظ علم الطب في المغرب الأوسط بالتأليف فيه،[873] وذلك يفسر من دون شك قلة عناية أغلب أطباء بالجانب النظري وهو تدوين هذا العلم، واكتفائهم بالجانب التطبيقي وهو العلاج والتطبيب فقط.

[873]- ابن خلدون: **التعريف بابن خلدون**، ص 70، أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**،1 / 103.

وتختلف هذه التصانيف الطبية من حيث اختصاصها؛ فهناك من ألف في الطب وهناك من ألف في الصيدلة، و لم يكن أطباء المغرب الأوسط بمعزل عن العناية بالطب النبوي، فقد ألف فيه محمد بن يوسف السنوسي كتابا يشرح فيه حديث الرسول ρ كما هو موضح في الجدول أعلاه.

ومن الواضح جدا أن أطباء المغرب الأوسط قد تأثروا كثيرا بالطبيب الشهير ابن سينا، مما جعلهم يؤلفون كتبا يشرحون فيها علم هذا الطبيب، كما لا يفوتنا هنا أن نذكر أن مصادر الطب العربي كانت متوفرة بالمغرب الأوسط، وهي مقررة ضمن برنامج تدريس علم الطب في الحواضر كتلمسان، ولا سيما في ذلك تآليف ابن رشد وابن سينا وابن البيطار.[874]

وباستثناء ما كتبه إبراهيم بن أحمد الثغري في معجمه الصيدلي حول بعض النباتات الطبية، لم يكن التأليف في علم الأعشاب من اهتمامات أطباء المغرب الأوسط، بالرغم من أن هذا العلم يعد أيضا جزءً لا يتجزأ من علم الطب، وبالرغم أيضا من احتواء الغطاء النباتي للمغرب الأوسط على الكثير من الأعشاب الطبية.

ومن المؤسف جدا أن المصادر من جهتها لم تذكر لنا أسماء بعض المصنفات الطبية التي ألفت من قبل أطباء المغرب الأوسط، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر المصنفات التي كتبها علي بن عتيق بن مؤمن الأنصاري، والغريب في الأمر أيضا أن مؤلف الطبيب أبو العباس أحمد الشريف الحسني في الطب لم يذكر اسمه، فربما ذلك كان إهمالا من ناسخ المخطوط للنسخة المتوفرة لدينا.

وهذا عن الجانب النظري من العلوم الطبية في المغرب الأوسط فماذا عن الجانب التطبيقي أو واقع الممارسة الطبية داخل هذا المجال؟

4- الممارسة الطبية في المغرب الأوسط

من المعلوم أن درجة تقدم علم الطب وتحسن الأوضاع الصحية لأي مجتمع من المجتمعات، يقاس أساسا بمدى كفاءة أطبائه وقدرتهم على مداواة العديد من الأمراض والأوبئة، ونظرا لأن مجتمع المغرب الأوسط كغيره من المجتمعات الوسيطية قد عانى أفراده من أمراض عديدة وأوبئة شتّى، فإن طرائق الاستشفاء الطبي وأساليبه قد تعددت، ولعل ما عزز الممارسة الطبية داخل هذا المجتمع احتواء الغطاء النباتي للمغرب الأوسط على العديد من الأعشاب الطبية المهمة،[875] والتي تدخل في استحضار العديد من الأدوية المركبة والبسيطة.

وقد جعلت هذه الثروة النباتية من المغرب الأوسط منطقة مهمة يجلب منها مختلف النباتات الطبية التي تدخل في تركيب مختلف المستحضرات الصيدلانية، فقد ذكر ابن خير الإشبيلي أن أجود النباتات الطبية كانت تتواجد في بجاية وتاهرت وتلمسان، والتي يجلب الكثير منها إلى الأندلس.[876]

ومن جهة أخرى يشير ابن خير الإشبيلي وكذا ابن البيطار في غير موضع، إلى أن كثيرا من النباتات الطبية في المغرب الأوسط كانت تتسمى بغير أسمائها الحقيقية المعروفة بها في باقي المناطق، فبمجرد أن تكون النبتة

---

[874]– أبو القاسم سعد الله: **المرجع السابق**، 2 / 433.

[875]– أنظر: **الملحق 02**.

[876]– **عمدة الطبيب في معرفة النبات**، 2 / 699، 702 - 703.

شبيهة بنبتة أخرى يسمونها مثلها، الأمر الذي أحدث خلطا كبيرا بين مختلف أصناف النباتات، ولا شك أن ذلك يدل على عدم الدراية والإطلاع الكبير لأطباء المغرب الأوسط بعلم النبات، والذي هو أيضا جزءً لا يتجزأ من علم الطب والصيدلة في تلك الفترة.

- الطب الوقائي في المغرب الأوسط

اتخذ أطباء المغرب الأوسط على غرار أطباء الغرب الإسلامي من الطب الوقائي قاعدة لحفظ صحة الناس قبل وقوع المرض، فإضافة إلى حثهم على النظافة والمحافظة على صحة الهواء من التلوث، نصح هؤلاء الأطباء بضرورة إتباع نظام غذائي يلاءم كل فصل من فصول السنة ويكون موافقا لأعمار الناس وأجناسهم؛[877] وذلك تجنبا للوقوع في أمراض مختلفة، والتي تكون أهم أسبابها جهل الناس بالثقافة الصحية.

ففصل الربيع مثلا وهو الفصل الذي تكثر فيه الأمراض، رأى الأطباء فيه ضرورة الالتزام بأغذية خفيفة معتدلة كالحنطة ولحم الجدي ولحم المعز الصغير ولحم الدجاج والبيض، واجتناب أكل الأغذية الرطبة كاللبن والحوت وما هو مالح كالزيتون والحيتان المالحة، والالتزام في هذا الفصل أيضا بشم الروائح العطرة كالزعفران والعود والعنبر والمسك والمصطكى.

ويعتبر فصل الربيع في نظر هؤلاء الأطباء هو الفصل الملائم لمداواة الناس بالفصد،[878] والذي يقول محمد بن يوسف السنوسي بأنه أفضل من الحجامة في المغرب الأوسط على عكس بلاد الحجاز التي تكون فيها الحجامة أفضل من الفصد،[879] وحثهم على استفراغ البدن باستخدام بعض المسهلات أهمها الصبر الطيب بعد أن يضاف إليه بعض المركبات، ويكون ذلك مرة في الشهر أو مرتين.[880]

أما فصل الصيف وهو فصل تكثر فيه الأمراض أيضا، فقد رأى الأطباء ضرورة اجتناب الأغذية السريعة التحول، فنصحوا بعدم تناول الألبان إلا لبن المعز والبقر لصلاحيتها في كل زمان، واجتناب ما هو مالح من الأغذية كالزيتون والحيتان المالحة، واجتناب أكل البصل والثوم بكثرة والفجل والحمص، ونصحوا بضرورة أكل الخيار المقشر والقثاء وعيون البقر وأكل العدس بعد زوال قشره، وينصح في هذا الفصل أيضا بشرب بعض الأشربة المفيدة كشراب السكنجبين بالعسل المصفى؛ بعد حله في الماء ويكون ذلك على الفطر، وشرب الصندل والكافور والطين الأرميني، ويكون استفراغ البدن في هذا الفصل أيضا ببعض المسهلات أهمها التمر الهندي.[881]

أما فصل الخريف فنصح الأطباء بضرورة اجتناب المداواة بالفصد والحجامة، لأن ذلك يضر بالناس كثيرا،

---

[877] – سعيد بنحمادة : **الماء والإنسان في الأندلس**، ص 223.

[878] – أبو العباس المغيلي: **تأليف في الطب**، ورقة 1 أ .

[879]– **تفسير ما تضمنته كلمات خير البرية من غامض أسرار الصناعة الطبية**، تحقيق هيا محمد الدوسي وعبد القادر أحمد عبد القادر، ط1، الكويت: دار ابن النديم، 1419هـ – 1999م، ص 77.

[880]– أبو العباس المغيلي: **تأليف في الطب**، ورقة 1 أ.

[881] **المصدر نفسه**، ورقة 1 ب – 2 أ.

كما نصحوا بتناول الأغذية الغالب عليها الحرارة والرطوبة كالسمن الممزوج بالعسل وشرب الألبان، وأكل اللحم المعسل والفواكه الناضجة كالتين والعنب، ويجتنب فيه أكل الأرانب والباذنجان والكرنب، وما كان باردا كالطبيخ والبقل البارد، كما ينصح في هذا الفصل استفراغ البدن بمسهلات كصبر الطيب أيضا مضاف إليه بعض المركبات مرة أو مرتين في الشهر، وضرورة شم كل زهر طيب كالأترج والتفاح والسفرجل والخوخ والياسمين والبنفسج.[882]

في حين ينصح في فصل الشتاء بتناول الأغذية اليابسة كالحبوب مثل العدس والجلبان، وكذلك اللحوم والدجاج وبعض الطيور، ويجتنب فيه الإكثار من أكل الثوم وعدم شرب الألبان إلا لبن المعز والبقر، وشم الطيوب الحارة كالمسك والعنبر ودخان العود والرياحين الحارة كالقمرون والنرجس والبابونج والسوسن والياسمين، ويمنع فيه استفراغ البدن إلا للضرورة القصوى عندئذ يكون الإسهال مثلما هو مستعمل في زمان الخريف.[883]

و لم تكن هذه التدابير الوقائية تختص بالغذاء فقط وإنما شملت الملبس أيضا؛ والذي يتغير تبعا لفصول السنة فكل فصل يتميز بلباسه الخاص، ففصل الربيع مثلا ينصح فيه ارتداء ملابس تكون مصنوعة برقيق الصوف، وفي فصل الصيف تكون من الكتان، وفي الخريف ينصح بلبس الطرحات الملونة بالأزرق خصوصا، وفي الشتاء تكون الملابس مصنوعة من الفراء والقماش المبطن حتى تكون دافئة.[884]

وهذا عموما ما جاء حول الطب الوقائي عند أطباء المغرب الأوسط، أما طرائق العلاج فهي مختلفة، وتختلف بحسب طبيعة المرض ونوعه؛ فما هي مختلف طرائق العلاج التي اتبعها الأطباء في العلاج ؟.

ـ طرق علاج مختلف الأوبئة والأمراض[885] في المغرب الأوسط

لقد سبق وأن أشرنا إلى أن أطباء المغرب الأوسط قد اعتمدوا في ممارستهم الطبية على علوم أطباء اليونـــان أمثال جالينوس، وعلى الأطباء المسلمين الأوائل أمثال ابن سينا، ويتضح ذلك جليا في مؤلفاهم الطبية فغالبا ما يسندون بعض الأقوال في الطب إلى هؤلاء.

فإضافة إلى الأدوية المركبة اعتمدت طرق الإشفاء الطبي لدى أطباء المغرب الأوسط على بعض الأغذية البسيطة، والمتوفرة لدى غالبية الناس، والتي تحتوي على فوائد مهمة ونافعة للعديد من الأمراض، لكن لا سبيل للإنكار بأن بعض الأغذية تكون ضارة للجسم، والإدمان عليها يولد أمراضا عديدة، كما أشار بعض الأطباء، فلحوم البقر على سبيل المثال لا الحصر تزيد من حمى الربيع، والإدمان عليها يولد القوبا والسرطان والجذام، خصوصا في ذلك لحوم البقر التي تكون هزيلة،[886] وغيرها في ذلك من الأغذية التي قد تضر بالإنسان أكثر مما

[882]- **المصدر نفسه**، ورقة 2 أ – 2 ب.

[883]- **المصدر نفسه**.

[884]- أبو العباس المغيلي: **تأليف في الطب**، ورقة 2 ب.

[885] – **أنظر الملحق 03** .

[886]- ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، نسخة مصورة عن مخطوط في الخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع رقم 515، ورقة 46 أ.

تنفعه.

وبالرغم من أن الأطباء قد تمكنوا من وضع وصفات طبية لأمراض وبائية وغير وبائية، إلا أننا لا نعلم مدى نجاعة هذه الأدوية، كما لا نعلم مدى تجاوز هذه الوصفات حدود ما هو مكتوب لتجرب على أرض الواقع.

أما عن طرائق علاج مختلف الأوبئة؛ فقد كانت مسألة مستعصية في العالم الإسلامي عموما في العصر الوسيط -وحتى في أوربا- ولعل ذلك ما يفسر كثرة الخسائر البشرية التي تخلفها تلك الأوبئة؛ ونظرا لأن الأطباء المسلمين قد حددوا أسباب هذه الأوبئة في فساد الهواء والغذاء والمياه فإن محاولات العلاج كانت كلها منصبة على إصلاح هذه العناصر الثلاثة.

فإصلاح الأهوية يكون بإصلاح هواء البيوت باستعمال الطيوب الباردة والرياحين والفواكه،[887] ذلك بعد تنظيفه من القاذورات وكنسه ثم رشه بالخل وماء الورد أو بماء العدس والخل والطين الأرميني، ويفرش كذلك بالآس والنيلوفر والطرفا، ويبخر بالصندل والعرعر والسنداب وقرن الماعز والعود والميعة واللبان الذكر، ويعلق فيه الياقوت والنارنج والبصل والنعناع والتفاح، وتفتح فيه نافذة للهواء السالم من الوباء،[888] وينصح الأطباء أيضا في أزمنة الوباء بشم الروائح الطيبة مثل الورد والكافور والصندل،[889] ورائحة الطين الأرميني المختوم بالأسر والأترج والخل ورائحة العنبر والقطران والشمع الخام والرياحين.[890]

وعن إصلاح الهواء عموما فقد روي عن العرب الذين يجلبون العبيد والجواري من بلاد السودان أنهم كانوا إذا وقع الطاعون في أرضهم فإنهم يجمعون الحلا والعظام والأظلاف والقرون والحطب ويوقدونها على رؤوس الجبال وفي بطون الأودية وينشرون رمادها ويجلسون تحت ريحها ليغيروا ما فسد من الهواء ويستمرون في فعل ذلك مدة أيام الوباء.[891]

أما عن إصلاح الأغذية؛ فقد وضع الأطباء في أزمنة الوباء حمية غذائية خاصة للمرضى والأصحاء على حد سواء، وذلك بأكل الأغذية المعتدلة المائلة إلى البرودة والجافة كالعدس والفول والبقول والفواكه البادرة الجافة،[892] والإكثار أيضا من أكل خبز الحنطة الجيد الاختمار والمضاف إليه خل عندما يعجن، كما أن أكل الثوم والرمان المز (الذي يميل بين الحموضة والحلاوة) مفيد جدا للأمراض الوبائية،[893] وفي مقابل ذلك منع

---

[887]- ابن الخطيب: **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، ص 38،نفسه. **عمل من طب لمن حب**، ص 99، مجهول: **رسالة في معالجة الوباء قبل نزوله**، مخطوط مكتبة البلدية بقرطبة، رقم: R 28439، نسخة مصورة عن موقع يوسف زيدان للتراث والمخطوطات، مخطوط يتكون من 12 ورقة، ورقة 3 ب.

[888]- محمد الرصاع: **الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية**، ص 115، مجهول: **المصدر السابق**، ورقة 3 ب، التنبكتي: **شفاء السقم**، ورقة 177 ب، الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص 333.

[889]- ابن سينا: **القانون في الطب**، ص 2575.

[890]- ابن البيطار: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، 3/91-92، 151، 183، 236، التنبكتي: **المصدر السابق**، ورقة 177 ب.

[891]- التنبكتي: **المصدر السابق**، ورقة 177 ب.

[892]- ابن الخطيب: **مقنعة السائل**، ص 38، الأنطاكي: **المصدر السابق**، ص 333.

[893]- ابن زهر: **التيسير في المداواة والتدبير**، ص 453، 456.

الأطباء في أزمنة الوباء من أكل اللحوم والحلويات والألبان بجميع أنواعها والمرق وجميع الفواكه الرطبة.[894]

وفي أزمنة الوباء ينصح الأطباء ببعض الأشربة المفيدة مثل شراب الطين الأرميني وشراب البنفسج وشراب السكنجبين،[895] الذي يتكون من الخل والعسل والشراب الحصرمي، والإكثار من أكل الكزبرة خضراء أو يابسة والحصرم (العنب الأخضر واليابس) والليمون الدقيق وحامض الأترج وقشرها وحبها لأن كل ذلك ينفع من مضرة المياه المتلوثة، مع تجنب أكل الحوت لأنه يساعد على مضرة المياه الرديئة للإنسان.[896]

ومن بين التدابير الإصلاحية أيضا ما نصح به الأطباء مرضى الطاعون والأمراض الوبائية الأخرى على العموم بتجنب الرياضة والحمام وكل ما يجهد بدن المريض لأن عليهم السكون والهدوء حتى لا تهيج الأخلاط، فأبدان هؤلاء المرضى تحتوي على فضلات رديئة فتثيرها الرياضة والحمام وتخلطها بالكيموس[897] الجيد، ويكون ذلك خطرا عظيما على جسم المريض.[898]

وقد كان بعض الأطباء يعرفون من به رائحة وباء بتقنيات بسيطة؛ كأن يضعوا بيضة أو بيضتين قرب مكان نوم الشخص المشكوك فيه مدة 24 ساعة، فإذا فسدت فإنهم يجزمون بأن هذا الشخص مريض بالوباء.[899]

ومن المؤسف أننا لا نعلم ما إذا كان أطباء المغرب الأوسط قد اتبعوا الطرق نفسها على الأقل للتخفيف من حدة بعض الأمراض على الناس؛ لكن ثمة إشارة مهمة أفادنا بها الوزان تشير إلى مرض الطاعون الذي كان "يذهب بالعدد العديد من الناس لأنه لا يهتم به أحد، ولا يستعمل أي دواء باستثناء التمسح بالتراب الأرميني حول دمل الطاعون"[900] على حد تعبيره، مما يقودنا إلى القول أن جهود هؤلاء الأطباء في ميدان علم الأوبئة كانت ضئيلة، و لم تحقق الهدف المنشود، وظل هذا المجال يكتسيه الكثير من الغموض ربما لقلة درايتهم بمثل هذه الأمراض، وربما لاقتناعهم من جهة أخرى بأنها أمراض ليست كسائر الأمراض قد تكون مجهولة الأسباب، وبالتالي وقف الطب في تلك الفترة عاجزا أمام مداواتها، خصوصا إذا اقتنعوا بفكرة روحانية أسبابها وبفكرة إحالة الناس للمداواة بالطب الشرعي والشعبي عندئذ ينحصر دورهم لصالح الآخر هو الراقي أو الصالح التقي لمداواة مثل هذه الأمراض المستعصية.

[894]- **المصدر نفسه**، ص 453، مجهول: **المصدر السابق**، ورقة 3 ب، التنبكتي: **المصدر السابق**، ورقة 177 ب، الأنطاكي: **المصدر السابق**، ص 333.

[895] مجهول: **رسالة في معالجة الوباء قبل نزوله**، ورقة 3 ب.

[896]- ابن زهر: **التيسير في المداواة والتدبير**، ص 456، التنبكتي: **شفاء السقم**، ورقة 177 ب .

[897]- **الكيموس**: كلمة يونانية تعني الخلط، أو نواتج الطعام بعد هضمه من طرف المعدة، أنظر: ابن خلدون: **المقدمة**، ص 385.

[898]- ابن قيم الجوزية: **الطب النبوي**، ص 43.

[899]- الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص 333.

[900]- **وصف إفريقيا**، 1/ 85.

ب- الولي في المغرب الأوسط وأزمة المرض والوباء

في ظل الأزمة الصحية التي كان يعيشها مجتمع المغرب الأوسط؛ ونظرا لأن أفراده كانوا دائما عرضة للكثير من الأوبئة والأمراض -كما سبق وأن رأينا - ، وفي ظل انحسار دور الطبيب الذي كان يقف عاجزا في كثير من الأحيان عن مداواة العديد من الحالات المرضية المزمنة، أو حتى درء خطر بعض الأوبئة وخصوصا منها الطواعين، برز دور الأولياء داخل هذا المجتمع؛ والذي تجلى بوضوح من خلال بعض الطقوس الإشفائية التي يمارسونها، والتي لا يتأتى لأحد القيام بها إلا لمن يحمل صفة الولي الكريزماتي الذي يمارس صلاحيات الولاية في أوسع نطاق وعلى أبعد حدودها في المجتمع آنذاك.

فما هي أشكال وأساليب الممارسة الإشفائية عند هؤلاء الأولياء والمتصوفة؟ ما مدى نجاعة لطقوسهم في علاج مختلف الأمراض والأوبئة؟، ما مكانة هذا النوع من العلاج في نفوس أفراد المجتمع؟ وما مدى تجاوب الناس معه؟

1- أشكال وأساليب العلاج عند الأولياء

إن الخطاب المنقبي وبصفته خطابا موجها لتمجيد مجتمع الأولياء، يطرح لنا في مثل هذه الحالات البديل الفوري لحل أزمة المرض، من خلال إبراز دور الولي في علاج مختلف الأمراض بنمط مغاير عما ينتهجه الطبيب، فتحل الروح هنا محل المادة، أي بالأحرى بركة الولي وكرامته بدل الدواء المركب الذي يصفه الطبيب للمرضى في إطار عملية التطبيب.

إن نمط العلاج عند هؤلاء الأولياء يكون لا محالة ذو طابع ديني، لأن الشفاء هنا يكون بيد الله سبحانه وتعالى، وما كان دور الأولياء إلا سببا في ذلك بفضل تقواهم وورعهم، فتعددت أساليب وأنماط العلاج عندهم فهي كما يلي:

- الرقية[901]

لقد انتهج أولياء المغرب الأوسط أسلوب العلاج بالرقى؛ بصفتها علاجا شرعيا يقوم أساسا على الدعاء وآيات وسور من القرآن الكريم،[902] فقد ألف عيسى بن سلامة البسكري كتابا في فضل سور القرآن الكريم سماه "**اللوامع والأسرار في منافع الأخبار**"،[903] وجعل جزءً منه نماذج لرقى نافعة لمختلف الأمراض، والأهم من ذلك أن هذا المؤلف خلط بين هذه الأمور وبين الطب فغالبا ما يضع بعد العلاج الروحاني وصفات طبية لعلاج هذه الأمراض، مما يجعل كتابه يكتسي طابعا علميا متميزا.

وتستخدم الرقية كعلاج للحالات المرضية المزمنة والميؤوس من علاجها والعاهات المستديمة، وعلاج الصرع والجن والعين، فقد كان ابن مرزوق في صغره كثير الأمراض بالدماميل والأورام الصعبة وكان يعجز

901- **الرقية**: جمع رقى، وهي العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك، ابن منظور: **لسان العرب**، 332/14.

902- ابن الحاج التلمساني: **المدخل**، ط2، بيروت: دار الكتاب العربي، 1972م، 4 / 123.

903- مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، ضمن مجموع تحت رقم 1776.

الأطباء عن معالجته بالفصد، لكن رقى والده كانت ناجعة في امتثاله للشفاء من ذلك،[904] وقد كان أبو العلاء المديوني (تــ 735 هـــ/1334م) "من المخصوصين بالكشف والرقى لعلاج المبرئات من جميع الداء لأولى العاهات"،[905] كما أن أحمد بن إدريس البجائي كان يداوي مرضاه بالرقية، فقد مر بمصاب ومعه بعض الطلبة فقرأ في أذنه الفاتحة فبرأ، وفي يوم آخر مر الطالب على مصاب فقرأ الفاتحة في أذنه فتكلم الجان معه فقال: "هذه الفاتحة وأين قلب أحمد بن إدريس"؛[906] دلالة على أن أحمد بن إدريس أصبح معروفا في أواسط الجن نظرا لتقواه وورعه ورقاه الناجعة لمداواة مثل هذه الأمراض .

و لم تكن الرقية مخصوصة فقط في علاج مس الجن، إنما تستعمل لعلاج العديد من الأمراض، فقد كانت المرأة التي لا تلد يرقى لها في ماء المطر، بعد أن يوضع في إناء جديد وتقرأ عليه الفاتحة وآية الكرسي وقل هو الله أحد والمعوذتين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبع مرات، وتشربه سبع ليالي متتالية فتحمل.[907]

وقد كان الولي علي بن موسى (من أهل القرن 9 هـــ/15م) من بني منجلات من أحواز بجاية مخصوصا بالرقية، فقد رقى لأحد معاصريه وهو الشيخ يحيى العيدلي عكازا، فأصبح هذا الأخير يرقي الناس بهذا العكاز، فتظهر آثار الشفاء عليهم، وقد زار الولي علي بن موسى منطقة بني يمّل في وادي بجاية، وأتوا له بطفل بلغ وقت المشي وتجاوزه و لم يمشي فصار مقعدا فرقاه فبرء من حينه.[908]

وكانت الرقية تستعمل أيضا كطريقة لعلاج بعض الأمراض الوبائية والأمراض المزمنة، فقد عرف أولياء المغرب الأوسط رقية لمرض الرمد[909] مأخوذة عن الرسول ρ، بقراءة ما يلي: بسم الله الرحمن الرحيم "نور الرحمن يطفئ حر النار"، وقوله Ψ: ↓ ⇧⑨⬧◑⮝♑ ❼♐✖ ❁⬥✡⬈✍ ⇧♊♉♓✌ ⌨♙⬧✃⬂▦☒⬊ ☒⌂⬉❷❁⏲⧫⌨⬧▫ ☒⌂⧫⬈✎✍⬧⮌♉⬊ ◰⌨✡⧫⬉ ✍⧫☾⬂▦⧫⌖⬧▤⬧▫ ✃☒⓿⏲◰♎ ☎✃❑⬅⌨◰♎⬂❶✍✃ ↓ :Ψ وقوله [ق: 22] ↑ ⭍♒♒⮋ ⌀⑨③♉⑨⧫■ ⧫⮚⬀❑⧫⓿⬂♑✍✃ ❼♐🗁❐🕮 ♉○⇧♉⧫❐ ⎙❼■✍⧫⬉ ⬅■⮕◑⬂♑❐♙⬧▫ ✃☒⓿⏲◰♎ ⌀⭍⏲⓿♉☺⬧◑♐✍ ↓❻❑⬅☼ ✦✎✍✃ ↓ : Ψ وقوله [يوسف: 93]، ↑ ⭍⌀⮽⮋ .. ✃☾❸❷⭍⏲⧫✍ ♉♗⬦♙⧫③ ⮋♏⭃⬈▤♐✍ ✦✎✍✃⧫❐ [Ψ إلى قوله].... ⎙ ⭍⮟⬀❻☜❀✍✃⧫❐ ⭍✞⏲⧫❐⏲◰☺○○♑✍✃ ★☒⌀⬄⬈☮⬊⧫⬛♐⑩⮚⌀ ⭍⮽♐⮋ ↑ [النور، الآية 35]

وقد عرفوا رقية أخرى لمرض الجرب وهو من الأمراض الوبائية أيضا، وقد ذكر عيسى بن سلامة البسكري أن هذه الرقية مجربة وفعالة، حيث يأخذ الكبريت أو التربة ويخلطها بالزيت ويطلى به جميع الجسد يوم السبت

---

[904]– ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 231.

[905]– ابن مريم: **البستان**، ص 70.

[906]– البسكري: **اللوامع والأسرار في منافع الأخبار**، ورقة 59 أ.

[907]– **المصدر نفسه**، ورقة 57 أ.

[908]– الورثلاني الحسين بن محمد: **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، ط 2، فرانكفورت– ألمانيا : منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، 1 / 14.

[909]– البسكري: **المصدر السابق**، ورقة 52 ب.

وليلته وهذا ما يقرأ عليه: ↓ ❐◆⑨⑦➋⬧⑨ ⬧♓◆⬉ ⑦⧫⬅♑□◆★⬄⬨◆❑ ⬧⬅❑⑩⬧ ⬃ⵄ⬬❑◆♏ ⬅⑩⬧⬝❑◆⬉ ⑦⬤◆⬉

❼☒× ⧴♍❐⬅⑨⬆➔◆③ ⬀❶☒⑩ ⬛❷⬄⬧◆⬧⬀⬧⬧⬉ ■❐◆❸⬧⬧⬥◆■ ⇧⬧◆☼⬧⬧

◆⬸⑦❑◆③ ⑦⬤⬅♑⬅☼⬧◆⬧❶⬧❍ ⬄⬧☒♑⑩⬧⬧⬧⬧ ⬀❶☒⑩ ⬧⬧⑦⬧❍❍⬧⬧⬉

•• • ⧴♍❑⬅⬧☒⬧⬄❍❐④ •• ◆⬸⑦❑◆③◆❑ ⬧✡⬉▪❷⬈⬆ ⑦⬤☒♑⬧⬧⑦⬧⬧⬨

⬧⬧⬧⬧❶⬧♑☒⬄ ⬧ .... ⬧⬧⬧⬧⬧ ↑ [الأعراف: 163] ثلاثة مرات، ثم يقال رقيتك بألف لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وبتوراة موسى والدة مريم عيسى [كلام غير مفهوم] غير بقدرة الواحد؛ ثم قوله Ψ : ↓

⑦⬤⬧♎⬛❷⬧◆③⬧⑩ ♊⬧⬧ ☎⬧❑⬉♉◆❷⬧⌘ ◆×⬄⬧⬧⬆⬧⬧⬧ ❼■⬧☒⑩ ◆❷⬧⬧ ⑦⬤⬧⬧❑⬧

✦⬧⬧⬧ ⬧⬧⬅♑⬧⬧ ◆⬧⬧⬧⑩⬧ ⬧⬤⑦❑⬧⬧⬧⬧⬧⬧ ◆❻⬧❶◆■ ⬊⬧❑⬈⬧⬆⬧ ⑦⬤➔♎◆❑

⬧❑⬉➔❑⬧☎ ⬧➔⬤▪ ⬄ ⬧❑⬄⬧❶◆⑩⬅♑⬧ ⬧ [ثلاثا]... ⬧⬧⬧⬧⬧ ↑ إلى لآخر سورة البقرة ويكرر الكل سبع مرات".[910]

وثمة رقية خاصة ومن يرقيها لا يصيبه الطاعون ولا الجدري ولا برد ولا فالج ولا حكة، كما أنهـــا نافعـــة كثيرا لوجع الأسنان ووجع الأذنين، حيث يأخذ من ماء المطر ويوضع في إناء وتقرأ عليه الفاتحة سبعين مرة، ثم يشرب من ذلك الماء سبعة أيام متتالية على الريق وعند العشاء، ويدعي ابن سلامة أنها كانت معروفـــة عنـــد الرسول ρ.[911]

فإضافة إلى اعتقاد أولياء المغرب الأوسط بأن سبب الطاعون هو وخز من الجان، فقد كانوا يعتقدون أيضا أن باقي الأوبئة التي تشمل عامة الناس يكون سببها الجن أيضا، وهذا ما يتضح لنا من خلال ما ذكره القلعـــي عن أحد الأولياء يدعى "أبا وجلوط" ويعرف بـــ "أبي تابرنوست"، أنه حينما مرض قومه بالوباء قام باستدعاء جماعة من الجن لشيخه "أبي محمد عبد الخالق بن ياسين"، وطلب من هذه الجماعة أن يظهروا أحدا منهم حتى يحاوروه، فقال أبو وجلوط لشيخه أبي محمد "إن قوم هذا الجن (الجن الذي ظهر لهما) أضرّوا بأهل بلدنا فكلهم مرضى، فقال (الجن): ما أضررنا أحد وما مرضوا إلا من تغير هواء بلدهم".[912]

كان الأولياء يعتقدون أيضا أن أسباب الأمراض جميعا هو إذاية الجن للإنسان، لذلك اتخذ هؤلاء من الرقية أسلوبا أساسيا لعلاج الكثير من الأمراض، وكان الراقي في مجتمع المغرب الأوسط يتمتع بشخصية كريزماتية، كما كان من حق من يداوي بالرقية أن يأخذ على ذلك أجرة دون أن تحدد بقدر معلوم، شرط أن تكون هذه الرقية في نظر الفقهاء رقية شرعية، يذكر فيها أسماء الله أو شيئا من القرآن،[913] وتكون الرقية في عدة أشـــكال هي:

ـ التفل

ويعد من الأساليب الإشفائية المعتمدة لدى أولياء المغرب الأوسط، والتي تندرج أيضا ضمن الرقى؛ علـــى اعتبار أن ريق الولي يشكل مصدر بركة وسبب للشفاء من مختلف الأمراض، فقد أوردت لنا المصادر بعـــض

---

[910]– البسكري: **اللوامع والأسرار في منافع الأخبار**، ورقة 56ب.

[911]– **المصدر نفسه**، ورقة 63 أ.

[912]– **بستان الأزهار**، ورقة 89 أ.

[913]– ابن مرزوق الحفيد: **نوازل**، ورقة 11 أ، الونشريسي: **المعيار المعرب**، 11 / 29.

النماذج من ذلك، فقد خرجت "لعبد الرحمن بن تومرت" أكلة في خذه و لم يبرأ منها لمدة طويلة، حتى لقـي الشيخ أبا الحسن أبركان فشاكا له أمره، فنظر الشيخ في خذه فبصق له من ريقه في كفه دون أن يقرأ شـيئا، وأمره أن يضعه عليها فبرأ، فهذا التفل غير المصحوب بقراءة شيء من القرآن أو الدعاء يرمز إلى أن ريق الولي وحده فيه بركة وسبب للشفاء، وهي كرامة خصها الله Ψ بهم لتقواهم وورعهم كما تصور المصادر المنقبية.

وثمة رواية أخرى أوردها لنا القلعي ومفادها أن تفل الولي أحمد بن يوسف الراشدي في فم رجل أبطلـت إصابته لأولاده بالعين وأزالت عنه هذه الآفة؛ وفي الحقيقة لم تكن العين مرضا لمن يتصف بها، وإنما آفة تـضرّ الناس من حوله، فقد كان الفقهاء يأمرون بعزل العائن الذي يصيب جيرانه في أموالهم ومواشيهم ويهلكهـم ويمرضهم عن المجتمع وتباع داره ويُرحّل حتى لا يضرّ الناس بها.[914]

- اللمس غير المصحوب بتفل

لقد كان اللمس أيضا يعد من الأساليب الإشفائية المعروفة لدى أولياء المغرب الأوسط، والتي تكـون في الغالب مصاحبة للرقية؛ فقد أتى رجلا إلى الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي يشكوا عناء زوجته من داء عظيم أصاب جسدها، فأصرّ الزوج أن يمس الشيخ على الداء بيده فلم يرد الشيخ ذلك، فحلفه الزوج فقبل لأن المرأة أصبحت في نظره مثل الجماد، فمسح بيده على الداء فعافاها الله منه، فلما انصرفت بقية رائحة هذا الداء في يد الشيخ أحمد بن يوسف مدة طويلة،[915] والذي يحتمل أن يكون هنا مرض الجذام الذي تكون رائحته قوية.

وتفيد هذه الرواية أن هذا الولي كان حذرا جدا في تعامله مع النساء، مع العلم أن مداواة النساء ولمـسهن قد وقع فيه جدل كبير في الغرب الإسلامي، فقد ذكر لنا القلعي رد أبي يعزي على من انتقده وأعاب عليـه مداواة النساء ولمسهن فقال: "يجيزون ذلك للطبيب ولو كان كافرا وكيف لا يجوز لمن يطب القلوب، وهـذا إذا ثبتت ولاية الولي وصلاحه".[916]

– الدعاء:

وإن كان الدعاء يعد من أكثر الطقوس المرتبطة بظاهرة الولاية،[917] فهو أيضا يعد من أبرز أساليب العلاج الروحاني الذي انتهجه أولياء المغرب الأوسط، على اعتبار أن دعوتهم مستجابة من الله Ψ لتقواهم وورعهم، فقد دعى الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي لإمرأة مريضة بالداء العضال فشفيت بإذن الله، وعادت مع زوجها سالمة كأن لم يصيبها شيء،[918] وقد دعى لإمرأة أخرى كان لا يعيش لها أولادها فاستجاب الله له وشـفيت المرأة من مرضها وعاش لها أبناءها،[919] وقد مرض والد بن مرزوق وأصابه شللا فكان خير دواء اتبعه هـذا

[914]– **بستان الأزهار**، ورقة 33 أ.

[915]– **المصدر نفسه**.

[916]– **بستان الأزهار**، ورقة 33 ب. أبو العباس التادلي الصومعي: **المعزى في مناقب أبي يعزى**. نسخة إلكترونية ص 67

[917]– نللي سلامة العامري: **الولاية والمجتمع**، ص 382.

[918]– ابن الصباغ القلعي: **المصدر السابق**، ورقة 32 ب.

[919]– **المصدر نفسه**، ورقة 20 ب.

الولي هو الدعاء والصلاة على النبي ρ إلى أن امتثل للشفاء.[920]

ومن ثم فالنشاط الولائي إنما يكون في أوقات الأزمات كما هو معلوم، ولهذا فإن الأزمة الصحية التي اجتازها المغرب الأوسط خلفت لهم أساليب شتى للعلاج عززتها كرامة وبركة هؤلاء وإيمانهم العميق بأن الله هو الشافي وما هم إلا سببا في ذلك العلاج.

و لم يكن دور الأولياء يتوقف فقط في معالجة الأمراض أو التطبيب بأساليب مختلفة خاصة بهم، وإنما كان هؤلاء يمثلون دور الممرض في الاعتناء بالمرضى والسهر على صحتهم، فقد أورد ابن مرزوق نموذجا رائعا من نماذج التآزر والتآخي التي أوصى بها الإسلام اتجاه المرضى، فذكر أن والده كان يعتني بالمرضى عندما كان في مكة والمدينة بعد أن قصد الحج، فصحيح أن هذا النموذج بعيد من حيث البيئة المكانية إلا أنه يهمنا هنا أن هذه الممارسة أو الفعل كان نابعا عن ولي من أولياء المغرب الأوسط، فقد كان والد ابن مرزوق يطبخ دشيشا ويمر على المرضى ويعطيهم واحدا بعد واحد، ويغسل الأذى عنهم بنفسه، ويغسل ثيابهم وينقيها من القمل، وكذلك رؤوسهم ويحلقها أيضا، فمن المعلوم سلفا أن الحج كان يشكل مكانا لانتشار أمراض كثيرة بين الناس لعدة أسباب منها كثرة الازدحام، والشرب من المياه الفاسدة،[921] وقد كان أحمد الغماري يتولى خدمة المرضى الفقراء بنفسه، فيسقي لهم الماء ويحمل لهم الطعام إلى منازلهم ويتفقد أحوالهم حتى يمتثلوا إلى الشفاء.[922]

ـ أهم الأمراض التي يعالجها الأولياء

محدودة هي الأمراض التي كان يعالجها الأولياء إذ كانت غالبيتها من الأمراض المزمنة والداء العضال والعاهات كالكساح والعمى والبرص والفالج وبعض الأمراض الجلدية، فضلا عن الصرع والعين والجن، وهي في أغلبها أمراض فردية لم تكن تصيب عامة الناس.[923]

في حين لم يكن مداواة الأوبئة بالأمر السهل لدى هؤلاء الأولياء، فالكلام عنها في كتب المناقب يكاد يكون غائبا، فبخلاف ما ذكر عن إبراهيم الهواري الذي رمدت عينه فقصد بذلك الشريف محمد الأصغر بن محمد بن خالد بن عمران فبات عنده فلما جاء الصباح شفاه الله من الرمد ببركة هذا الولي.[924]

في حين لم توجد إشارة حول مداواة الأولياء لباقي الأمراض الوبائية، غير أن هذه الكرامة وقعت على شخص واحد لتشفيه وليس على عامة الناس، فهي لم تكن لتعبر عن قدرتهم على تجاوز الأوبئة التي تصيب عددا كبيرا من الناس وتؤدي بهم إلى الموت بقدر ما اقتصرت قدرتها على نماذج فردية لا غير.

ومما يؤكد لنا فشل الأولياء في درء خطر الأوبئة والطواعين الرواية التي ذكرها القلعي –والتي كنا قد أشرنا إليها سابقا– حول الولي الذي استحضر جماعة من الجن إلى شيخه وحملهم مسؤولية إصابة قومه بالوباء، غير

920– ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 227.

921– **المصدر نفسه**، ص 246 .

922– ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 194.

923– عبد اللطيف الشادلي: **التصوف والمجتمع**، ص 116.

924– الشريف التلمساني: **روضة الأزهار في التعريف بآل محمد المختار**، ورقة 32 ب.

أن أحدهم علل لإصابتهم بالوباء بتغير هواء بلدهم،[925] فلا شك أن هذا الولي لم يجد طريقة لمساعدة قومه سوى التحاور مع الجن الذي حملهم مسؤولية ذلك لعلهم يكفوا عن أذيتهم للناس.

ـ صدى العلاج الكرامي في نفوس أفراد مجتمع المغرب الأوسط

ونظرا لاعتقاد غالبية الناس بأن سبب الأمراض إنما هو مسّ من الجن أو عقابا إلهيا سلطه الله تعالى عليهم ليعاقبهم به،[926] فإنهم رأو في التقرب من الأولياء وطلب العلاج منهم الوسيلة الوحيدة والناجعة للتخلص من هذه الأمراض التي يعانون منها، و لم تكن إلا ذهنية طبعت في نفوس غالبية المجتمع المغربي، فقد كان الناس يقصدون أبا عبد الله محمد بن أحمد بن النجار للاستشفاء والتبرك بحجر كان يجلس عليه بإزاء داره،[927] فقد كان سليمان المدعو "أحدموم الشريف" يزوره المرضى فيشفون بإذن الله.[928]

وقد بلغ اعتقاد سكان المغرب الأوسط في الأولياء إلى حد التخيل بهم، فيتهيأ لهم أن الاستغاثة بهم عند المرض سيشفيهم منه، مع أن الله سبحانه وتعالى هو الشافي، فقد ذكر القلعي عن علي بن زينب الدرجيني الذي حكى أن بعض أصحابه من الأعراب قد مرض مرضا شديدا أشرف منه على الهلاك، فألهمه الله أن يستغيث بالشيخ أحمد بن يوسف الراشدي ثلاثة مرات، فإذا به عند رأسه ومسح بيده على جسده حتى شفي من مرضه.[929]

ويعتقد الكثير من عامة المجتمع أن الشفاء يحصل للمرضى بمجرد رؤيتهم للأولياء في المنام، وهذا ما حدث مع " أبي محمد أقنيش الهواري" الذي مرض مرضا أشرف منه على الموت، فرأى في منامه الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي واقفا عند رأسه فأراد أن يقبل قدميه، فوقع على وجهه فأزال الله عنه المرض لما أفاق، وقد ظن أن يده قد مست ثوب الشيخ في المنام،[930] ومرض الولي الصالح أبو الفرج المكي بمرض الفالج الذي استعصى على الأطباء معالجته، فرأى في منامه شيخه أبا زيد الهزميري يحثه على زيارة محمد الشريف لأن عنده ستخرج شجرة مباركة، فأمره أن يمسح بها في جسده فإنه سيشفى بإذن الله، فعندما استفاق أبو الفرج نفد ما رآه في منامه فبرأ من هذا المرض.[931]

إن هذه الروايات وإن كانت تحمل ضربا من الخيال والمبالغة من طرف كتب المناقب؛ إلا أنها تبين من جهة أخرى قوة اعتقاد الناس بالأولياء لحصول الشفاء لهم من مختلف الأمراض.

ونظرا لأن المجتمع مسلما في أغلبه فإن أفراده كانوا يؤمنون بأن المرض هو ابتلاء من الله عز وجل أو عقابا

[925]- **بستان الأزهار**، ورقة 89 أ.

[926]- عبد اللطيف الشادلي: **التصوف والمجتمع**، ص 116.

[927]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 176 .

[928]- ابن مريم: **البستان**، ص 107.

[929]- ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 20 ب.

[930]- **المصدر نفسه**، ورقة 28 أ.

[931]- أبو عبد الله محمد الشريف: **روضة الأزهار في التعريف بآل محمد المختار**، ورقة 75 ب.

إلاهيا يسلطه الله على المذنبين في حقه وحق البشر، ولهذا كانوا يتقربون كثيرا من الأولياء عند المرض لعلهم يشفعون لهم عند الله ليرفع عنهم هذا البلاء؛ فقد كان الولي حينها يجسد دورين أساسيين؛ دور الواعظ المرشد المقوم لسلوك الناس، ودور المعالج لمختلف الأمراض التي كانت تصيبهم.

وقد يتسبب غضب الأولياء على بعض الناس إصابتهم بالأمراض، وهي كرامة تحدث لهؤلاء وكثيرا ما تذكرها كتب المناقب، ومثل ذلك ما حدث لعبد الرحمن بن الإمام عيسى المستغانمي؛ حيث أنه أنكر على الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي أن يكون قد ظهرت له كرامة، ثم أنه استعار كتب نوازل مازونة من الشيخ عبد الله بن واضح فقام بنسخه دون إذن من هذا الشيخ فمرض بسبب هذه التجاوزات، فأصابه داء عضال لم يعد قادرا معه لا على الكلام ولا على الحركة، فاقترح عليه أحد أصحابه بأن يأذن له بالذهاب للشيخ أحمد بن يوسف الراشدي ليكتب له حجابا فقبل المستغانمي بذلك، وأحضروا له هذا الكتاب من عند الشيخ بعد أن كتب له فيه أسماء في كاغط ثم طواه وأمر صاحبه أن يفتحه بين عينيه وما إن فتحه حتى بدأ يحرك شفتيه حتى تحسن من حالته تدريجيا وتاب بعدها إلى الله عن كل أفعاله.[932]

فالمرض هنا كان في اعتقاد هؤلاء يزول بمجرد حصول رضا الولي على الشخص المتسبب بالأذية بعد أن يكف عن أذاه، ولعل ذلك كان يرِّغب الناس أكثر في التقرب من الأولياء، ويدل على أن شخصيتهم في المجتمع مقدسة مُهَابة، وقد تضاهي بذلك شخصية الملك الحاكم أو الأمير آنذاك.

ـ الاعتقاد بالأولياء بعد الموت ودور المقدس

لم يكن اعتقاد العامة القوي في الأولياء وقدرتهم على معالجة الأمراض تتوقف عند مماتهم، وإنما يؤمنون بقدرتهم على ذلك حتى بعد موتهم، ويعتقدون أن بركة الأولياء وكرامتهم لا تنقطع أبدا على تقادم الأزمان، لذلك كانت قبورهم مزارات للاستشفاء من كل الأسقام، كما أن تراب هذه القبور كان بالنسبة إليهم من أهم المقدسات أو الآثار الناجعة التي يستعملونها لعلاج العديد من الأمراض، ولقد أمدتنا كتب المناقب بالنماذج عديدة حول ذلك رغبة منها أن تؤكد أيضا صحة هذا الاعتقاد، وتبين لنا أن كرامات وخوارق الأولياء إنما تستمر حتى بعد موتهم -وإن كان هذا فيه كثير من المبالغة- فقد كان قبر الولي أبي عمران الغوث الجد الرابع لابن الصباغ القلعي من أمه ترياقا يشفى منه المجانين وذوي الأمراض المزمنة وجميع العاهات "التي عجز جميع الأطباء وأهل الرقا والعزائم عنها"، فصار يلقب بطبيب هوارة بعد موته فكل من جاء إلى قبره مقعدا عاد منه يمشي على رجليه، ولا مريضا أو صاحب عاهة إلا ليشفى بعد زيارته لهذا القبر.[933]

وهذه الرواية تبين لنا من جهة نجاعة تراب القبر أو القبر في حد ذاته كوسيلة إشفائية للأمراض تجاوزت حدود ما حققه الطب والرقية والشعوذة في ميدان العلاج، ومن جهة أخرى تبين لنا أن القبر في مجتمع المغرب الأوسط كان يعد بمثابة البيمارستان يقصده الناس طلبا للعلاج أيضا وليس للتبرك به فقط.

---

[932]– ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 19ب – 20 أ.

[933]– **المصدر نفسه**، ورقة 55 أ.

وقد كان قبر الولي أبي يعقوب الذي اشتهر في أواخر القرن 6 هـ/12م وأوائل القرن 7 هـ/13م الكائن ببني حلوان بساحل مازونة مشهور؛ يقصده الناس على مرّ الأزمان للاستشفاء والتبرك به،[934] وقد كان ضريح الولي أبي سعيد الشريف الحسني أيضا مزارا للمرضى لطلب الشفاء "وما زاره ذو عاهة إلا وبرئ"،[935] وقد كان كل من يدخل قبة ضريح الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي المتواجد بمليانه وهو مريض إلا وبرئ من مرضه ببركة هذا الشيخ المدفون فيها كما يعتقدون.[936]

وقد كان ضريح الولي الصالح يحي العيدلي (من أهل القرن 9 هـ/15م) بإحدى القرى بجاية ترياق يستشفي به المرضى الزائرين له، وكذلك قبر الولي علي بن موسى المعاصر للعيدلي مقصدا للناس للتبرك والعلاج، لأن قبره كما يعتقد الناس في تلك الفترة "دواء رباني وطب إلهي".[937]

لم تكن القبور وحدها كمقدس يشكل نقطة جذب من طرف سكان المغرب الأوسط آنذاك رغبة للعلاج والاستشفاء، بل الملفت للانتباه أن الزاوية إضافة إلى كونها مؤسسة دينية وتعليمية واجتماعية واقتصادية، فإنها كانت أيضا بمثابة البيمارستان الذي يقصده الناس من كل حدب طلبا للعلاج من الأولياء القائمين عليها أو الاستشفاء بالأضرحة إن وجدت بها، فقد كانت زاوية الشيخ واضح في أواسط القرن السابع مزارا للكثيرين من مختلف البلدان حيث ظهرت بركته في علاج المرضى وذوي العاهات.[938]

ولعل ذلك ما يؤكد لنا أهمية مقدسات الأولياء من قبور وزوايا داخل المجتمع بالنسبة لعامة الناس وخاصتهم، ولا شك أن سبب لجوءهم للعلاج لدى الأولياء هو غياب دور الطبيب وعجزه عن مداواة الكثير من الأمراض من جهة، لأن كتب المناقب غالبا ما تصور لنا ذلك فهي تذكر لنا عجز الطبيب ثم يعقبها مباشرة دور الولي في تجاوز المرض، كما سبق وأن أشرنا.

ومن جهة أخرى فإن عجز بعض الناس بسبب الفقر عن دفع أجرة الطبيب يجعلهم يبحثون عن سبل أخرى للعلاج فيقصدون الأولياء، وقد أن أشرنا أن هؤلاء الأطباء إنما كان تواجدهم في المدن والحواضر، في حين كانت القرى والأرياف مقفرة منهم، مما جعل أهلها أكثر عرضة للأمراض لأنهم يعجزون في كثير من الأحيان التنقل للمدن والحواضر طلبا للعلاج، فلا شك أن هؤلاء قد اتخذوا من الأولياء أطباءً لهم، وهو ما أكده لنا القلعي الذي يذكر أن جده الرابع لأمه أبا عمران الغوث كان طبيبا في هوارة، وهو من أقطاب التصوف، وقد سمي بعد موته طبيب هوارة لأن له "كرامات وخوارق وعادات في المحيا والممات"،[939] ولهذا فقد جسد الأولياء حقيقة دور الأطباء في القرى والأرياف المعزولة بشكل كبير.

934- المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، ورقة 111ب.

935- ابن مريم : **البستان**، ص 72.

936- ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 32 ب.

937- الورثلاني: **نزهة الأنظار**، ص 8 - 14.

938- المازوني: **المصدر السابق**، ورقة 39 ب، القلعي: **المصدر السابق**، ورقة 45 ب.

939- **بستان الأزهار**، ورقة 47 أ.

ـ الطب الشعبي في المغرب الأوسط

لا تستند هذه الممارسة الإشفائية على علم أو قانون طبيعي، إنما يتأتى لمجموعة من الأشخاص ممارستها بناءً على تجربة توارثوها عن مشائخ الحي وعجائزه، فربما تصدق أولا تصدق،[940] وبناءً على ما ذكره ابن خلدون فإن هذا النوع من الممارسة الإشفائية إنما ينتشر في البوادي أكثر منه في المدن،[941] ولا شك أن ذلك يفسر عدم حاجة البوادي إلى أطباء كما في المدن والحواضر لأن هذا النوع من العلاج قد حل محل العلاج الطبي بها.

لقد كان الطب الشعبي متواجدا في مجتمع المغرب الأوسط وهذا ما نوهت إليه بعض المصادر، فها هـو ذا الغبريني يتذمر من هذا النوع من العلاج ساخطا على من يمارسونه واصفا إياهم بالعوام في معرض ترجمته لأحد أطباء بجاية وهو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي (تـ 674 هـ/1275م) فيقول: "وأما عـوامهم (عوام الأطباء) ومن يعد منهم في إعداد القوابل فعندما يسأل يجيب بغير علم، ولقد رأيت من كان مبخوتا في الطب يعالج المرضى فتخفى عليه الشكاية فيعالجها بالحار تارة وبالبارد تارة أخرى، بحيث ينظر فإن نجح فيهـا أحدهما استمر عليه".[942]

والنص هنا يبين لنا أن هؤلاء العوام يعتمدون في علاجهم للمرضى على قاعدة الأضداد، وهـي العـلاج بعناصر تكون مختلفة الطبائع، فالماء البارد يكون في نظرهم مفيد لمن به حمّى شديدة، لكنه ضار لمن به زكام أو برد بل يوصي له في مثل هذه الحالة بشراب ساخن،[943] ولقد تعددت طرق أو طقوس الممارسـة الإشـفائية لهؤلاء العوام ويمكن أن نصنفهم إلى عدة طوائف هي:

أـالعشابون

وهم طائفة من الناس لهم معرفة بالأعشاب الطبية، حيث يعتمدون عليها في علاج العديد من الأمـراض، وقد كانت خبرتهم في ذلك مكتسبة يتداولونها جيلا بعد جيل، وكانوا منتشرين بحيث لا تكاد تخلو منهم قية أو مدينة، وساعدهم في هذه الممارسة الإشفائية وفرة النباتات الطبية في المغرب الأوسط.

فقد كانت إحدى قبائل المغرب الأوسط، وهي قبيلة بني أبي شعيب من بني وجهان مـن أعمـال بجايـة يستعملون نبات الآطريلال لمداواة البهق، وقد كان الناس يقصدونهم لذلك وظلوا يخفون منافع هذه النبتة على الناس ويداوون بها سلفا عن خلف، إلى أن عرفها بعض الناس فانتشرت وعرف عظم منفعتها لمـداواة هـذا المرض المزمن.[944]

غير أن هذا النوع من الممارسة الإشفائية لا يستند لأي علم، وإلا كيف نفسر الخلط الكبير في أسماء الأعشاب بالمغرب الأوسط، فقد أشار إلى ذلك الأطباء أصحاب المصنفات الذين كتبوا عن الأعشاب الطبية

---

[940]- ابن خلدون: **المقدمة**، ص 455.

[941]- **المصدر نفسه** .

[942]- **عنوان الدارية**، ص 102.

[943]- سعيد بن حمادة: **الماء والإنسان في الأندلس**، ص 224.

[944]- ابن البيطار: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، 1 / 06.

كابن خير الإشبيلي وابن البيطار.

كما أن بعض الناس كانوا يدعون أنهم يداوون بالأعشاب وأنهم على دراية بمنافعها ومضارها غير أنهم ليسوا كذلك، فقد سئل محمد العقباني عن ما يلزم به رجل كان يدعي الصلاح ويزعم أمورا لا يتصورها العقل كما أنه يقول لمن يجده مريضا: "خذ هذه العشبة تداوي بها فإنها كما أعطى فيها رسول الله ρ إلى غير ذلك" [945] وهو يدعي ذلك

ب- النساء القوابل

وقد صنفت هؤلاء النسوة ضمن الفئات التي تمارس الطب الشعبي أو من عوام الأطباء، وقد سمى ابن خلدون مهنة القوابل بصناعة التوليد فيقول فيها: "وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه، من الرفق في إخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك، ثم ما يصلحه بعد الخروج.. وهي مختصة بالنساء في غالب الأمر، لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض، وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة أستعير فيها معنى الإعطاء والقبول، كأن النفساء تعطيها الجنين وكأنها تقبله". [946]

وقد كانت القوابل من النساء اللواتي يتكفلن بتوليد النساء موجودات في مجتمع المغرب الأوسط، وهذا ما دلت عليه بعض نوازل الفترة؛ ولا شك أن ذلك راجع لا محالة إلى ندرة وجود أطباء متخصصين في صناعة التوليد، حيث سجلت لنا المصادر طبيبا واحدا مختصا في التوليد عاش في بجاية في القرن السابع الهجري وهو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن أندراس.

ولقد كانت القوابل ماهرات في هذه المهنة؛ فهن يقمن مقام الأطباء حيث يتكفلن بالمرأة ويساعدنها على الولادة، ثم بعد ذلك يتكفلن بالمولود وبالنفساء، وفي ذلك يثني ابن خلدون على مهارتهن ويقول: "وهذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها، وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء في بدنه إلى حين الفصال نجدهن أبصر بها من الطبيب الماهر". [947]

لقد كانت فئة القوابل يتمتعن بمكانة مرموقة في المجتمع لخبرتهن الواسعة في أمور النساء، فقد كن محل ثقة القضاة أيضا، وهذا ما بينته لنا بعض نوازل الفترة بوضوح، فقد كانت شهادة القوابل مهمة بالنسبة للقضاة في القضايا الاجتماعية كالزواج والطلاق؛ فغالبا ما يطلب من القوابل فحص النساء المعنيات في هذه القضايا ما إن كن حوامل أم لا، ويكمن هذا الفحص في جسّ بطن المرأة فإن كانت حاملا فإنهن يجدن سرتها تخفق فيقرن بذلك للقضاة. [948]

وتمتثل النساء القوابل للشهادة أيضا في قضايا أخلاقية أيضا؛ مثل النازلة التي سئل عنها أبو عبد الله بن

---

[945]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 130 ب.

[946]- **المقدمة**، ص 382.

[947]- **المقدمة**، ص 383.

[948]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 1 / 450 ب (نازلة سئل عنها علي بن عثمان البجائي)،451 ب – 452 أ (نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني).

مرزوق، وكانت القوابل فيها شاهدة على حمل امرأة بعد أن خلا بها زوجها قبل البناء، وأنكر هو هذه الخلوة ونسبت هي حملها إلى رجل آخر.[949]

واللافت للانتباه أن بعض النوازل التي سئل عنها أبو الفضل العقباني حول إقرار القوابل بوجود "المرقود"– وهو الجنين الذي يقرّ في بطن أمه أكثر من مدته الطبيعية فقد يمكث حتى سنة أو سنتين– ويشهدن على ذلك عند فحص بعض النساء، وأن وجود المرقود في بطن المرأة أحدث مشاكل لا حصر لها في حالة وفاة الزوج أو الطلاق، فتتزوج المرأة مرة ثانية فيتبين أن لها مرقود في بطنها بشهادة القوابل، عندئذ تحدث مشاكل ويحتار لمن يلحق هذا الولد للزوج الأول أو للثاني.[950]

وفي الحقيقة لا تهمنا تفاصيل هذه القضايا الاجتماعية بقدر ما يهمنا هنا دور القوابل فيها كعنصر فعّال في ذلك؛ ولهذا جسدت النساء القوابل دورين أساسيين في المجتمع: دور التوليد ومداواة أمراض النساء، ودور الشاهد في بعض القضايا الاجتماعية بطلب من القضاة.

ـ المداواة بالسحر والشعوذة

وتنبني هذه الطريقة من العلاج كما فصّل فيها ابن خلدون على قدرة بعض النفوس البشرية "على التأثيرات في عالم العناصر إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول هو السحر والثاني هو الطلـــسمات"،[951] وبالرغم من أن هذه الأساليب كانت منبوذة في كل المجتمعات الإسلامية حتى الآن لأنها كفر وشرك، لما كان لها من وجهة أخرى في التعظيم وعبادة غير الله عز وجل كالشياطين والكواكب والأفلاك،[952] إلا أن مثل هذه الطقوس العلاجية كانت موجودة في مجتمع المغرب الأوسط، فكيف كانت طرق العلاج بها؟ وما مدى اعتقاد الناس بمثل هذه الطقوس الاشفائية؟ وما هو موقف فقهاء المغرب الأوسط إزاء هذه الطـــرق اللاشـــرعية في العلاج؟

ولعل ما يدلنا على وجود مثل هذه الطقوس الإشفائية، هو اهتمام بعض علماء المغرب الأوسط بالتأليف في مثل هذه الأمور، فيعد البوني[953] رائد هذا التآليف على الإطلاق، والذي كتب كتابا في أسرار الحروف وهو عبارة عن جداول وطلسمات،[954] وكتابا آخر أشار إليه ابن خلدون في **مقدمته،** بعنوان "**الأنماط**".[955]

ويعتمد هؤلاء الناس على علاج بعض الأمراض بواسطة الحروف التي قسموها كل سبعة أحرف تقابـــل

[949]– **المصدر نفسه،**1 / 244 أ .

[950]– **المصدر نفسه،** 1 / 442 ب .

[951]– **المصدر السابق،** ص 458.

[952]– **المقدمة،** ص 459.

[953]– هو أحمد بن علي بن يوسف تقي الدين أبو العباس البوني؛ صوفي من أهل بونة، رحل إلى المشرق واستقر بالقاهرة إلى أن توفي بها سنة 622هـ / 1225م، له كتب في العلوم الخفية واشتهر بها، وهي كتاب "**أسرار الحروف والكلمات**"، وكتاب "**إظهار الرموز وإبداء الكنوز**"، وغيرها من الكتب التي كان يعتمدها المشتغلين بالسحر، أنظر: عادل نويهض: **معجم أعلام الجزائر،** ص 47.

[954]– مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، ضمن مجموع رقم: 1767.

[955]– **المصدر السابق،** ص 557.

أحد العناصر الطبيعية (النار والهواء والتراب والماء)، وجعلت الحروف النارية لمداواة الأمراض الباردة ولمضاعفة درجة الحرارة، في حين جعلت الحروف المائية لدفع الحرارة ومداواة مختلف الحميات.[956]

وقد كتب ابن الحاج التلمساني كتابا في السحر سمّاه "**شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى**"، وهو ينقل فيه عن أبي العباس المرسي أيضا،[957] وقسمه إلى عدة أبواب باب منها في استخراج معادن الذهب والفضة وباب لهزم الجيوش وباب في فتح الكنوز وباب في معرفة الرصد والأوقات وباب في علاج الجن وباب في خدمة الجن وباب في أنواع المحبة وباب في أنواع التفريقات وباب في جلب الأخبار من الأقطار وغيرها من الأمور السحرية.

وقد ذكر فيه أيضا أساليب شتى للعلاج بطرق سحرية لأمراض عديدة، ما عدا الوبائية منها، فضلا عن علاج المرضى بالصرع والجنون، ومداواة الجن وفك السحر بالسحر، وغيرها من الأمور المحرمة شرعا،[958] فصحيح أن هذه الوصفات العلاجية تحتوي على بعض الأعشاب الطبية والتوابل والأغذية المفيدة للجسم كالعسل، لكنها لا تخلوا دائما من مظاهر السحر والشعوذة، ولهذا عرف في هذا العصر (زمن الدراسة) خلطا كبيرا بين الطب والسحر، وحسبنا في ذلك أن الطبيب محمد بن يوسف السنوسي كان قد نقل العديد من الأمور السحرية عن بعض المعاصرين له كتعليق اسمي فرعون وهامان على المصابين بالحمّى.[959]

وقد كانت هذه الوصفات العلاجية التي ذكرها هؤلاء من كتبوا حول العلاج بالسحر احتوائها على شيء من القرآن الكريم، الأمر الذي يجعلنا نستنتج وجود خلط كبير بين أساليب العلاج الدينية كالرقية وبين أمور السحر، أو بالأحرى الخلط بين أمور السحر والتصوف أو أساليب العلاج الولائي، فلا غرو أن الرواية التي ذكرها لنا القلعي عن المتصوف الذي استحضر جماعة من الجن عندما مرض قومه بالوباء لتدل على ذلك، لأن استحضار الجن من الأمور السحرية والمحرمة شرعا، فصحيح أن الفقهاء يعتقدون بأن سبب الطاعون هو وخز من الجان لكن لم يأمروا باستحضاره بل رخصوا العلاج لذلك ببعض الأدوية والرقى والصلاة على النبي ρ كما سبق وأن أشرنا.

لم تحقق مثل هذه الأساليب الأهداف المرجوة وهي دفع الأمراض والأوبئة، فمؤلفاتهم تخلوا تماما من أي ذكر للأوبئة وأساليب علاجها، كما أن المصادر بمختلف أصنافها لم يسبق لها أن ذكرت ساحرا أو مشعوذا قد دفع وباءً أو طاعونا عن قومه، فهي لم تنشر إلا المعتقدات الباطلة والجهل المطبق بين من يعتقد بها من العامة.

- العلاج بالتمائم والعزائم

يعتقد كثير من الناس أن العلاج بالتمائم يعد من الأمور المحرمة شرعا، إذ يعتبرونها أمورا متصلة اتصالا وثيقا بالسحر والشعوذة، وإن كانت تحمل في طياتها أمورا دينية كأسماء الله الحسنى وآيات من القرآن الكريم

---

[956]– **المصدر نفسه**، ص 557.

[957]– تونس : مطبعة المنار، (د.ت).

[958]– ابن الحاج: **شموس الأنوار وكنوز الأسرار**، ص 107- 118، 129- 132.

[959]– أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، 2 / 433.

وبعض الأدوية، وإن كان العلاج بالتمائم أمرا ممنوعا لما هو متصل بأمور السحر، فبعض الناس يجعل مثل هذه الممارسات الإشفائية تابعة للرقية لما فيها من القرآن والدعاء، وهذا ما نجده في كتاب ابن سلامة البسكري؛ الذي أدرج مثل هذه الطقوس ضمن منظومة العلاج الديني القائم على القرآن والذي اقتبس البعض منها على بعض العلماء كالثعالبي والبرزلي والغافقي.

فقد كان يكتب للمريض بالحمى ↓ ✂♦❷♦✂✍↗◆□⋖ ✂✍↗◆□⋖ ⌘♊♉♓✂ ★✍ ▦ ♦.... ✍➩✍ ↑ أي سورة التوبة في مائة ورقة من الزيتون، ويجمع في خرقة زرقاء ويعلقها المحموم فإنه سيبرأ ببركة القرآن العظيم على حدّ قول الثعالبي، ولا يترعها المريض حتى يبرأ تماما، ويكتب للحمى المتلوثة في ثلاث قشرات بصل، حيث يكتب في الأولى ↓ ✂✍♑⇧☺⊠⬧♑♍✂ ✍★ ↑ ويكتب في الثانية ↓❻◆♱♉✍ ✂✍♑❷□⬧✍◆♊♉✍ ✂✍♑❷⬧❍♉⑩✍ وفي الثالثة ↓ ✂✍♑❷⬧✍♉☺■⊠➔♑✍ ✍⌘✍ ↑ ✍⊠✍ ↑، فيأكل المحموم أوّل يوم الأولى فإذا عاودت له الحمّى يأكل الثانية، وإذا عاودته مرة ثالثة يأكل الثالثة،[960] وغيرها كان يكتب للعديد من الأمراض، وكل هذه الكتابات كانت في الغالب لا تخلوا من القرآن الكريم، فهؤلاء الناس الذين يعالجون بمثل هذه الطقوس يخلطون بين أمور السحر والدين.

لقد كان الأولياء المتصوفة يمارسون هذا النوع من العلاج وهذا ما دلت عليه كتب المناقب، فقد كتب أحمد بن يوسف الراشدي حجابا فيه أسماء لا نعلم ما هي، وطلب من حامله أن يفتحه بين عيني عبد الرحمن المستغانمي الذي مرض مرضا عضالا تسبب في إقعاده، فلما فتحه له شفاه الله من مرضه.[961]

كما أن زوجة يغمراسن كانت قد أوصت ولدها وهو ذاهب لزيارة الشيخ واضح أن يحضر لها حجابا من عنده، وأعطته لذلك كاغدا، فكتب لها الشيخ الحجاب وأرسلها له مع ولدها،[962] ولعل هذا المثال يدل لا محالة على أنه ليس من يعتقد بهذه الطقوس الإشفائية عامة الناس فقط، وإنما شمل هذا الاعتقاد حتى الطبقة الحاكمة والنبيلة، فهي ذهنية طبعت المجتمع آنذاك عامتهم وخاصتهم، ولا سبيل للإنكار أيضا أن مثل هذه الممارسات الإشفائية وهي كتابة العزائم والتمائم وإن كانت صادرة من قبل الأولياء فإنها لا تخلوا من مظاهر السحر والشعوذة فهي تشكل بذلك مزيجا بين السحر والتصوف.

ومن الأساليب الاشفائية التي تدخل ضمن نطاق الطب الشعبي أيضا الكي بالنار، وإن كانت المصادر لم تمدنا سوى بمعلومات شحيحة عن ذلك، إلا أن الكي بالنار كأسلوب لعلاج بعض الأمراض كالآلام الحادة كان منتشرا في المغرب الأوسط، وذلك ما بينته لنا رواية أوردها القلعي مفادها أن الولي أحمد بن يوسف الراشدي قد سافر إلى أحد الجهات، وأرسل أحد أصحابه عندما جاء الليل ليطلب من أحد رجال تلك الجهة أن يستضيفهم فقال له الرجل: "أرشم كناية عن عدم القبول"؛ وما لبث أن أصيب هذا الرجل الذي قال له ذلك في وجع

[960]– البسكري: **اللوامع والأسرار**، ورقة 52 أ.

[961]– ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 20 أ.

[962]– **المصدر نفسه**، ورقة 45 ب.

بفخذه فأرسل في طلب من هو بارع بالكي أو الرشم، فرشم له رجله اليمنى من الكعبة حتى فخذه، ثم انتقل هذا الوجع إلى رجله اليسرى، فأرسل في طلب من يرشمها أو يكويها له، وهكذا انتقل الوجع شيئا فشيء إلى سائر جسده، فطلب أن يكوى له كله، فلم يلبث هذا للرجل حتى توفي،[963] ولهذا غالبا ما يؤدي هذا الأسلوب من العلاج إما إلى الموت أو إلى تلف أحد أعضاء الجسم، ولهذا كان من الأمور غير المستحبة لدى كثير من الناس.

كما أن موقف فقهاء المغرب عامة والمغرب الأوسط خاصة إزاء هذه الممارسات المنافية للشرع خصوصا منها السحر والشعوذة كان متعارضا؛ فقد ذكر لنا الونشريسي فتوى سئل عنها أبو عبد الله الشريف حول مدى شرعية علاج أحد الصالحين بالرقية والكتابة للحمى وعلاج المصروعين والمجانين بالعزائم والخواتم، فكان الجواب مشروعية العلاج بالرقى التي يستعمل فيها القرآن الكريم، وفي المقابل كان العلاج بكل مظاهر الشرك والسحر محرما وباطلا شرعا،[964] وفي نفس السياق ذكر الونشريسي نازلة أخرى سئل عنها أبا الفضل العقباني ويدور محتواها حول ظهور ساحر يهودي بقلعة هوارة من أعمال تلمسان سنة 849 هـ/1445م هل يستحق قتله بسبب أفعاله الشائنة وقيامه أيضا بسب المسلمين؛ فأجاب العقباني أنه يستحق الضرب والسجن الطويل.[965]

ولا شك من أن هذه الأساليب كانت منتشرة في المجتمع وكان وجودها أكثر في المناطق النائية من القرى والأرياف بدليل أن ظهور الساحر اليهودي الذي ذكرته النازلة كان في قلعة هوارة؛ إلا لبعد هذه المناطق عن رقابة السلطة وضعف جهاز القضاء بها كما سبق وأن أشرنا، غير أن اعتقاد الناس بها لا يمكن أن تضاهي قوة اعتقادهم في الأولياء وقدرتهم على الإشفاء بإذن الله.

لم تتحقق أساليب الطب الشعبي أهدافا مرجوة في علاج مختلف الأمراض والأوبئة، و لم تكن قادرة حتى على تحسين المستوى الصحي لمجتمع المغرب الأوسط، بل زادت من نشر الخرافات والمعتقدات الباطلة لأنها أساليب تنبني أساسا على أمور خيالية، ونوع من الدجل والشرك كان غالبا ما يعتقد بها ويمارسها عامة الناس وجهالهم.

---

[963]- **المصدر نفسه**، ورقة 29 أ.

[964]- **المعيار المعرب**، 11 / 29.

[965]- **المصدر نفسه**، 2 / 399.

الفصل الثالث

مظاهر الجوع والوباء والانعكاسات الديمغرافية الناتجة عنهما

أولا: **المظاهر العامة للجوع والوباء في المغرب الأوسط**

ثانيا: **الانعكاسات الديمغرافية الناتجة عن الجوع والوباء**

أولا: المظاهر العامة للجوع والوباء في المغرب الأوسط

أ- المظاهر الناتجة عن أزمة الجوع

إذا كانت مظاهر المجاعة في مجتمع المغرب الأوسط تأتي كردود فعل آلية أو كنتيجة حتمية عن مثل هذه الأزمات؛ فهي في كلتا الحالتين تحدث خللا في نظام هذا المجتمع، وتؤثر في مستوى معيشة أفراده والذي ينحدر حتما إلى حال أسوء، ولا شك في أن هذه المظاهر تختلف باختلاف حجم هذه الأزمة، فالمصادر من جهتها تصور لنا ذلك من خلال وصفها لهذه المجاعات، فتارة تذكرها بصورة مهولة لتنبئنا عن خطورتها ومدى وقعها على المجتمع، وتارة أخرى بصورة عادية يفهم منها أنها كانت أزمة عابرة لم يكن لها وقع كبير على المجتمع.

يصف ابن عذاري حجم المجاعة التي ألمت ببجاية سنة 588 هـ/1192م بسبب غزو بني غانية لها فيقول: "وألم بالرعية الحيف... فأقام السيد [أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن] على هذه الحال والمجاعة تشتد، والوباء يزيد حتى عم الموتان، وبطرت معيشتها الرخم والعقبان"،[966] وعن الحال التي آل إليها أهل تلمسان نتيجة الحصار المريني المضروب عليهم (698- 707 هـ/1298- 1307م) يقول ابن خلدون: "نالهم فيها الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم"،[967] في حين يصف الحال التي آل إليها أهل بجاية جراء حصار بني عبد الواد لها سنة 726 هـ/1325م؛ دون أن يشير إلى حدوث مجاعة عظيمة فيقول: "فثقلت وطأتهم على بجاية واشتد حصارها وغلت أسعارها".[968]

وسبق وأن أشرنا إلى أن المغرب الأوسط قد شهد مجاعات محلية، ومجاعات عامة ضمن الغرب الإسلامي كله، كما أن مظاهر المجاعات في المجتمع انعكست بصورة ما على مجالات شتى اقتصادية واجتماعية وحتى دينية.

1- المظاهر الاقتصادية

أ1- غلاء الأسعار

ونستهل دراسة هذه المظاهر بمحاولة معرفة التغيرات التي طرأت على قيمة الأسعار في أوقات المجاعات، باعتبار أن حدوث الغلاء فيها يكاد يكون القاسم المشترك بين كل المجاعات الحاصلة في بلاد المغرب عامة والمغرب الأوسط خاصة مهما اختلفت أسبابها ومسبباتها، وقد تشير المصادر أحيانا إلى حدوث غلاء في الأسعار دون الإشارة إلى حدوث مجاعة، وقد يدل ذلك على حدوث أزمة اقتصادية عابرة، أو أن هذه المصادر تنوه بوقوع مجاعة ضمنيا دون أن تذكر ذلك مباشرة، ما دامت قد أشارت إلى أبرز مظاهرها والمتمثلة في غلاء الأسعار.

لم تكن العوارض الطبيعية والأزمات السياسية والاقتصادية السبب الوحيد في حدوث الغلاء؛ بل كان

966- **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 181.

967- **العبر**، 7 / 197.

968- **المصدر نفسه**، ص 223.

السبب في ذلك أيضا "التحكم في عرض السلعة"[969] ليس لقلتها وإنما لاحتكار الناس لها تحسبا لوقوع عوارض أو أزمات، "ولولا احتكار الناس لها لما يتوقع من تلك الآفات لبذلت دون ثمن، ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران" على حد قول ابن خلدون الذي اعتبر احتكار (الادخار) الناس للزرع تفاديا لوقوع المجاعات أمرا ضروريا لابد منه، "فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات، فغلا الزرع وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا، وكان بعض السنوات الاحتكار مفقودا فشمل الناس الجوع".[970]

ويكون هذا الاحتكار أيضا من طرف التجار انتظارا منهم لأوقات الغلاء حتى يعظم ربحهم، فاعتبر ابن خلدون ذلك أمرا مذموما، وعبر عنه قائلا: "إن احتكار الزرع لتحين أوقات الغلاء مشئوم، وإنه يعود على فائدته بالتلف والخسران".[971]

ومن الثابت أيضا أن الفقهاء قد حرموا ذلك لما فيه من مضرة على الناس " فهم متفقون أن علة المنع من الاحتكار تغلية الأسعار، وإنما اختلفوا في جوازه لاختلافهم باجتهادهم في وجود العلة وعدمها"،[972] وعليه فقد كانت جملة اختلاف الفقهاء في جواز أو منع احتكار التجار للسلع في أوقات الرخاء ما لم يكن ذلك فيه مضرة على الناس كما يلي:

* فمنهم من منع هذا الاحتكار جملة.
* وهناك من جوز احتكار القمح والشعير وسائر الأطعمة وقت الرخاء ما لم يسبب ذلك مضرة للناس.
* ومنهم من جوز احتكار كل السلع ما عدا القمح والشعير.
* وهناك من منع احتكارها كلها ما عدا الإدام أو الفواكه والسمن والعسل والتين.[973]

ويتحكم في غلاء الأسعار أيضا في غير أوقات المجاعة قانون العرض والطلب، فإذا كانت السلعة نادرة الوجود وكثر الطلب عليها غلت أثمانها في الأسواق،[974] "وإذا قلت وعزت غلت أثمانها"، خصوصا السلع المجلوبة من الخارج، فالتجار يتحملون مشاق جلبها ليحققوا بذلك أرباحا كثيرة لأنها تباع بأثمان غالية، وهو ما يسميه ابن خلدون "بحوالة الأسواق" ويضرب لنا مثلا بسلع السودان: فهي قليلة وغالية السعر لأن التجار يتحملون لجلبها مشقة الطريق من خوف وجوع وما شاكل ذلك.[975]

إن قيمة السلع وخاصة الغذائية منها زمن المجاعات والكوارث قد عرفت ارتفاعا في أسواق المغرب الأوسط من دون شك،[976] وهذا ما وضحته لنا الإسطوغرافيا التقليدية، فتكاد كل مجاعة تقترن بغلاء الأسعار، لذلك حرم الفقهاء الاحتكار في مثل هذه الأوقات، ومنعوا الجلاب من بيع الطعام في الفنادق والدور، وألزموهم

---

[969]– أحمد السيد الصاوي: **مجاعات مصر الفاطمية**، ص 154.

[970]– **المقدمة**، ص 337 – 282.

[971]– **المصدر نفسه**، ص 368.

[972]– العقباني: **تحفة الناظر وغنية الذاكر**، ص 130.

[973]– **المصدر نفسه**، ص 130 – 129.

[974]– نجاة باشا: **التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة**، تونس: منشورات الجامعة التونسية، 1976م، ص 30.

[975]– **المقدمة**، ص 368.

[976]– نجاة باشا: **المرجع السابق**، ص 31.

إنزاله إلى السوق حتى يدركه الضعيف ولا يستأثر به أولو القوة، وكذلك أمرو التجار بإخراج ما عندهم من الطعام لحاجة الناس إليه، وإن لم يفعلوا تخرج بضاعتهم وتباع قسرا، ويعطى لهم رؤوس أموالهم والفائدة تفرق على الضعفاء تأديبا لهم، وإن لم ينتهوا عن ذلك كان الضرب والسجن عقابا لهم؛[977] وعليه فإننا سنحاول تسجيل أسعار مختلف المواد الغذائية وغير الغذائية أوقات الغلاء على قدر ما توفره لنا المادة المصدرية.

- الحبوب

تشكل الحبوب الغذاء الرئيسي لسكان المغرب الأوسط، فهي من "ضرورات القوت" كما يصفها ابن خلدون،[978] ولا شك أن غلاء أسعارها أوقات المجاعة راجع إلى كثرة الطلب عليها، فهي أول المواد الغذائية التي تختفي من الأسواق عند شعور الناس بحدوث المجاعة،[979] كما أن التجار الذين يحتكرون الزرع يستغلون هذا الظرف للزيادة في أسعار القمح والشعير، أو يشترونه مباشرة من الدور أو الفنادق قبل نزوله إلى الأسواق،[980] فيدخل في عملية التداول على السلعة أكثر من تاجر وسمسار[981] قصد الربح، فتصل بأثمان مرتفعة إلى الأسواق، لذلك نهى الفقهاء عن هذا السلوك، ومُنع الحناطين من شرائه في الدور أوقات الغلاء، لأنه يدخل في باب المضرة بالأسواق وعامة الناس.

ومثلهم في ذلك مثل الطحانين الذين يشترون القمح في الدور ويطحنونه ويبيعونه دقيقا للناس بسعر مرتفع، لأنهم يحتسبون في ذلك جهودهم في الطحن، فقد منع الفقهاء ذلك أيضا إذا كان فيه مضرة بالناس وتغلية في أسعارهم،[982] ويمكن أن نوضح أسعار القمح والشعير في بعض سنوات المجاعة في الجدول التالي:

جدول 07: يوضح قيمة أسعار القمح والشعير أثناء بعض المجاعات

نوع السلعة ومقدارها	**ثمنها أيام الغلاء**	**ثمنها في حالة الرخاء**	**المكان**	**الزمن**	**المصدر/ المرجع**
القفيز من القمح	15 دينار	غير مذكور	المغرب	624 هـ/1228م	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 359.
القفيز من القمح	30 دينارا	غير مذكور	المغرب	630 هـ/1232م	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**،ص 361.
الربع الواحد من الدقيق الفاسد	3 دنانير	غير مذكور	المغرب	632 هـ/1234م	ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص318-

[977]- العقباني: **تحفة الناظر وغنية الذاكر**، ص 127 - 128.

[978]- **المقدمة**، ص 337.

[979]- الصاوي: **مجاعات مصر الفاطمية**، ص 157.

[980]- العقباني: **المصدر السابق**، ص 128.

[981]- الصاوي: **المرجع السابق**، ص 129.

[982]- العقباني: **تحفة الناظر وغنية الذاكر**، ص 129.

					.319
المد الواحد من القمح	7 دراهم كبار	غير مذكور	المغرب	632هـ/1234م	ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص325.
الربع الواحد من الدقيق	37 درهم	غير مذكور	المغرب	634 هـ/1236م	ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)** ص 339.
الصاع من القمح	10 دراهم	غير مذكور	المغرب	677 هـ/1278م	السلاوي: **الاستقصا**، 89/3.
الصاع من القمح	10 دراهم	غير مذكور	المغرب	679 هـ/1280م	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**،ص 535.
ثمن صاع من القمح	ديناران وربع	ثمانية صيعان قمح بثمن دينار	تلمسان أثناء الحصار المريني	698-707 هـ /1298- 1307م	يحيى بن خلدون: **بغية الرواد** 1/ 125- 124التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص 134.
ثمن الصاع من الشعير	نصف ثمن القمح أي 1.125 أي1دينار و0.125	16صاعا شعير بثمن دينار(بعد الفرج)	تلمسان أثناء الحصار المريني	698-707هـ /1298- 1307م	يحيى بن خلدون: **بغية الرواد** 1/ 125- 124.
ثمن البرشالة من القمح	مثقالان ونصف من الذهب العين		تلمسان	698-707هـ /1298- 1307م	ابن خلدون: **العبر**، 7/ 197- 198.
- ثمن الكيل من القمح (روجيو) - ثمن كيل (السكورسو) من القمح	-ثلاثون مثقالا -ثلاثة مثاقيل	بيوتشيين[983]	تلمسان	698-707هـ /1298- 1307م	الوزان: **وصف إفريقيا**، 2 / 18- 19.

[983]- عملة إيطالية قيمتها تقدر بنحو 7 سنتيمات من الذهب، أنظر: الوزان: **وصف إفريقيا**، 2 / 19.

-المد من القمح -ست أوقية من الذهب	-عشرة دراهم -بدرهم		المغرب وإفريقية ومصر	693هـ/1293م	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص539-540، السلاوي: **الاستقصا**،3/ 90.،
-الصحفة من القمح -الصحفة من الشعير		درهم واحد للصحفة ثمانية دراهم	المغرب، إفريقية	694هـ/1294م	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 507.
-الصحفة من القمح -المد من القمح أربع أواقي من الدقيق	90 دينار 15 درهم بدرهم	المد الواحد من القمح 4 دراهم.	المغرب	724-725هـ/1323- 1324م	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص530.
-قفيز من القمح **-قفيز من الشعير**	8 دنانير كبيرة 4 دنانير كبيرة		إفريقية	749هـ/1348م	ابن الشماع: **الأدلة البينة**، ص 98.
-ثمانية من الفول	درهم		**قسنطينة**	758هـ/1356م	ابن مريم: **البستان**، ص 177.
-صاع ونصف من القمح	دينار		تلمسان	842هـ/1438م	ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 222.

- الحبوب وأسعارها أوقات المجاعات

إن المصادر المغربية كانت أكثر اهتماما بذكر أسعار القمح والشعير أثناء الغلاء من المصادر التي أرخت للمغرب الأوسط، والتي اكتفت بإشارات يسيرة لا تسمح لنا بصناعة عرض كرونولوجي لأسعار الحبوب في مختلف المجاعات المحلية الواقعة داخل هذا المجال، إلا أن هذه المصادر من جهة أخرى ركزت لنا على حالة الغلاء التي كانت بتلمسان جراء الحصار المر يني.

لكننا لا نعلم ما إذا كان المغرب الأوسط معنيا بموجات الغلاء في أسعار الحبوب في مختلف المجاعات الواقعة بالمغرب عامة؛ وما إذا كانت بنفس قيمة الأسعار المسجلة في المصادر المغربية، فلا نستطيع الجزم على ذلك لغياب مادة مصدرية دقيقة، فهل كان هذا إهمالا من المؤرخين الذين أرخوا لهذا المجال؟ أم أن موجة الغلاء لم

تكن لتدرك المغرب الأوسط في بعض الفترات؟.

أما بالنسبة لغلاء أسعار القمح والشعير أثناء المجاعة الواقعة بتلمسان وهي محاصرة من طرف بني مرين؛ فإن المصادر من جهة قد تباينت في ذكر مقدارهما وأثمانهما، فابن خلدون يذكر القمح بمقدار البرشالة وبسكة المثقال- مثقالين ونصف من الذهب- في حين ذكر يحيى بن خلدون والتنسي أسعار القمح والشعير بمقدار الصاع وبسكة الدينار، إضافة إلى ذكر أسعارهما أوقات الرخاء على خلاف ابن خلدون، أما الوزان فقد ذكر سعرين للقمح وكان مخالفا للروايات الأخرى، فلا شك في أن السعر الأول سجل عندما استفحل الغلاء -وهو يذكر ذلك- أما السعر الثاني فقد ربطه بسعر الرخاء في آخر يوم من الحصار؛ لكننا لا نستطيع ترجيح رواية على أخرى لانعدام أدلة حول ذلك، لكن لا بأس أن نعتمد هنا على الأسعار التي ذكرها كل من يحيى بن خلدون والتنسي كونهما من مؤرخي المغرب الأوسط؛ فضلا عن أنهما اتفقا في ذكر هذه الأسعار بالنسبة للقمح، أما الشعير فلم يذكر التنسي ثمنه واكتفى بذكر ثمن القمح مع بعض المواد الغذائية الأخرى.

لكن من المؤسف أننا لا نملك قيمة سعر القمح والشعير في الحالة العادية حتى نستطيع معرفة نسبة الزيادة، أو التضخم في الأسعار من الحالة العادية إلى حالة الغلاء، غير أننا نستطيع حساب نسبة النقصان إلى الرخاء لأننا نمتلك سعرهما في حالة الرخاء وسنبين ذلك في الجدول التالي:

المقدار	السعر أثناء الغلاء	السعر أثناء الرخاء	القيمة المتوسطة = سعر الغلاء+سعر الرخاء / 2	نسبة النقصان في السعر من حالة الغلاء إلى حالة الرخاء
صاع من القمح	ديناران وربع 2.25دينار	100/1دينار= 0.01 دينار	1.13دينار	**% 99.55**
صاع من الشعير	نصف ثمن القمح=1.125دينار	128/1دينار =0.007 دينار	0.566=2/1.13 دينار (نصف ثمن القمح أيضا)	% 99.38

وعليه فإذا اعتبرنا أن سعر القمح والشعير في الأوقات العادية هو نفسه القيمة المتوسطة الموضحة في الجدول أعلاه، فإن سعره في هذا الغلاء قد تضاعف مرة واحدة تقريبا، لكن من المستحيل أن نأخذ ذلك بعين الاعتبار على أساس أن المصادر وفي مقدمتها تاريخ ابن خلدون قد نوهت بأن هذا الغلاء في أسعار الحبوب وجميع الأقوات عموما، كان متفاحشا وليس لمجرد تضاعفه مرة واحدة، فيقول ابن خلدون في ذلك: "وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد وعجز حدهم عنه".[984]

[984]- العبر، 7 / 197.

وإذا قمنا بدراسة لسعر القمح في زمن الغلاء الكائن بتلمسان وهي محاصرة، والذي يقدر كما هو موضح في الجدول بدينارين وربع، بسعر غلائه في مجاعة أخرى وقعت بها سنة 842 هـ/1438م، والذي قدر بـ1 دينار لصاع ونصف من القمح أي 0.66 دينارا للصاع الواحد، فإننا نسجل مفارقة كبيرة جدا بين السعرين والتي تقدر بـ 2.19 دينار، مما يجعلنا نقر أن غلاء أسعار القمح كان أكثر في المجاعة التي حدثت أثناء الحصار المريني من سعره في مجاعة سنة 842 هـ/1438م، مما يجعلنا نستخلص أيضا أن الغلاء الواقع في المجاعة الأولى كان فوق حدود المعقول، وإذا عبرنا عن فارق السعر هذا بين المجاعة الأولى (698-707 هـ/1298-1307م) والمجاعة الثانية (842 هـ/1438م) بالكيل؛ فإن ثمن الصاع الواحد في الحالة الأولى يقابله الثمن نفسه لأكثر من ثلاث صيعان في الحالة الثانية، كما أن نسبة النقصان في سعر القمح والشعير الموضحة في الجدول أعلاه تجعلنا نستنتج أيضا أن غلاء أسعارهما في هذه المجاعة الناتجة عن الحصار كان مرتفعا جدا.

كما أن نسبة نقصان القمح والشعير من حالة الغلاء إلى حالة الرخاء بالنسبة للمجاعة الواقعة بتلمسان أثناء الحصار كانت بنسبة كبيرة جدا قاربت 100 %؛ فقد يكون هذا الانخفاض في قيمة أسعار الحبوب مبالغا فيه، لكن لا نستبعد ذلك لأن حركة التجارة في تلمسان قد كانت قائمة خلال سنوات الحصار أيضا؛ حيث كان التجار الآراغونيين يجلبون سلعهم ويبيعونها في موانئ تلمسان كتنس وشرشال والجزائر ووهران، فينقلها التجار خفية إلى داخل تلمسان لبيعها بالغلاء طمعا في الربح،[985] لأن السلطان المريني كان قد توعد بعقاب من يتسلل بالأقوات إلى تلمسان حينئذ.[986]

فلا شك في أن السلع كانت موجودة في أسواقها، لكن الناس كانوا عاجزين عن شرائها إلا ذوو الكفاف منهم، بدليل حدوث تناقص كبير في قيمة أسعار الحبوب خلال وقت قصير جدا من زوال الحصار؛ فيذكر يحيى بن خلدون أن حدوث الرخاء والتناقص في سعرهما كان في ساعة واحدة بعد الفرج،[987] غير أن التنسي يذكر "أن القمح بيع فيها أول النهار بدينارين وربع وبيع آخر النهار ثمانية أصع قمح بثمن دينار"،[988] ولا نعلم أي الروايات أصح لانعدام الأدلة التي تساعدنا على ترجيح رأي منهما .

أما المجاعة الكائنة سنة 693 هـ/1293م، فمن الراجح أن الغلاء الواقع خلالها قد شمل المغرب الأوسط أيضا، لأن هذه المجاعة قد عمت المغرب وإفريقية ومصر، لكن لسنا نعلم إن كانت أسعار القمح التي ذكرها ابن أبي زرع هي نفسها أسعارها في المغرب الأوسط؟

أما بالنسبة للمصادر المغربية التي ذكرت أسعار القمح في حالة الغلاء زمن المجاعة المذكورة؛ فإنها لم تمدنا بأسعاره في الحالة العادية، مما يصعب علينا معرفة نسبة التضخم أو الزيادة في أسعاره، في حين ذكرت لنا سعره في حالة الرخاء بعد هذا الغلاء، وذلك نوضحه كما يأتي

---

[985]- Dufourcq **: *L'Espagne catalane,*** P 371.

[986]- ابن خلدون: **المصدر السابق**، 7 / 458.

[987]- **بغية الرواد**، 1 / 125.

[988]- **نظم الدر والعقيان**، ص 134.

نسبة النقصان من حالة الغلاء إلى الرخاء	القيمة المتوسطة	ثمنه في الرخاء	ثمنه أوقات الغلاء	مقدار القمح
% 94.33	5.03	15/1 دينارا أي 0.06 دينار	10 دراهم	المد[989] الواحد من القمح

إن نسبة النقصان من حالة الغلاء إلى حالة الرخاء في سعر القمح بالنسبة لهذه المجاعة، كانت كبيرة جدا قاربت أيضا 100 % ، والتناقص الكبير في قيمة سعره بعد هذا الغلاء يعكس أيضا حالة الرخاء العظيمة بعد هذه الشدة.

كما أن المجاعة الواقعة في المغرب بين سنتي 724- 725 هـ/1323- 1324م كان الغلاء فيهما في سعر القمح والدقيق أيضا، حيث بينت لنا المصادر قيمة سعر القمح في الرخاء الذي حدث عقب هذه المجاعة سنة 725 هـ/1324م، ومن حسن الحظ أن العمري (تـ 749 هـ/1348م) قد ذكر لنا قيمته في الحالة العادية، وسنبين ذلك فيما يأتي:

نسبة النقصان	نسبة الزيادة أو التضخم	سعره في حالة الرخاء	سعره في حالة الغلاء	سعره في الحالة العادية	مقدار القمح
%21.05	% 99.50	4 دراهم	15 درهما	0.15 درهما من الصغار[991] = 0.75 درهم من الكبار	المد[990] الواحد من القمح

إن نسبة التضخم في سعر القمح بالنسبة لهذه المجاعة كانت مرتفعة جدا حيث قاربت 100 %، فنستنتج حينئذ أن الغلاء في سعر القمح بالنسبة لهذه المجاعة كان فاحشا، أما نسبة النقصان من حالة الغلاء إلى حالة الرخاء فلم تكن بقيمة كبيرة، فربما ظل سعر القمح مرتفعا نوعا ما بعد هذه المجاعة، وأن وتيرة تناقصه كانت متباطئة.

وإذا رجعنا إلى الجدول الذي يمثل أسعار الحبوب فلا شك أن غلاء أسعار القمح والشعير في المجاعة الواقعة بإفريقية سنة 749 هـ/1348م همنا على اعتبار أن المجال الذي اخترناه للدراسة كان الجزء الشرقي منه خاضعا لسياسة السلطنة الحفصية في أغلب فتراته.

فمن حسن الحظ أن العمري قد ذكر لنا قيمة أسعار القمح والشعير بإفريقية في الحالة العادية[992] لنعرف نسبة التضخم أو الزيادة في أسعارهما خلال الغلاء في السنة المذكورة لكن لم تمدنا المصادر بسعرهما في حالة

[989]- لقد ورد ذكر قيمة سعر القمح عند الرخاء في المصدر بمقدار الصفحة فحولناه إلى المد، علما أن الصفحة تساوي 60 صاعا والمد يساوي 1/ 4 صاع وبالتالي فإن الصفحة تساوي 15 مدا، أنظر: العمري: **مسالك الأبصار**، ص83، فالتر هنتس: **المكاييل والأوزان الإسلامية**، ص 74.

[990]- ذكر العمري أسعار القمح في الحالة العادية بمقدار الوسق، وهو مقدار مساوي للصحفة التي سبق و أن أشرنا إليها.

[991]- ذكر العمري أن درهما من الكبار يعادل درهمين من الصغار، أنظر: **مسالك الأبصار**، ص 82.

[992]- **مسالك الأبصار**، ص 52.

الرخاء، فلا نتمكن بذلك من حساب نسبة النقصان، ويمكن أن نوضح ذلك كما يأتي:

المقدار	السعر في الحالة العادية	السعر في حالة الغلاء	الفارق بينهما في السعر	نسبة الزيادة أو التضخم في السعر
القفيز من القمح	50 درهما أي = 5 دنانير	8 دنانير	3 دنانير	% 38.46
القفيز من الشعير	والشعير أقل من ذلك لنفرض أن سعه 2.5دينار = 25 درهما أي نصف ثمن القمح.	4 دنانير كبيرة	1.5دينار (دينار ونصف)	% 38.46

فمن الملاحظ أن فارق السعر بين أسعار القمح والشعير في الحالة العادية وحالة الغلاء لم يكن كبيرا حتى إنه يتضاعف، وبالتالي فإن نسبة الزيادة أو التضخم كانت طفيفة، حينها ندرك أن تلك المجاعة لم يكن فيها الغلاء كبيرا مقارنة بغلاء سعر القمح بالمجاعة التي وقعت بالمغرب والتي امتدت من سنة 724 هـ/1323م إلى 725 هـ/1324م.

وعموما ترتفع أسعار القمح والشعير أوقات المجاعات نظرا لأهميتهما في غذاء إنسان المغرب الأوسط، ويكون القمح بدرجة أكبر، لكن قيمة أسعارهما في الغلاء تتفاوت من مجاعة إلى أخرى بحسب حجمها وخطورتها، لكن من المؤسف أن المصادر لم تمدنا بمعلومات دقيقة عن أسعار القمح والشعير في كل المجاعات حتى نتمكن من رصد مختلف التغيرات الحاصلة في أسعارهما في فترات زمنية متعددة، أو حتى نتمكن من حساب نسبة التضخم أو الزيادة في أسعارهما من أجل معرفة الوضع الذي آل إليه المغرب الأوسط أوقات المجاعات لأن ارتفاع أسعارهما يساهم بدرجة أكبر في انحدار مستوى معيشة المجتمع نحو الأسوأ.

- اللحوم

من المعلوم أن لحوم الحيوانات والدواجن تأتي في المرتبة الثانية من حيث أهميتها في غذاء الإنسان القروسطي بعد الحبوب، فلا شك أن أسعارها ترتفع أوقات المجاعات والكوارث للأسباب التالية:

1- موت هذه الحيوانات بسبب الجوع والعطش في حالة حدوث جوائح خصوصا جائحة القحط، أو انعدام الكلأ أوقات المجاعات،[993] وفي هذا الصدد يذكر يحي بن خلدون عن مجاعة سنة 776 هـ/1374م التي شملت المغرب كله بسبب رياح مهلكة، فيقول: "واشتملت هذه السنة... على مجاعة شديدة... لريح ذات إعصار أهلكت زرع صائفتها وحيوانها".[994]

2- موت الحيوانات بسبب الأمراض والأوبئة التي تنتشر أوقات المجاعات.

---

[993]- الصاوي: **مجاعات مصر الفاطمية**، ص 172.

[994]- **بغية الرواد**، 2 / 326.

3- ولعل ارتفاع أسعار القمح والشعير أوقات المجاعات يصرف أنظار الناس عنها إلى شراء اللحوم، فيزداد الطلب عليها فترتفع أثمانها أيضا.[995]

4- تكون المواشي عرضة للموت والنهب أيضا في حالة الحروب، لأنه يصعب على الفلاحين إخفاؤها فتكون فريسة سهلة أمام المحاربين.[996]

وعلى خلاف ما حظيت به أسعار القمح والشعير أثناء الغلاء أو الرخاء من اهتمام المصادر، لم تكن أسعار اللحوم والدواجن أثناء الغلاء لتحظى بالاهتمام نفسه إلا في إشارات يسيرة، بخلاف ابن خلدون الذي فصل في أسعارها أثناء الغلاء الكائن بتلمسان وقت الحصار المريني لها، ويمكن أن نوضح هذه الأسعار في الجدول الآتي:

جدول 08: يمثل أسعار اللحوم في بعض أوقات الغلاء

نوع السلعة و مقدارها	ثمنها في حالة الغلاء	المكان	الزمان	المصدر / المرجع
-الرأس الواحد من البقر -الرأس الواحد من الضأن -الرطل الواحد من لحم الجيفة من البغال -الرطل الواحد من لحم الجيفة من الحمير -رطل واحد من لحم الجيفة من الخيل -رطل من جلد البقر ميتة أو مذكى	- 60 مثقالا - 7 مثاقيل ونصف - بثمن مثقال - بثمن مثقال - 10 دراهم صغار -بثلاثين درهما	تلمسان	(698-707 هـ /1298-1307م)	ابن خلدون: **العبر**، 7/ 198.
- الهر الواحد - الكلب - الفأر - الحية - الدجاجة - البيضة الواحدة - العصافير	-بمثقال ونصف -بمثقال و نصف - 10 دراهم - 10 دراهم - 16 درهم - 6 دراهم - 6 دراهم	تلمسان	(698-707هـ /1298-1307م)	ابن خلدون: **العبر**، 7 / 198.
الدجاجة	8 دنانير ذهبا	تلمسان	(698-707هـ /1298-1307م)	التنسي: **نظم الدر والعقيان**، ص 132.
الدجاجة	10 دنانير ذهبا	تلمسان	(698-707هـ /1298-	ابن قنفذ: **أنس الفقير**،ص112،

[995]- الصاوي: **المرجع السابق**، ص 172.

[996]- محمد الأمين البزاز: **حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط**، ص 99 .

			1307م)	التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص242.
خمس أواقي من اللحم		**المغرب**	(724-725هـ-/1323-1324م)	ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 530.

- أسعار اللحوم ومختلف الحيوانات والدواجن أوقات المجاعات

من بين كل المؤرخين اهتم ابن خلدون بذكر كل أسعار أنواع اللحوم والدواجن أثناء غلائها في المجاعة الواقعة بتلمسان أثناء الحصار المريني الذي ضرب عليها، فهو يبرز من خلال ذلك أهمية هذا الحدث في تاريخ المغرب الأوسط، لكن من المؤسف أننا لا نملك معطيات كافية حول قيمة أسعار مختلف اللحوم والدواجن في الحالة العادية ولا في حالة رخصها بعد الغلاء، لهذا لا يمكننا حساب مقدار زيادة أسعارها أو معرفة نسبة التضخم ولا حتى نسبة نقصانها في حالة الرخاء.

لكنه بالرغم من قلة المعطيات فإننا نستطيع القول أن أسعار اللحوم خلال هذا الغلاء قد عرفت ارتفاعا كبيرا، لأنه حتى اللحوم المحرمة كالميتة ولحوم الكلاب والقطط والفئران والحيات أصبح لها ثمن معتبر في السوق، بسبب غلاء اللحوم العادية أو حتى ندرتها، ولا شك في أن توفر لحم الميتة في الأسواق وبيعها يدل لا محالة على موت الحيوانات بسبب نقص الكلأ أو تعرضها لمختلف الأمراض والأوبئة.

كما أن الراويات التي ذكرت أسعار اللحوم والدواجن الخاصة بهذه المجاعة الواقعة بتلمسان قد تضاربت فيما بينها، ويتضح ذلك في ثمن الدجاجة خصوصا، لكن لا نملك أدلة قاطعة لنرجح رواية على أخرى، خاصة وأن المصادر التي أفادتنا بتلك القيم لم يكن مؤلفوها ممن عايشوا هذه الفترة، ولهذا تبقى مسألة الأسعار نسبية، وربما أعطونا سعرها في أسواق مختلفة داخل مدينة تلمسان.

أما بالنسبة للمجاعة الواقعة بالمغرب سنة 724 هـ/1323م، فإنه يمكننا تحديد نسبة الزيادة أو التضخم في سعر اللحم، لأن العمري[997] قد ذكر لنا سعره في الحالة العادية ويمكن توضيح ذلك في الجدول التالي:

مقدار اللحم	سعره في الحالة العادية	سعره في حالة الغلاء	نسبة الزيادة أو التضخم
5 أواقي من اللحم	0.31	1 دينار	% 76.33

إن نسبة التضخم أو الزيادة كما هو ملاحظ كانت كبيرة جدا، وبالتالي فإن سعر اللحم في مجاعة سنة 724 هـ/1323م قد عرف غلاءً كبيرا أيضا.

ومن ثم فإن أسعار اللحوم أوقات المجاعات عرفت غلاءً كبيرا، مثلها مثل الحبوب حتى اضطر الناس إلى

[997]- أورد العمري سعر اللحم بمقدار الرطل فحولناه إلي مقدار 5 أواقي كما جاء في حالة الغلاء علما أن الرطل الواحد يساوي 16 أوقية، أنظر: **مسالك الأبصار**، ص 83.

أكل لحم الجيفة واللحوم المحرمة، الأمر الذي يجعلنا نتساءل: هل أن الفقهاء والقضاة والمحتسبين على الأسواق لم يمنعوا الناس من أكل الجيفة واللحوم المحرمة نتيجة انعدام الطعام لضرورة اقتضتها أوقات الشدة؟، أم أن ذلك يُفسر بانحسار دور هؤلاء في ظل هذه الظروف الطارئة؟.

ـ أسعار المواد الغذائية الأخرى

إن أسعار المواد الغذائية الأخرى قد عرفت أوقات المجاعات غلاءً أيضا، فبالرغم من أن المصادر لم تكن لتشير إلى أسعارها في مثل هذه الأوقات إلا نادرا، لأنها تصب اهتمامها أكثر على أسعار القمح والشعير، باعتبارهما عماد غذاء الإنسان المغربي، في حين انفرد ابن خلدون عن كل المؤرخين بذكر أسعار كل المواد الغذائية، حتى الخضر والفواكه أوقات الغلاء الذي شهدته تلمسان زمن الحصار المريني، كما أن التنسي ذكر البعض من هذه الأسعار، وسنوضح ذلك في الجدول الآتي:

جدول 08: يمثل أسعار بعض المواد الغذائية أوقات بعض المجاعات

نوع السلعة ومقدارها	**ثمنها أوقات الغلاء**	**الزمان**	**المكان**	**المصدر**
أوقية واحدة من الزيت أوقية واحدة من السمن أوقية واحدة من الشحم أوقية واحدة من الفول أوقية واحدة من الملح أوقية واحدة من الحطب الأصل الواحد من الكرنب الأصل الواحد من الخس الأصل الواحد من اللفت الواحدة من القثاء الواحدة من الفقوس الواحدة من الخيار الواحدة من البطيخ الحبة الواحدة من التين الحبة الواحدة من الأجاص	12 درهما 12 درهما 20 درهما 20 درهما 10 درهما 10 درهما بثلاثة أثمان المثقال 20درهما 15 درهم 40 درهما 40 درهما بثلاثة أثمان الدينار بثلاثين درهما درهمان درهمان	698-707هـ/1298-1307م	تلمسان	ابن خلدون : **العبر** 7 / 198
الرطل من الملح الرطل من الزيت الرطل من السمن الرطل من العسل	ديناران ديناران ديناران	698-707هـ/1298-1307م	تلمسان	التنسي : **نظم الدر والعقيان**، ص 132.

أوقيتان من الزيت أوقيتان من العسل أوقية و نصف من السمن	بدرهم بدرهم بدرهم	724-725هـ /1323- 1324م	المغرب	ابن أبي زرع : **روض القرطاس**، ص530.
الزق من الماء	4 دراهم	ق7هـ/13م من النصف الأول	بجاية	الغبريني : **عنوان الدراية**، ص151.

وعلى خلاف المؤرخين اهتم ابن خلدون أيضا بذكر كل أسعار المواد الغذائية باختلاف أنواعها، لكن لا نملك أسعارها في الأوقات العادية، حتى نتمكن من معرفة نسبة الزيادة أو التضخم في وقت الغلاء، لكن تضاربت الروايات بين ما ذكر ابن خلدون من أسعار بعض المواد الغذائية وبين ما ذكره التنسي والذي لم يذكر سوى سعر الملح والزيت والسمن.

وعلى خلاف المجاعات التي كان السبب في حدوثها آفات سماوية أين تنعدم الخضر والفواكه أو بالأحرى الزرع كله؛ فقد ذكر لنا ابن خلدون أسعار كل أنواع الخضر وبعض الفواكه وقت الغلاء الحاصل بتلمسان، الأمر الذي يدل على أنها لم تنعدم، على خلاف المجاعة الواقعة بالمغرب سنة 724 و 725 هـ/1323 و1324 م حيث انعدمت فيها الخضر حسبما يذكر ابن أبي زرع.[998]

وإذا قارنا أسعار بعض المواد الغذائية وغلاءها في المجاعة المذكورتين نحصل على الجدول الآتي:

المواد ومقدارها	**ثمنها في الغلاء الواقع بتلمسان (698-707 هـ /1298ـ 1307م) – الحالة الأولى –**	**ثمنها في المجاعة الواقعة في المغرب (724-725 هـ /1323- 1324 م) – الحالة الثانية –**	**الفرق بين الأسعار**
أوقية من الزيت	12 درهما	بنصف درهم (2/1 درهم)	11.5 درهم
أوقية من السمن	12 درهما	0.66 درهم	11.34 درهم

وكما هو ملاحظ فإن فارق السعرين بين الحالة الأولى والحالة الثانية كان كبيرا جدا، يمكن أن نستنتج من خلاله أن الغلاء الكائن بتلمسان أكبر بكثير من الغلاء الذي حدث في المجاعة الواقعة بالمغرب.

وفضلا عن هذه المواد فإن الحطب كان له ثمن معتبر أيضا في المجاعة الواقعة بتلمسان، فالناس يستعملونه للطهي والتدفئة، فقد ذكر التنسي أن أهل تلمسان "كانوا يوقدون خشب دورهم ينقضونها لذلك"،[999] كما كان للماء أيضا ثمن معتبر في أوقات المجاعات، سيما التي كانت ناتجة عن جائحة القحط فينعدم الماء بسببها كلية.

---

[998]- **روض القرطاس**، ص 530.

[999]- **نظم الدر والعقيان**، ص 132.

ـ حالة المجاعة وظاهرة تسعير الأسعار في الأسواق

إن الحديث عن غلاء الأسعار في أوقات المجاعات يقودنا إلى الحديث عن ظاهرة التسعير؛ فبالرغم من غلاء أسعار مختلف المواد الغذائية أثناء المجاعات الواقعة في المغرب الأوسط؛ إلا أن المصادر لم تشر إلى لجوء السلطة إلى سياسة التسعير، على اعتبار أن التسعير منهي عنه شرعا،[1000] لأنه يعد مظلمة في حق التجار والباعة في الأسواق، سيما أوقات الغلاء لأن ذلك مقدر لا يد للإنسان فيه، فالتسعير يتأذى به التجار خصوصا الجلابون منهم –الذين يجلبون البضائع من البوادي إلى المدن–، لذا فإن الفقهاء أجمعوا على حرمة التسعير عليهم مهما كانت الظروف حتى لا تتأثر بذلك العلاقات التجارية بين المدن والبوادي.

في حين رأى بعض الفقهاء أن التسعير واجب إذا تمادى التجار في تغلية الأسعار أوقات الشدة بإخراج ما عندهم من البضائع المحتكرة ومضاعفة أثمانها، فإنهم يجبرون على الحط من السعر والالتحاق بأسعار السوق حتى لا يضر ذلك بعامة الناس.[1001]

لقد أشار العقباني إلى أن الأسعار كانت مفروضة بتلمسان في غير أوقات المجاعة على الأقل في القرنين الثامن والتاسع الهجريين وهو ما يسمى"بعمل القيمة"،[1002]حتى لا يتجاوز التجار حدودهم في تغلية الأسعار، ويتبين ذلك خصوصا في الفتوى التي أفتى بها جده، والذي رأى ضرورة فرض قيمة الأسعار على الذين يتحينون مثل هذه الظروف لتغلية الأسعار أدبا لهم[1003]، ولا شك في أن ذلك كان في معظم أسواق المغرب الأوسط لكن ليس لدينا الأدلة لتأكيد ذلك، ويبقى هذا الحكم ظنيا فقط.

وإذا كانت السلطة لم تلجأ إلى سياسة التسعير في أوقات الغلاء، فإنه ثمة إشارة مهمة تبرز دورها الفعال في مثل هذه الأوقات دون اللجوء إلى التسعير، فقد ذكر يحيى بن خلدون المبادرة التي قام بها الخليفة الزياني أبو تاشفين في المجاعة الواقعة بالمغرب الأوسط سنة 776 هـ/1374م، للتخفيف من حدة الغلاء الذي ارهق الرعية فيقول: "مع أمره أيده الله بفتح أهراء الزرع، وإباحة بيعه للناس بعد الحط من سعره الذي اقتضته المجاعة رفقا بالناس وحفظا لنظام حياتهم"،[1004] ولعل يحيى بن خلدون هنا قد نوه بارتفاع الأسعار في هذه المجاعة لكنه لم يكن ليذكر قيمة هذه الأسعار، إذ لم يهمه هنا سوى إبراز مزايا هذا الخليفة ومواقفه إزاء هذه الشدة.

أ$_2$- انخفاض في أسعار مختلف أنواع العقارات

نظرا لاهتمام الناس بتأمين الغذاء أوقات المجاعات وعلى خلاف ما عرفته مختلف أنواع السلع الغذائية من غلاء في هذه الأوقات، عرف ثمن العقار انخفاضا كبيرا لقلة الطلب عليه.

[1000]– ويستند الفقهاء بذلك إلى قول الرسول ρ في حديث أنس رضي الله عنه حيث قال: "غلا السعر في المدينة على عهد رسول الله ρ فقالوا: يا رسول الله: قد غلا السعر فسعر لنا، فقال رسول الل هρ: "إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق، إني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال " أنظر: الترمذي: **صحيح الترمذي بشرح ابن العربي المالكي (أبواب البيوع)**، ط 1، مصر: المطبعة المصرية بالأزهر، 1350هـ– 1931م، 6 / 53 .

[1001]– العقباني: **تحفة الناظر وغنية الذاكر**، ص 131 – 134، المجيلدي: **التيسير في أحكام التسعير**، تحقيق موسى لقبال، ط 2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص 48 – 52، عادل مبارك المطيرات: **أحكام الجوائح في الفقه الإسلامي**، ص 113– 119.

[1002]– محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع**، ص 75.

[1003]– أنظر هذه الفتوى مفصلة في كتاب: العقباني: **المصدر السابق**، ص 135.

[1004]– **بغية الرواد**، 2 / 326.

فقد بينت لنا نوازل الفترة البعض من صور بيع العقار في سني الجدب، وتشير بذلك إلى بعض الخلافات بين الباعة أو ورثتهم وبين المشترين، وحسبنا في ذلك ما أورده المازوني في فتوى سئل عنها أبو الفضل العقباني فيقول: "رجل قام على آخر في دار متخلفة عن أبيه، قال: أن أمي كانت باعتها منه قبل بلوغي بيسير فكانت تنفق ثمنها علي وعلى نفسها، كما كنت أنا أيضا أنفق عليها وعلى نفسي مما يفيء الله على من خدمني وأمي، غير وصي علي من أبي ولا قدمها علي على القاضي، فقال له المقدم عليه: نعم ابتعتها منها في عام المسغبة وأنت في حضانتها حذو بلوغك وعن رضي منك ببيعها، ثم ما منعك من التكلم معي في ذلك من وقت بلوغك مع علمك أن الدار لأبيك مع قيام الأحكام بالبلد".[1005]

أما عن أسعار العقار في أوقات المجاعات فقد ذكر الغبريني أن ثمن كراء فندق كبير لأجل غير معلوم أثناء المجاعة الواقعة ببجاية (ربما سنة 611 هـ/1214م) قدر بـ 300 دينار،[1006] في حين بلغ ثمن الدار في سنوات المسغبة خلال القرن 9 هـ/15م بالمغرب الأوسط 3 دنانير ذهبا، بعد أن كانت تساوي ستين دينارا في الأوقات العادية،[1007] ولعل فارق السعر بين الحالتين كبير جدا، كما قدرت نسبة نقصان السعر من الحالة العادية إلى حالة الغلاء بـ 95.23 %، أي تناقص ثمنها بشكل كبير، كما قدر ثمن الدار في بعض الأوقات بـ 5 دنانير أيضا خلال ق 9 هـ/15م.[1008]

وقد افضى زمن المسغبة ببعض الناس إلى بيع أراضي الحبس حتى يصرفوا أثمانها على الفقراء والمساكين، خاصة وأن الفقهاء قد أجازوا ذلك وباعوا الكثير من هذه الأراضي في أوقات الشدة لحماية المحتاجين من الهلاك بالجوع.[1009]

أ3 ـ أحوال العملة أوقات المجاعات

لا سبيل إلى الإنكار بأن المجاعة تخلف ضعفا اقتصاديا في شتى مفاصله، ولاشك أن هذا الضعف يمس قيمة العملة المتداول بها فتنخفض قيمتها في كثير من الأحيان، وهذا ما بينته المصادر المغربية بالنسبة لبعض المجاعات الواقعة في المغرب، فيذكر ابن عذاري انخفاض قيمة السكة في المجاعة الواقعة بالمغرب سنة 632 هـ/1234م حتى أصبح الدرهم الفضي يعادل نصف درهم، فيقول: "وأما الدرهم الفضة فكان يصرف في نصف درهم"،[1010] ويضيف أيضا أن المجاعة التي كانت بالمغرب سنة 634 هـ/1236م صاحبها انخفاض كبير في قيمة العملة حيث أن: "الدرهم الواحد أفضله عشرون درهما".[1011]

ومن جهة أخرى فإن المصادر لا تورد إشارة صريحة تدل على حدوث تغير قيمة العملة زمن مختلف المجاعات

[1005]– **الدرر المكنونة**، 2 / 18 ب .

[1006]– **عنوان الدراية**، ص 135 .

[1007]– الونشريسي: **المعيار المعرب**، 5 / 102.

[1008]– البرزلي: **جامع مسائل الأحكام**، 4 / 160 - 161.

[1009]– المازوني: **المصدر السابق**، 2 / 60 أ .

[1010]– **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 325.

[1011]– **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 339.

الواقعة في المغرب الأوسط، علما بأن لكل من الدولة الحفصية والزيانية عملة خاصة بهما مقاربة في وزنها لوزن الدينار الموحدي الذي صكه الخليفة يعقوب المنصور وقرر أن يكون وزنه مساويا للمثقال والذي يقدر بـــ 4.27غ .[1012]

إن الدينار الحفصي الذي كان متعاملا به في بجاية على أساس التبعية السياسية للحفصيين لم يتأثر بالمجاعات أو الكوارث الطبيعية الواقعة في إفريقية أو في المغرب الإسلامي، فلم تنخفض قيمته عن 4.57غ؛ وهذا ما أقرته بعض الدراسات حيث "لم يتضرر عيار الدينار الحفصي بالاضطرابات السياسية أو الآفات الطبيعية، إذ لم تصلنا دنانير ذات عيار منقوص طول العهد الحفصي".[1013]

أما الدينار في العهد الزياني فقد كان يتراوح وزنه عموما ما بين 4.48غ و 4.58غ، أما الدرهم فقدر وزنه بـــ 1.5 غ،[1014] كما أن معاملات أهل تلمسان كانت أيضا بالمثقال الذهبي والذي يعادله الدينار الذهبي[1015] وكذلك الدراهم الصغيرة.

ولقد وجدت دنانير الزيانية منقوصة الوزن في بعض الفترات، إذ كانت أدنى قيمة لها بعيار 1.05غ على عهد السلطان أبي عبد الله محمد الأول (804 – 813 هـ / 1401 - 1410م)، علما بأن أعلى قيمة بلغها هذا الدينار هي 4.66غ في عهد السلطان أبي حمو الأول (707-718هـ/1307- 1318م)،[1016] وهي الفترة التي أعقبت الحصار المريني على تلمسان، فقد ضرب بنو عبد الواد هذه السكة تعبيرا عن فرحهم بهذا الفرج، حتى كتبوا فيها "ما أقرب فرج الله"،[1017] ولعل ذلك يدل على أن الدولة الزيانية قد انتعش اقتصادها بعد هذه الأزمة الطويلة.

وانخفاض قيمة الدينار على عهد السلطان أبي العباس المعروف بالعاقل (834- 866 هـ/ 1430-1461م) حتى أصبحت قيمته تعادل نصف دينار (2.22غ)،[1018] ويدل ذلك على أن الدولة الزيانية كانت تعاني من ضعف اقتصادي في هذه الفترة، فلا ريب أن المجاعة الواقعة بتلمسان في فترة حكم هذا السلطان سنة 842 هـ/1438م؛[1019] قد أثرت على العملة فلم تعرف صعودا حينها.

وقد عرفت العملة الزيانية ضعفا أيضا في الفترة المتأخرة؛ وكان الوزان قد أشار إلى ذلك قائلا: "ويسك الملك نقودا من الذهب الرديء كالدنانير التي تسمى في إيطاليا بسلاتشي (الخفيفة)، غير أن القطعة الواحدة منها تساوي دينارا وربعا إيطاليا لكونها كبيرة جدا، ويسك أيضا نقودا فضية غير خالصة،

[1012]– صالح بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي**، ص 262، بوزياني الدراجي: **نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية**، ص 227.

[1013]– **المرجع نفسه**، ص 263.

[1014] - Atalla Dhina**:** ***Royaume Abdaloudide***. p 171, 251.

[1015]– المثقال الواحد يساوي الدينار الذهبي ووزنه 4.722 غ، أنظر: فالتر هانتس: **الأوزان والمكاييل الإسلامية**، ص 10- 11 ، 18.

[1016]– بوزياني الدراجي: **المرجع السابق**، ص 228 .

[1017]– ابن خلدون: **العبر**، 7 / 198، السلاوي: **الاستقصا**، 3 / 86 .

[1018] - Atalla Dhina **:** ***Les Etate de l'Occident musulman***, p 214.

[1019]– ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 221، ابن مريم: **البستان**، ص 33 .

وأخرى نحاسية متفاوتة القيمة والنوع"،[1020] ولا شك في أن هذا الضعف راجع إلى عدة عوامل منها اقتصادية ومنها سياسية.

فعلى اعتبار أن قيمة العملة تعبر عن الضعف الاقتصادي لأي دولة أو قوتها؛ فإن قيمتها لم تتغير دائما بفعل المجاعات أو الكوارث، وهذا ما رأيناه بالنسبة للدينار الحفصي، على عكس ما سجلته المصادر المغربية حول انخفاض قيمة العملة في بعض المجاعات الواقعة في المغرب على عهد الدولة الموحدية، كذلك هو الحال بالنسبة للدولة الزيانية، فبالرغم من أن المصادر لم تشر إلى ذلك مباشرة؛ إلا أن قيمة العملة قد عرفت انخفاضا في بعض فتراتها، وقد تكون الاضطرابات السياسية والاقتصادية والمجاعات والكوارث الطبيعية سببا في ذلك.

ولا بأس أن نشير هنا إلى أن ظاهرة الغش في العملة التي كانت منتشرة في المغرب الأوسط على غرار المناطق الأخرى من الغرب الإسلامي، وظاهرة الغش في العملة إنما تكون في فترات الضعف الاقتصادي والاضطرابات السياسية، بالرغم من مواقف الفقهاء إزاء هذه الظاهرة وأمرهم بإنزال العقاب بهؤلاء "المدلسين".[1021]

كما أن مواقف السلطة حيال هذه الظاهرة كانت متشددة، فقد قطع السلطان الحفصي المستنصر (647 - 675 هـ/1249-1276م) التعامل بالعملة النحاسية التي ضربها سنة 660 هـ/1261م وسماها "الحندوس"،[1022] نتيجة إفسادها بالتدليس ومعاقبة كل من قام بذلك.[1023]

لم يكن الحضور القوي للسلطة الحفصية في بجاية ومدى محافظتها على العملة من الغش والتزوير، ليجعل منها منطقة تضرب فيها نقودا مغشوشة، بخلاف ما كانت عليه بعض المناطق الأخرى الخاضعة للسلطنة الحفصية خصوصا منطقة الجريد، ولعل ذلك ما يفسر أيضا بقاء العملة الحفصية عملة ثابتة نسبيا في أغلب الفترات كما سبق وأن أشرنا.[1024]

غير أن ذلك لم يمنع الناس من التعامل بالدراهم المغشوشة في بجاية، خصوصا عندما أفتى الفقهاء بجواز التعامل بها لأنها أصبحت بعد تداولها عملةً مصطلحا عليها كما هي حالها، وبالتالي لم تعد مدلسة ويعني ذلك أن قيمتها تبلورت وضبطت، وذلك حفاظا على رؤوس أموال الناس من التلف إذا ما بطل التعامل بها،[1025] وفي ذلك يضيف الونشريسي قائلا: "إن كان الجزء المشوب بالفضة من النحاس معلوما قدره لا يزاد فيه، واشتهر ذلك عند الخاصة والعامة من أهل دار السكة وغيرهم من المتعاملين، جاز طبعها على ذلك وجاز التعامل بها، لأنها أمنا من التدليس بها".[1026]

وقد كان الناس يبحثون عن شرعية لتعاملهم بالدراهم المغشوشة من خلال سؤالهم للفقهاء، ولعل ذلك ما

[1020]- **وصف إفريقيا**، 2 / 23 .

[1021]- محمد فتحة: **النوازل الفقهية والمجتمع**، ص 299.

[1022]- الزركشي: **تاريخ الدولتين**، ص 38 .

[1023]- ابن خلدون: **العبر**، 6 / 658.

[1024]- صالح بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي**، ص 281 .

[1025]- صالح بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي**، ص 279 .

[1026]- **المعيار المعرب**، 6 / 129 .

بينته لنا بعض النوازل الخاصة بالفترة، خصوصا النازلة التي أوردها الونشريسي حول إبدال العملة الجديدة التي ضربت في بجاية بالعملة الجرودية، فقد أفتى الفقهاء بجواز ذلك "إن كانا بوزن جائز على حكم المراطلة وإن كانا بلا وزن جاز مع التساوي مطلقا مع التفاضل"،[1027] ويتبين ذلك أيضا مما سئل عنه الوغليسي: "عن قوم يشترون سلعة مثل الملح والشاة ليأكلون، فيخرج هذا من عنده الدراهم الجديدة، ويخرج آخر الجرودية والقراريط والصغار مثلا فيخلطون ذلك ويدفعون للبائع".[1028]

وقد انتشرت ظاهرة التعامل بالدراهم المغشوشة في تلمسان أيضا، وذلك ما بينه العقباني عند كلامه عن "الدراهم المبهرجة"، مبينا أن هذه الظاهرة عمت سائر البلاد المغربية حتى كادت أن تطيح برؤوس أموال الناس، فيقول: "إن فساد سكة المسلمين وغش دراهمهم قد عم وقوعه بهذه البلاد المغربية بأسرها، و لم يقع لمادة ذلك حسم ولا إزالة حتى كادت رؤوس أموال الناس تنقرض من أيديهم بغلاء الأسعار في كل شيء، لطي العدد في المبيعات بالزيوف عن قيم العدل حتى في الأكرية والاستئجار فإنا لله وإنا إليه راجعون".[1029]

ويظهر أن مواقف الفقهاء حيال ذلك كانت متشددة، فقد أكد العقباني على ضرورة إنزال العقاب بهؤلاء بالضرب والسجن فيقول: "وإذا ظهرت دراهم مبهرجة فليشتد فيها ويبحث عن أصلها؛ فإن ظهر محدثها مفردا أو متعددا فليشدد في عقوبته ويطوف به الأسواق، مما يكون نكالا لغيره وردعا لهم مما يرى من عظيم ما نزل به، ويحبسه بعد على قدر ما يرى، ويأمر من يتعاهد ذلك بالتفقد حتى تطيب دراهمهم ودنانيرهم بهذا، مما يعم نفعه دينا ودنيا وترجى به الزلفى والقربى".[1030]

كما أن تلمسان أيضا كانت منطلقا للغش في العملة وذلك ما بينته نازلة سئل عنها محمد بن مرزوق، حيث تصور لنا مظاهر الغش في السكة وتعامل الناس بالدراهم الناقصة، علما بأن الوزن المعمول به في دار السكة حسب ما ذكر فيها يقدر بحساب 42 درهما للأوقية الواحدة، وفي حالة انتقاصهم لها تصل بحساب 46 درها للأوقية، وقد يبالغون في هذا الغش حتى تصل بحساب 56 درهما للأوقية، وقد ذكر في هذه النازلة بأن هذه الدراهم قد تخرج من دار السكة ناقصة بالتواطؤ بين صاحب الفضة واليهود العاملين بدار السكة، وذلك "لقلة الضبط وغلبة الفساد"،[1031] وهذا ربما ما يفسر عدم ثبات عملة الدولة الزيانية وتقهقرها في بعض الفترات.

[1027]– **المصدر نفسه**، 5 / 77 – 78.

[1028]– المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 23 ب .

[1029]– **تحفة الناظر وغنية الذاكر**، ص 105 .

[1030]– **المصدر نفسه**، ص 104.

[1031]– المازوني: **الدرر المكنونة**، 1 / 515 ب – 516 أ .

أ4- نفاد الأقوات وحالة الأسواق أوقات المجاعات

نظرا لأن المجاعة تفرض على الناس زيادة الطلب على المواد الغذائية وسعيهم إلى تأمينها، فإن ذلك حتما يؤدي إلى نفاد الأقوات من مخازن السلطة وكذا من مخازن الناس، خصوصا إذا كانت هذه المجاعات طويلة الأمد، فيذكر ابن خلدون نفاد الأقوات بتلمسان في المجاعة الواقعة بها أثناء الحصار المريني الطويل فيقول: "واستهلك الناس أموالهم وموجودهم"،[1032] حتى أصبح أهلها يجلبون الطعام من خارج تلمسان خفية،[1033] ومثل ذلك ما أورده ابن صعد عندما تحدث عن مجاعة وقعت في عهد الشيخ الماوسي (ت 874 هـ/1469م)، قائلا: "اشتدت المجاعة وفرغت مخازن الطعام من كل الجهات".[1034]

ويتوجه الناس عادة أوقات المجاعات بالشكوى حول نفاد الطعام إلى سلاطينهم، ومثل ذلك ما فعل أهل تلمسان نتيجة ضيق حالهم بسبب الحصار، "فلم يطق السكان تحمل هذه المجاعة واشتكوا إلى الملك، فأجابهم بأنه قابل أن يطعمهم لحمه لو كان يكفي لإعالتهم جميعا إذا يعدهم بخسا بالنسبة لولائهم"،[1035] وذلك يدل على عجز السلطان عن تلبية حاجياتهم لقلة الإمكانات، وتضيف نفس الرواية بأن غذاء هذا السلطان حينها كان بسيطا جدا.[1036]

وكان السلطان أبو زيان وقتئذ استدعى خازن الزرع صبيحة يوم الفرج حتى يسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المخزنة بالطعام فأجابه بأنه لم يبق سوى قوت يومين،[1037] كما بعث أحد السلاطين إلى أهل البلد ليشتري منهم الزرع في وقت غلاء وقع بتلمسان فلم يجد عندهم، حتى زوده بذلك أحد الصلحاء[1038] يدعى يحيى بن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز.[1039]

لكن من المستحيل أن نضع حالة السلاطين وعامة الناس أوقات المجاعة في كفة واحدة، فالتمعن في هذه النصوص يجعلنا نؤكد أن السلاطين لم يشكوا قط من العوز، فقد ظل الطعام في مخازن السلطان أبي زيان بالرغم من طول الحصار، كما أن السلطان الذي احتاج إلى الزرع استطاع أن يؤمنه دون صعوبة تذكر، بخلاف عامة الناس الذين عجزوا حتى عن تأمين لقمة من الخبز، فتكون أول فئات المجتمع هلاكا بالجوع.

أما عن حالة الأسواق أوقات المجاعات فقد كانت تشهد حركة غير عادية، فلا شك في أن أغلبها يتعطل نتيجة نفاد الأقوات من جهة، وتعذر جلب المنتجات الزراعية والحيوانية الضرورية من البادية من جهة أخرى، وذلك ما عرف وقت المجاعة الواقعة بالمغرب سنة 632 هـ/1234 م حين "قلّ كل مرفق وأعز وجدان ما ينتفع به الناس من الحطب والتين والخضر والفواكه وما يجلب من البوادي".

1032- **العبر**، 7 / 128.

1033- ابن مريم: **البستان**، ص 27.

1034- ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 230.

1035- الحسن الوزان: **وصف أفريقيا**، 2 / 18.

1036- **المصدر نفسه** .

1037- ابن خلدون: **المصدر السابق**، 7 / 199.

1038- بن مريم: **البستان**، ص 40 .

1039- فقيه صالح من أهل تلمسان له كرامات مشهورة، أنظر : ابن مريم: **المصدر السابق**، ص 40 .

ووصفت حال الأسواق بدقة إبان هذه المجاعة "وأما أسواق المدينة في هذه المجاعة فلم يكن يوجد بها ما ينطلق عليه اسم شيء بوجه من الوجوه، والحوانيت مغلقة وما يبقى بها من يلبس ثوبا يساوي عشرة دراهم إلا الأطمار المتغيرة الخلقة، وتغيرت الصور الجميلة وتنكرت الدنيا باستيلاء المجاعة".[1040]

كما أن الأسواق في أوقات المجاعات كانت مكانا لتجمع الناس بحثا لهم عن الغذاء، بل تحولت إلى ميدان للمنافسة عليه، وهو ما وقع في المجاعة المذكورة أعلاه، حيث تنافس الناس أثناءها على خبز الشعير الذي ظهر في الأسواق، فلم يحصل عليه إلا الأقوياء، في حين لم يتحصل الشيوخ والعجائز والأطفال حتى على لقمة واحدة من هذا الخبز.[1041]

وبالنسبة لحالة الأسواق في المغرب الأوسط أوقات المجاعات فإن المصادر لم تشر إلى ذلك، لكن ثمة إشارة مهمة أوردها ابن مريم في ترجمته لابن زكري (تـ 900 هـ/1494م) حول تعطل أسواق تلمسان بفعل جائحة الثلج فيقول: "نزلت ثلجة عظيمة وتعطلت منها الأسواق وانهدمت منها الديار"،[1042] وبذلك تعدت آثار هذه الجائحة من الخراب الاقتصادي إلى الخراب العمراني.

صحيح أن الأسواق أوقات المجاعات كانت تؤول إلى حال أسوأ، لكن ذلك لا يعني أن حركتها التجارية قد شلت تماما، بل ظلت قائمة في مثل هذه الأوقات على أن تكون المبيعات فيها خصوصا الغذائية منها غالية الأثمان، إضافة إلى ظهور أغذية غريبة ولحوم محرمة لضرورة اقتضتها أزمة الجوع.

ولقد دلت على ذلك المصادر التي تناولت الحديث عن المجاعة الواقعة بتلمسان إبان الحصار المريني لها، فالحركة التجارية ظلت قائمة في أسواق تلمسان، وبيعت فيها كل الأغذية الضرورية منها والكمالية وحتى الخضر والفواكه لكن بأثمان عالية؛ وهذا ما بينه ابن خلدون عندما ذكر لنا جملة أسعار هذه المواد، وقد سبق وأن أشرنا أيضا أن التجار الآراغونيين كانوا يجلبون سلعهم ويبيعونها في موانئ تلمسان كتنس وشرشال والجزائر ووهران، فينقلها التجار خفية إلى داخل تلمسان لبيعها بالغلاء،[1043] إضافة إلى ذلك فقد بيعت في أسواق تلمسان لحوم الجيفة والقطط والحيات والسباع والكلاب الفئران،[1044] لحاجة الناس إليها في مثل هذه الأوقات حتى لا يهلكوا جوعا.

ولا شك أن كمية الأقوات ونفادها أو بقاءها يتوقف على طول زمن المجاعة أو قصره، كما أن حركة الأسواق تتحكم فيها طبيعة المجاعة إن لم نقل مسبباتها، فقد تعدم الأقوات من الأسواق وخصوصا الخضر والفواكه في المجاعات الناتجة عن الجوائح التي تهلك الزرع والضرع، أو حتى تتعطل الأسواق تماما بسبب جائحة السيل أو الثلج كما رأينا، في حين تظل قائمة ويباع فيها مختلف الأغذية وحتى المحرمة في المجاعات الناتجة عن سوء الأوضاع السياسية وما يتبعها من حصارات وحروب .

[1040]- ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 318 - 319، 325 .

[1041]- **المصدر نفسه**، ص 325 .

[1042]- **المصدر السابق**، ص 40.

[1043]- Dufourcq **: *L'Espagne catalane,*** p 371.

[1044]- **العبر**، 7 / 198، السلاوي: **الاستقصا**، 3 / 86.

أ5- النمط الغذائي السائد أوقات المجاعات

تقتضي أوقات المجاعة من الناس السعي الدؤوب من أجل تأمين الغذاء، ونظرا لكثرة الطلب على السلع الغذائية كانت أثمانها ترتفع ويندر وجودها في الأسواق، فتحدث بذلك حالة اللاتوازن في النمط الغذائي الذي اعتاده السكان في غير أوقات المجاعة.

ولا جدال في أن الناس أوقات المجاعة يتوجهون إلى استهلاك مخزونهم من الغذاء، والذين قاموا بتخزينه تحسبا لمثل هذه الأوقات في مطامير تعمل تحت الأرض، من أجل تخزين المزروعات كالقمح والشعير والحنطة والفواكه والتي يأكلونها يابسة فيما بعد، وغيرها من المواد القابلة للتخزين في مكان يكون ملائما لذلك،[1045] ولم يكن الناس يقومون بتخزين مختلف المزروعات والثمار فقط بل حتى اللحوم القابلة للحفظ أيضا والتي يسمونها بـــ "القديد" والتي تصبح صالحة للاستهلاك لمدة طويلة بعد إعدادها.[1046]

يتوجه الناس في أوقات المجاعة إلى استهلاك أغذية لم يألفوها من قبل بسبب انعدام الغذاء، منها ما هو غريب ومنها ما هو محرم، كما يلجأ الناس في مثل هذه الأوقات إلى القطف والالتقاط لاستهلاك مختلف النباتات البرية حتى يقيموا بها أودهم.[1047]

ولدينا قائمة لبعض الأغذية التي استهلكها الناس وقت المجاعة الواقعة بالمغرب سنة 632 هـ/1234م، فقد أكلوا طحينا من نواة الزيتون الذي كان غذاء أهل البوادي المقفرة، فيجلبه الضعفاء في مثل هذه الأوقات ليقتاتوا منه ثم يبيعون فضلاتهم، وقد أكل الناس في هذه المجاعة نبات النارنج حيث أقبلوا على شرائه بكثرة دون علمهم إن كان حامضا أو حلوا، واقتاتوا فيها أيضا بخبز يباع في الأسواق يعمل من نبات "تابودا" الذي يشبه القصب، ينبت في الصهاريج والسواقي والأنهار، فيجففونه ويطحنونه ويعملون منه خبزا، كما أنهم طبخوا عصائد من نوار نبات الخروب في مثل هذه الأوقات العصيبة.[1048]

ومن المؤسف أن المصادر لم تشر إلى أهم الأغذية التي تناولها الناس أوقات المجاعات الواقعة بالمغرب الأوسط، ونستثني من ذلك ما أورده الوزان عن غذاء السلطان الزياني وقت المجاعة الحاصلة بتلمسان زمن الحصار المريني، فيذكر أن غذاءه "كان عبارة عن مزيج من لحم حصان وحبوب شعير كاملة، وورق ليمون وأشجار أخرى ليزداد حجمه"،[1049] فإذا كان النظام الغذائي للفئات الحاكمة أوقات المجاعات قد عرف تقهقرا بعد أن عهدوا حياة النعيم والترف، فكيف بغذاء عامة الناس وقتئذ؟ والتي بينت المصادر أنهم أكثر الفئات وأولها هلاكا بالجوع.

أما الأغذية المحرمة فهي لحوم الجيفة التي اقتات بها السكان اضطرارا، فيقول ابن نظيف الحموي عن المجاعة الواقعة بالمغرب سنة 620 هـ/1223م: "وفيها كان في الغرب من الغلاء ما لا يعبر عنه بحيث أنهم أكلوا الميتة

[1045]- العمري: **مسالك الأبصار**، ص 90، ابن مريم: **البستان**، ص 290.

[1046]- **المصدر نفسه، المصدر نفسه**، ص 306.

[1047]- محمد الأمين البزاز: **حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط**، ص 101 .

[1048]- ابن عذاري: **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 325 – 326، محمد الأمين البزاز: **المرجع السابق**، ص 101 .

[1049]- **وصف إفريقيا**، 2 / 18 .

جميعها "،[1050] وإضافة إلى استهلاك الناس للحوم الجيفة من الحيوانات ذكرت بعض المصادر أن الناس أكلـــوا جثث الموتى في بعض المجاعات الواقعة بالمغرب الأوسط، يقول ابن خلدون في المجاعة الواقعة بتلمـــسان أثنـــاء الحصار: "حتى لزعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الأناسي"،[1051] وإيراد هذه الرواية بصيغة التـــشكيك يوحي بطابع المبالغة من قبل الروايات الشفوية أو المصادر التي نقل عنها ابن خلدون، ويضيف يحيى بن خلدون أيضا أن الناس قد أكلوا بعضهم بعضا في المجاعة الواقعة بالمغرب الأوسط ســـنة 776 هـــ/1374م فيقـــول: "واشتملت هذه على مجاعة شديدة أكل فيها بعض الناس بعضا".[1052]

إضافة إلى لحوم الميتة استهلك الناس أوقات المجاعات بعض الحيوانات المحرم أكلها، مثلما فعل أهل تلمسان إذ أكلوا القطط والفئران والحيات والسباع والكلاب والضفادع وجلود البقر والعقارب،[1053] كما اضـــطر الناس في هذه المجاعة الشديدة إلى أكل غائطهم بعد أن جعلوه في الشمس حتى يبس وطبخوه.[1054]

ولاشك في أن مثل هذه الأغذية قد أضرت بالناس وجعلتهم عرضة لكثير من الأمراض الفتاكة والأوبئة التي يكثر انتشارها في أوقات المجاعة لمثل هذه الأسباب، فتزيد من وتيرة هلاكهم إذا اجتمع عليهم الجوع والوبـــاء وهو ما سنفصل فيه في الفصول التالية.

أ$_6$- ظاهرة الدين والسلف والرهن أوقات المجاعة

لقد أفرزت المجاعات التي عصفت بالمغرب الأوسط زمن الدراسة واقعا اقتصاديا مريرا صعب على إنـــسان هذا المجتمع معايشته، فإضافة إلى حركة الأسعار، كانت ظاهرة الدين والسلف التي لجأ إليها الناس وقتئذ كحل راهن لهذه الأزمة مظهرا اقتصاديا آخر تمخض عن المجاعة.

صحيح أن الدين والسلف ظاهرة طبعت الحياة اليومية للإنسان القروسطي نتيجة الفقر والحاجة وقلة ذات اليد وضعف دخله الفردي، غير أن سني الجدب أيضا جعلت تعامل الناس بالدين والسلف ضرورة لا منـــاص منها كحل جذري لأزمة الجوع.[1055]

لقد جسدت لنا بعض النوازل مظاهر لجوء الناس إلى سلف الطعام في أوقات المسغبة، ويأتي في مقدمة ذلك القمح والشعير وتتبعها الحنطة على اعتبارها من "ضرورات القوت"، وفي هذا الصدد يذكر لنا المازوني نازلـــة سئل عنها عبد الرحمن الوغليسي فيقول: "عمن ألجأته الضرورة لسلف القمح والشعير من موضـــع، ويعطـــي لصاحبه عوضا منه من موضع يليه هو أيضا، وحاجة ألجأته في مسغبة وقعت بالجميع، وما الحكم إن احتـــاج المدفوع له و لم يحتج الدافع فأجاب: لا يجوز اشتراط ذلك أو التفهم عليه لأنه من الربا وإن يسلفه كما سلف

[1050]- **التاريخ المنصوري**، ص 84 .

[1051]- **العبر**، 7 / 189، ابن الأحمر : **روضة النسرين (تاريخ الدولة الزيانية)**، ص 69 .

[1052]- **بغية الرواد**، 1 / 326 .

[1053]- السلاوي: **الاستقصا**، 3 / 86، ابن الموقت المراكشي: **إرشاد الشيخ والشارخ**، ضمن: **اليواقيت العصرية**، ص 758 .

[1054]- ابن الأحمر: **روضة النسرين (تاريخ الدولة الزيانية)**، ص 69 .

[1055]- بوتشيش: **ظاهرة الدين والسلف في المجتمع المغربي خلال العصر الوسيط: أساليب التعامل والإشكاليات المطروحة**، ضمن: **حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي**، ط 1، بيروت: دار الطليعة، 2006، ص 35 - 36.

الناس من غير تفهيم جاز أن يعطيه بغير موضع قبضه".[1056]

وقد ألجأت الضرورة الناس في وقت الشدة إلى سلف بعض الأغذية الرديئة أو البضاعة الفادحة على أن يردوها بعد أوقات المجاعة سليمة، فاحتاج الناس إلى البحث عن شرعية ذلك من خلال سؤالهم الفقهاء، ومثل ذلك ما سئل عنه الوغليسي: "هل يجوز سلف المبلول من الحنطة بعد يبسه أو لا يجوز؟ وإن ألجأت الضرورة إليه لأجل غلاء السعر، فأجاب: ... يجوز ذلك لمن لا شرط له، ولا يجب عليه إلا مثل ما أخذ لأن الاشتراط في السلف ممتنع".[1057]

وكذلك ما سئل عنه أبو قاسم البرزلي: "هل يباح في مثل هذه البضاعة الفادحة الواقعة عندنا بالمغرب في هذه السنة سلف الزرع المبلول أو الفاسد ليأخذ صحيحا لما في ذلك إحياء النفوس؟ وقد علمتم ما مات في هذه السنة من الخلق بالجوع، وتتقلدون القول بذلك وترجحونه على المشهور لقلة مواساة الناس وإهمالهم أحوال الضعفاء والمساكين فأجاب:... سلف اليابس والمبلول جائز وقد أخذ من قوله في المدونة في تسليف الزرع ليحصده ويدرسه وكان شيخنا الإمام ابن عرفة يفتي به ويعتل بأنه لو باعه وأسلم ثمنه لكان أكثر من سلفه إنما هو محض منفعة للمتسلف، وبهذا أقول إذا بلغ المال إلى ما ذكرت، وإن كنت أستحسن أنه يستلف وينوي الدافع أنه أتاه قبله، فيكون إذا أعطاه جديدا خمس قضاء ويخرج من الخلاف، وإن أبى إلا الشرط فهذه ضرورة تبيح المحظور".[1058]

ولقد ذكر السائل أن هذه المجاعة شملت المغرب كله دون أن يذكر سنة وقوعها، لكنها نوهت إلى نتائجها الوخيمة، وهي موت خلق كثير، فضلا عن قلة مواساة الناس للفقراء والمساكين آنذاك، فالفقهاء أباحوا سلف هذا النوع الرديء من الطعام لحاجة الناس له في هذه الشدة.

كما أن الفقهاء قد أجازوا سلف الزرع الأخضر والفول الأخضر لحاجة الناس له أوقات المجاعة، وفي ذلك يذكر المازوني هذه النازلة التي سئل عنها عبد الرحمن الوغليسي: "هل يجوز سلف المبلول من الحنطة أو لا يجوز وإن ألجأت الضرورة إليه لأجل غلاء السعر، فأجاب:.. يجوز ذلك لمن لا يشترط ولا يجب عليه إلا مثل ما أخذ لأن الاشتراط في السلف ممتنع والله أعلم".[1059]

وقد يكون هذا الدين أو السلف إلى أجل مسمى يتفق عليه الطرفان – المدين والدائن– وقد يكون إلى أجل غير معلوم، وغالبا ما يترتب عن ذلك جملة من المشاكل بين الطرفين نتيجة عدم قدرة المدين عن سداد دينه في الوقت المتفق عليه، فتلجئه الضرورة إلى رهن ممتلكاته كعقار أو أغراض أخرى كضمان في يد الدائن، وذلك ما بينته بعض نوازل الفترة، فذكر الونشريسي نازلة سئل عنها الزواوي: "عن بدوية رهنت بيتا لها في الشدة في ساحة القصر وفيها مطمورتان في سبعة دنانير، وحازه المرتهن، وأخو المرأة حاضر في المترل ولم ينكر ولم يغير

[1056]- **الدرر المكنونة**، 2 / 41 ب .

[1057]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 41 ب .

[1058]- **المصدر نفسه**، 2 / 41 أ .

[1059]- **المصدر نفسه**.

عليها". [1060]

وعلى اعتبار أن لجوء الناس إلى رهن ممتلكاتهم حل مؤقت بالنسبة للمدين، فإن لهذا الرهن أيضا أجل، وفي ذلك يذكر لنا الونشريسي في نازلة سئل عنها قاسم العقباني "عن امرأة ترتب في ذمتها لرجل ثمن قمح ورهنت في ذلك دارها، فلما تم أجل الرهن جاء إلى المرأة فوجدها مريضة هي وزوجها، وذلك في سنة المسغبة وطلب منها دينه، وهددها إن لم تخلصه بأنها تخلصه في دار أمينة، وقدم لها رجلا وقال لها: هذا يشتري منك الدار، وإلا يحكم فيك، فخافت على نفسها من قوله بتهديده إياها ووافقته على البيع ودفع لها ثلاثة دنانير ذهبا، فقال: هذا الذي وجب لك، وإن لم تبيعي لهذا الرجل نفعل بك كذا، فباعت وقبضت ما ذكر، والدار حينئذ تساوي الستين، وأرادت الآن القيام على المشتري لأجل مرضها وخوفها على الوجه المذكور، فهل لها القيام أو لا قيام لها؟ "، [1061] وحتى عند انتهاء أجل الرهن يقع المدين في المشاكل من جديد، من بينها أنه إذا لم يدفع الدين المترتب عليه تؤخذ أملاكه، أو يجبر على بيعها قسرا بأبخس الأثمان، ناهيك عن التهديد والضغط النفسي الذي يتلقاه من قبل الدائن.

إذا كانت أزمة الجوع ضرورة ملحة تلجئ الناس في مجتمع المغرب الأوسط إلى التعامل بالدين والرهن، فإن هذا النوع من التعامل قد يوقع الناس في مشاكل لا حصر لها، خصوصا إذا عجز المدين عن دفع ما عليه من ديون، وغالبا ما يلجأ في مثل هذه الحالات إلى رهن ممتلكاته والتي ربما يخسرها إذا ما عجز عن الدفع أيضا.

أ-7- تعذر إنفاق السلطة على عابري السبيل والحجاج أوقات المجاعات

نظرا لأن المغرب الأوسط كان طريقا لمرور المسافرين والحجاج القادمين من الأندلس والمغرب الأقصى، فإن السلطة كانت مسؤولة حتما بالتكفل بهؤلاء وحسن ضيافتهم بتوفير المأكل والمأوى المناسب لهم، لكن نتيجة للضعف الاقتصادي الذي يلحق بالدولة أوقات الأزمات، فإنه يتعذر عليها الإنفاق على هؤلاء، وهذا ما بينه نص في رحلة العبدري.

فالعبدري الذي مر بتلمسان في رحلته سنة 688 هـ/1289م كان قد وجدها في وقت شدة أو بالأحرى مجاعة بسبب قحط ويتبين ذلك من قوله: "ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلدا حلت به زمانة الزمان، وأخلت به حوادث الحدثان، فلم تبق به علالة، ولم تبصر في أرجائه للظمآن بلالة "، [1062] وبسبب ذلك لم يستطع حاكمها الإنفاق على الحجاج الواردين عليها الذين يقارب عددهم ألف حاج، ولم يعطهم سوى دينارا واحدا لكل واحد منهم.

وقد وصف العبدري أيضا أغرب مشاهداته في المغرب الأوسط آنذاك؛ وهي أن منصورا صاحب مليكش –من أعمال تلمسان– قد تعذر عليه أن يضيف جماعة من الحجاج يقارب عددهم العشرين ولو لليلة واحدة بسب هذه الشدة، حتى أخذ ينادي على أهل الدوار ويقول: "يا أهل الدوار هؤلاء ضيفان الله، ومن يحمل

[1060]- المعيار المعرب، 5 / 102.

[1061]- المعيار المعرب، 5 / 102.

[1062]- الرحلة المغربية، ص 9.

منهم إلى بيته واحدا، وجعل يكرر ذلك كما يصنع أهل المدر، فلما لم يجبه أحد منهم ولّى عنهم"،[1063] وهذا يعبر لا محالة عن الحال الذي وصلت إليه تلمسان وضواحيها جراء هذه المجاعة أو الشدة التي أنهكت اقتصاد الدولة، و لم يتأثر سكان تلمسان وضواحيها بها لوحدهم؛ بل مست حتى الحجاج الواردين عليها، وقد أدى ذلك إلى تعطل طريق الحج، وانصراف الحجاج عن تلمسان وضواحيها عندما يصل إلى مسامعهم ما حل بها من زمانة وجهد.

أ8- العلاقة بين الأجور وحركة الأسعار أوقات المجاعات

لقد سبق وأن أشرنا إلى أجور بعض الموظفين وإلى بعض الأسعار عند دراستنا لمستوى المعيشة في مجتمع المغرب الأوسط في غير أوقات المجاعة، وإذا كانت القدرة الشرائية تحدد بالعلاقة بين الأسعار والأجور، فإن قيمتها حتما ستتغير مع موجة الغلاء الذي تفرضه أوقات المجاعة، فلا شك أنها تنخفض، هذا إذا قلنا بأن الدولة في مثل هذه الأوقات ستستمر بدفع أجور مختلف الفئات العاملة.

لم تكن مصادرنا لتشير إلى ذلك لكن يمكننا القيام ببعض المقاربات لاستقراء ذلك، فقد أسلفنا الذكر أن أجرة القاضي ببجاية خلال النصف الأول من ق 8 هـ كانت تقدر بـ 15 دينارا وهو ما يعادل 150 درهما،[1064] وعلى اعتبار أن القمح من ضروريات الغذاء والذي قدر ثمنه بـ 8 دنانير في المجاعة الأقرب إلى هذه الفترة وهي التي وقعت بإفريقية 749 هـ/1348م،[1065] فإن هذا القاضي لا يستطيع أن يوفر لعائلته سوى أقل من قفيزي قمح خلال الشهر الواحد، ولهذا يمكننا القول أن هذا القاضي كان يعيش في حالة من الفقر ومستواه المعيشي متدهور جدا وقت هذه الشدة.

لكن في مقابل ذلك ذكر ابن مرزوق سعة حال بعض الموظفين الكبار في تلمسان وقت أن كانت في حالة ضيق عقب انتهاء الحصار المريني عليها، وهي توافق فترة حكم السلطان أبي حمو (707- 791 هـ/1307-1388م) فيذكر سعة حال القاضي عبد الرحمن بن زاغو وكذلك سعة حال من يتولى خطة موثق.[1066]

لكن ليست لدينا معطيات تبين لنا القدرة الشرائية أو المستوى المعيشي لهؤلاء إبان الحصار، ولسنا نعلم أيضا ما إذا كانت الدولة الزيانية قد استمرت في دفع مرتبات هؤلاء في هذه الفترة أم لا، لكن لا شك في أن الفترة التي أعقبت الحصار وهي التي أشار إليها ابن مرزوق تبين أن الدولة وإن كانت في حالة الضيق فإنها كانت تعطي لهؤلاء مرتباتهم، بدليل أن السلطان الزياني أبا حمو كان قد عرض على والد ابن مرزوق خطة موثق، والذي رفضها بالرغم من ضيق حاله،[1067] الأمر الذي يجعلنا نؤكد أن القدر الشرائية لهؤلاء كانت مرتفعة ومستواهم المعيشي جيد بالنسبة للفترة المشار إليها.

[1063]- **الرحلة المغربية**، ص 9.

[1064]- العمري: **مسالك الأبصار**، ص 62 .

[1065]- ابن الشماع: **الأدلة البينة**، ص 98 .

[1066]- **المناقب المرزوقية**، ص 237 - 238.

[1067]- **المناقب المرزوقية**، ص 237 - 238.

أما عن المستوى المعيشي لذوي النفوذ العالي في الدولة أوقات المجاعات، فلا شك في أن أغلبهم لم يتضرروا من نتائج الأزمات، وإلا فكيف نفسر قيام البعض منهم بالتكفل الاجتماعي وتقديم العون للفقراء والمحتاجين والتصدق عليهم في أوقات المجاعات، كما سبق وأن أشرنا أثناء الحديث عن الجهود المبذولة لتجاوز أزمة الجوع من طرف مختلف فئات مجتمع المغرب الأوسط.

وإذا كانت الفئات الدنيا من المجتمع مستواها المعيشي في غير أوقات المجاعة متدنّ فمن البديهي أن حالها أوقات المجاعات لا تحسد عليه، فالأجرة التي يأخذها الطراز في تلمسان والتي تقدر بنصف دينار في الشهر[1068] لا تكفي حتى لشراء لقمة من الخبز في أوقات الشدة، هذا إذ قلنا بأن هذا الأخير سيستمر في عمله أو أنه سيؤجر عليه في مثل هذه الأوقات، ناهيك عن الفئات الأخرى التي تعيش في الفقر الدائم.

ومن المؤسف أننا لا نملك معطيات حول ما إذا كانت الدولة أوقات المجاعات تستمر في دفع مرتبات العمال؟ أم أنها تتأخر في الدفع،؟ وهل قيمة الأجور التي يتقاضونها تبقى على حالها أم أنها تنخفض؟ لكن ثمة إشارة مهمة تبين أن الدولة الزيانية مع مطلع القرن 9 هـ/15م تدهورت مكانتها كمركز تجاري مهم مع وصول السفن البرتغالية إلى السواحل الغربية للقارة الإفريقية، ومع تحول طريق التجارة إلى الشرق عبر مصر أثر هذا كثيرا على الأوضاع الاقتصادية والسياسة بها، وبسبب هذا الضعف عجزت الدولة الزيانية عن صرف رواتب موظفيها الكبار وقواد الجيش، فأعطتهم رواتب على شكل إقطاعات للأراضي مما زاد في ضعفها أكثر، وجعلها لقمة سائغة في يد الإسبان.[1069]

ولا شك في أن فارق المستوى بين الفئات العليا والدنيا للمجتمع سيظل قائما في أوقات المجاعة، ولعل هذه المفارقة تتوقف أيضا على حجم المجاعة ومدتها الزمنية وحدة الغلاء الواقع بها، فإذا طالت هذه المجاعة وبلغ الغلاء فيها أشده، فلا ريب في أن كل فئات المجتمع ستتضرر وتتدهور قدرتها الشرائية، ويتدنى مستواها المعيشي لكن بدرجة متفاوتة أيضا، فلم يسبق لنا أن وجدنا إشارة مصدرية حول سلطان أو وزير مات بسبب الجوع.

2- المظاهر الاجتماعية والدينية والسيكولوجية للمجاعة

لا مراء أن أزمة الجوع قد أفرزت مظاهر سوسيو- دينية وسلوكات شتى، كانت في الحقيقة نتاجا عن إيقاع هذه الأزمة على إنسان المغرب الأوسط، ولا شك في أن هذا المجتمع قد ينحي زمن المجاعة إلى منحى غير طبيعي، فتزداد بعض الظواهر القارة به سلفا من وتيرة انتشارها، في حين تتوارى مظاهر جديدة إلى الوجود كنتيجة عن واقع هذه الأزمة؛ فما هو وقع أزمة الجوع على إنسان المغرب الأوسط زمن الدراسة؟ وما هي مختلف المظاهر السوسيو- دينية الناتجة عنها؟ ما هي مختلف السلوكات التي يبديها إنسان المغرب الأوسط إزاء أزمة الجوع؟ وما هي حالته النفسية إبان تلك الظروف؟.

[1068]- ابن مريم: **البستان**، ص 39 .

[1069] -Mahmoud –Agha Bouayed **:** ***Le port de Hunayn,*** p 333 .

أ- المظاهر الاجتماعية

نستهل هذه المظاهر بمحاولة رصد أوضاع بعض فئات مجتمع المغرب الأوسط الفقيرة زمن المجاعة كفئة المتسولين واللصوص، وهي تصنف ضمن الشرائح غير المنتجة التي شكلت عبئا ثقيلا على السلطة التي وقفت عاجزة عن التكفل بهم أو احتوائهم داخل المجتمع،[1070] فهي فئات مستواها المعيشي جد متدنّ لأنها عاجزة عن توفير أدنى ضروريات الحياة من غذاء ولباس وحتى المسكن المناسب فإنها لا تجد إليه سبيلا.[1071]

ولم تكن مثل هذه الفئات وليدة عصر أزمة الجوع؛ وإنما هي نتاج التمايز الطبقي[1072] في مجتمع مليء بالتنوع والتناقض بين عناصره كمجتمع المغرب الأوسط، فمن حالة الفقر الدائم إلى هزات وأزمات الجوع المفاجئة؛ لم تقو هذه الفئات على تحمل ذلك فتستمر في نشاطها المعتاد بل ربما يزيد الجوع من حدة انتشارها، ويمتهنها من كان يتعفف عن ممارستها سلفا لضرورة فرضتها هذه الأزمة.

أ1- فئة المتسولة أو الشحاذين أوقات المجاعة

من المؤسف أن هذه الفئة لم تحض باهتمام جاد من قبل المؤرخين،كل ما في الأمر أنها تذكر عرضا في مصادرنا المتنوعة، إذ لا جدال في أنها تشكل عنصرا من عناصر المجتمع، وحسبنا في ذلك ما ذكره ابن خلدون الذي جعل المتسولة نموذجا ومعيارا ليفاضل به بين حالي فاس وتلمسان، ملوحا من خلال ذلك إلى الحال السيئ الذي آل إليه وضعهم في هذه الأخيرة كما هو في وهران،[1073] فالمتسولة في نظره "يختلفون في مطالبهم باختلاف الأمصار في العمران"[1074] وباختلاف طبائع المجتمع الذي يحيون وسطه.

وعدا ما ذكره ابن خلدون كانت النصوص الأخرى التي أشارت إلى وجود متسولة في مجتمع المغرب الأوسط دون ذكر تفاصيل عن حياتهم أو نمط عيشهم في أغلبها انطباعية، فابن مرزوق مثلا لم يكن ليذكر وجود هذه الفئة بتلمسان إلا عندما تناول سيرة السلطان المريني أبي الحسن، مبرزا من خلال ذلك خصاله الحميدة في إيثاره للضعفاء والسائلين ورعاية أحوالهم.[1075]

إن النشاط المعتاد لهؤلاء المتسولة في المجتمع ينبني أساسا على سؤال قوتهم اليومي، فهم في ذلك يجوبون الأسواق والطرقات، ويتصدرون أبواب المساجد والقصور لعلهم يكسبون عطف السلطات فتنظر في أمرهم، لكنهم غالبا ما يفشلون في إيصال أصواتهم إليها، ويجدون الأبواب موصدة أمامهم، وخير دليل على ذلك ما رواه لنا موسى بن عيسى المازوني عن الشيخ واضح (من أهل ق 7 هـ/13م) الذي امتنع عن مقابلة السلطان الزياني يغمراسن، قاصدا بذلك أن يعامله بمثل ما يعامل هذا السلطان الفقراء والمحتاجين الواقفين عند بابه؛ لعله

[1070]- بوتشيش: **الإسلام السري في المغرب العربي**، ط 1، القاهرة: سينا للنشر، 1995م، ص 163، نفسه: **ظاهرة التسول في المغرب الإسلامي خلال القرن 6 هـ**، ضمن: **التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور**، ص 176 - 178.

[1071]- بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي**، ص 446 .

[1072]- بوتشيش: **المرجع السابق**، ص 164.

[1073]- **المقدمة**، ص 336 .

[1074]- محمد بنشريفة: **تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب: بحوث ونصوص**، المملكة المغربية: منشورات وزارة الثقافة، 2006، 327/1.

[1075]- **المسند**، ص 127 - 128.

يفطن من غفلته وينظر في شأن هؤلاء بدلا من الإعراض عنهم "فقال الشيخ واضح: يا اغمراسن أما تعلم وقوف الضعفاء والمساكين وذوي الحاجات ببابك، وما يجدونه في قلوبهم من الانكسار ومن أجلة؟.. بطول احتجابك عنهم، وإنما فعلت ذلك لك لتتيقظ من سنة غفلتك، وتذكر أحوال القاصدين إليك"،[1076] ويتجلى لنا ذلك أيضا من خلال الموقف المعارض الذي وقفه بعض متصوفة المغرب الأوسط حيال السلطة ونصرتهم للضعفاء والمحتاجين، ففي ذات السياق يضيف الغبريني عن مساعدة هؤلاء للسائلين وإيثارهم بالصدقة، وإن كانت مواقفهم هذه ممزوجة بالطابع الكرامي الخيالي، وذلك ما أورده في ترجمته لأبي الحسن علي بن محمد الزواوي الذي جاءه سائل يسأله قوت عياله فخصه بالصدقة؛ فيقول الغبريني في ذلك: "أخبرني بعض ممن عرضت له ضرورة قوت أتاه يسأله أن ينظر له نظرا يستعين به، وكانت للرجل عائلة، قال فدخل إلى مترله فأخرج لي أربعة أمداد قمحا وقال لي لا تتناول منها إلا وأنت على طاهرة، ولا تتناول منها امرأة، فحملتها ولزمت ما قال لي وكان ذلك في آخر الشتاء وأوائل الربيع، فكفاني ذلك وعائلتي حتى وصلنا إلى الأكل من حراثتنا بعد دخول زمن الصيف، وهذه من كراماته".[1077]

و لم تكن ظاهرة التسول في مجتمع المغرب الأوسط تقتصر على عنصر الرجال فقط، وإنما تشاركهم النساء في ذلك، وحسبنا في ذلك سؤال المرأة الشريفة للصدقة من أحد الأولياء بأن شكت إليه حالها وحال بناتها فآثرها بالمال الذي كان ينوي به شراء ما يلزمه للخروج إلى الحج.[1078]

لم تكن أبواب القصور هي الملجأ الوحيد لهؤلاء المتسولة؛ بل كانت المساجد وساحاتها أيضا محط اجتماعهم بكثرة كما نوهت بذلك بعض المصادر، لعلهم يلقون العطف في قلوب رواد المساجد، بالرغم من مواقف الفقهاء المتشددة إزاء هذه الظاهرة، واعتبارها من الأعمال المشينة والمسيئة لحرمة المساجد، خاصة إذا كانت أصوات السائلين تعلو لأجل ذلك، حيث يقول العقباني: "ومما يمتنع في المسجد وهو من منكراته سؤال الضعفاء به، ورفع أصواتهم بالمسألة، لأجل أن الناس يجتمعون فيها فيعطون فيها دون غيرها، فوقع في رواية ابن القاسم النهي عن ذلك، قال ابن عبد الحكم ولا يعطى فيه سائل، زاد اللخمي عن مالك: لا يحرمون ويضامون من المساجد".[1079]

وفي السياق ذاته تضيف نازلة عرضها الفقيه المازوني وبعده الونشريسي، والتي سئل عنها جماعة من فقهاء المغرب الأوسط حول شرعية السؤال في المساجد هل هو مباح أم لا؟ خاصة إذا تقدم إمام المسجد أو غيره بأمر المؤذن أو شخص آخر بأن يتمشى بالسائل بين صفوف المصلين، فكان جواب الفقهاء بالنفي والنهي: "وأما كثرة السؤال في المساجد فيمنعون من ذلك، ويؤمرون برفق أن يخرجوا، ويسألون على أبواب المساجد

[1076]- **صلحاء وادي الشلف**، ورقة 43 ب، ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 45 أ .

[1077]- **عنوان الدراية**، ص 134.

[1078]- ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار**، ورقة 26 أ - 26 ب .

[1079]- **تحفة الناظر وغنية الذاكر**، ص 42 .

لكثرة إلحاحهم". [1080]

لقد بينت بعض نوازل الفترة أن فئة المتسولة يبرزون أكثر في مواقيت معلومة، كميقات كيل الناس وقت الحصاد وجني الثمار، وفي هذا الصدد يذكر المازوني أن "رجل طلبه سائل فدعاه لوقت كيل الناس، فلما جاء وقت كيل الناس أعطى تلك الصدقة لمسكين آخر فجاء السائل وطلبه، هل يلزمه غرم ذلك أم لا؟ فأجاب: لا شيء عليه والحالة ما ذكر"، [1081] ويضيف ابن مرزوق أن جده كان "يكتال بين يديه للضعفاء والمحتاجين"، [1082] وهو مثال آخر يتجلى لنا من خلال الحضور الصوفي القوي، ودور أقطابه ومتقمصيه من دفع الجوع والتخفيف من فقر هذه الفئات، وقد كان بعض المتسولة يستغلون عطف الأولياء فيكثرون بسؤالهم لهم، فقد كان أحد المتسولة يقصد والد بن مرزوق ويلح عليه بالطلب في كل مرة حتى انزعج منه والد بن مرزوق، فدعى الله بأن يكفه عنه فشلت يد هذا السائل. [1083]

إن المتسولة أوقات المجاعة يمرون بظروف صعبة، لأن فرص الحصول على القوت ستقل حتما في مثل هذه الأوقات، فيلاقون المشاق الجسام في الحصول على لقمة تقيهم من الهلاك جوعا، فلا غرو فإنهم أكثر الفئات تضررا من هذه الأزمة.

كما لم تكن المصادر لتشير إلى أوضاع هذه الفئة أوقات المجاعة سوى في إشارات محتشمة، لكن من الواضح أن حالها سيزداد سوءا، دون أن تتخلى عن نشاطها المعتاد في التسول، بل ربما زادت هذه الأوضاع من وتيرة انتشارها، فلا ريب أن يمارسها بعض من كان يمقتها سابقا خوفا من الهلاك جوعا، لعلهم يلقون العطف في قلوب بعض فئات المجتمع خصوصا الصلحاء منهم، كالدور البارز الذي قام به أبو زكريا يحي بن علي الزواوي (تـــ 611 هـــ/1214م) إزاء الفقراء والمحتاجين في المجاعة الواقعة ببجاية سنة 611 هـــ/1214م و"أغناهم بذلك عن السؤال". [1084]

وقد جاء إلى الولي أبي زيد بن يعقوب الصنهاجي سائلا يطلب قوت عياله في سنة مجاعة كانت بتلمسان، فآثره هذا الشيخ بخبز أخرجه له من الفرن، بالرغم من حاجة أهل داره إلى الطعام أيضا. [1085]

ولا شك أن حالة المجاعة أيضا كانت تفرض على المرأة في مجتمع المغرب الأوسط سؤال الصدقة حتى تضمن قوت عيالها؛ وحسبنا في ذلك ما ذكره المازوني عن المرأة التي جاءت إلى زوجة الولي أبي عمران موسى بن إسحاق في وقت مجاعة تطلب منه الصدقة التي كان قد وزعها للفقراء من ماله الذي ورثه. [1086]

[1080]- **الدرر المكنونة**، 2 / 137 ب - 138 أ، **المعيار المعرب**، 1 / 147.

[1081]- **المصدر نفسه**، 2 / 66 ب .

[1082]- **المناقب المرزوقية**، ص 160.

[1083] **المصدر نفسه**، ص 230.

[1084]- التادلي: **التشوف**، ص 429، الغبريني: **عنوان الدراية**، ص 135.

[1085] ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 299.

[1086]- موسى بن عيسى المازوني: **صلحاء وادي الشلف**، ورقة 139 ب - 140 أ .

إن ظاهرة التسول إنما كانت تنتشر أكثر في أوقات الأزمات، وهذا ما أشار إليه ابن قنفذ القسنطيني أثناء رحلته إلى فاس والتي صادفت وقوع مجاعة عظيمة سنة 776 هـ/1374م بالمغرب الأوسط والمغرب كله، حول جماعة من المتسولة الملازمين لقبر الولي القطب أبي مدين شعيب (تـ 594 هـ / 1197م) بالعباد، وأوصى بذلك كل زائر للقبر بما يجب عليه فعله من الصلاة والدعاء ثم ينصح قائلا: "وإن تيسرت لك صدقة للضعفاء والمساكين الملازمين على الباب فادفعها".[1087]

إن دور الصلحاء في مساعدة المحتاجين لم يكن يتجلى في حياتهم فقط، بل نراه يستمر حتى بعد مماتهم كما تصوره الكتابة المناقبية، فلا غرو أن قبور هؤلاء الصلحاء ظلت مزارا وقبلة لشريحة معتبرة من المجتمع، ممن يحملون إليه النذور والصدقات التي تفرق على الفقراء والمساكين، فيجد هؤلاء الضعفاء ملاذهم هناك، فتنقلب قبور الصلحاء إلى محطات بارزة يجتمع فيها المتسولون أوقات الرخاء والمجاعة على حد سواء.

أ$_2$- فئة اللصوص أوقات المجاعة

لقد سبق أن أشرنا في موضع الحديث عن أسباب المجاعة إلى امتهان الأعراب لحرفة اللصوصية وقطع الطريق على القوافل التجارية والمسافرين، فبالرغم من المواقف الصارمة لفقهاء المغرب الأوسط إزاء هذه الظاهرة؛ إلا أن الأعراب لم يكفوا عن تجاوزاتهم التي عززتها أكثر مواقف السلطة المتخاذلة اتجاههم، إذ لم يكن في وسعها إلا مهادنتهم غالبا بالمال خوفا من سطوتهم من جهة، واستعمالهم كرأس حربة في صراعها مع أعدائها من جهة أخرى.

وبالرغم من أن نوازل الفترة قد أفاضت في الحديث عن تجاوزات الأعراب وامتهانهم للحرابة وقطع الطريق، إلا أنه لا يمكننا إلصاق صفة اللصوصية على الأعراب وحدهم، حتى لا يوقعنا ذلك في شراك ما تنحوه بعض الدراسات الاستشراقية المتحاملة على أعراب بني هلال كما أسلفت الذكر.

ولا سبيل إلى الشك أن فئة اللصوص زمن المجاعات كانت من أكثر الفئات تضررا بهذا الوضع، الذي يفرض عليها نمطا حياتيا جديدا، تقل فيه حظوظ الفئة المذكورة في الحصول على الرزق، نظرا لقلة الواردين من التجار والقوافل التجارية بين المدن والبوادي أو بين المدن نفسها.

لكن نشاط هذه الفئات كان يستفحل أكثر في أوقات المجاعة، إذ تفرض هذه الأزمة حالة من اللاأمن في المسالك والدروب التي يمر بها المسافرون والتجار، فلا يأمنون حينها لا على أنفسهم ولا على أموالهم، وذلك ما بينه العبدري في رحلته التي مر فيها بالمغرب الأوسط، فلم يستطع الخروج من تلمسان -وهي في حال الشدة- حتى يجد رفقة قوية يصاحبها، نظرا لصعوبة الطريق الرابط بينها وبين رباط تازا المليء بقطاع الطرق، ممن وصفهم بأشنع الوصف قائلا: "ثم وصلنا إلى تلمسان نيتي أن أقيم بها مدة حتى أجد صحبة قوية أقطع معها المفازة التي في طريقها إلى رباط تازا، وهي منقطعة موحشة لا تخلو من قطاع الطرق البتة، وهم بها أشد خلق الله ضررا وأكثرهم جراءة وأقلهم حياء ومروءة، لا يستقلون القليل ولا يعفون عن ابن السبيل، ليس في أصناف

[1087]- **أنس الفقير**، ص 149 – 151 .

القطاع أخس منهم همما، ولا أوضع منهم نفوسا، ولا أكثر منهم إقداما على كل صالح وطالح، ولا ينبغي لمسلم أن يغرر بلقائهم".[1088]

أما ابن قنفذ فلما كان بتلمسان سنة 776 هـ/1374م ووافق ذلك أن وقعت بها مجاعة؛ منعه وزيرها من الخروج منها، وتبرأ من ذمته لخوفه عليه من قطاع الطرق "وكان أمر الطريق في الخوف والجوع ما مقتضاه: أن كل من يقع قدومنا عليه يتعجب في وصولنا سالمين"،[1089] وكان ابن قنفذ قد أشار قبل رحيله من تلمسان إلى زيارته لقبر أبي مدين شعيب بالعباد والاستغاثة به لعل الله يسهل له في سفره ويطوي عنه مشاقه ببركة أبي مدين، وبتعبير ابن قنفذ "وانتهى سفرنا على وفق اختيارنا والحمد لله، وذلك من كرامات الشيخ أبي مدين τ والدعاء عند قبره مستجاب"،[1090] فالدعاء والاستغاثة بالأولياء وقبورهم كانت من الذهنيات التي يعتقد فيها مجتمع المغرب الأوسط في أوقات الأزمات خصوصا.

أما نوازل الفترة فهي لم تغفل أيضا عن ذكر بعض المسائل المتعلقة بالتعدي على ممتلكات الغير واغتصابها، كسلوك أفرزته أزمة المجاعات، فهذا "رجل تعدى على بقرة رجل في سنة جدبة غالية السعر قليلة الطعام، والبقرة معروفة بغزر اللبن يقام بها معاش الأهل، أتضاعف عليه قيمتها أم لا؟ فأجاب (ابن محسود): إنما يلزم المعتدي قيمتها ما تساوي ذلك الوقت الذي تعدى فيه عليها فإن لم يجد من يعرف قيمتها حلف صاحبها على قيمتها وغرمها المعتدي".[1091]

وفي هذا الصدد يضيف ابن الصباغ القلعي رواية عن الولي أحمد بن يوسف الراشدي الذي اغتصب بعض الأعراب بقره وبقر جماعة أخرى من الناس في عام مسغبة، فهلك هؤلاء الأعراب الغاصبون ببركة هذا الولي،[1092] كمثال آخر يجعلنا نجزم بالدور الريادي للأولياء في مجتمع المغرب الأوسط في حياتهم وبعد مماتهم في توفير الأمن ودفع بعض المضرات عن الناس ولو بأفعال روحانية كالدعاء والكرامة التي كان الناس آنذاك يعتقدون بها أشد الاعتقاد.

أ3- ظهور فئات من الرقيق أوقات المجاعات

عدّت المجاعة من الأسباب الحقيقية وراء ظهور فئات جديدة من الرقيق في مجتمع المغرب الأوسط، على أساس أن الانتقال من الحرية إلى حالة الاسترقاق كفيل -لمن قبل بهذا التحول له أو لأولاده- أن يقيهم من الهلاك جوعا في مثل هذه الأوقات.

فقد سجلت لنا المصادر بعض النماذج من تلك الظاهرة، وإن كانت لا تختص بمجال المغرب الأوسط في الفترة المنوطة بالدراسة، فنذكر على سبيل المثال قاضي رقادة محمد بن عبد الله المعروف بابن جيمال (كان حيا

[1088]- **الرحلة المغربية**، ص 131 - 132 .

[1089]- **أنس الفقير**، ص 149 - 150.

[1090]- **أنس الفقير**، ص 150.

[1091]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 39 ب .

[1092]- **بستان الأزهار**، ورقة 28 أ.

سنة 293 هـ/905م) الذي باع نفسه في وقت شدة، يقول ابن عذاري عن ذلك: "كانت فيه غفلة شديدة وضعف، وقيل إنه باع نفسه في حداثته من تين أيام الشدة ثم أثبت بعد ذلك حريته".[1093]

ومنها ما ذكره الوزان حول جماعة من العرب الساكنين في نواحي مراكش ودكالة، حيث هاجروا إلى البرتغال في سنة مجاعة وعرضوا أنفسهم كعبيد لمن يتولى شؤونهم المادية وزعم أنه لم يبق من هؤلاء العرب بدكالة أحد،[1094] أما الأعراب القاطنون في صحاري برقة فقد كانوا مجبرون على تسليم أولادهم للتجار المسيحيين في أوقات المجاعة مقابل ما يجلبه إليهم هؤلاء من القمح من صقلية، ويشترطون عليهم في ذلك أن يدفعوا ديونهم في أجل معلوم وإن لم يفعلوا يسترقون أبنائهم ويستعبدونهم، وكثير ما يعجز أعراب برقة عن الوفاء بالدين، فيتم غرض التجار حسب شهادة الرحالة الإسباني مارمول: "وقد رأينا الكثير منهم في هذه الجزيرة (صقلية) متنصرين".[1095]

أما فيما يخص المغرب الأوسط فإن المصادر لم تشر إلى ذلك إلا نادرا، لكن هذه الإشارات كفيلة بأن تؤكد لنا وجود هذه الظاهرة فيه أوقات المجاعات؛ فقد ذكر المازوني في فتوى سئل عنها الفقيه منصور الزواوي مفادها أن رجلاً باع مملوكة له في زمن المسغبة، ثم تبين أنه باع ابنته، وهذا نص النازلة: "رجل باع مملوكة في سنة مسغبة وبقي بعدها تسع سنين ومات ولم تسمع له دعوى وقام ورثته بعده بأربع سنين وأثبتوا أن البائع المذكور أقرّ قبل البيع أنها ابنته، هل تنفعهم هذه البينة مع طول المدة المذكورة ومع سكوت البينة؟ وهل تعذر البينة بالجهل في ذلك من كون سكوتها مع استرقاق الحر مبطلة لها أم لا، وكلهم أهل وطن واحد؟ فأجاب: الحمد لله؛ إذا كان الأمر كما ذكر وكان أولئك الشهود عالمين ببيع تلك الأمة ولم يمنعهم من القيام بشهادتهم بأنها حرة مانع من غيبتهم أو عدم وجود الحكام هناك أو خوف أو غير ذلك من الأعذار المقبولة؛ فشهادتهم ناقصة لعدم مبادرتهم لما تجب فيه المبادرة وهذا مما يستدام فيه التحريم"،[1096] ولقد استنكر الفقهاء هذه الظاهرة بشدة واعتبروا بيع الأب لأولاده زمن المجاعة من الأمور المحرمة شرعا.[1097]

وفي السياق ذاته ذكر لنا الونشريسي نازلة أخرى سئل عنها قاسم العقباني تبين الحال السيئة التي تعيشها فئات العبيد في المغرب الأوسط زمن المجاعة؛ فيقول: "عمن اشترى وصيفته قبل الإثغار، وحبس البائع أمها وذلك في عام مسغبة ولحق الوصيفة ضرر عظيم، حتى إن مبتاعها ما حملها إلا على ظهره لما بها من الجوع، فأراد بعض الناس فسخ هذا البيع الآن للمتفرقة فهل له ذلك أم لا؟ فإن قلتم بفسخه فهل للمبتاع رجوع على

[1093]- **البيان المغرب،** 1 / 140، عبد الاله بنمليح: **الرق في بلاد المغرب والأندلس،** ط 1، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، 2004، ص 174.

[1094]- **وصف إفريقيا،** 1 / 63 .

[1095]- **إفريقيا،** 1 / 112 .

[1096]- **الدرر المكنونة،** 2 / 72 ب .

[1097]- عبد الاله بنمليح: **الرق في بلاد المغرب والأندلس،** ص 175 .

البائع بما كان أنفق".[1098]

ولهذا كانت فئة الرقيق معدومة الحقوق في مجتمع زادت فيه المجاعة من الهوة الفاصلة بين طبقاته، بخلق أعداد جديدة من الرقيق، التي خيرت بين حريتها والهلاك من الجوع، لكنها تبقى دائما في رهان مع الفقر والعيش تحت رحمة من يملك ناصيتها، ناهيك عن الأعمال الشاقة التي تظل لصيقة بهم طوال الحياة.[1099]

3- المظاهر الدينية زمن المجاعات

إذا كانت المجاعة ومختلف الأزمات تفرز في المجتمع نمطا آخر من العيش، فإن الممارسات الدينية لأفراده سوف تتغير لا محالة، وهذا ما رصدته مصادر الفترة بشكل مقتضب، فكانت صلاة الاستسقاء من أبرز السمات الدينية الدالة على حدوث قحط أو جدب، فهي ممارسة دينية طبعت المجتمعات الإسلامية في الفترة الوسيطة بما في ذلك مجتمع المغرب الأوسط.

لقد عدت صلاة الاستسقاء وسيلة من وسائل التضرع إلى الله والإنابة إليه أوقات الجدب طمعا في الفرج، فنهى الفقهاء عند إقامتها عن الطواف بالناس في الأزقة والمساجد والجبال والصحاري، ورفع أصواتهم بالدعاء والذكر أو البكاء والصياح واعتبروا ذلك من المكروهات، فالمشروع منها هو "الصلاة والخطبة والدعاء والتضرع إلى الله بالإخلاص والتوبة والصدقة"، ويروي لنا الونشريسي أن "موسى بن نصير استسقى بإفريقية وخرج بالناس يجعل الصبيان على حدة والآباء على حدة والبقر على حدة والنساء على حدة وأهل الذمة على حدة واستحسن ذلك بعض علماء المدينة وقال أراد استجلاب رقة القلوب بما فعل، وإن خرج النساء فليكنَّ متجالات ولا يخالطن الرجال".[1100]

لم تشر المصادر التي أرخت للمغرب الأوسط على اختلاف مشاربها إلى قيام الناس بصلاة الاستسقاء أوقات القحط إلا نادرا؛ على خلاف المصادر التي أرخت للمغرب الأقصى، فقد ذكر التادلي أن الناس خرجوا لصلاة الاستسقاء بتلمسان في فترة متقدمة على الزمن الذي عنيت به هذه الدراسة، وذلك عند ترجمته للولي أبي زكرياء بن يوغان الصنهاجي (تـ 536 هـ/1141م) إذ "أن أهل تلمسان قحطوا فاستسقوا به فسقُوا"،[1101] كما أن صلوات الاستسقاء كانت تتم غالبا بحضور الأولياء ممن يرجى بركتهم.[1102]

ومن اللافت للانتباه أيضا أن بعض المصادر أشارت إلى أن صلاة الجماعة كانت تتعطل بسبب المجاعة في كثير من المساجد، كما هو الحال بتلمسان أثناء المجاعة الواقعة بها سنة 842 هـ/1483م، حيث تعطلت صلاة الجماعة لوقت طويل في كثير من المساجد التي ربطت أبوابها بالحزم "لأن الناس أهملوا تلك المساجد لانشغالهم

[1098]- **المعيار المعرب**، 5 / 100.

[1099]- نفرق هنا بين ما جاءت به الشريعة الإسلامية من قوانين وتوجيهات لحماية العبيد من استغلال السادة لهم وبين ممارسات بعض المسلمين الذين لم يلتزموا بمبادئ الشريعة. راجع: عبد الله ناصح علوان: **الرق في الإسلام**، بيروت: دار السلام، ص 17، 68 .

[1100]- **المعيار المعرب**،1 / 164 .

[1101]- **التشوف إلى رجال التصوف**، ص 102.

[1102]- ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 182.

بأمر لمجاعة التي غلبت عليهم"،[1103] وفي هذا الصدد يضيف ابن مريم أن الغلاء الواقع بتلمسان (ق 10 هـ) زمن الولي يحيى بن عبد الله بن عبد العزيز قد "تعطلت منه المساجد وانغلقت".[1104]

ولا شك في أن الضعف والوهن الذي ألم بالناس جراء الجوع جعلهم ينشغلون عن أداء فريضة الجماعة في المساجد مما يفسر حجم هذه الأزمة وعمق تأثيرها على الناس من جهة، ويكشف من جهة ثانية مدى ضعف تدين أهل تلمسان وقلة يقينهم في الله وارتباطهم به في مثل هذه الأوقات.

وربما كان غياب الناس عن المساجد ليس لهذا السبب فقط، بل لانحسار دور المسجد كمؤسسة دينية في الأصل متعددة الخدمات، خاصة من الناحية الاجتماعية إذ تجسد وحدة المجتمع وتعاونه وتكافله، ففيه تجمع الصدقات وتوزع على المحتاجين ويحث الناس على المزيد منها، واقتصارها على أداء الشعائر الدينية فقط دفع أفراد مجتمع المغرب الأوسط إلى التوجه نحو مؤسسات أخرى يجدون فيها ملاذهم وما يبحثون عنه من الأرزاق والصدقات، أي نحو الزوايا وقبور الأولياء والصلحاء كمراكز منافسة للمساجد لما لها من قوة التأثير والدور الفعلي في نظر أفراد المجتمع، خصوصا المحتاجين منهم في أوقات الأزمات.

4- المظاهر السيكولوجية للإنسان زمن المجاعة

نظرا لأن المجاعة تحولت إلى هاجس كان يؤرق راحة إنسان المغرب الأوسط، فإن هذه الأزمة جعلته يقوم بعدة سلوكات أو ردود أفعال، كانت بمثابة ترجمة لواقع أزمة الجوع في نفسيته، فقد سبق أن أشرنا في مبحث المظاهر الاجتماعية إلى بعض السلوكات المشينة أو الآفات التي أفرزتها هذه الأزمة أو زادت من حدة تفشيها، كظاهرة التسول واللصوصية واسترقاق الأحرار، والتي أدت لا محالة إلى حدوث خلل اجتماعي داخل فضاء المغرب الأوسط.

لم تعن كثير من المصادر بذكر الجوانب النفسية للإنسان أوقات الكوارث والأزمات إلا نادرا في بعض الإشارات المحتشمة التي جاءت عرضا؛ فيصف ابن عذاري حالة الناس أوقات المجاعة الواقعة بالمغرب سنة 632 هـ/1243م قائلا: "واقشعرت الجلود من هول المكابدة في طلب شيء من أنواع الحنطة"،[1105] كدليل على القلق الذي اعتراهم والحال التي وصلوا إليها نتيجة قلة الطعام.

وفي هذا الصدد يضيف ابن خلدون عن أهل تلمسان زمن الحصار المريني الطويل فيقول: "نالهم من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم"،[1106] كتعبير صريح عن الحالة التي آل إليها أهل تلمسان جراء الحصار، ويضيف يحيى بن خلدون حول الحادثة ذاتها: "وانتهت قلوب المحصورين إلى الحناجر"، ومن جهة أخرى يصور لنا تحلي أهل تلمسان بالصبر بالرغم من الغلاء المتفاحش الذي آلت إليه أغلب المواد الغذائية فيقول: "ومع هذا فهم صابرون لقضاء الله، فلله درهم ما أكرمهم وأشجعهم وأوفاهم وأصبرهم؛ إلى أن حمدوا العقبى وحازوا

[1103]- ابن صعد: **روضة النسرين**، ص 221، ابن مريم: **البستان**، ص 33 .

[1104]- **المصدر السابق**، ص 307 .

[1105]- **البيان المغرب (الموحدي)**، ص 319 .

[1106]- **العبر**، 7 / 197.

شرف الدنيا ورعوا ثواب الآخرة"،[1107] ولا شك أن غرض المؤلف من ذكر ذلك هو مدح أهل تلمسان حكاما ومحكومين، وإبراز مدى قوتهم على تحمل الصعاب وتجاوزها، واستحقاقهم الملك بهذه الخلال.

لكن هذه الإشارات لم تكن لتعطينا تصورا واضحا عن الحالة النفسية التي تحلى بها مجتمع المغرب الأوسط زمن المجاعة، فكانت كتب الفتاوى هي أصدق من عبّر عن ذلك بوضوح، فأشارت إحدى النوازل إلى أن "الجوع يذهب العقل" أي أن الناس زمن المجاعة يفقدون أعصابهم ويفقدون القدرة على التحكم في تصرفاتهم، فتصدر منهم سلوكات غير طبيعية، ومثل ذلك ما سئل عنه الفقيه المجتهد أبو الفضل العقباني جاء فيها: "عن رجل أصابته المسغبة فيما فرط من الزمان حتى أشرف على الهلاك و لم يكن له عقل إلا في بطنه، وطرأ كلام بينه وبين أخيه على سبب المعيشة، فغيظه الحال وصار يمن عليه ما كان يمده من لبن و لم يكن عنده غيره، فحلف الرجل بالأيمان اللازمة لا أشرب لبنا، وبقي دهرا واشتد الأمر عليه فخاف عليه أخوه من الهلاك بالجوع ويكون حكمه حكم من ذهب عقله لأن الجوع يذهب العقل، وقد مات تلك السنة خلق كثير بالجوع وذهبت عقولهم، و لم يزل الرجل ينادي بالطعام حتى تزهق روحه، فيكون معذورا بهذا السبب فلا يلزمه شيء،؟ فأجاب: الحمد لله؛ قد وقع الحنث بشربه اللبن المحلوف عليه".[1108]

ونظرا لهذه الحالة التي يكون عليها معظم الناس أوقات المجاعات، فإن البعض من فقهاء في المغرب الأوسط قد ضيقوا حدود تعامل الإنسان الجائع، لأنه بمثابة المريض الذي قد يفقد عقله من شدة الجوع؛ واعتبروا أن "بيع الجائع الصحيح العقل في أوقات الشدايد كالمسغبة العامة كالمريض المثبت العقل ما لم يتمالك الجوع حتى ينقص من عقله فيكون كالمغلوب عليه".[1109]

كما اعتبر هؤلاء الفقهاء أن شهادة السماع غير جائزة إذا شهد بها الإنسان في مثل هذه الأوقات، فقد سئل أبو الفضل العقباني "عن شهادة السماع إذا شهد بها في مدة عشرين سنة لما كان الوباء كثيرا، والجوع المفرط في بعض تلك المدة والوباء المذكور مرتين والجوع كذلك، فهل تجوز شهادة السماع في هذه المدة لأجل ما ذكر أم لا، وهذه الشهادة في النكاح؟ فأجاب: شهادة السماع في مسألتك كاملة لأن المدة التي وصفت يبيد في شلها الشهود، لا سيما مع ما وصفت من الوباء والمسغبة الواقعين في أثناء المدة ".[1110]

ولا مراء في أن حالة من الخوف كانت تعتري الناس زمن المجاعة؛ خوف على أنفسهم وخوف على المصير الذي يلاقونه بعد مماتهم، فقد ترسخت في مخايل الناس بعض المعتقدات كربطهم لحدوث القحط أو المجاعة بتفشي المحرمات وتفسخ الأخلاق وكثرة المعاصي،[1111] وهذا ما يؤكده ابن عباد الرندي الذي يرجع سبب

[1107]- **بغية الرواد،** 1 / 123، 125 .

[1108]- المازوني: **الدرر المكنونة،** 1 / 201 أ، الونشريسي: **المعيار المعرب،** 4 / 290 – 291 .

[1109]- أبو يحيى المازوني: **المهذب الرائق،** ورقة 131 أ - 131ب.

[1110]- المازوني: **الدرر المكنونة،** 2 / 72 أ .

[1111]- ابن الصباغ القلعي: **بستان الأزهار،** ورقة 31 أ .

القحط الواقع بالمغرب عقب الطاعون الأسود إلى تفشي المنكرات في النص الذي ذكرناه سابقا،[1112] وربما كان ذلك تفسيرا للجوء الناس إلى الصلحاء والاستغاثة بهم والدعاء عند قبورهم أوقات الأزمات، كذهنية أو اعتقاد راسخ جعلهم يتقربون من كل مقدس رغبة في التغيير.

5- المجاعات والمرجعية التاريخية ونهاية عمر الدولة

تصنف المجاعات من بين الأحداث المهمة التي تؤثر على السيرة الحضارية لأي مجال تحدث فيه؛ ولهذا كانت تستعمل كمرجعية تاريخية في بعض المصادر يؤرخ بها لمختلف القضايا؛ ومثل ذلك ما وجدناه في كتب الفتاوى، فقد كانت المجاعة الواقعة في المغرب الأوسط سنة 776 هـ/1374م مرجعية تاريخية لبعض القضايا التي تناولتها إحدى النوازل المازوني، وسئل عنها أبو عزيز البجائي،[1113] كدلالة على أهمية هذه المجاعة في تاريخ المغرب الأوسط وثقل وطأتها على أفراد هذا المجتمع.

لقد ربط ابن خلدون كثرة حدوث المجاعات بنهاية عمر الدولة التي تستفحل في آخرها الفتن والثورات وتكثر الضرائب على الرعية، وغيرها من الأسباب التي رأيناها مفصلة سابقا، وكلها تعجل بزوال الدولة؛[1114] وهذا ما رأيناه بالنسبة لدولة الموحدين لكن بعد هذه الفترة لم تكن المصادر لترصد لنا كل المجاعات الواقعة بالمغرب الأوسط، مما يحول دون تكوين تصور واضح يمكن من خلاله أن نقر ما إذا كان رأي ابن خلدون ينطبق على المغرب الأوسط أم لا؟ لكن لا شك في أن المجاعات قد كانت من بين الأسباب التي ساهمت في ضعف وانحطاط المغرب الأوسط، حتى احتلت سواحله من طرف النصارى الإسبان نظرا للآثار الناتجة عنها.

ب - المظاهر الناتجة عن الأوبئة والأمراض

تعددت الآثار الناتجة عن الأوبئة والأمراض في مجتمع المغرب الأوسط زمن الدراسة لتشمل ميادين شتى اقتصادية واجتماعية ودينية وحتى نفسية، وإن لم تكن لدينا معلومات وافرة حول الآثار الاقتصادية والتي من البديهي أن تكون نفسها الآثار الناتجة عن المجاعات التي تعقبها أوبئة، فضلا عن أن هذه الأوبئة قد يتمخض عنها مجاعات أو غلاء في الأسعار، وهذا طبيعي بسبب الانهيار الديمغرافي الناتج عنها، والذي يمس اليد العاملة من كافة شرائح المجتمع من تجار وفلاحين وحرفيين، كما أن مرض الحيوانات والماشية قد يؤدي إلى شل النشاط الرعوي أيضا، فيؤدي كل ذلك إلى ضعف الاقتصاد ومن ثمة تحدث المجاعات.

أما الآثار الاجتماعية فلا ريب في أن الأوبئة والأمراض تخلق في مجتمع المغرب الأوسط واقعا حياتيا صعبا، فبالإضافة إلى تدهور الوضع الصحي فإن مثل هذه الأزمات تؤدي أحيانا إلى زعزعة العلاقات الاجتماعية وخلق شرخ كبير داخل المجتمع.

فالأمراض المزمنة كانت تؤدي إلى حدوث طلاق بين الزوجين في حالة ما إذا مرض أحد الطرفين بمرض مزمن، فلم يطق الطرف الآخر عشرته فيطلب الطلاق، وحسبنا في ذلك ما ذكره المازوني في فتوى سئل عنها

[1112]- **الرسائل الكبرى**، 1320هـ، ص 219 .

[1113]- **المصدر السابق**، 2 / 48 ب .

[1114]- **المقدمة**، ص 282 .

سعيد العقباني ثم أبو الفضل العقباني، حول رجل تزوج امرأة فظهر به جذام بعد بنائه بها بحوالي ثمانية أعوام، هل يحق لها هجره أم لا؟ ونظرا لخطورة هذا المرض وصعوبة تحمل رائحته فقد أفتى الفقهاء في هذه الحالة بأن يفرق بين الزوجين، خاصة إذا كان الجذام متفاحشا به، أما إذا لم يكن كذلك فلا توجد ضرورة للتفريق بينهما،[1115] وفي السياق ذاته يضيف المازوني نازلة أخرى سئل عنها هذا الفقيه، حول رجل تزوج امرأة ودخل بها فتبين أن بعقله خللا فخرج من بيته هائما؛ فعادت المرأة إلى بيت والدها ومكثت مدة سنة فجاءها خاطب فأجابه والدها إلى تزويجها، لكن الخاطب خاف أن يسترجع الزوج الأول عقله فتحدث مشاكل بينهما.[1116]

وذكر لنا الونشريسي أيضا فتوى سئل عنها محمد بن مرزوق عن رجل أراد الزواج على زوجته بعد أن مرضت مرضا لا يستطيع بسببه معاشرتها وخاف على نفسه الوقوع في الزنا، هل يحق له الزواج بعد أن وعد زوجته الأولى بأن لا يتزوج عليها أبدا،[1117] وحول ذلك ما سئل عنه العقباني أيضا عن امرأة مرضت مرضا شديدا تعذر من خلاله على الزوج معاشرتها، فهل تسقط عليه نفقتها؛ وإن كانت لا تسقط فهل عليه الزائد من نفقتها وهي في حالة المرض من أكل خاص وأدوية وأجرة الطبيب؟ فكان جواب هذا الفقيه بأن لا تسقط عليه النفقة إلا إذا كان مرضها شديدا فعليه في هذه الحالة مقدار أهلها في وضع المرض، ولا يلزم بدفع أجرة الطبيب ولا شراء الدواء.[1118]

وتؤثر هذه الأمراض أيضا على بعض الممارسات الدينية كما بينته لنا بعض النوازل، فقد سئل محمد بن مرزوق عن رجل مريض كان يعاني من برد شديد ولا يستطيع الوضوء لأن الماء يضره، فهل يتعين له التيمم،[1119] وكذلك الفقيه محمد بن فتوح التلمساني[1120] فكان قد أصابه مرض في إحدى يديه صعّب عليه مسح يديه في الوضوء إلا بيد واحدة، فاحتار في الأمر خاصة وأنه لم يجد فيه نصا صريحا، فأرسل يستفتي في ذلك عبد الله العبدوسي[1121] الذي أشكل عليه الأمر أيضا وقال له: "ولو نزل بي مثل ذلك لفعلت مثل فعلك"،[1122] وقد حاول الفقهاء في مثل هذه الحالات إعطاء رخصا حتى يخففوا على هؤلاء المرضى، ويشجعوهم على الاستمرارية في ممارساتهم الدينية دون أي ضرر يلحق بهم.

[1115]- **الدرر المكنونة**، 1 / 263 أ .

[1116]- **المصدر نفسه**، 1 / 275 أ .

[1117]- **المعيار المعرب**، 3 / 17.

[1118]- المازوني : **الدرر المكنونة**، 1 / 464 أ .

[1119]- **المصدر نفسه**، 1 / 62 ب – 64 أ .

[1120]- من فقهاء تلمسان المشهورين وزهادها، انتقل إلى فاس ثم مكناسة وبها استقر، وهو أول من أدخل مختصر خليل للمغرب سنة 805 هـ/1402م، توفي بالطاعون عام 818 هـ/1415م، ابن غازي: **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**. الرباط: 1371 هـ- 1952م، ص 22 – 23، التنبكتي: **نيل الابتهاج**، نفسه: **كفاية المحتاج**، ص 390 – 391، ابن القاضي: **لقط الفرائد**، 2 / 731.

[1121]- هو عبد الله بن محمد بن موسى أبو محمد العبدوسي التلمساني الأصل، محدث فاس ومفتيها، له مؤلفات وفتاوي بعضها في المعيار، توفي سنة 849 هـ/1445م، السخاوي: **الضوء اللامع** 5 / 67، السيوطي: **نظم العقيان في أعيان الأعيان**، تحقيق: فليب حتي، بيروت: المكتبة العلمية، 1927، ص 122، (وسماه العبدوني)، التنبكتي: **نيل الإبتهاج**، ص 604 – 605، القرافي: **توشيح الديباج**، ص 95 .

[1122]- ابن القاضي: **لقط الفرائد** 2 / 731 .

ومن الآثار الدينية أيضا أن الأوبئة والأمراض تخلق مجتمعا خائفا، ليس من الموت بالوباء ولكن خوفا من الله وإيمانا أن الأوبئة والأمراض تكثر عندما تتفشى المنكرات في المجتمع،[1123] وتجليات ذلك تظهر بوضوح في صور التوبة والإنابة إلى الله وتدارك بعض الأخطاء في زمن الوباء، فقد اهتدى بفضله "كثير من الناس إلى الخير، ورهبهم من مواقعه"، وهذا ما تبينه لنا بعض النوازل بوضوح، فقد أورد لنا المازوني فتوى عن رجل كان يعيش مع زوجته بالرغم من أنه طلقها بالثلاث قبل ذلك، لكنه راجع نفسه في زمن الوباء وتاب وأراد أن يعقد عليها عقدا جديدا،[1124] وكذلك ما سئل عنه الإمام محمد بن قاسم المشدالي ومجموعة من فقهاء المغرب الأوسط، ومنهم أبو الفضل العقباني عن تاجر من تجار بجاية الأغنياء عمد في زمن الوباء وهو بحال صحة قبل أن يمرض إلى كتابة عدة وصايا لورثته، والإقرار بالديون التي هي علية حتى يبريء ذمته.[1125]

وتخلق الأوبئة والأمراض المزمنة أيضا آثارا نفسية حادة في نفوس أفراد مجتمع المغرب الأوسط؛ منها الرهبة والاشمئزاز من بعض هذه الأمراض، خصوصا منها مرض الجذام، فلا ريب في أن المرضى بالجذام داخل هذا المجتمع أيضا لا يحيون حياة عادية، نظرا لاشمئزاز الناس منهم، وحسبنا في ذلك رواية ذكرها الرحالة عبد الباسط فهي كفيله بإزالة بعض الغموض، وتبين أن الناس داخل هذا المجتمع يتحاشون المرضى بالجذام، فتدور هذه الرواية حول بعض التجار التلمسانيين القادمين من فاس وقد تنكروا وكأنهم مرضى بالجذام خوفا من سطوة اللصوص الأعراب القاطنين بصحراء مملكة تلمسان، وبالفعل لم يقربهم هؤلاء اللصوص لخوفهم من أن يتأذوا بهذا المرض.[1126]

كما أن الناس كانوا يشمئزون من ثوب الميت بالوباء لهذا اعتبره فقهاء المغرب الأوسط من عيوب السلعة،[1127] وقد اعتبروا أيضا أن الرقيق المصاب بمرض مزمن كالجنون والجذام والبرص والفالج من العيوب التي يستوجب فيها رد الرقيق للبائع.[1128]

ومن الطبيعي أن تصدر عن المرضى في مجتمع المغرب الأوسط سلوكات غير عادية، قد تؤثر على مصير بعض العلاقات مهما اختلفت طبيعتها؛ حيث ذكر لنا المازوني في ذلك نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني مفادها أن رجلا كان مريضا مرضا شديدا ترتب عليه فقدان عقله فقال لزوجته أنت عندي في عوض أمي وأختي، وعندما بريء من مرضه أعلموه بأنه تلفظ بذلك فأنكر عليهم هذا، فكان جواب العقباني بأن لا يلزمه به شيء لأنه كان في حالة مرض.[1129]

[1123]- السيوطي: **ما رواه الواعون في أخبار الطاعون**، ورقة 165 ب.

[1124]- **الدرر المكنونة**، 1 / 360 أ – 360 ب .

[1125]- **الدرر المكنونة**، 2 / 87 أ – 93 أ، الونشريسي: **العيار المعرب**، 6 / 14 – 15 .

[1126]- **الروض الباسم**، ص 59.

[1127]- ابن مرزوق الحفيد: **نوازل**، ورقة 40 ب (نازلة سئل عنها محمد بن قاسم المشدالي) .

[1128]- أبو يحيى المازوني: **المهذب الرائق**، ورقة 187ب .

[1129]- **المصدر السابق**، 1 / 369 ب.

وسئل الوغليسي أيضا "عن رجل مرض مرضا شديدا تارة يكون صحيح العقل وتارة يغمى عليه، فقال لمن حضره: أشهدكم بأن أفرادي (أي ثيراني) صدقة لله، فقال: له أخوه أين أفرادك؟ اختبارا منه لعقله، فقال: أما أحدهما فهو ذلك وأشار إليه، وأما الآخر فهو عند فلان يحرث به في موضع كذا، وقال: ما كنت في عقلي، هل يصدق في ذلك أم لا ؟ فأجاب: إن أقر التزامه بالصدقة لغير معنيين لا يحكم بذلك، وهو آثم إن لم يوف بما التزم من ذلك، إلا أن يكون صادقا في قوله إن أغمي عليه، فلا يلزمه شيء ولو كان للمعنيين حكم عليه في ذلك، ولا يصدق فيما زعم إن كانت البينة عادلة، والله الموفق بفضله".[1130]

وفضلا عن المظاهر الدينية والاجتماعية فقد كان الوباء في كثير من الأحيان يشكل عقبة دون تحقيق بعض الطموحات السياسية؛ فقد حال الطاعون الجارف لسنة 749 هـ/1348م دون استكمال مشروع التوحيد الذي خطط له السلطان أبو الحسن المريني، وخرج بحملته إلى إفريقية التي فشلت بسبب هذا الوباء الذي أدركه، وأهلك الكثير من أفراد جيشه وكثيرا من العلماء ممن رافقوه،[1131] ومن الباحثين من يرى أن هذا الجيش هو المسؤول عن نقل عدوى الطاعون من إفريقية إلى باقي مناطق المغرب،[1132] كما حال الوباء الواقع سنة 765 هـ/1323م بوطن رياح بمسيلة دون استكمال وزير السلطان أبي زيان عبد الله بن مسلم حركته إلى الشرق؛ لأنه هلك فيه ورجع به قومه إلى تلمسان ليدفن بها.

1- صدى الأوبئة والطواعين في مجتمع المغرب الأوسط

لئن كانت "الأزمة تولد الهمة" كما يقال، فإن الأوبئة والطواعين كغيرها من الأزمات الطبيعية تخلق اهتماما كبيرا داخل أي مجتمع تحدث فيه، على الأقل على مستوى النخبة والفئات المثقفة، وتجليات هذا الاهتمام تتضح من خلال ما تنتجه هذه الفئة من تآليف حول ظاهرة الوباء، وخصوصا في ذلك الطاعون الجارف لسنة 749 هـ/ 1348م، لكونه حدثا عالميا وقف عنده كتاب العالم الإسلامي والأوروبي على حد سواء، فما مدى اهتمام علماء وفقهاء وصلحاء المغرب الأوسط بظاهرة الأوبئة والطواعين؟ وهل كانت مسألة العدوى والفرار من الطاعون محل جدل فقهي كبير بين فقهاء المغرب الأوسط، على غرار فقهاء الأمصار الأخرى في المغرب والأندلس؟ وكيف كانت الفئة المثقفة تنظر إلى الأوبئة والطواعين؟

مقارنة بما كتب حول الأوبئة والطواعين في بعض مناطق المغرب والأندلس والمشرق خصوصا حول الطاعون الجارف لسنة 749 هـ/1348م، لم تكن ما يسمى "أدبيات الطواعين" حاضرة بقوة لدى الفئة المثقفة في المغرب الأوسط، سوى بعض التآليف والشذرات القليلة التي لا تعطينا صورة واضحة عن واقع مجتمع المغرب الأوسط زمن حدوث الأوبئة والطواعين.

فقد ألف حسن بن علي الخطيب القسنطيني والد ابن قنفذ كتابا حول الطاعون سماه "**المسنون في أحكام**

[1130]- **المصدر نفسه،** 2 / 66 ب .

[1131]- ابن مرزوق: **المسند،** ص 261 – 267.

[1132] - Mehamed KABLY **:** ***Societe, Pouvoire et Religion au Maroc à la fin du*** **«Moyen - Age» (XIV - XV siècle),** préface de Clαude Cahen, Paris: editoins Maisonneuve et LAROSE, 1986, p 135, 142 -143,

محمد الأمين البزاز: **الطاعون الأسود،** ص 119 - 120.

الطاعون"،[1133] والذي ربما يكون في حكم المفقود لأنه لم يصلنا، كما ألف أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني المعروف بابن أبي حجلة الأديب المشهور(تـــ 776 هـــ/1374م) الذي عاش بمصر كتابا أيضا حول الطاعون بعنوان "**الطب المسنون في دفع الطاعون**".[1134]

وبخلاف ذلك لم يكن ما كتب حول الأوبئة والطواعين لا يمثل سوى شذرات قليلة في خضم بعض المصادر التاريخية، فقد كتب ابن قنفذ القسنطيني في "**الوفيات**" عبارات قليلة عن طاعون 749- 750 هــ /1348-1349م يشير من خلالها إلى موت فئة كبيرة من فقهاء المغرب الأوسط بهذا الوباء، ومن بينهم والده "الخطيب حسن بن علي" فيقول: "وفي سنة خمسين وسبعمائة وقع الوباء الأول العام في الأرض، وتوفي في هذه السنة الكثير من الفقهاء".[1135]

وذكر محمد بن مرزوق أيضا هذا الطاعون، مبينا من خلال ما كتبه حول ذلك الآثار الديمغرافية الناتجة عنه وذلك على مستوى فئة صلحاء تلمسان الذين لاقوا حتفهم فيه،[1136] أما ما دون ذلك فقد كانت جل الإشارات عن الأوبئة والطواعين والتي برزت أكثر في كتب التراجم والمناقب لا تذكر سوى بعض العلماء ممن ترجمت لهم قد لاقوا حتفهم بسبب وباء أو طاعون دون ذكر تفاصيل عنها.

وعلى خلاف الفترة المحددة للدراسة فمن اللافت للانتباه أن أدبيات الطاعون في المغرب الأوسط قد عرفت نشاطا مكثفا، وذلك كان متزامنا مع سلسلة الطواعين والأوبئة التي اجتاحت هذا المجال الجغرافي في الفترة الحديثة،كما سجلته لنا كتب التراجم كـــ"**البستان**" لابن مريم، و"**منشور الهداية**" للفكون، ولا شك في أن ذلك يعكس سبب اعتناء علماء المغرب الأوسط بالتأليف في مثل هذه الظواهر، فقد ألف ابن حمادوش الجزائري (ق 12 هــ/18م)[1137] رسالة في الطاعون، ونظم أحمد بن سحنون قصيدة حول طاعون هاجم المغرب الأوسط سنة 1202 هــ/1787م، وألف أبو راس الناصر (تـــ 1238 هــ/ 1823م) كتابا سماه: "**ما رواه الواعون في أخبار الطاعون**"، وكذلك ألف محمد بن رجب الجزائري رسالة سماها: "**الدر المصون في تدبير الوباء والطاعون**".[1138] على سبيل الإشارة فقط.

2- مسألة العدوى والفرار من الطاعون

عن طريق المنهج العلمي الذي ينبني أساسا على التجربة والمشاهدة والاستقراء، أقر الأطباء المسلمون وجود العدوى في جميع الأمراض الوبائية، إذ أن طريقة التأثير من شخص على آخر تختلف بحسب نوعية المرض، ففي

[1133]- ابن قنفذ القسنطيني: **كتاب الوفيات**، ص 355 – 356.

[1134]- عادل نويهض: **معجم أعلام الجزائر**، ص 364 – 365.

[1135]- **كتاب الوفيات**، ص 354 .

[1136]- **المناقب المرزوقية**، ص 187.

[1137]- أنظر: أبو القاسم سعد الله: **الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري– حياته وآثاره**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص 513.

[1138]-نفسه: **تاريخ الجزائر الثقافي**، 1 / 436 – 437 .

الطاعون تنتقل العدوى عن طريق ملامسة المريض واستعمال آنيته وفراشه وطول مجالسته، لان الأبخرة التي تتصاعد من جسده تكون متعفنة وتؤذي الناس من حوله،[1139] وقد أثبتت الدراسات الطبية الحديثة أن العدوى في الطاعون العقدي والطاعون الانتانمي تنتقل بواسطة البراغيث التي تحمل البكتيريا إلى بعض القوارض كالجرذان، ومن ثم إلى الإنسان كما سبق وأن أشرنا، في حين تنتقل العدوى في الطاعون الرئوي عن طريق الهواء وفضلات الشخص المصاب إلى الشخص السليم.[1140]

إن الاعتقاد بالعدوى مسألة ظلت راسخة عند أغلب الأطباء المسلمين فترة العصور الوسطى، والذين استمدوا أغلب معارفهم من الأطباء اليونان ثم طوروها،[1141] أمثال جالينوس (توفي في النصف الثاني من ق2 ق.م) وأبقراط (توفي حوالي 375 ق.م) وكتابه "**إبديميا** " والتي تعني الأمراض الوبائية.[1142]

هذا ويعد ابن خاتمة الطبيب الفقيه من بين الذين سلموا بالعدوى وأقروا بوجودها ودافعوا عن هذا الرأي، دون المساس بالعقيدة أو الاعتراف بما كانت تعتقده العرب في الجاهلية، بل المسبب لهذا الفعل إنما الله سبحانه وتعالى،[1143] ويشرح ذلك في النص التالي: "الظاهر الذي لا خفاء به ولا غطاء عليه أن هذا الداء يسري شره ويتعدى ضره، شهدت بذلك العادة وأحكمته التجربة، فما من صحيح يلابس مريضا ويطيل ملابسته في هذا الحادث إلا ويتطرق إليه إذايته، ويصيبه مثل مرضه، عادة غالبة أجراها الله تعالى، والفعل في الأول والثاني للحق جل جلاله خالق كل شيء، نفيا للتوليد الذي يذهب إليه أهل الضلال، وإبطالا للعدوى التي كانت تعتقدها العرب في الجاهلية وإعلانا للحق الذي قام عليه شاهد الوجود"،[1144] وهي الفكرة نفسها التي تبناها ابن الخطيب من بعده والذي يقول في من ينكر العدوى وقد ثبت وجودها "بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والأخبار المتواترة" قائلا: "لا ينكر العدوى إلا أحد رجلين: إما منافق الطبع يقول بلسانه ما لا يعتقد بقلبه، وإما جاهل ما حضر وباء قط"، ضاربا لنا أمثلة على كثير ممن احترزوا من الطاعون فنجو منه بإذن الله، ويرى أن سبب إنكار العدوى عند بعض الفقهاء راجع إلى عدم فهمهم للنصوص الواردة في السنة النبوية حول العدوى والفرار من الطاعون.[1145]

لقد شكلت مسألة العدوى محور جدل كبير بين الأطباء والفقهاء وحتى بين الفقهاء أنفسهم، فكان فقه الأوبئة من المواضيع التي أجاب فيها هؤلاء وأفردوا لها اهتماما خاصا انطلاقا من تراث ديني ورد في الكتاب والسنة على حد سواء.

[1139]– ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص 179 - 180، ابن الخطيب: **مقنعة السائل**، ص 43.

[1140]– أنظر مادة "**طاعون**" في **موقع الموسوعة الحرة** : www. Ar **. wikipedia**.org .

[1141]– محمد الحداد: **تمجيد الموت: صورة الوباء في القرن 19 م** ، ص 120.

[1142]– ابن زهر: **التيسير في المداواة والتدبير**، ص 449 .

[1143]– محمد الرصاع: **الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية**، ص 130، 133 – 134 .

[1144]– ابن خاتمة : **المصدر السابق**، ص 179 .

[1145]– **المصدر السابق**، ص 42 – 44 .

لم يكن ورود الوباء في القرآن الكريم بصورة صريحة بل إن المفسرين أثبتوا ذلك بعد تفسيرهم للآية الكريمة التي يقول فيها الله ↓ Ψ 🕮❒♏︎⬧︎♓︎⧫︎☜︎ ⬧︎⍓︎♍︎☞︎♓︎❒︎ ♌︎♋︎❒︎♓︎ ❖︎❼︎♓︎♌︎⌘︎⬧︎◆︎❷︎⍄︎ ♉︎♎︎☐︎✂︎☎︎ ♒︎♓︎♊︎
♦︎✌︎♐︎◆︎◑︎◆︎▫︎ ♎︎⚴︎⬀︎❑︎⌂︎☺︎⍓︎♏︎♐︎✂︎ ◆︎❻︎☒︎⓿︎◆︎■︎ ⬊︎♐︎❑︎⬈︎♒︎♏︎⬆︎🕮 ⬀︎⚴︎➔︎♎︎◆︎❑︎ ⬀︎⚴︎♎︎♎︎⌧︎❷︎⏲︎◆︎❸︎♎︎⑩
⅄︎✐︎♐︎✂︎ ·♍︎♎︎◑︎ 🗐 ⬄︎🏱︎⭠︎♑︎⏲︎◆︎⓿︎⇳︎❍︎❑︎🕮 ▪︎⚴︎➔︎🏱︎ ☎︎✂︎❑︎➔︎✍︎❑︎⬉︎✌︎ ✦︎✐︎♐︎✂︎ ⓿︎🏱︎⭠︎♑︎◆︎♒︎
◆︎❸︎◆︎✡︎⇩︎🗏︎❑︎🕮 ⓿︎♊︎⬂︎🗏︎⏲︎◆︎♒︎◆︎❑︎ ⬂︎☐︎♐︎❑︎⏲︎♒︎♐︎✂︎ ❼︎■︎✍︎◆︎⬉︎ ✍︎✍︎⇳︎♌︎◆︎▫︎ ❑︎⬈︎♎︎◆︎✐︎
✂︎♐︎♒︎✡︎❑︎♐︎☐︎⬂︎ •• ④❑︎⌖︎⇳︎⌛︎➔︎❷︎⬉︎❑︎♍︎♌︎ ⎉︎⌧︎⌦︎⌘︎⮰︎ ↑ [**البقرة**: 243]، وتشير هذه الآية كما فسرها أغلب المفسرين إلى طاعون حل ببني إسرائيل، ففروا من بلادهم فأماتهم الله وأحياهم ليبين لهم أن موتهم لم يكن بسبب الوباء، وإنما كان بقضاء من الله وقدره،[1146] ويروي المفسرون عن ابن عباس τ أنه قال: "كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون، قالوا: نأتي أرضا ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال لهم الله موتوا فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم".[1147]

وقد وردت في السنة أحاديث نبوية عديدة تناولت مسألة العدوى أقرّ أغلب المحدثين بصحتها، فيقول الرسول ρ: "لا عدوى ولا هام ولا صفر، ولا يحل الممرض على المصح، وليحلل المصح حيث شاء، فقالوا يا رسول الله: وما ذاك؟ فقال رسول الله ρ إنه أذى"،[1148] وقال أيضا: "لا عدوى ولا صفر ولا هامة، فقال أعرابي: يا رسول الله: فما بال إبلي تكون في الرمل كأنها الظباء، فيأتي البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها؟ فقال: فمن أعدى الأول؟"،[1149] وقوله ρ: "لا يورد ممرض على مصح"[1150] وقوله أيضا: "فر من المجذوم فرارك من الأسد ".[1151]

وما ورد عن الصحابة أيضا في الطاعون الواقع بالشام، فعن بن عباس τ "أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام، قال ابن عباس: فقال عمر بن الخطاب: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ρ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال عمر: ارتفعوا عني ثم قال: أدع لي الأنصار فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يختلف عليه منهم اثنان فقالوا: نرى

[1146]– المحلي والسيوطي: **تفسير الإمام الجلالين**، ص 53 .

[1147]– القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق عبد الله التركي ومحمد رضوان عرقسوسي، ط 1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1427هـ – 2006، 4/ 212، ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، بيروت: دار الفكر، 1422هـ – 2002، 1 / 274 – 275 .

[1148]– الإمام مالك: **الموطأ–رواية يحيى الليثي**، 2 / 946، أنظر الراويات المختلفة في السياق ذاته في: البخاري، **الجامع الصحيح المختصر**، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط 3، اليمامة – بيروت: دار ابن كثير، 1407هـ – 1987، 2 / 740، الحديث رقم 1993، 5/ 2158، والحديث رقم 5380، 5/ 2161 والحديث رقم 5387، 5 / 2171، والحديث رقم 5425.

[1149]– البخاري: **المصدر السابق** 5 / 2161، حديث رقم 5387.

[1150]– مسلم: **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي 4 / 1743، حديث رقم 2221.

[1151]– البخاري: **المصدر السابق**، 5 / 2158، حديث رقم 5380.

أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديا له عدوتان إحداهما مخصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله، فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان غائبا في بعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علما، سمعت رسول الله ρ يقول: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه، قال: فحمد الله عمر ثم انصرف".[1152]

وانطلاقا من هذه النصوص الدينية التي اختلف الفقهاء في تأويلها، ظهرت على إثر ذلك اتجاهات عديدة أفردت لمسألة العدوى نقاشا مهما وهي كما لخصها ابن حجر العسقلاني على أربعة مذاهب فيقول: "المحصل من المذاهب في العدوى أربعة: الأول أن المرض يعدي بطبعه صرفا وهذا قول الكفار، والثاني أن المرض يعدي بأمر خلقه الله تعالى فيه، وأودعه فيه ينفك عنه أصلا إلا أن يقع لصاحب معجزة أو كرامة فيختلف، وهذا مذهب إسلامي لكنه مرجوح، الثالث أن المرض يعدي، لكنه لا بطبعه بل بعادة أجراها الله فيه غالبا، كما أجرى العادة بإحراق النار، وقد يتخلف ذلك بإرادة الله تعالى، لكن التخلف نادر في العادة، الرابع أن المرض لا يعدي بطبعه أصلا بل من اتفق له وقوع ذلك المرض فهو بخلق الله سبحانه وتعالى ذلك فيه ابتداءً... والذي يترجح في باب العدوى هو الأخير".[1153]

ومن ثم عدت مسألة العدوى مسألة فقهية خلافية يصعب الخوض فيها لاختلاف الآراء، ويتضح من كلام ابن حجر أنه تبنى الرأي الرابع أي نفي وجود العدوى إطلاقا، ومن ثم يرى أن لا سبب موجب للاحتراز من العدوى ما دامت من قدر الله سبحانه وتعالى.[1154]

وقد اعتبر الطاعون بالنسبة للمسلمين رحمة أنزلها الله على عباده، وأن الميت به كالميت في ساحات الوغى له ثواب الشهيد، وذلك بناءً على الأحاديث النبوية التي وردت في فضل الطاعون، فيقول الرسول ρ: "الشهداء خمسة: المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم والشهيد في سبيل الله "،[1155] وقال أيضا: "الطاعون شهادة لكل مسلم".[1156]

[1152]- الإمام مالك: **الموطأ- رواية يحي الليثي،** 2 / 894، حديث رقم 1587، مسلم: **صحيح مسلم،** 4 / 1740، حديث رقم 2219، ابن حبان: **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان،** تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط 2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1414هـ -1993، 7/ 218، حديث رقم 2953، السيوطي: **ما رواه الواعون في أخبار الطاعون،** ورقه 168 أ – 168 ب.

[1153]- محمد الحداد: **تمجيد الموت: صورة الوباء في القرن 19،** ص 125 – 126، نقلا عن: ابن حجر العسقلاني: **بذل الماعون في فوائد الطاعون،** مخطوط دار الكتب بتونس، نسخة وردت ضمن مجموع 9210، ورقة 1 - 89، ولمزيد من الاطلاع حول اختلافات الفقهاء في مسالة العدوى مفصلة أنظر: محمد الرصاع: **الأجوبة التونسية،** ص 129 - 144، الونشريسي: **المعيار المعرب،** 11/ 252 – 356 .

[1154]- محمد الحداد: **تمجيد الموت: صورة الوباء في القرن 19،** ص 126.

[1155]- الإمام مالك: **الموطأ،** 1 / 131، حديث رقم 293، أنظر كذلك مختلف الروايات في: البخاري: **الجامع الصحيح المختصر،** 1 / 233، حديث رقم 624 ، 1 / 253 حديث رقم 688، مسلم: **صحيح مسلم،** 3/ 1521 حديث رقم 1914 .

[1156]- البخاري : **المصدر السابق،** 3 / 1041، حديث رقم 2675 .

وعن عائشة ɡ قالت: سألت النبي ρ عن الطاعون فأخبرني أنه: "عذاب يبعثه الله على من يشاء، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين، ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد"،[1157] وعن أبي موسى الأشعري τ قال: قال: رسول الله ρ "فناء أمتي بالطعن والطاعون قيل: يا رسول الله هذا الطعن عرفناه، فما الطاعون؟ قال: وخز أعدائكم من الجن، وفي كل شهادة"،[1158] وفي رواية أخرى "لا تفنى أمتي إلا بالطعن والطاعون".[1159]

وفي مقابل ذلك أفتى الفقهاء بجواز الدعاء لرفع الطاعون، وقد وردت في ذلك أدعية عنهم، فقد كان الإمام ابن عرفة يعلم تلامذته دعاءً لهذا الداء، إضافة إلى كثرة الصلاة على النبي ρ كما ذكرنا آنفا، كما أن العلماء لم يكرهوا التداوي من الطاعون، سواء بواسطة الطب الروحي بالرقى والتداوي بالمعوذاتين ومختلف الأوراد والأذكار، أو بالطب الجسماني بمختلف التدابير الإصلاحية والأدوية المركبة، وهذا ما أكد عليه الطبيب الفقيه ابن خاتمة المري.[1160]

في حين اختلف الفقهاء في مسألة الفرار من أرض الطاعون على اعتبار أن الذي يصبر عليه ولا يفر يكون أجره أجر شهيد،[1161] والفار منه كالفار من الزحف، فقد روت عائشة ɡ عن رسول الله ρ قوله: "الفار من الطاعون كالفار من الزحف ".[1162]

ومن ثم فقد نهى ρ عن القدوم على أرض الطاعون أو الخروج منها، ولهذا تشدد أغلب الفقهاء في الإفتاء بجواز الفرار، لئلا يكسر المسلمون الأصحاء قلوب الضعفاء والمرضى العاجزين عن الخروج، فيترك هؤلاء دون تمريض واهتمام، وهذا منهي عنه شرعا لأن من واجبات المسلم على أخيه التمريض والغسل عند الموت والدفن.[1163]

وقد أفتى الفقهاء بجواز الخروج من أرض الطاعون في حالة واحدة هي أن يكون الخروج لبلد آخر لأجل حاجة أو ضرورة لمن لا يجد نفسه أنه يستغني عن الحركة، كالمسافرين والصناع والتجار ومن في حكمهم، أما إذا كان الخروج لأجل حاجة ويكون القصد من ذلك الراحة من بلد الطاعون إلى بلد سليمة، فهذا محل خلاف بين الفقهاء؛ فمنهم من نهى عن ذلك، ومنهم من أجازه إذا كان القصد منه للتداوي.

ويمكن أن نلخص آراء الفقهاء كما يلي:

* النهي عن الخروج من أرض الطاعون والفرار منه.

[1157]- **المصدر نفسه**، 3 / 1281، حديث رقم 3287 .

[1158]- الإمام أحمد: **المسند**، 4 / 395، حديث رقم 19546 .

[1159]- **المصدر نفسه**، 6 / 133، حديث رقم 25062 .

[1160]- محمد الرصاع: **الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية**، ص 116 – 124 .

[1161] السيوطي: **ما رواه الواعون في أخبار الطاعون**، ورقة 163 ب، 166 أ.

[1162]- الإمام أحمد: **المصدر السابق**، 6 / 255، حديث رقم 26226 .

[1163]- محمد الرصاع: **الأجوبة التونسية** ، ص 151- 156، الونشريسي: **المعيار المعرب**،11 / 356 – 358 .

* جواز الخروج من أرض الطاعون في حالة ضرورة ملحة أو قضاء حاجة.

* الخلاف حول مسألة الخروج منه لأجل الراحة من بلد الطاعون إلى بلد سليمة، فمنهم من نهى عن ذلك ومنهم من أجازه، إذا كان الهدف منه التداوي لا غير.[1164]

وأما من منظور طبي فإن الخروج من أرض الوباء فيه مضرة كبيرة على المرضى، لأن ذلك يصاحبه حركة شديدة وهذا مضر لهم كما أسلفنا الذكر، كما أن الدخول إلى أرض الطاعون فيه مضرة كبيرة على الأصحاء فيمرضون بسبب استنشاقهم للهواء الفاسد، لأن مداناتهم للمرضى تؤدّي بهم إلى الهلاك، وفي هذا يقول رسول الله ρ: "إن من القرف التلف"،[1165] والقرف مداناة الوباء، قال بعض شراح الحديث: "وليس هذا من باب العدوى، إنما هو من باب الطب، فإن استصلاح الأهوية من أعون الأشياء على صحة الأبدان وفساد الأهوية من أضرها وأسرعها إلى إسقام البدن عند الأطباء، وكل ذلك بإذن الله تعالى ومشيئته"،[1166] وقال ابن قتيبة: "القرف مداناة الوباء ومداناة المرضى"، ولهذا رأى بعض الأطباء والفقهاء مجانبة المرضى والأخذ بالأسباب حتى لا تحملهم أنفسهم على الطيرة والعدوى.[1167]

لم يكن الطاعون حيز نقاش بين الأطباء والفقهاء فقط بل اقتحم مجال السياسة أيضا، فقد كان العباسيون يعتبرون أنفسهم طالع خير عندما انقطع الطاعون عن الشام بعد مجيئهم، في حين لم تنقطع زمن بني أمية، فقد خطب أحد أمراء بني العباس بالشام قائلا: "احمدوا الله الذي رفع عنكم الطاعون منذ ولّينا عليكم، فقال بعض من له جرأة: الله أعدل من أن يجمعكم علينا والطاعون".[1168]

ونظرا لأن المسلمين كانوا يعتبرون الطاعون تكريما خصهم الله به دون غيرهم، فإن موجات الطاعون التي استمرت حتى العصر الحديث، وما نتج عنها من كوارث ديمغرافية لا تحصى، لم تكن لتعبر عن فشلهم الذريع في درء خطر الطاعون، وإنما تعبر أكثر عن إيمانهم العميق بفكرة نيل الشهادة في زمن تقلصت فيه سبل الجهاد، في حين أن أوروبا كانت تنظر إلى مرض الطاعون على أنه من خاصيات الإسلام، ولهذا قطعت أشواطا كبيرة للنهوض بعلم الأوبئة والتخلص من خطر الطاعون إبان الفترة الحديثة، فقد تكللت هذه الجهود باكتشاف عدة لقاحات لمختلف الأمراض الوبائية، وأهمها لقاح الطاعون، غير أن هذه اللقاحات لم يكن مفعولها ساريا على المدى الطويل، وظلت الأمراض الوبائية والطاعون خطرا يتربص بكل سكان العالم حتى يومنا الحالي.[1169]

ونظرا لأن الأوربيين كانوا يؤمنون بمسألة العدوى إيمانا قاطعا، فإنهم رأوا ضرورة الاحتراز من الوباء،

[1164]- **المصدر نفسه**، ص 158- 159 .

[1165]- الإمام أحمد: **المسند**، 3 / 451، حديث رقم 15780، أبو داود: **سنن أبي داوود**، 2 / 413، حديث رقم 3923.

[1166]- البيهقي: **شعب الإيمان**، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1410هـ، 124/2، نفسه: **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، 1414هـ- 1994، 347/9، حديث رقم 19366.

[1167]- ابن قيم الجوزية: **الطب النبوي**، ص 43 - 44.

[1168]- ابن عبد البر: **بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس**. تحقيق محمد موسى الخولي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1/ 98، أبو منصور الثعالبي: **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، القاهرة : دار المعارف، 1965، 1/ 68 .

[1169]- محمد الحداد: **تمجيد الموت:صورة الوباء في القرن 19**، ص 116 – 117 .

فأحدثوا لذلك مكانا سموه بالكرنتينة "la quarantaine "، أو الحجر الصحي كوسيلة للاحتماء منه،[1170] ولما كان انتقال العدوى عن طريق التجارة وحركة السفن، فإن بلادهم الساحلية تكون في الغالب محاطة بحراس للسواحل، يشرفون على نزول السفن وحمل الركاب إلى الكرنتينة والذين تختلف مدة إقامتهم في الحقيقة بناءً على مجموعة من الشروط:

* فالسفن القادمة من بلدة قريبة ليس بها وباء، وفيها كرنتينة مستوفية الشروط، لا يحمل ركابها إلى الكرنتينة.

* السفن القادمة من بلدة بعيدة ليس بها وباء، وفيها كرنتينة مستوفية الشروط، يحمل ركابها إلى الكرنتينة لمدة أيام قلائل.

* السفن القادمة من بلدة ليس فيها وباء ولا كرنتينة فيها، أو لها كرنتينة مستوفية الشروط يحمل ركابها لمدة عشرين يوما.

* السفن القادمة من بلدة بها وباء، وليس في ركابها من به مرض، يحملون إلى الكرنتينة ويمكثون أزيد من شهرين.[1171]

* السفن القادمة من بلدة بها وباء، وفي ركابها من به مرض فإن هذه السفن غالبا ما تطرد، إلا إذا كان في البلد كرنتينة من الكبار، عندئذ يترل ركابها ثم يجردون من ثيابهم ويحرقون سفنهم ويعوضون لهم ثمنها، ويحمل هؤلاء الناس إلى مكان معزول ومعهم حراس ثم إلى الكرنتينة، ومنهم من يمكث ثلاثة أشهر في الكرنتينة ومنهم من يمكث شهرين ومن يمكث شهرا واحدا، وهناك يتلقون العلاج الكافي، ومن يموت منهم يُحفر له حفرة ويرمى فيها بالجير.[1172]

ومن بين الشروط التي يراعيها هؤلاء الحراس نوعية البضائع المحملة في السفن؛ فإن كانت محملة بالصوف والكتان والقطن والجلد، فإن هذه السفن تكون محظورة ويحمل ركابها إلى الكرنتينة، في حين كانت السفن المحملة بالخشب والحبوب والمعادن والمائعات يسمح لها بالدخول، ودون أن يحمل ركابها إلى الكرنتينة.[1173]

صحيح أن نظام الكرنتينة قد انتشر في البلاد الإسلامية في فترة العصور الحديثة، إلا أن بعض الفقهاء قد كرَّهوا ذلك، واعتبروه بدعة وتقليدا للأوروبيين، فلم يثبت عن السلف الصالح أنهم فعلوا ذلك خاصة وأن ذلك يجعلهم يتركون صلاة الجماعة، وهذه ظاهرة سلبية في الحياة الدينية .

وعلى رأس فقهاء العصر الحديث الذين دافعوا عن هذه الفكرة: الفقيه التونسي محمد بن سليمان المناعي (تـ 1247 هـ/1831)، والذي كتب رسالة حول ذلك وعن الوباء عموما تحمل عنوان : "**تحفة المؤمنين ومرشدة الضالين**"؛ ويعتبر المناعي أول من كتب عن نظام الكرنتينة في العصر الحديث، غير أن آراءه في أسباب الطاعون والفرار منه مستمدة في أغلبها من آراء من سبقوه من العلماء أمثال المقدسي الحنبلي (تـ 620

[1170]- **المرجع نفسه**، ص 129 .

[1171]- حمدان خوجة: **إتحاف المنصفين**، ص 138 - 139 .

[1172]- **المصدر نفسه**، ص 138 .

[1173]- **المصدر نفسه**، ص 139 .

هـ/1223م) صاحب كتاب: "**السر المصون في أخبار الطاعون**"، وابن القيم وابن حجر العسقلاني صاحب كتاب "**بذل الماعون في فضل الطاعون**"، والسيوطي صاحب كتاب "**ما رواه الواعون في أخبار الطاعون**"، وهو مختصر لكتاب ابن حجر المذكور، فهؤلاء من الذين حرموا الفرار من الطاعون، وينفون رأي الطب، ويؤكدون أن سبب الطاعون إنما هو وخز من الجان، ما دام هناك نص نبوي صريح يؤكد ذلك، فإذا "جاء النقل بطل العقل".[1174]

لم يكن الوباء مجرد مرض فقط وإنما كان قضية تأويلية ومجموعة من القناعات التي أدت إلى اختلاف الرؤى بين الأشخاص، فصنف تمسك بالمنقول وهم فقهاء السنة، وصنف تمسك بالمعقول وهم الأطباء، وصنف اختار الوسطية وتمسك بالمعقول والمنقول، وهم الأطباء الفقهاء أمثال ابن خاتمة المري، في حين كانت الرؤى حول الوباء متناقضة تماما بين العالمين الإسلامي والأوروبي؛ وهذا طبيعي لعالمين يختلفان من حيث الثوابت الدينية والثقافية والأفكار والذهنيات؛ فإذا كان هذا عن مسألة العدوى في العالم الإسلامي عموما؛ فكيف كان فقهاء المغرب الأوسط ينظرون إلى هذه القضية؟

لم يكن المغرب الأوسط بمنأى عن الجدل القائم بين الفقهاء حول مسألة العدوى والفرار من الطاعون، فقد أشار ابن قنفذ إلى اهتمام فقهاء هذا الفضاء آنذاك بمثل هذه القضايا فيقول: "وبسبب فتنة هذا الوباء واختلاف طلبته في الفرار ممن مرض به ألَّف (والد ابن قنفذ) كتابا فيه سماه: "**المسنون في أحكام الطاعون**"[1175] كما سبقت الإشارة إليه.

وقد اعتبر فقهاء المغرب الأوسط ثوب الميت بالوباء من عيوب السلع، ليس من باب العدوى ولكن لما يبعث من كراهية في نفوس الناس؛ وفي هذا الصدد يذكر لنا ابن مرزوق نازلة سئل عنها محمد بن قاسم المشدالي: "فأجاب:... لأنه عيب في السلعة، من باب البيع إن كان قد اشتهر وأثر كراهية في النفوس بحيث إذا ذكره البائع عاد ذكره بنقص أو برد في السلعة، فيظهر أنه عيب لأن العيب في السلع بحسب ما عند الناس لا بحسب حكم الشرع".[1176]

ومن جهة أخرى ثمة رواية مهمة أوردها ابن عقيبة في مؤلفه، حول مسألة العدوى والفرار من الطاعون، وموقف أحد علماء المغرب الأوسط من ذلك وهو محمد بن مرزوق الذي بعث به سلطان تلمسان رسولا إلى فاس سنة 803 هـ/1400م، وقد صادف هذا العام وقوع وباء عظيم بالمغرب، وفي طريق عودته بعث معه قائدا ورجلا نصرانيا، فنزل هذا القائد بعيدا عن بلدة وهي عبارة عن حصن يقال له تاوزيرت، كان قد تفشى بين أهلها الوباء، فسأل النصراني عن سبب امتناع المسلمين عن الدخول إلى هذه البلدة، فأجابه ترجمانه بأنهم يحترزون من الوباء المنتشر بها، فقال النصراني: "ما بال قسيس المسلمين لم يدخل، وأين توكلهم وقوة إيمانهم"،

[1174]- محمد الحداد: **تمجيد الموت: صورة الوباء في القرن 19**، ص 128 - 132 .

[1175]- **كتاب الوفيات**، ص 355 – 356.

[1176]- **نوازل**، ورقة 40 ب .

ولما سمع ابن مرزوق ما قاله النصراني، عزم على الدخول إلى هذه البلدة مع جماعة فدخلوا، و لم يمرض منهم أحد.[1177]

وتشير هذه الرواية من جهة إلى روح الوقاية والتحرز من الوباء التي تحلّى بها هؤلاء، لكنها من جهة أخرى تدل على توكل هؤلاء على الله سبحانه وتعالى بعدم فرارهم من الوباء، وهي الفكرة التي تبناها ابن مرزوق بعد سماعه لقول النصراني، ولربما كان يعتقد بها من قبل مثل باقي علماء وفقهاء وصلحاء المغرب الأوسط.

وتجليات التوكل على الله في مسألة العدوى والاعتقاد بأن الموت من الوباء رحمة يرجى منها نيل الشهادة في نفوس علماء وصلحاء المغرب الأوسط، يتبين من خلال الموقف الذي قام به والد ابن قنفذ قبل وفاته بالطاعون الجارف سنة 750 هـ/ 1349م، فقد "كان في صحته أعد نفقة جميع ما يحتاج إليه بعد الموت من كفن ونعش وتعيين نفقة وغير ذلك"،[1178] فقد أعد هذا الصالح لكل طقوس الموت، واستقبله كأنه يستقبل عيداً أو مناسبة عظيمة.

فالظاهر أن النخبة المثقفة المتدينة في المغرب الأوسط قد تبنت على الأقل بعد طاعون 749-750 هـ/1348-1349م فكرة إنكار العدوى وتحريم الفرار من الوباء واعتباره رحمة للناس وفرصة لنيل الشهادة، ولعل هذا الاعتقاد يفسر ضعف تفاعل فقهاء المغرب الأوسط مع ظاهرة الأوبئة والطواعين، وكذا الحديث عن مسألة العدوى والفرار من الوباء بعد الطاعون المذكور، وإلا فكيف نفسر غياب الجدل الفقهي الذي دار بين فقهاء الغرب الإسلامي -كما أشار ابن قنفذ إلى ذلك- في نوازل مازونة على خلاف الونشريسي الذي ذكر ذلك، ومقارنة لما ورد في نوازل مازونة من قضايا اجتماعية وقعت بالمغرب الأوسط، والتي تناولتها هذه النوازل بكثرة كقضية اللصوصية ومحاربة اللصوص من الأعراب، وغيرها من القضايا التي لا يقل الوباء أو الطاعون خطورة عنها، سوى أن الأوبئة بعد طاعون الجارف ربما لم تعد في المجتمع حدثا مفاجئا، خصوصا وأنها قد أصبحت ظاهرة دورية استمر حدوثها حتى الفترة الحديثة، أو ربما من جهة أخرى أصبح الوباء بعد هذا الطاعون مجرد حدث أو عارض سماوي، وإن كان يصنف في خانة الكوارث الطبيعية، فإن الموت به مستحب على الأقل على مستوى النخبة المثقفة أو المتدينة التي تبنت فكرة الاستسلام للوباء، وإنكار مسألة العدوى، في حين لم تتوفر لدينا معلومات حول صدى الأوبئة والطواعين بين عامة الناس في مجتمع المغرب الأوسط، وما إذا كانت هذه الأزمات مثل باقي الظواهر الاجتماعية قد خلفت موروثا شعبيا تداولته الأجيال من حكم وأمثال وأراجيز تترجم إيقاع هذه الأزمات في نفوس العامة، كما هو معروف في المجتمع الأندلسي ومجتمع المغرب الأقصى.

[1177]- محمد حسن: **المدينة والبادية** 2 / 608، نقلا عن: مخطوط: **اغتنام الفرصة لمحادثة عالم قفصه** (مخ. رقم 15085) .

[1178]- **أنس الفقير وعز الحقير**، ص 87 .

ثانيا: الانعكاسات الديمغرافية الناتجة عن الوباء و الجوع

تعددت مجالات الديمغرافية التاريخية في الاهتمام بتاريخ السكان من زوايا عديدة، انضوت تحتها الهجرة والوفيات كأحداث ديمغرافية،[1179] ناتجة عن جملة من الأسباب من بينها المجاعات والأوبئة، لكن من المؤسف أننا لا نملك بالنسبة لمجال المغرب الأوسط في الفترة الخاصة بالدراسة وثائق وأرقاماً إحصائية تساعدنا على وضع قوائم وجداول تخص الهجرة والوافيات الناتجة عن أزمتي الجوع والوباء، بخلاف ما هي عليه الديمغرافيا المعاصرة التي استطاعت أن تعبر عن مختلف الأحداث بلغة الأرقام، مما يستدعي هنا الاعتماد على منهج الشك لمحاولة وضع مقاربات ديمغرافية تكون أقرب إلى الواقع منها إلى الخيال.

أ- الهجرة

إن ظاهرة الهجرة في المفاهيم الديمغرافية المعاصرة تندرج ضمن ما يسمى "بالحدث المتجدد" الذي يحصل أكثر من مرة لفرد ينتمي إلى مجموعة من الأشخاص،[1180] غير أن الهجرة بسبب الجوع والوباء اعتبرت ظاهرة مخلة بالعمران، فحركة السكان نحو المدن أوقات هذه الأزمات يحدث فراغا عمرانيا رهيبا في الأرياف ويقابله اكتظاظ في المدن، مما ينتج انحسارا في التمدن، وظهور التبدي على أوسع نطاق.[1181]

وحسبنا في ذلك ما حدث في المغرب عقب الغزوة الهلالية، على أن السبب الحقيقي لهذه الهجرة في نظر بعض الباحثين إنما يعزى إلى أزمة اقتصادية شهدتها مصر سنة 429 هـ/1037م؛ وسبقت معركة حيدران التي وقعت سنة 443 هـ/ 1051م بسنوات عديدة، ولعل سبب هذه الأزمة يعود إلى بلوغ النيل أقصى ارتفاع له قدر بـ 15.20 ذراعا، فانعكس ذلك على الدينار الذهبي الذي بلغ أدنى قيمة له قدرت بـ 2.9 غ آنذاك.

ونتيجة لهذه الأوضاع الاقتصادية المزرية بدأت هجرات العرب الهلالية نحو المغرب، حيث بلغت الجموع الأولى جهة طرابلس؛ هذه الأخيرة التي شهدت مجاعة عظيمة سنة 430 هـ/1038م، وعمت بلاد الواحات أيضا ذكرتها المصادر الإباضية، وعرفت بسنة "فارورا"،[1182] حيث زادت الهجرة الهلالية من شدة هذه المجاعة، مما دفع بالسكان إلى الهجرة بحثا عن القوت، من جهة طرابلس إلى جهة وارجلان في خط أفقي، بل منهم من فضّل الهجرة نحو الجزر المتوسطية.[1183]

ولا يهمنا هنا من هذه الأحداث سوى أن نبين منها أن المجاعة كانت من أبرز العوامل المتسببة في حركة

[1179]- يوسف أنكادي ونور الدين الموادن: **مفاهيم ديمغرافية:الحدث الديمغرافي والظاهرة الديمغرافية**، مجلة كنانيش، العدد 03، ص 105

[1180]- **المرجع نفسه**، ص 106 .

[1181]- محمد حسن: **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، 31/1، رشيدة بسرور: **الديمغرافية والأوبئة في العهد المملوكي**، ص61.

[1182]- من بين المصادر الإباضية التي ذكرت هذه المجاعة: الوسياني الذي بين من خلال روايته معاناة الناس من هذه الشدة، وهجرة البعض منهم نحو ورجلان، أنظر: **مجموعة سير الوسياني**، دراسة وتحقيق عمر بن لقمان أبو سليمان بوعصبانة، أطروحة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة، 1426-1427 هـ، 2005- 2006 –4/ 659- 660، الدرجيني: **طبقات المشايخ بالمغرب**، تحقيق إبراهيم طلاي، ط 7، 2/ 406– 407 .

[1183]- محمد حسن: **المدينة والبادية**، 1 / 30 – 33 .

السكان وهجرتهم من أوطانهم بحثا عن فرص أفضل للعيش، وهذا ما بينته لنا المصادر بخصوص مجال المغرب الأوسط في الفترة الخاصة بالدراسة في إشارات محتشمة استقيناها خاصة من كتب النوازل الفقهية، فقد ذكر لنا المازوني نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني مفادها هجرة أو فرار بكر يتيمة زمن المسغبة إلى وطن غير وطنها، فتزوجها شيخ من أشياخ ذلك الوطن وهي كارهة،[1184] ولهذا فإن مثل هذه الهجرة قد تحدث مشاكل اجتماعية لا حصر لها، من بينها ما ذكرته هذه النازلة.

كما أن إصابة سكان القرى والأرياف بالسنة الشديدة أو الجوائح في منتوجهم الفلاحي وسيطرة الأعراب عليهم، كان يدفعهم بالهجرة إلى أوطان أخرى بحثا عن حياة أفضل، بدل العيش في ظل سيطرة وظلم هؤلاء الأعراب، الذين كانوا يحكمون بعض أرياف وقرى المغرب الأوسط آنئذ، وهذا ما بينته لنا إحدى نوازل المازوني، وكان قد سئل عنها محمد بن قاسم المشدالي.[1185]

وفي السياق ذاته تضيف إحدى النوازل التي تعبر عن مثل هذه الهجرات، التي كان سببها الفقر والجوع والتي سئل عنها عبد الرحمن الوغليسي؛ بحيث يدور محتواها حول رجل فقير اضطرته الحاجة إلى السفر، وكان عليه دين كبير و لم يترك لزوجته مالا ولا يعلم الناس هل هو حي أم ميت؛ فهل تستحق زوجته الزكاة، فكان جواب هذا الفقيه أن تعطى هذه الزوجة من الزكاة إن كانت على الحالة المذكورة.[1186]

غير أن المصادر لم تذكر لنا هجرة الفئات المثقفة من علماء وفقهاء وصلحاء بسبب المجاعة في مجتمع المغرب الأوسط، وربما يفسر ذلك بأن مستواهم المعيشي قار و لم يتأثر كثيرا إبان فترة المجاعات، هذا من جهة ومن جهة أخرى قد يفسر ذلك بثبات هؤلاء أمام البلاء ليكونوا قدوة للناس في الصبر على الشدائد.

في حين أشارت المصادر – خصوصا كتب التراجم– إلى هجرة بعض العلماء في المغرب الأوسط بسبب سوء الأوضاع السياسية سيما في فترة الحصارات والحروب، فقد خرج أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي مشرقا للحج بسبب الحصار الكبير الذي عانت منه تلمسان مدة طويلة،[1187] وقد هاجر محمد المكودي إلى غرناطة "مفلتا من رهق تلمسان حين حصارها"،[1188] كما فرّ عمران بن موسى المشدالي البجائي إلى الجزائر بسبب حصار الزيانيين لبجاية.[1189]

أما الهجرة بسبب الوباء فنادرا ما تذكرها لنا المصادر ذلك وباستثناء ما ذكره الرصاع عن هجرة مؤدب المسيد بسبب وقوع وباء بتلمسان وقت تلقيه دراسته بها حوالي سنة 829 هـ/ 1425م،[1190] لا توجد إشارة

[1184]– **الدرر المكنونة**، 1 / 275 ب .

[1185]– **المصدر نفسه**، 1 / 496 ب – 497 أ .

[1186]– **المصدر نفسه**، 1 / 151ب .

[1187]– ابن خلدون: **التعريف بابن خلدون**، ص 41، 49 – 50 .

[1188]– ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، 3 / 8 .

[1189]– المقري: **أزهار الرياض**، 5 / 30، التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص 351، القرافي: **توشيح الديباج**، ص 160 .

[1190]– **فهرست الرصاع**، ص 14 – 15 .

أخرى في المصادر، مما يفسر الإيمان العميق لأفراد المجتمع بحرمة الفرار من الوباء، وضرورة الصبر على هذا البلاء الذي يرجى منه الشهادة خصوصا في نفوس الفئات المثقفة والصلحاء، وحسبنا في ذلك ما قام به والد ابن قنفذ في الإعداد للموت بالوباء،[1191] بصورة مثالية تعكس لنا صحة هذا الاعتقاد في نفوس هؤلاء، وربما في نفوس بقية أفراد مجتمع المغرب الأوسط كذلك.

فالهجرة إذن سواء أكانت داخلية أم خارجية، أم بين الأرياف والمدن كحدث ديمغرافي كان ناتجا خصوصا عن أزمات الجوع، فهي إنما تدل على حاجة سكان المغرب الأوسط إلى تأمين غذائهم لتجاوز هذه الأزمة خارج مجال وقوعها.

ب- الوفيات

إن الوفيات في حقل الديمغرافيا التاريخية تنضوي ضمن ما يسمى بالحدث غير المتجدد، الذي يحدث للفرد الذي ينتمي إلى مجموعة من الأشخاص مرة واحدة فقط، فالوفيات كانت ولازالت تعد الحدث المخل الناتج عن ظاهرة مخلة -كظاهرتي الجوع والوباء مثلا- لأنها تؤدي إلى حدوث اختلال في ظاهرة الخصوبة عند العزاب، ويحول ذلك دون زواج بين صفوف هؤلاء،[1192] ومن ثم يتراجع عدد السكان، فتحدث الكارثة الديمغرافية خصوصا في أوقات الكوارث كالمجاعات والأوبئة، فكيف كانت صورة الموت جراء مثل هذه الأزمات في مختلف المصادر التاريخية، التي اهتمت بالتأريخ للمغرب الأوسط في الفترة التي هي مدار البحث؟ وهل جسدت لنا حقيقة حجم هذه الخسائر البشرية؟.

1- الوفيات الناتجة عن أزمة الجوع

لا تعطينا المصادر صورة صريحة عن حجم الكوارث الديمغرافية والخسائر البشرية الناتجة عن المجاعات الواقعة بالمغرب الأوسط زمن الدراسة، بل إن أغلب النصوص التي وردت حول ذلك كانت انطباعية، ولئن كانت توحي لنا من جهة بفداحة هذه المجاعات إلا أنها لا تعبر لنا عن ذلك بلغة الأرقام، كما أننا لا نملك عددا إجماليا لسكان المغرب الأوسط، أو حتى إحدى حواضره خلال مختلف المراحل الزمنية التي تنتمي إلى مجال الدراسة، الأمر الذي يسبب لنا عجزا كبيرا في محاولة إحصاء حجم مثل هذه الكوارث والخسائر البشرية المترتبة عنها من الناحية الديمغرافية.

يصف لنا ابن عذارى حجم الخسائر البشرية الناتجة عن المجاعة الواقعة ببجاية سنة 581 هـ/1185م جراء احتلال بني غانية لها قائلا: "وعجز أهل البلد عن تكفين الموتى، وعن مواساة الأحياء، فكانوا يصبحون في الخرب وفي سكك المدينة زمرا أمواتا ذكورا وإناثا"، [1193] فإذا كان ذلك يعبر عن إحدى صور الموت الجماعي بالمدن الكبرى نتيجة المجاعات، فماذا إذن عن الأرياف والقرى التي كانت أخبارها في مثل هذه الأوقات نسيا منسيا عند كافة المؤرخين، والتي لا شك في أن حجم الكارثة الديمغرافية بها سيكون أعظم، خصوصا في

1191- ابن قنفذ: **أنس الفقير وعز الحقير**، ص 87.

1192- يوسف أنكادي ونور الدين الموادن: **مفاهيم ديمغرافية**، ص 105، 107 .

1193- **البيان المغرب**، (**الموحدي**)، ص 181.

المجاعات التي يكون سببها الحروب والحصارات، حيث تكون القرى والأرياف عرضة أيضا للتدمير والحـــرق، وهتك الزروع والأنعام كما سبق وأن أشرنا إليها.

غير أن المجاعات التي تعقبها أوبئة تكون الخسائر البشرية فيها كبيرة، وهذا طبيعي لأن الموت يكون بـــسبب الجوع وبسبب الوباء معا، فتتضاعف نسبة الوفيات عما تكون عليه في المجاعات الأخرى، وهذا مـــا كـــان في المجاعة التي شملت كلاً من مصر وإفريقية والمغرب سنة 693 هـــ/1293م، والتي أعقبها وباء عظـــيم "فكانـــت الموتى تحمل اثنين وثلاثة وأربعة على المغتسل".[1194]

و لم تكن المجاعات الناتجة عن الحروب والحصارات أيضا بأقل ضرراً من المجاعات الأخرى، بل تنجر عنـــها خسائر بشرية معتبرة، فقد خلفت المجاعة الواقعة بتلمسان أثناء الحصار المريني لها زهاء مائة ألف وعشرين ألف شخص بسبب القتل والجوع معا،[1195] غير أن بعض المعطيات تجعلنا نستيقن أن هذا العدد الذي ذكره يحيى ابن خلدون هو رقم مبالغ فيه، وإن لم تكن المصادر تذكر لنا بصورة صريحة عدد سكان تلمسان قبل الحصار، ثمـــة إشارة كفيلة بأن تثبت ذلك ذكرها الوزان عن عدد دور تلمسان عقب الحصار المريني لها فيقول: "ولما ضعفت شوكة بني مرين، تكاثر سكان تلمسان من جديد حتى بلغ عدد دورها المسكونة ثلاثة عشر ألـــف دار"،[1196] بصيغة تدل على أن تلمسان لم تبلغ عدد دورها كذلك قبل الحصار، وإذا كانت الدار أو الكانون الواحد كما يعبر عنه الوزان يحوي خمسة أفراد فأكثر، فإن عدد سكان تلمسان يقارب 65 ألف نسمة، إذا افترضنا أن عدد أفراد الدار الواحدة هو خمسة أفراد، وإن كنا لا نعلم عدد سكان تلمسان قبل الحصار، والذين يفترض أن يكون عددهم أقل من 65 ألف نسمة فإننا نلاحظ هنا هذا التناقض الكبير بين عدد الموتى وعدد السكان وحتى إن كان عددهم يفوق 65 ألف نسمة، فإن أعدادهم لا تتجاوز 80 ألف نسمة، وهو العدد الذي قدرناه مما ذكره الـــوزان عن عدد دور تلمسان، وهي في فترة ازدهارها وقوتها على عهـــد أبي تاشـــفين(718- 737 هـــــ / 1318-1337م).[1197]

إن الموت بسبب الجوع كان يؤدي إلى تناقض كبير وسريع في عدد سكان المغرب الأوســـط آنـــذاك، وإن كانت المصادر قد أعطتنا عن ذلك صورة فيها كثير من الضبابية، إلا أن انطباعاتها توحي لنا بفداحة الخـــسارة البشرية التي تخلفها المجاعة داخل هذا المجتمع.

2- الموت بسبب الوباء

لقد أنتجت الأوبئة الكاسحة للمغرب الأوسط (588-927 هـــ/1192-1520م) خسائر بشرية معتبرة بين أفراده، لم تكن في ذلك أقل من الخسائر الناتجة عن المجاعات، بل فاقتها أحيانا بكثير خصوصا إذا ما طال الوباء، وكان شاملا لكل مناطق المغرب الأوسط، مثلما هو الحال بالنسبة لوباء سنة 749 هـــ /1348م الذي عم العالم

[1194]- ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، ص 539 - 540، السلاوي: **الاستقصا**، 3 / 90 .

[1195]- يحيى ابن خلدون: **بغية الرواد**، 1 / 125.

[1196]- **وصف إفريقيا**، 2 / 19 .

[1197]- **المصدر نفسه**، 2 / 17.

بأسره و"تحيف الأمم، وذهب بأهل الجيل"[1198] على حدّ تعتبر ابن خلدون عن هذا الحدث.

لكن من الصعب جدا تحديد المدة الزمنية التي استمر فيها هذا الوباء في حصد سكان المغرب الأوسط، لعدم وجود مادة مصدرية حول ذلك، غير أنه من الأرجح أن تكون هذه المدة أكثر من سنة، على اعتبار أن المصادر قد سجلت لنا علماء ماتوا في هذا الوباء خلال سنتي 749 هـ/1348م و750 هـ/1349م.

وبخلاف جل الأوبئة الواقعة بالمغرب الأوسط حظي الطاعون الجارف لسنة 749 هـ/1348م باهتمام خاص لدى كتاب الفترة، باعتباره حدثا هز عالم العصور الوسطى بأكمله، وإن كان أغلب ما كتب عنه كان بصورة انطباعية، حتى وإن كانت هذه الإشارات تشير إلى فداحة هذه الكارثة لكنها لم تعطنا تقديرا واضحا عن عدد الخسائر البشرية التي تكبدتها جل مناطق المغرب الأوسط.

ولئن رسم لنا ابن خلدون صورة قاتمة عن المغرب كله في منتصف المائة الثامنة عقب الطاعون الجارف الذي كانت نتائجه على المنظومة الديمغرافية وخيمة؛ كانت أقرب منها إلى الفناء[1199] العام فقد "طوى البساط بما عليه"[1200] على حد تعبيره، فإن المغرب الأوسط قد عرف أيضا بعد هذا الطاعون فراغا سكانيا رهيبا في المدن الكبرى، فقد انقرض أولاد الولي الصالح يوسف بن يحيى بن يوسف حفيد التيفرسي، هم وأولادهم في الوباء سنة 750 هـ/1349م،[1201] وحسبنا في ذلك أيضا ما ذكره ابن خاتمة عن عدد الموتى بتلمسان في اليوم الواحد جراء هذا الوباء والذي قدَّره بأزيد من 700 نسمة، والذي يكون من دون شك رقما مبالغا فيه إذا ما قارناه بالمعطيات المتوفرة لدينا، ولو بصورة تقريبية كما هو موضح في الجدول التالي:

عدد الموتى في تلمسان في اليوم الواحد جراء طاعون 749 هـ/1348م	**عدد الموتى في سنة واحدة**	**عدد دور تلمسان في عهد ازدهارها (فترة أبي تاشفين 718- 737 هـ/ 1318 -1337)**	**عدد السكان في هذه الفترة على اعتبار أن الكانون الواحد متكون من خمسة أفراد.**
700 نسمة	252000 نسمة	16 ألف كانون[1202]	80000 نسمة

ومن هذا الجدول يتجلى لنا بوضوح التناقض الصريح بين عدد الموتى بالوباء خلال سنة واحدة، وبين عدد سكان تلمسان زمن استقرارها والذي كان أقل منه بكثير، ولهذا فإن الرقم الذي قدمه لنا ابن خاتمة مبالغ فيه، وهو أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع.

وعلاوة على هذا لم تكن مدن المغرب الأوسط وحدها قد تجسدت فيها صورة الموت بسبب هذا الوبـاء

1198– **المقدمة**، ص 38 .

1199– سالم حميش: **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ**، ط 1، بيروت: دار الطليعة، 1998م، ص 63 – 64 .

1200– ابن خلدون: **التعريف بابن خلدون**، ص45 .

1201– ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 187.

1202– الوزان: **وصف إفريقيا**، 2 / 17.

آنذاك، وإنما القرى والأرياف فيه أيضا تعرض أهاليها للفناء نتيجة هذا الوباء إلى درجة أنها احتاجت إلى إعادة التعمير بعد ذلك، الأمر الذي أحدث مشاكل اجتماعية بين الأفراد، نتيجة إدعاء بعض الناس أنهم من ذرية أهل هذه القرى، ولهذا فهم أحق بسكنها من غيرهم، وهذا ما جسدته بعض نوازل الفترة.[1203]

أ- الموت بالوباء بين مختلف فئات المجتمع

هل كان التفاوت الطبقي أمام الموت بالوباء موجودا بالمغرب الأوسط؟ سؤال من الصعب الإجابة عليه في ظل غياب معطيات دقيقة، لكن مما لا شك فيه أن الأوبئة ظلت مع مرور الأزمان من الأمور اللصيقة بالفقر والفقراء بسبب سوء التغذية عندهم وسوء التدبير وانعدام النظافة، وهي أمور أقرتها المصادر الطبية والتاريخية معا، وهذا ما لاحظناه عند كل من ابن الخطيب وابن خلدون، وعلاوة على ذلك كانت أوروبا فترة العصور الوسطى تحمل اليهود سبب حدوث الأوبئة والطواعين بسبب الأوساخ التي يعيشون فيها، وقيامهم بتلويث الآبار والسواقي.[1204]

ولا مراء في أن أعداد الموتى جراء الأوبئة والطواعين في مجتمع المغرب الأوسط كان يتصدرها أناسٌ من العامة والفقراء بسبب قلة الإمكانيات وسوء التغذية، خصوصا منهم الأطفال والصبيان، فقد مات الصبيان في تلمسان جراء وباء كان قد أصابها في فترة استقرار الرصاع بها، وهو يزاول دراسته الابتدائية، فقد سافر المؤدب الذي كان يدرسهم وخلا المسيد من الصبيان بسبب هذا الوباء الذي لا نعلم زمنه تحديدا.[1205]

غير أنه في مقابل ذلك أيضا لم تسلم الفئات المثقفة أو حتى السياسية في المغرب الأوسط من الموت بسبب الأوبئة في المغرب الأوسط، وتجليات ذلك تظهر لنا من خلال بعض أسماء العلماء التي ذكرت المصادر أن موتهم كان بسبب الأوبئة والطواعين،[1206] والتي صورت لنا أن الموت بالطاعون أو الوباء لم يكن هاجسا يؤرق الفئات المثقفة على الأقل منهم الزهاد والصلحاء، كونهم يجنون من وراء ذلك الشهادة، وفي هذا الصدد قدم لنا ابن قنفذ صورة رائعة عن والده وهو يعد نفسه للموت بالوباء،[1207] أما بالنسبة لأصحاب السياسة والملك، فلم نعثر إلا على اسم وزير واحد مات بالطاعون وهو الوزير عبد الله بن مسلم الذي توفي بطاعون سنة 765 هـ/1363م بوطن رياح بالمسيلة.[1208]

غير أن كل هذه الالتفاتات من المصادر واهتمامها بتسجيل أسماء الفئات المثقفة التي ماتت بالأوبئة، يجعلنا نجزم يقينا أن المصادر ظلت وحتى إلى الفترة المخصصة بالدراسة تؤرخ للفئات المثقفة والسياسية والصلحاء حتى في أوقات الأزمات، في حين غيبت الفئات الأخرى من مجتمع المغرب الأوسط سيما عامة الناس وطمس

[1203]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 15،(نازلة سئل عنها أبو الفضل العقباني) .

[1204]- سالم حميش: **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ**، ص 65، 69 .

[1205]- **فهرست الرصاع**، ص 14، 16 .

[1206]- أنظر: **الملحق 4** (أسماء العلماء الذين ماتوا بالطاعون).

[1207]- **أنس الفقير وعز الحقير**، ص 87 .

[1208]- **العبر**، 7 / 265 .

المؤرخون أخبارهم حتى في مثل هذه الأوقات.

وفضلا عن ذلك، فقد حضي العلماء والصلحاء الذين هلكوا بالأوبئة باهتمام خاص بعد الموت، إذ كانوا يحظون بقبور خاصة تكون محايدة للمساجد، يكون نمطها المعماري من دون شك مغايرا لنمط القبور العادية، ومثل ذلك ما حظي به الولي الصالح أبو عبد الله الصفار القسنطيني[1209] الذي مات في الوباء العام سنة 750 هـ/1349م بقبر بني له بإزاء مسجده الذي كان متواجدا بساحة القنطرة بقسنطينة،[1210] وفي مقابل ذلك جسد لنا ابن عذاري صورة مرعبة من صور الموت بالوباء الواقع ببجاية سنة 581 هـ/ 1158م نتيجة مجاعة، فقد كانت جثث الناس مترامية في سكك الشوارع وخرب المدينة.[1211]

كما أن أصحاب الملك والسياسية في المغرب الأوسط، وممن ماتوا بالطاعون قد قوبلوا أيضا باهتمام خاص بعد موهم؛ فقد حمل جثمان الوزير أبي عبد الله بن مسلم الذي مات بطاعون 765 هـ/1363م بوطن رياح كما سبق وأن أشرنا ليدفن في تلمسان،[1212] ولو أنه كان من عامة الناس لدفن في الطريق على الأقل ليتخلصوا من جثته حتى لا تنتقل العدوى إليهم.

وعلى الأرجح أن تكون هذه المفارقة في الموت بالوباء بين عامة الناس وهذه الفئات بسبب المكانة العلمية والدينية والسياسية لهذه الأخيرة، لكن لا سبيل إلى الإنكار أن ذلك يمثل من جهة أخرى وجود تفاوت طبقي بين الفئات العليا والدنيا لمجتمع المغرب الأوسط.

ب ـ الوباء والحياة الثقافية بالمغرب الأوسط بعده

بديهي جدا أن موت العلماء أو هجرتهم بالمغرب الأوسط نتيجة الأوبئة، ينعكس سلبا على الحياة الثقافية بها، فتتعطل المدارس والكتّاب جراء ذلك، فقد عطل الوباء الحادث بتلمسان سير دراسة الرصاع وهو في مرحلته الابتدائية، بعد أن سافر المؤدب وهلك أغلب صبيان المسيد بسببه،[1213] كما أن الطاعون الجارف لسنة مات فيه عدد كبير من الفقهاء وذلك حال دون إكمال ابن خلدون رحلته العلمية، فاستاء لذلك كثيرا خاصة وأنه قد فقد إضافة إلى شيوخه والديه أيضا فيقول: "ولم أزل منذ نشأت وناهزت مكبا على تحصيل العلم حريصا على اقتناء الفضائل متنقلا بين دروس العلم وحلقاته، إلى أن جاء الطاعون الجارف وذهب بالأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما الله".[1214]

وثمة نص آخر يبين لنا فيه ابن خلدون حالته النفسية المتدهورة عقب هذا الوباء، وحزنه الشديد على مفارقة ذويه ومشايخه فيقول: "وخرجت معهم أول سنة ثلاث وخمسين [وسبعمائة] وكنت منطويا على

[1209]- أبو عبد الله الصفار القسنطيني: أحد أشياخ ابن قنفد الخطيب ومن أقران والده حسن بن علي، ابن قنفد: **الوفيات**، ص 356، نفسه: **أنس الفقير وعز الحقير**، ص45.

[1210]- عبد الحق معزوز، لخضر درياس: **جامع الكتابات الأثرية العربية بالجزائر**، 321/1 – 322 .

[1211]- **البيان المغرب**، (**الموحدي**)، ص 181.

[1212]- ابن خلدون: **العبر**، 7 / 265 .

[1213]- **فهرست الرصاع**، ص 14، 16.

[1214]- **التعريف بابن خلدون**، ص 64 – 65 .

مفارقتهم لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي وعطلتي عن طلب العلم"،[1215] ويمكننا إسقاط ما أصاب ابن خلدون من استياء على كافة طلبة العلم في المغرب الأوسط، نتيجة انحطاط الحياة الثقافية، وموت علماء أكفاء في مثل هذه الكوارث.

جـ ـ الوباء ونهاية عمر الدولة

لئن كانت الأوبئة تساهم بدرجة أكبر في حدوث خلل ديمغرافي لأي مجتمع تكتسحه، فإنها أيضا تؤدي إلى إنقاص العمران، وتسريع عجلة نهاية عمر الدولة، وحسبنا في ذلك ما ذكره ابن خلدون حول نتائج طاعون منتصف المائة الثامنة، الذي يعد حدثا مهما في تاريخ البشرية فيقول: "وهذا ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن، وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته وقدر عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها".[1216]

فابن خلدون ربط حدوث الوباء بنهاية عمر الدولة، وما يحدث في آخرها من كثرة والمجاعات والفتن، مع ما يصاحبها من عجز على مستوى السلطة لإخمادها؛[1217] لكن هل يمكن إسقاط نظرة ابن خلدون على المغرب الأوسط؟ إنه من الممكن ذلك، لأن ابن خلدون من جهته لم يركز على دولة معينة من دول المغرب، بل كان يقصد بذلك حالة المغرب كله، نظرا لأن هذا الطاعون كان قد شمل كل المناطق، ما عدا الصحاري البعيدة التي لا تصلها العدوى.

فالمغرب الأوسط عقب الطاعون الجارف عرف حالة من التدهور السياسي والاقتصادي، وهذا ما نلمسه بوضوح عند المؤرخين الإخباريين وكتب النوازل والفتاوى التي أصبحت تتخذ من هذا الوباء مرجعية لتأريخ العديد من القضايا التي تناولتها،[1218] فهذا الطاعون كان بالنسبة لابن خلدون بمثابة إعلان عن حدوث تحول للعالم بأسره؛ وهذا التحول يستحق التأريخ له من جديد.[1219]

لكن من المؤسف أن المصادر لا تتحدث عن هذا الضعف بوضوح، وإنما يمكن أن نستقي ذلك من خضم ما كتبوه، فقد حدثنا ابن مرزوق عن حال تلمسان بعد الطاعون الجارف وأعطانا صورة واضحة عن الضعف والوهن الذي أصاب هذه الحاضرة عقبه فيقول: "ففيه (وباء 749 هـ/1348م) انقرض وتغيرت الأحوال، ثم

[1215]- **التعريف بابن خلدون**، ص 65 .

[1216]- **المقدمة**، ص 38 .

[1217]- علي أومليل: **الخطاب التاريخي – دراسة في منهجية ابن خلدون –** ط 4، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2005، ص 114 .

[1218]- المازوني: **الدرر المكنونة**، 2 / 87 أ .

[1219]- **المقدمة**، ص 38 .

دهى تلمسان بعده وفي زمانه اتصل من الفتنة ما اتصل إلى الآن". [1220]

وعموم القول فإن المجاعات والأوبئة إنما تكثر في أواخر الـــدول، وتعجـــل بزوالهـــا بحـــسب مـــا أقـــره ابن خلدون؛[1221] لأن هذه الأزمات كانت عقبة أمام النمو السكاني لبلاد المغرب الأوسط في الفترة الممتدة ما بين (588-927 هـ/1192 -1520م)، نظرا للآثار الديمغرافية التي تتمخض عنها؛ وخصوصا في ذلك مـــا خلفه الطاعون الجارف من فراغ سكاني رهيب في المغرب الأوسط، وعالم العصور الوسطى كله.

[1220]- **المناقب المرزوقية**، ص 187.

[1221]- **المصدر السابق**، ص 282.

خاتمة

لقد كانت المجاعات والأوبئة من أخطر الأزمات التي هددت حياة وغذاء سكان المغرب الأوسط بصفة شبه دائمة، في الفترة الممتدة ما بين (588-927 هـ/1192 -1520م)، لتفرض حالة من اللاستقرار، وانعدام الأمن الغذائي وتقهقر المستوى الصحي في مدن المغرب الأوسط وبواديه على حد سواء.

إن أسباب حدوث المجاعات راجع إلى عاملين أساسيين هما: عامل بشري من صنع الإنسان، تمثل في كثرة الضرائب على الرعية وما نتج عنه من حدوث أزمات اقتصادية أدت إلى تراجع النشاط الفلاحي في المغرب الأوسط، وتمخض عن ذلك انعدام الأمن الغذائي داخل هذا المجتمع، وحدوث غلاء في الأسعار والذي أدى في نهاية المطاف إلى انتشار المجاعات.

وتعتبر الحروب والحصارات والفتن الداخلية كتسلط الأعراب القاطنين بالمغرب الأوسط على السكان؛ من أهم الأسباب البشرية التي تمخض عنها حدوث المجاعات والغلاء في الأسعار، فلا غرو فقد تعدت الآثار الناتجة عن الحروب إلى انحدار ديمغرافي لسكان المغرب الأوسط، وخراب عمراني، فضلا عن أنها فرضت حالة شبه دائمة من اللأمن واللاستقرار السياسي داخل المغرب الأوسط في الفترة مدار البحث.

أما العامل الطبيعي فهو ناتج أساسا عن تذبذب المناخ؛ لأن كثرة الأمطار وقلتها من شأنها أن تحدث كوارث وهي التي نعتها الفقهاء "بالجوائح الطبيعية"، التي لا يد للإنسان في حدوثها، كالقحط والجراد والفيضانات والثلج والبرد وغيرها؛ فثمة علاقة تراتبية بين المناخ والماء والغذاء، فإذا اختل المناخ وحال دون تساقط الأمطار، قل الماء فيقل الغذاء، فتحدث بذلك المجاعة، كما أن كثرة التساقط التي تؤدي إلى حدوث الفيضانات كانت من شأنها أن تهلك الزرع والضرع معا، فإضافة إلى أن هذه الجوائح كانت تتسبب في حدوث مجاعات داخل المغرب الأوسط فإنها ألحقت أضرارا بالمجال الفلاحي والحرفي والعمراني على حد سواء.

أما الأوبئة وإن كانت تمثل في آن واحد سببا لحدوث المجاعات، ونتيجة عنها أيضا؛ فإن الأطباء قد حصروا جملة مسبباتها في فساد الهواء والمياه والأغذية، وعدة عوامل أيضا من بينها انعدام شروط النظافة، وكثرة الحروب، وتذبذب المناخ؛ وخصوصا في ذلك المناطق الخاضعة للمناخ المتوسطي، فسكانها أكثر عرضة للإصابة بالأوبئة، في حين كانت المناطق الصحراوية – وإن كان مناخها شديد الجفاف- إلا أن أهلها كانوا في معزل عن الإصابة بالأوبئة والطواعين لقلة الرطوبة، التي هي السمة الأساسية للمناخ المتوسطي.

كما لا ننسى أن عددا كبيرا من الفقهاء يرجعون سبب حدوث الطاعون الذي هو صنف من الأوبئة إلى "وخز الجان"، وذلك انطلاقا من تراث ديني تجسد في عدد كبير من الأحاديث النبوية وردت حول الطاعون، وثواب من أصيب به بأن له الشهادة. ومسألة العدوى التي شكلت محور جدل كبير بين الفقهاء وخاصة منهم فقهاء المغرب الأوسط.

لقد كانت جهود السلطة للتقليل من حدة المجاعات على الرعية قائمة أساسا على مبدأ التضامن معهـــم، بحسب مستواهم المعيشي، وتعتمد في ذلك على ما هو في مخزونها من غذاء لتبذله للفقراء والضعفاء بدون ثمن،

وللأغنياء بثمن معقول يقل عما هو عليه في الأسواق، وإن كان هذا على مستوى المدن، لأننا لا نعلم مـــا إذا كانت السلطة في الأرياف وبوادي المغرب الأوسط تتبع الخطة نفسها إزاء السكان المتضررين بالمجاعة، لانعدام المادة المصدرية التي تثبت أو تنفي ذلك.

أما جهود القضاة، وإن كانت ترتكز على الجانب التنظيري خاصة، فإنها مبذولة أيضا لـــصالح الرعيـــة في أوقات الأزمات، فقد أجاز فقهاء المغرب الأوسط على سبيل المثال بيع الأراضي المحبسة على الفقراء، لينفقـــوا ثمنها على هؤلاء في أوقات المجاعة، في حين لاحظنا الغياب التام لدور المحتسب في مراقبـــة أســـواق المغـــرب الأوسط، والتي تكثر فيها التجاوزات في مثل هذه الأوقات، كتغلية الأسعار، والاحتكار، وبيع السلع الفاسدة والمحظورة والمحرمة شرعا، والتي قد تهلك الناس أكثر مما تنفعهم في سد رمق الجوع.

كما لا يجب الحكم على أن دور التجار أوقات الأزمات إنما كان يمثل دورا سلبيا فقط، بل إن البعض مـــن التجار الأغنياء قد جسدوا مبدأ التضامن مع الفقراء في هذه الأوقات، وإن كانت المادة المصدرية حول ذلـــك قليلة جدا.

في حين تجسد دور الصلحاء في تجاوز أزمة الجوع بقوة في مجتمع المغرب الأوسط نظرا لقوة اعتقاد الناس فيهم، ويقوم هذا الدور أساسا على طقوس فعالة، يتجاوز الولي من خلالها أزمة الجوع كالكرامة والـــدعاء، فضلا عن تضامن هؤلاء الصلحاء مع الفئات الفقيرة والمحتاجين من الناس، لتكون مقدساتهم من قبور وزوايـــا مقرا رئيسيا تلجأ إليه مثل هذه الفئات في أوقات المجاعة طمعا في نيل الصدقات من الزائرين لها، ومن المقيمين عليها من الصلحاء.

فعلى اعتبار أن المغرب الأوسط يصنف في مصاف المجتمعات الوسيطية المتدنية، فإن تقديس الأولياء وكل مقدسات ظاهرة الولاية: ربط، قبور، زوايا سمة، أو ذهنية طبعت في نفوس أفراد هذا المجتمع، خاصة و أن الولي في نظرهم و في نظر كتب المناقب قد جسد دورا بطوليا خارقا للعادة في تجاوزه لأزمة الجوع، وبعض مسبباتها بميكانيزمات بسيطة هي الكرامة و الدعاء، اللذان جعلا منه شخصية كريزماتية آسرة لكل أفراد هذا المجتمع.

ولعل هذه الذهنية التي تشبثت بها غالبية سكان المغرب الأوسط زمن الدراسة، تؤكد لنا لا محالـــة انتعـــاش ظاهرة الولاية داخل هذا المجتمع، ونشاطها آنذاك خصوصا في المناطق النائية والمعزولة كالأرياف والقرى، أين تكون سلطة الولي هناك بمثابة سلطة الملك.

أما الجهود المتخذة لتجاوز ظاهرة الأوبئة من طرف الأطباء فقد باءت كلها بالفشل، خاصة في الحد مـــن موجات الطاعون والوباء، والقضاء على بعض الأمراض المزمنة، فكان البديل عن هؤلاء بالنسبة لأفراد المغرب الأوسط الصلحاء. الذين تجلى دورهم بوضوح في علاج مختلف الأمراض المزمنة والعاهات، وعلاج الـــصرع والجن، مما جعل السكان يعتقدون بهم كل الاعتقاد في الممات والمحيا، كما أن أساليبهم الإشفائية تقوم أساسا على مبدأ الكرامة كالرقية وما يصاحبها من تفل ودعاء، فضلا عن الطب الشعبي الذي انتشر بكثرة داخل هذا

المجتمع لينحسر دور الطبيب، بالرغم من أن الصلحاء أو من يمارسون الطب الشعبي، لم يفلحوا في صد موجات الأوبئة ولا الطواعين، ولكن انتشارهم بكثرة إنما يدل على قوة إيمان الناس، واعتقادهم بهذه الفئات.

لقد أنتجت المجاعات مظاهر عديدة منها اقتصادية واجتماعية ودينية وثقافية ونفسية، فالمظاهر الاقتصادية تجلت أساسا في حركة الأسعار التي تخضع لقانون العرض والطلب، فنظرا لازدياد الطلب على المواد الغذائية أوقات المجاعات، فإن أسعارها ترتفع لكن بدرجة متفاوتة حسب أهميتها أيضا ويتصدرها في ذلك القمح والشعير نظرا، لأنها تمثل الغذاء الضروري لسكان المغرب الأوسط في تلك الفترة، في حين يقل الطلب على السلع غير الغذائية، وخصوصا العقارات فتنخفض أثمانها ولا يوجد من يشتريها.

والضعف الاقتصادي للدولة أوقات المجاعة يتجلى أساسا عندما تنخفض قيمة العملة المتعامل بها، ويكثر التعامل بالنقود المزورة، كما يتجلى هذا الضعف أيضا في عدم قدرتها على استيعاب المسافرين وعابري السبيل الوافدين عليها والإنفاق عليهم، ومن أبرز المظاهر الاقتصادية أيضا في أوقات المجاعة لجوء الناس في معاملاتهم إلى الدين والرهن كحل لتجاوز أزمة الجوع.

أما المظاهر الاجتماعية، فإن أوقات المجاعات قد فرضت في مجتمع المغرب الأوسط نمطا حياتيا لم يستطع أفراده التأقلم معه، فامتثلت فئات عديدة منهم لاحتراف مهنة اللصوصية والتسول، كما فضل البعض منهم أو من أجبروا على ذلك حياة الاسترقاق، عسى أن يضمن لهم ذلك العيش دون أن يهددهم هاجس الجوع .

ونظرا للإيمان العميق داخل أفراد مجتمع المغرب الأوسط بأن المجاعات إنما هي لعنة من الله سلطها عليهم ليأخذهم بذنوبهم، فإن هذه الأوقات قد أفرزت مظاهر دينية من أبرزها صلاة الاستسقاء، والتوجه إلى الأولياء ومقدساتهم من زوايا وقبور، وربما هذا ما يفسر غياب دور المساجد في تلك الفترة التي تربط أبوابها بالأحزمة، وتغلق عند حدوث بعض المجاعات، وفضلا عن ذلك فإن حالات الجوع القصوى قد جعلت أفراد مجتمع المغرب الأوسط في حالة نفسية صعبة قد تصل بهم إلى حد الجنون.

كما أن الأوبئة والأمراض المستعصية قد خلقت مجتمعا خائفا من العدوى والأمراض، وجعلتهم بذلك ينيبون إلى الله، ويتوبون إليه نظرا لإيمانهم العميق بأن الأوبئة مثلها مثل المجاعات إنما هي عقاب إلهي؛ ولهذا كانت مقدسات الأولياء ملاذا لهم لطلب الاستشفاء بها.

كما أن الأوبئة التي تؤدي بحياة الخاصة والعامة قد أدت إلى حدوث تراجع كبير في الحياة الثقافية من خلال موت العلماء بها خصوصا في ذلك الطاعون الجارف لسنة 749 هـ/1348م الذي مثّل كارثة إنسانية حقيقية عمّت عالم العصور الوسطى بأسره، فحصد الأرواح، ولم ينج منه إلا القليل، فإضافة إلى الخسائر البشرية الكبرى التي خلفتها الأوبئة، فإنها قد كانت تؤدي إلى شل النشاط الاقتصادي، بسبب موت اليد العاملة في كل من القطاع الفلاحي والتجاري والحرفي على حد سواء.

تمثلت المظاهر الديمغرافية للمجاعات والأوبئة أساسا في الهجرة وإن كانت بسبب الوباء أمرا مكروها حرمه الفقهاء بناءً على أحاديث نبوية وردت حول ذلك، أما الوفيات فكانت من أبرز الانعكاسات الديمغرافية،

فالمجاعات والأوبئة إضافة إلى الحروب شكلت ثالوثا حقيقيا هدد حياة سكان المغرب الأوسط طيلـــة الفتـــرة المدروسة.

وتتفاوت طبقات الناس في تأثرهم بالمجاعة، فتكون بأقل درجة على الفئات الميسورة كالتجار وبعض العلماء والموظفين في السلطة والطبقة الحاكمة، فلم تذكر المصادر قط وفاة عالم أو وزير أو حاكم بسبب الجوع، في حين تتأثر الفئات الفقيرة بالمجاعة تأثرا كبيرا يؤدي بها في كثير من الأحيان إلى الموت؛ فهي أكثر الفئات تضررا بهذا الحدث العارض.

في حين لم تكن هناك مفارقة بين الفئات الغنية والفئات الفقيرة في تأثرهم بالوباء، فكلهم سواء في التعرض له، لكن المفارقة سجلتها لنا المصادر بعد الموت، فموت الغني وصاحب السلطة والعالم بالوباء ليس كمـــوت الفقير، فالفئات التي لها وزن في المجتمع تحظى بقبور ذات طراز معماري متميز، وتدفن في مقابر خاصة أو في المساجد والزوايا، في حين صورت لنا هذه المصادر موت العامة وانتشار جثـــثهم في الطرقـــات وفي خــــرب السكك دون أن يلقوا الاهتمام نفسه.

فإضافة إلى الأزمات الأخرى تعد المجاعات والأوبئة والأمراض من أهم الأزمات التي عرفها المغرب الأوسط زمن الدراسة، لأنها حالت دون تحسن الوضع الصحي لهذا المجتمع، ومست البنيـــة الديمغرافيـــة والاقتـــصادية والثقافية والمجتمع والعمران على حد سواء؛ فهي أزمات مؤذنة، بالفناء، لذلك اعتبرها ابن خلدون مؤشرا على نهاية عمر الدولة.

إن ابن خلدون لم يعتبر أن هذه الأزمات كانت فقط مؤشرا على نهاية عمر الدولـــة؛ وإنمـــا أشـــار إلى أن الطاعون الجارف لسنة 749 هـــ/1348م الذي عايش الفترة التي قبله والتي تليه؛ قد كان بمثابة مؤشر يعلن عن نهاية عالم قديم، وبداية عالم جديد مستحدث يستحق كتابة تاريخه من جديد، وهذا ما ذكره في آخر الـــنص الذي يتحدث فيه عن الوضع الذي آلت إليه البشرية بعد هذا الطاعون؛ فيقول: "وإذا تبدلت الأحوال جملـــة، فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث، فاحتـــاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها"،[1222] فالذي يتمعن مع هذا القول جيدا يتراءى له أن ابن خلدون ينوه من خلاله إلى بداية عصر جديد، وانقضاء عصر قبله؛ فلماذا إذن لم يعتبر المؤرخون هذا الطاعون كمؤشر محدد لنهاية فترة العصور الوسطى؟ على أساس أن الأوبئة تعتـــبر من المؤشرات الأساسية التي يمكن من خلالها تحديد الفترات التاريخية؛ وهذا ما أشار إليه الـــبيروني في قولـــه: "والتأريخ هي مدة معلومة تعد من لدن أول سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات وبرهان أو قيـــام ملـــك مسلط عظيم الشأن، أو هلاك أمة بطوفان عام مخرب، أو زلزلة وخسف مبيد، أو وبـــاء مهلـــك أو قحـــط مستأصل، أو انتقال دولة أو تبدل ملة."[1223]

[1222]- **المقدمة**، ص 38.

[1223]- **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، 1923، ص 13.

فالطاعون الجارف لم يكن حدثا اختص بمنطقة دون غيرها، كغيره من الأحداث التي حدد المؤرخون من خلالها نهاية فترة العصور الوسطى؛ فهذا الطاعون كان حدثا عالميا عمّ عالم العصور الوسطى بأسره، ولهذا يستحق أن يكون مؤشرا على نهاية العصور الوسطى، لأنه "ذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها" على حد تعبير ابن خلدون.

الملاحــق

ملحق رقم: 01 جدول يمثل أهم أنواع الأمراض الوبائية

أنواع الأوبئة والطواعين		أعراض المرض	بعض الأدوية المقترحة	المصدر/ المرجع
الطاعون	**الطاعون العقدي**	خراجات ناتئة تظهر في مغابن الجسم تتلون بألوان عديدة من الأحمر إلى الأصفر إلى الأسود، وتورم وآلام في الغدد اللمفاوية، ويصاحب ذلك حمى وخفقان وغشي.	- استفراغ البدن بالفصد - أدوية مركبة. - بعض الأعشاب الطبية المفيدة لكل أنواع الطاعون مثل: "مرس"، "ريباس"... - تدابير لإصلاح الهواء والأغذية والماء.	ابن سينا: **القانون في الطب**، 2575/8، ابن القيم: **الطب النبوي**، ص 38، ابن البيطار: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، 446/2 -447، 4/ 433، ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص157، 181، الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص335.
	الطاعون الرئوي	صعوبة في التنفس وسعال ونفث الدم، يصاحبه وجع في الجنب أو تحت أحد النهدين دون حرارة. ويصاحب ذلك أعراض عامة من الغشي وبرد في الأطراف وفساد العقل.	- استفراغ البدن بالفصد - أدوية مركبة - تدابير لإصلاح الهواء والأغذية والماء.	ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص 181-182، ابن الخطيب: **مقنعة السائل**، ص 38-39.
	الطاعون الإنتانمي أو القروح السود	نفاخات سوداء في الجلد تنبع من الماء، و يصاحب ذلك ارتفاعا شديد في درجة حرارة الجسم.	- استفراغ البدن من الدم الفاسد - أدوية مركبة - تدابير لإصلاح الهواء والأغذية و الماء	ابن خاتمة: **تحصيل غرض القاصد**، ص 182.

المرض	الأعراض	العلاج	المصادر
مرض الجذام	– أعراض أولية تتمثل في تقدم قوابي الجسم والحمرة المظلمة وكدورة بياض العين واستدارة الحدقة والبحوحة. – أعراض عندما يشتد المرض تتمثل في تورم الأنف وتآكله ونتانة رائحة البدن، تقرح وتورم البدن حتى تسقط منه بعض الأطراف، تساقط الشعر بسبب كثرة الرطوبة، تشقق الأظافر.	– الفصد. – أدوية مركبة. –بعض الأعشاب الطبية مثل: "حناء"، "دهن شجرة المصطكي"، "قرطم"، "قثاء الحمار"، "ململ" –دهن أماكن الجذام بالقطران مع شيء من الملح. – أغذية مفيدة مثل لحوم الدجاج.	ابن زهر: **كتاب الأغذية**، ص 15،18، ابن البيطار: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**،303-301/2، 396، 247/4،244 259، 385، ابن الخطيب: **عمل من طب لمن حب**، ص 211-212، الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص 344، Francois aubert, ***etphillipecruttard L'essentiel médicale*** , p 548.
الجدري والحصبة	– حمى شديدة واحمرار في الجسم يزداد مع مرور الأيام. – الجذري يكون بظهور بثور كبيرة على الجلد وناتئة تتقرح، ويصاحب ذلك خشونة في الصوت والفزع عند النوم. – الحصبة تكون بظهور بثور صغيرة وليست ناتئة على الجلد وأعراضها حمى وقلق وغثيان.	– الفصد. – أدوية مركبة.	ابن زهر: **التيسير في المداواة والتدبير**، ص 462، ابن الخطيب: **عمل من طب لمن حب**، ص 200-201، الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص 335-336، ابن أبي بكر الأزرق: **كتاب تسهيل المنافع**،ص 152- 153.
مرض السل	–حدوث هزال في الجسم –حمى خفيفة –سعال يابس– وضيق في التنفس– ونفث مادة بيضاء كريهة الرائحة.	– الفصد. – أشربة وأدوية مركبة.	الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص 135.
الذبحة	ضيق الحلق وحدوث وجع فيه بسبب "انخزال خرز الفقار" ويصاحبه حدوث قرحة.	لا علاج لها في الغالب إذا تمكنت لكن قبل تمكنها يمكن العلاج بالتجفيف والتلطيف.	ابن زهر: **التيسير في المداواة والتدبير**، ص 455-456. محمد الرصاع: **الأجوبة التونسية**، ص 105.
الجرب والحكة	– يكون الجرب بظهور بثور صغار تكون حمراء ويصاحبها حكة شديدة ولدغ وربما تتقيح هذه البثور، وتظهر أكثر في اليدين والرجلين وسائر البدن – والحكة تكون بتغير ملمس سطح	– الفصد. – استعمال أدوية مركبة وأشربة وطلاء يستعمل لدهن مكان الجرب والحكة.	ابن الخطيب: **عمل من طب لمن حب**، ص 215.

	الجلد مع وجود لدغ شديد.		
الرمد	تورم الطبقة الملتحمة من العين وسيلان الدموع منها.	- الفصد. - الإكثار من شرب ماء الشعير والتمر الهندي والعناب والورد - أدوية مركبة.	ابن قيم الجوزية: **الطب النبوي**، ص107-108، الأنطاكي: **بغية المحتاج**، ص 55-56.

الملحق:02 جدول يمثل أهم النباتات الطبية الموجودة في المغرب الأوسط

اسم النبتة	مكان تواجدها	أهم الأمراض التي تداويها	المصدر
عود السوس ويقال له أيضا: **شجرة الفرس**	بجاية	غير مذكور	ابن الخير الإشبيلي: **عمدة الطبيب**، 597/2
قيصوم (نوع من الرياحين) ومن أهم أنواعه **الأفسنتين**	بجاية	مفيد ضد الأدوية القتالة.	ابن خير: **عمدة الطبيب**، 2 / 699-702.
نوع آخر من **القيصوم** يعرف بالمغرب الأوسط بحبق الشيوخ.	تيهرت	غير مذكور	ابن خير: **عمدة الطبيب**، 2 / 699.
الأفنتيس الساحلي نوع من **القيصوم** أيضا	بجاية وكثير بجبل الصوف	غير مذكور	ابن خير : **عمدة الطبيب**، 2 / 703.
الأسطوخودوس نوع من الشيح يسمى عند أهل تيهرت **بإكليل الجبل** لأنه شبيه به.	تيهرت	غير مذكور	ابن خير: **عمدة الطبيب**، 2 /800- 801.
أنواع من الورود مثل الورد الأكحل عطر الرائحة، وورد صغير يشبه **زهر الماميتا**	تيهرت	غير مذكور	ابن خير: **عمدة الطبيب**، 2 / 825-826.
البطم وهو نوع من **الضرو**	تلمسان ومنابته في الجبال الخصبة والمواضع الظليلة	غير مذكور	ابن خير الإشبيلي: **عمدة الطبيب**، 1 /546.
أمبرباريس وهو شجر **البرباريس** وهو نوع من **العوسج** ويعرف بالبربرية بـــ "**ازرغن**"، واسم لحاء أصوله "**ارغيس**"	بجاية	غير مذكور	ابن خير الإشبيلي: **عمدة الطبيب**، 1 / 65.
عرعر	كثير بالمغرب الأوسط من تلمسان إلى المهدية	غير مذكور	ابن خير الإشبيلي: **عمدة الطبيب**، 2 / 563.
فقوص من أنواع القثاء والبطيخ يسمى عند الزناتيين "**إيغسيمن**"	أراضي زناتة	غير مذكور	ابن خير: **عمدة الطبيب**، 2 / 641.
آطربلال إسم بربري لنبتة ومعناها رجل الطائر	المغرب الأوسط وبجاية	تستعمل هذه النبتة لمداواة البهق	ابن البيطار: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، 1 / 06.
بزر الحشيشة المسماة بـــ **آاطربلال**	المغرب الأوسط وبجاية	يستعمل في علاج البرص بعد أن يضاف	ابن البيطار: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، 1 /07.

		إليه بعض الأعشاب مثل سلخ الحمية وورق السنداب، أو يضاف له عسلا منزوع الرغوة	
أرجنقنة ويعرف أيضا **بالأرجيقن**	أحواز بجاية وسطيف	غير مذكور	ابن البيطار: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية** 1/ 09.
بوقشرم	بجاية	عصارنة مفيدة لبياض العين	ابن البيطار: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، 1 / 174.
تاكوت وأهل المغرب الأوسط يسمون **حب الأثل** بهذا الإسم	المغرب الأوسط	غير مذكور	ابن البيطار: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، 1 / 183.
تامساورت ويسمى أيضا **بالمو**	بجاية	غير مذكور	ابن البيطار: **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، 1 / 183.
سطرونيون ويعرف بالمغرب الأوسط **بتاغيفشت**	المغرب الأوسط	غير مذكور	ابن البيطار: **الجامع**، 3 /17- 18.
نبات القوليون الحرافي	القلعة في المغرب الأوسط	مفيد للسعة العقارب	الإدريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**،ص 156.
شجر الحضحض	جبل ميسون ببجاية	غير مذكور	الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ص 160.
السقولوفندوريون	جبل ميسون ببجاية	غير مذكور	الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ص 161.
البرباريس	جبل ميسون ببجاية	غير مذكور	الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ص 161.
القنطاريون الكبير	جبل ميسون ببجاية	غير مذكور	الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ص 161.
الزراوند	جبل ميسون ببجاية	غير مذكور	الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ص 161.
القسطون	جبل ميسون ببجاية	غير مذكور	الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ص 161.
الأفسنتين	جبل ميسون ببجاية	غير مذكور	الإدريسي: **نزهة المشتاق**، ص 161.

الملحق: 03 جدول يوضح بعض الأوبئة والأمراض في المغرب الأوسط وطرق علاجها

نوع المرض	بعض الأدوية والأغذية الفيدة له	المصدر
الطاعون	التمسح حول دمل الطاعون بالتراب الأرميني.	الوزان: **وصف إفريقيا**، 1 / 85
الأورام في الجسم بجميع أنواعها	- مح البيض إذا وضع على الأورام فإنه مفيد لها - الكنكر: يستعمل ضمادا يوضع على الخنازير فيحللها. - خميرة الخبز تعمل مع الزيت وتوضع على الدماميل. - والحنطة المحللة في الماء مفيدة للأورام الصلبة إذا ضمد بها، وكذلك الحلبة فإنه يطلى بها الأورام الصلبة فتنضج.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة45 ب، 51ب-52 أ، 54 أ، 65 ب.
	- وللورم الحار الكائن خلف الأذن: يدق الترمس ويغربل ويعجن بعسل ويضمد به. - وللخنازير: يؤخذ التين اليابس ويطبخ جيدا ويضاف إليه سمن بقر قديم ويعجن ويضمد به الورم. - وللأورام الغليظة كالغدد يؤخذ التين ويطبخ جيدا في الماء مع ورق الخبيز ونخالة القمح ويصب عليه ماء الشبة إن كان أخضر ويطبخ إذا كان يابسا حتى يطيب ويصير كالعصيد ويضمد به مرارا. - وللسرطان والقروح المعقدة يسحق طين أرميني في آنية من رصاص ويخلط بخل وعسل وماء ويطلا به. - وللسرطان يخلط رماد السرطان البحري المحروق مع سمن ودهن ورد ويوضع عليه.	المغيلي: **تأليف في الطب**، ورقة3 ب، 8 أ، 9 أ – 9 ب.
الجذام	- اللبن مفيد جدا لمرض الجذام.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة 66 ب.
الحميات	- الزنجبيل مفيد للحميات. - والقسطل يسكن الحمى الشديدة. - الخيار مفيد عند اشتداد الحميات المحرقة. - الهندبا مفيدة للحميات أيضا وللرطوبات المتعفنة.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية**، ورقة 44 ب،54 ب،72 أ، 74 ب.
	- الرمان الحامض: مفيد جدا لأصحاب الحميات الحادة.	المغيلي: **تأليف في الطب**، ورقة13 أ
رمد العين	- لرمد العين كان يؤخذ من أوراق القرع ويغسل ويهرس ويعصر ماؤه ويطبخ بنار لينة حتى يصير مثل الرب يصفى بخرقة ويقطر في العين ويطلى به الرمد بعد أن يضاف إليه شيء من عتزروت.	المغيلي، **تأليف في الطب**، ورقة4 أ.

الجرب والحكة	- الترمس مفيد للجرب، والحلبة والخل أيضا مفيد لداء الجرب الرطب. - اللبن مفيد للجرب وكذلك القطران إذا دهن به الإنسان فإنه مفيد جدا.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة 48 ب، 52 ب، 57 أ، 66 ب، 69 أ.
	- ويعمل لمرض الجرب والحكة أيضا الخل المطبوخ فيه دفلا وزيت طريا ودهن ورد وكبريت ويحك به في الحمام.	المغلي: **تأليف في الطب**، ورقة 8 ب.
البرص	- لب الزيتون مفيد للبرص.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة 62 ب.
	- ويعمل للبرص مرطق وجير غير مصفى وعفص وزاج وحناء أجزاء متساوية يعجن بخل وعسل ويطلى به البرص.	المغيلي: **تأليف في الطب**، ورقة 8 ب.
البهق	- الترمس مفيد للبهق - والسلق أيضا إذا عمل به ضمادا على البهق فهو مفيد له.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة 48 ب، 72 ب.
	- والبصل مفيد إذا طلي به البهق مخلوط بالخل ثم يدهن به ويعرض على الشمس.	الثغري التلمساني: **قائمة مصطلحات صيدلة**، ، ورقة 64 ب.
مرض الإسهال	- دواء مركب يتكون من ورد يابس وجلنار وصمغ عربي مغلي وطباشير مغلي وطين أرميني مغلي أجزاء متساوية، تسحق كلها أجزاء متساوية،تسحق كلها وتعمل في رب ريحان. - وينصح الأطباء للإسهال أيضا قشر الرمان مسحوق يخلط مع مقدار ضعفه من الدقيق ويعمل منه عصيدة يفطر عليها المريض. - وينفع من الإسهال المزمن الفول (الباقلاء) إذا طبخ بقشرة مع الخل.	المغيلي: **تأليف في الطب**، ورقة 5 ب، 10 أ.
	- استعمال بعض الأعشاب والفواكه والأغذية المفيدة للإسهال مثل البلح والحصرم(العنب الحامض) والتفاح والرمان الحامض والسفرجل.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة 45 أ،48 أ، 52 ب، 61 أ، 72 ب.
لأمراض المعدة عموما	- الإجاص مفيد للبطن والحصرم والرمان الحامض مفيدان للقيء، والبلح يقوي المعدة.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة 42 أ، 45 أ، 52 ب، 60 أ، 61 أ.
	- الفسنتين نبات مفيد للمعدة الضعيفة. - معجون أكاطرفيل الكبير مفيد جدا لضعف المعدة ويقوي الأحشاء، وهو معجون مركب من بعض الأعشاب والتوابل مثل الإهليلج الأصفر والدايلي والهندي والأملج والبليج والقرفة والقرنفل وفلفل وكبابة وبسباسة.	إبراهيم بن أحمد الثغري: **قائمة مصطلحات صيدلية**، ورقة 64 ب.

	- ومن أحسن الأدوية المفيدة للحفاظ على صحة المعدة هي شراب المصطكى، الذي يصنع من المصطكى المطبوخ بالماء مع عسل منزوع الرغوة. - ومن الأشربة المفيدة للمعدة أيضا شراب الرمان الحامض وشراب السكنجبين الرماني.	محمد بن يوسف السنوسي، **خير البرية من غامض أسرار الصناعة الطبية**،ص 60، 65.
أمراض البرد والسعال والصدر	- التين مفيد لتورم اللوزتين. - التمر مع الصنوبر ينفع جدا للسعال. - الثوم مفيد للسعال والربو. - الحلبة مفيدة أيضا للسعال. - رب الحصرم مفيد للوزتين. - والخل مفيد للسعال أيضا. - دهن الكراث مفيد للدم المنبعث من الصدر. - الشعير مفيد للسل وأمراض الصدر مضاف إليه سرطان النهر. - الصنوبر نافع جدا للصدر ونفث الدم والسعال والربو.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة 47 أ – 47 ب، 48 ب، 52 أ- 52 ب، 57 أ، 64 ب، 68 ب، 74 أ.
	- للبرد والهواء يعمل مسك وعنبر معجونان بدهن بازا ولوز ويطلي به مكان البرد. - والنعناع مفيد جدا لأمراض البرد. - اللوز مفيد للسعال أيضا.	المغيلي: **تأليف في الطب**، ورقة 3 أ، 11 ب، 14 أ.
مرض النقرس	- يستعمل الإسفاناخ كدواء نافع للنقرس الغير بارد.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة 42ب.
	- ولمرض النقرس يؤخذ ورق خروع وحب خروع يستحقان جيدا ثم يغليان في سمن وعسل وقليل من الخل ويجمع الخليط جيدا ويسحق حتى يصير كالغراء ويطلا به. - والشعير مفيد جدا لمرض النقرس حيث يخلط دقيقه بشيء من السفرجل مدقوق بخل ويوضع منه ضمادا. - الهندبا مفيدة للنقرس أيضا.	المغيلي: **تأليف في الطب**، ورقة 7 ب.
عرق النسا	ولمدواة عرق النسا كان يؤخذ ذهن البيض وذهن بابونج وشحم إوز وشحم دجاج وشمع يذاب الجميع ويذهن به بعد الاستفراغ.	المغيلي: **تأليف في الطب**، ورقة 8 أ.
	- الخل مفيد جدا للصداع.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة57 أ.

الصداع	– والصداع المتولد من الحر يعمل له طين أرميني وطين مختوم. وصندل أحمر يعجنان بماء الورد ويطلا على الجبين. – والفصد مفيد جدا لوجع الرأس.	المغيلي: **تأليف في الطب**، ورقة3 أ.
داء الثعلب (الصلع)	– شحم الدب نافع لداء الثعلب. – الثوم مفيد جدا لداء الثعلب.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة 49 أ، 60 أ.
	– ورق السلق مفيد لداء الثعلب.	المغلي: **تأليف في الطب**، ورقة11 أ.
	– وماء البصل نافع جدا لداء الثعلب.	الثغري: **قائمة مصطلحات صيدلية**، ورقة 66.
أمراض الأذن	– دهن الخوخ مفيد لأوجاع الأذن. – شحم الثعلب مفيد أيضا لأزجاع الأذن.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة54 ب، 49 أ.
	– وينفع لأوجاع الأذن وثقل السمع نوار البصل مقلي في الزيت ويصب منه في الأذن وكذلك ماء البصل.	الثغري: **قائمة مصطلحات صيدلية**، ورقة 66.
أمراض الأسنان	– قرون إبل الوحش محروقة مفيدة لوجع الأسنان إذا مضمضت به. – التين مفيد لوجع الأسنان إذا وضعت في صوفة مكان الضرس. – والثوم مفيد أيضا لوجع الأسنان. – والخل مفيد أيضا لوجع الأسنان.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة47 أ،42 ب، 49 أ، 52 ب، 57 أ .
	– الثوم نافع جدا لوجع الأسنان.	المغلي: **تأليف في الطب**، ورقة 12أ.
لمرض الصرع والجنون	– التين مفيد جدا لمرض الصرع والجنون. – شحم الدب مفيد لداء الصرع.	ابن قنفذ: **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، ورقة 47 أ، 60 ب.

ملحق 04 :جدول يمثل علماء المغرب الأوسط الذين ماتوا بالأوبئة:

اسم وكنية العالم الهالك بالوباء	سنة الوباء الذي هلك فيه	المصدر / المرجع
أبو موسى عيسى بن الإمام التلمساني	طاعون 749 هـ/1348م بتلمسان	ابن مرزوق: **المسند**، ص 265. ابن خلدون: **التعريف بابن خلدون**، ص48. الونشريسي: **الوفيات**، 653/2. ابن القاضي: **لقط الفرائد**، 655/2. التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص247. المقري: **أزهار الرياض**، 15/5.ابن مريم: **البستان**، ص126. نويهض: **معجم أعلام الجزائر**، ص23.
أبو عبد الله محمد بن النجار التلمساني	طاعون 749هـ/1348م بإفريقية	ابن مرزوق: **المناقب المرزوقية**، ص 192. ابن خلدون: **التعريف بابن خلدون**، ص59. الونشريسي: **الوفيات**،2/ 649. ابن القاضي: **درة الحجال**، ص 265. نفسه: **جذوة الاقتباس**، 302/1.نفسه: **لقط الفرائد**، 2/ 650. ابن مريم: **البستان**، ص153- 154.
أبو عبد الله محمد بن عبد النور الندرومي	طاعون 749هـ/1348م بتونس.	ابن مرزوق: **المسند**، ص 267.- ابن خلدون: **التعريف بابن خلدون**، ص58.- الونشريسي: **الوفيات** ، 2/ 649. ابن القاضي: **درة الحجال**، ص 202. - نفسه: **لقط الفرائد**، 2/ 650. التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص 405.- المقري: **أزهار الرياض** 5/ 50. نويهض: **معجم أعلام الجزائر**، ص330.
حسن بن علي بن الخطيب (والد ابن قنفذ)	طاعون سنة 750هـ/1349م بقسنطينة.	ابن قنفذ: **أنس الفقير وعز الحقير**، ص87. نفسه: **الوفيات**، ص355- 356.
أبو عبد الله الصفار القسنطيني	طاعون 750هـ/1349م بقسنطينة.	ابن قنفذ: **الوفيات**، ص355- 356.ابن القاضي: **لقط الفرائد**، 2 / 655.
محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني	توفي بمكناسة في طاعون سنة 818هـ/1415م.	التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص 498.ابن مريم: **البستان**، ص 264.نويهض: **معجم أعلام الجزائر**، ص 80.
أحمد بن محمد بن عبد الرحمان المعروف بابن زاغو المغراوي التلمساني	وباء سنة 845هـ/1441م بتلمسان.	القلصادي: **رحلة القلصادي**، ص106-105. الونشريسي: **الوفيات**، 755/2-751. ابن الأعرج: زبدة التاريخ، 3 / 71 أ. ابن القاضي: **لقط الفرائد**، 2 /755.التنبكتي: **نيل الابتهاج**،

		ص 120. نفسه: **كفاية المحتاج**، ص 60 - 62. ابن مريم: **البستان**، ص 43. ابن مخلوف: **شجرة النور الزكية**، ص254. نويهض: **معجم أعلام الجزائر**، ص156 – 157.
يوسف بن إسماعيل الشهير بالزويدوري	توفي سنة 845هـ/1441م في وباء بتلمسان.	القلصادي: **رحلة القلصادي**، ص 101. التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص 630.
أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن عيسى العبادي التلمساني	توفي بطاعون سنة 871هـ/ 1467م بتلمسان.	التنبكتي: **نيل الابتهاج**، ص547. ابن مريم: **البستان**، ص 224. نويهض: **معجم أعلام الجزائر**، ص264.
أحمد بن زكري التلمساني	طاعون سنة 899هـ/1493م بتلمسان.	الشفشاوني: **دوحة الناشر**، ص 121. الزركلي: **الأعلام**، 1 /220 - 221.

قائمة المصادر والمراجع

*القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.

أ-المصادر المخطوطة

- ابن الأعرج: محمد الحسني السلماني

1- **زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ**، نسخة مصورة عن مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 170، ج 3.

- ابن باديس: محمد بن علي الصنهاجي (ق 11 / 17م)

2- **المنافع البينة وما ينفع في الأزمنة الأربعة**، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية ضمن مجموع رقم: 1777.

- البسكري: عيسى بن سلامة (كان حيا سنة 860 هـ/1456م)

3- **اللوامع والأخبار في منافع الأخبار**، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ضمن مجموع رقم1767.

- التنبكتي: أحمد بابا السوداني (تـ 1036 هـ/1626م)

4- **شفاء السقم فيما ينتفع به في زمن الوباء والوخم**، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ضمن مجموع رقم 532.

- الثغري: إبراهيم بن أحمد التلمساني (من أهل القرن 8 هـ/14م)

5- **قائمة مصطلحات صيدلية**، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر رقم 1777.

- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضري (تـ911 هـ/1505م)

6- **ما رواه الواعون في أخبار الطاعون**، نسخة مصورة عن مخطوطة رقم 1544، من موقع يوسف زيدان للمخطوطات www.zeidan .com.

- الشريف التلمساني: أبو عبد محمد بن أبي القاسم (كان حيا سنة 848 هـ/1444م)

7- **روضة الأزهار في التعريف بآل محمد المختار**، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر رقم 2608.

8- نوازل الشريف التلمساني، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ضمن مجموع رقم 2326.

- الغرناطي: أبو محمد بن القاسم (ق 8 هـ/ 14م)

9- **نوازل الغرناطي**، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ضمن مجموع رقم 2326.

- ابن الصباغ: محمد بن محمد بن أحمد القلعي (حيا سنة 950 هـ/1543م)

10- **بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار**، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر رقم1707 .

- ابن قنفذ: أحمد بن الحسن القسنطيني (تـ 810 هـ/1310م)

11- **أرجوزة في الأغذية والأشربة**، نسخة مصورة عن مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، ضمن مجموع رقم 515.

- المازوني: موسى بن عيسى المغيلي (عاش في القرن ق 9 هـ/ 15م)

12- **صلحاء وادي الشلف**، نسخة مصورة عن مكروفيلم لمخطوط مكتبة الخزانة العامة بالرباط، تحت رقم: 52343.

13-**المهذب الرائق في تدريب الناشئ من القضاة وأهل الوثائق**، نسخة مصورة من مخطوط متحف سيرتا قسنطينة، رقم: 14.

- المازوني: أبو زكريا يحيى بن موسى بن عيسى المغيلي التلمساني (تـ 883 هـ/1429م)

14- **الدرر المكنونة في نوازل مازونة،** مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، المجلد الأول رقم: 1335، المجلد الثاني رقم 1336.

- مجهول (ق 8 هـ/ 14م):

15- **رسالة في معالجة الوباء قبل نزوله،** مخطوط مكتبة البلدية بقرطبة، رقم: R 28439، نسخة مصورة عن موقع يوسف زيدان للتراث والمخطوطات.

- مجهول.

16- **زهر البستان في دولة بني زيان،** نسخة مصورة عن مخطوط مكتبة جون رايلاندس بجامعة مانشيستر البريطانية، رقم 283 (القسم العربي) .

- ابن مرزوق الحفيد: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد (تـ 842 هـ/ 1438م)

17 - **نوازل ابن مرزوق الحفيد،** مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 1342.

- المغيلي: أبو العباس أحمد بن عبد السلام الشريف الحسني (من أهل القرن 9 هـ/15م)

18- **تأليف في الطب،** مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ضمن مجموع رقم 1767.

- ابن نجيم المصري: زين الدين بن إبراهيم بن محمد (تـ 970 هـ/ 1560م)

19- **رسالة فيما ضبطه أهل النقل في خبر الفصد بالطاعون،** مخطوط بمعهد الثقافة والدراسات الشرقية، جامعة طوكيو- اليابان: نسخة مصورة عن الموقع الإلكتروني: www.al-mostafa.com

ب- المصادر المطبوعة

- ابن الأبار: محمد بن عبد الله القضاعي (تـ 658 هـ/1259م)

1- **التكملة لكتاب الصلة،** تحقيق: عبد السلام الهراس، بيروت: دار الفكر، 1415 هـ- 1995، (ج3).

- ابن أبي بكر الأزرق: إبراهيم بن عبد الرحمن (ق 9 هـ/15م)

2- **تسهيل المنافع في الطب والحكمة،** دار الكتب العربية، (د.ت).

- ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد بن قاسم بن خليفة (ت 668 هـ/1269م)

3- **عيون الأنباء في طبقات الأطباء،** ط 3، بيروت: دار الثقافة، 1401هـ-1981، ج3.

- ابن أبي زرع: علي الفاسي (كان حيا سنة 729 هـ/1328م)

4- **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،** تحقيق عبد الوهاب منصور، ط 2، الرباط: المطبعة الملكية، 1420هـ- 1999.

- ابن أبي الربيع: شهاب الدين أحمد بن محمد (ق 3 هـ/9م)

5- **سلوك المالك في تدبير الممالك،** تحقيق عارف أحمد عبد الغني، دمشق: دار كنان، 1996.

- ابن الأثير: أبو السعادات مبارك بن أبي الكرم الجزري (ت 606 هـ/1209م)

6- **النهاية في غريب الحديث والأثر،** تحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، بيروت: المكتبة العلمية، 1399هـ-1979.

- ابن الأثير: عز الدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم الشيباني (ت 630 هـ/1232م)

7- **الكامل في التاريخ،** تحقيق عمر عبد السلام تدميري، ط 4، بيروت: دار الكتاب العربي، 1424هـ-2004، ج5.

- ابن الأحمر: أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي (ت 807 هـ/1404م)

8- **روضة النسرين في دولة بني مرين (طبع باسم تاريخ الدولة الزيانية)**، تحقيق هاني سلامة، ط1 بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، 1421هـ- 2001.

- الإدريسي: أبو عبد الله الشريف محمد بن محمد الحمودي (توفي بعد سنة 560 هـ/1164)

9- **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق** (طبع قسم منه باسم **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**)، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.

- ابن الأزرق: أبو عبد الله محمد بن علي بن قاسم الأصبحي الغرناطي (ت 896 هـ/1490م)

10- **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، تونس-ليبيا: الدار العربية للكتاب.

- الأصبحي: أبو عبد الله مالك بن أنس (93- 179هـ/711- 795م).

11- **الموطأ- رواية يحيى الليثي**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مصر: دار إحياء التراث العربي، (د.ت).

- الإصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ق 4 هـ/10م)

12- **المسالك والممالك**، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ومحمد شفيق غربال، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي- دار القلم، (د.ت).

- ابن الأكفاني الأنصاري: محمد بن إبراهيم المصري (ت 749 هـ/1348م)

13- **إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد**، ألمانيا: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية، جامعة فرانكفورت، 1426 هـ- 2005.

- الأنطاكي: داود عمر (ت 1008هـ/1599م).

14- **بغية المحتاج في المجرب من العلاج**، ط1، بيروت : دار الفكر، 1421هـ-2001.

- الباجي: أبو الوليد خلف بن سليمان (ت 474 هـ/1081م)

15- **فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام**، تحقيق محمد أبو الأجفان، الدار العربية- المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985.

- البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت 256 هـ/869م)

16- **الجامع الصحيح المختصر**، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط 3، بيروت: اليمامة- دار ابن كثير، 1407هـ- 1987.

- البرزلي: أبو القاسم بن أحمد (ت 841 هـ/1437م)

17- **جامع مسائل الأحكام لما نزل من الأقضية بالمفتين والحكام**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2002.

- ابن بطوطة: محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت 779 هـ/1377م)

18- **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985.

- البكري: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت 487 هـ/1094م)

19- **المغرب في ذكر إفريقية وبلاد المغرب**، بغداد: مكتبة المثنى، (د.ت).

- البلوي: أبو البقاء خالد بن عيسى الغرناطي (ق 8 هـ/14م)

20- **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، تحقيق الحسن السائح، الإمارات العربية- المغرب: اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، (د.ت)، ج1.

- البيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخرساني (ت 458 هـ/1065م)

21- **شعب الإيمان**، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1410هـ.

22- **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، 1414هـ- 1994.

- ابن البيطار: ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي (ت 646 هـ/1248م)

23- **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1991، 4ج.

- التادلي: يوسف بن يحيى المعروف بابن الزيات (ت 617 هـ/1220م)

24- **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق أحمد توفيق، ط 2، الرباط: منشورات كلية الآداب- جامعة محمد الخامس، 1997.

- أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الزمراني التادلي الصومعي (تـ 1013 هـ / 1604 م)

25- **المعزى في مناقب أبي يعزى.** نسخة إلكترونية.

- تأليف جماعي:

26- **رسائل موحدية: مجموعة جديدة**، تحقيق ودراسة أحمد عزاوي، ط 1، القنيطرة- المملكة المغربية: منشورات كلية الآداب جامعة ابن طفيل، 1416- 1995، 2ج.

- الترمذي:محمد بن عيسى بن سورة السلمي (ت 279هـ/892م)

27- صحيح الترمذي بشرح ابن العربي المالكي (أبواب البيوع) ، ط1، مصر: المطبعة المصرية بالأزهر، 1350هـ- 1931.

- التنبكتي: أحمد بابا السوداني (ت 1036 هـ/1626م)

28- **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس: منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1989.

29- **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، تحقيق عبد الله الكندري، ط 1، بيروت: دار بن حزم، 1422هـ-2002.

- التنسي: محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التلمساني (ت 899هـ/1493م)

30- **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان**، (**طبع باسم تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**) تحقيق محمود بوعياد، الجزائر: المكتبة الوطنية - المؤسسة الوطنية للكتاب، 1405هـ- 1985.

- الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (350 - 430هـ/916 - 1038م)

31- **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، القاهرة: دار المعارف، 1965.

- ابن جبير: أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني (ولد سنة 540 هـ/1145م)

32- **تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار (طبع باسم رحلة ابن جبير)**، الجزائر: موفم للنشر، 1988.

- ابن جزي: أبو القاسم محمد الكلبي الغرناطي (ت 741هـ/1340م)

33-**القوانين الفقهية**، بيروت: دار القلم، (د.ت).

- الجوهري: أبو العباس (ت 393 هـ/1002م)

34- **الصحاح**، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط3، بيروت: دار العلم للملايين، 1404هـ- 1984.

- ابن الحاج. محمد بن محمد المالكي

35- **المدخل**، ط 2، بيروت: دار الكتاب العربي، 1972.

- ابن الحاج التلمساني

36- **شموس الأنوار وكنوز الأسرار الكبرى**، تونس: مطبعة المنار.

- ابن الحاج النميري: إبراهيم بن عبد الله الغرناطي (توفي بعد 774 هـ/1372م)

37-**فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، تحقيق محمد بن شقرون، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.

- الحازمي: أبو بكر محمد بن أبي عثمان الهمداني (ت 584 هـ/1188م)

38- **عجالة المبتدى وفضالة المنتهى في النسب**، تحقيق عبد الله كنون، ط 1، القاهرة: دار الأفاق العربية، 1422هـ- 2002.

- ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان (تـ 350 هـ/ 961م)

39- **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1414هـ-1993.

- الحسيني: عز الدين أبو القاسم أحمد (ت 695 هـ/1295م)

40- **صلة التكملة لوفيات النقلة**، تحقيق عبد الله الكندري، ط 1، بيروت: دار ابن حزم، 1426هـ-2005.

- أبو حمو: موسى الزياني التلمساني (ت 791 هـ/1388م)

41-**واسطة السلوك في سياسة الملوك**، تونس: مطبعة الدولة التونسية، 1279هـ- 1862م.

- الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626 هـ/1228م)

42- **معجم البلدان**، بيروت: دار صادر، 1397هـ-1977م.

- الحميري: محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (القرن 8 هـ/14م)

43-**الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، ط 2، بيروت: مكتبة لبنان، 1984م.

- ابن حنبل: الإمام أحمد الشيباني البغدادي (ت 241 هـ/855م)

44- **المسند**، القاهرة: مؤسسة قرطبة، (د.ت).

- ابن حوقل: أبو القاسم النصيبي البغدادي (توفي بعد 367 هـ/977م)

45- **صورة الأرض**، بيروت: دار مكبة الحياة، 1992.

- ابن خاتمة: أحمد بن علي الأنصاري (توفي بعد 770هـ/1369م)

46-**تحصيل غرض القاصد في تفصيل مرض الوافد**، نشر ضمن كتاب: عبد الكريم الخطابي، **الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية**، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988،ج1.

- ابن الخطيب: لسان الدين السلماني الغرناطي (ت 776 هـ/1374م)

47- **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق يوسف علي الطويل، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ- 2003.

48- **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق البشير الفورتي، تونس: مطبعة التقدم الإسلامية، 1329هـ-1911.

49- **كناسة الدكان بعد انتقال السكان**، تحقيق محمد كمال شبانة، ط1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423هـ-2003.

50- **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423هـ-2002.

51- **نفاضة الجراب في علالة الإغتراب**، تحقيق السعدية فاغية، ط1، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1409هـ- 1989، ج3.

52- **أعمال الأعلام** (القسم المغربي طبع باسم : **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط**)، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدر البيضاء: دار الكتاب، 1964.

53- **عمل من طب لمن حب**، طبع تحت إشراف: ماريا كنثبثيون قاثكز بنتيو، جامعة صن سلمنقة، 1972.

54- **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، ألمانيا: منشورات معهد العلوم العربية الإسلامية، فرنكفورت، 1417هـ- 1997، مج 93.

- ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي (تـ 808 هـ/1406م)

55- **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا** (طبع باسم **رحلة ابن خلدون**)، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1425هـ- 2004.

56- **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1983، ج 6، ج 7.

57- **المقدمة،** تحقيق محمد الاسكندراني، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1427هـ- 2006.

- ابن خلدون: أبو زكرياء يحي بن محمد الحضرمي الإشبيلي (تـ 780 هـ/1378م)

58- **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد،** تحقيق ألفرد بيل، الجزائر: مطبعة فونطانة، 1328هـ- 1910، 2ج.

- خليل: خليل بن إسحاق بن موسى الجنيدي (تـ 776هـ/1374م)

57- **مختصر خليل**، مصر: مطبعة محمد علي صبيح، 1346 هـ

- ابن خير الإشبيلي: أبو بكر محمد بن خير بن عمر الأموي (تـ 575 هـ)

59- **عمدة الطبيب في معرفة النبات،** تحقيق: محمد العربي الخطابي، الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، (د.ت).

- ابن رسته: أبو علي أحمد بن عمر (تـ 290 هـ/902م)

60- **الأعلاق النفيسة**، ليدن: مطبعة باريا، 1893.

- ابن رشد الجد: أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد القرطبي (تـ 520 هـ/1126م)

61- **فتاوى ابن رشد،** تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1407 هـ - 1987، ج3.

- ابن رشد الحفيد: أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي (تـ 595 هـ/1199م)

62- **بداية المجتهد ونهاية المقتصد،** مكتبة الخانجي (د.ت).

- الرصاع: محمد الأنصاري التلمساني (تـ 894 هـ/1488م)

63- **الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية،** تحقيق ودراسة محمد حسن، ط 1، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2007.

64- **فهرست الرصاع**، تحقيق محمد العنابي، تونس: المكتبة العتيقة، 1967.

65- **شرح حدود ابن عرفة الموسوم: بالهداية الكافية الشافية،** تحقيق أبو الأجفان والطاهر المعموري، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993.

- ابن رضوان: أبو القاسم عبد الله بن يوسف المالقي (تـ 784 هـ/1383م)

66-**الشهب اللامعة في السياسة النافعة،** تحقيق محمد حسن إسماعيل وأحمد المزيدي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1425هـ- 2004.

- ابن الزبير: أبو جعفر أحمد العاصمي الغرناطي (تـ 708 هـ/1308م)

67- **صلة الصلة،** تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1416هـ- 1995، ج 4.

- الزركشي: محمد بن إبراهيم (ق 9 هـ/15م).

68- **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية،** تحقيق محمد ماضور، ط 2، تونس: المكتبة العتيقة، 1996.

- ابن زهر: أبو مروان بن أبي العلاء بن عبد الملك (تـ 525 هـ/1130م)

69- **كتاب الأغذية،** تحقيق اكيبراتيون غارتيا، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- معهد التعاون مع العالم العربي، 1992.

70– **التيسير في المداواة والتدبير**، تحقيق ميشيل الخوري، تقديم: محي الدين صابر، دمشق: منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الفكر، 1403هـــ - 1983.

- الزهري: محمد بن أبي بكر الأندلسي (ق 6 هــ/12م)

71– **كتاب الجعرافيا**، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية (د.ت).

- سحنون: بن سعيد التنوخي (تـــ 290 هــ/902م)

72– **المدونة الكبرى**، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1415 هــ - 1994.

- السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت 902 هــ/1514م)

73–**الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، بيروت: دار مكتبة الحياة. ج 10.

- ابن سعيد: أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي (ت 685 هــ/1286م)

74– **الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ط 2، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.

- ابن سلام: ابن سلام. أبو عبيدة القاسم (ت 224 هـــ/838م)

75– **كتاب النسب**، تحقيق مريم محمد خير الدرع، بيروت: دار الفكر، 1410هـ- 1989.

- السقطي أبو عبد الله محمد المالقي (ت 631 هـــ / 1234م)

76– **في آداب الحسبة**، نشر: ليفي بروفنسال وجيم كولان، باريس: المطبعة الدولية، 1931.

- ابن سلمون: أبو القاسم سلمون بن علي الكناني (ت 767هـــ/1335م)

77–**العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام**، ط1، مصر: المطبعة العامرية الشرقية، 1301هـ.

- السنوسي: محمد بن يوسف عمر بن شعيب (تـــ 895 هــ/1489م).

78– **تفسير ما تضمنته كلمات خير البرية من غامض أسرار الصناعة الطبية**، تحقيق هيا محمد الدوسي وعبد القادر أحمد عبد القادر، ط1، الكويت: دار ابن النديم، 1419هـــ-1999.

- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن محمد (تـــ 911 هـــ/1505م)

79– **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1، مطبعة عيسى الباجي الحلبي وشركاه، (د.ت).

80– **نظم العقيان في أعيان الأعيان**، تحقيق: فليب حتي، بيروت: المكتبة العلمية، 1927.

- السيوطي: جلال الدين، وجلال الدين محمد بن أحمد المحلي

81– **تفسير الإمامين الجلالين**، بيروت: دار المعرفة، (د.ت).

- ابن سينا: أبو علي الحسين بن عبد الله (تـــ 428 هـــ/1036م)

82– **القانون في الطب**، ط1، نوبليس: 1999.

- الشفشاوني: محمد بن عسكر الحسيني (ق 10 هـــ/16م)

83– **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، الرباط: دار المغرب، 1397-1977.

- الشماع أبو العباس أحمد الهنتاتي: (تـــ 833هـــ/1429م)

84- **مطالع التمام ونصائح الأنام ومنجاة الخواص والعوام في ردّ القول بإباحة إغرام ذوي الجنايات والإجرام زيادة على ما شرع الله من الحدود والأحكام**، تحقيق عبد الخالق أحمدون، المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1424هـ – 2003.

- ابن الشماع: محمد بن أحمد التونسي (ق 9 هـ/15م)

85- **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق الطاهر المعموري، تونس: الدار العربية للكتاب، 1984م.

- ابن صاحب الصلاة: عبد الملك (تـ 594 هـ/1197م)

86- **المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين** ، تحقيق عبد الهادي التازي، ط 3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987.

- ابن صعد: محمد بن سعيد الأندلسي التلمساني (تـ 901 هـ/1495م)

87- **روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**، تحقيق يحيى بوعزيز، ط 1، الجزائر: المؤسسة الوطنية للإشهار، 2004.

- ابن ظافر: أبو الحسن علي بن منصور الأزدي (ت 613 هـ/1216م)

88- **أخبار الدول المنقطعة**، تحقيق عصام هزايمة وآخرين، ط1، الأردن: مؤسسة حماد – دار الكندي. 1999.

- الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي (تـ 360 هـ/918م)

89- **المعجم الصغير المسمى الروض الداني**، تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمرير، ط1، بيروت- عمان: المكتب الإسلامي- دار عمار، 1405 هـ-1985.

- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي (ت 310 هـ/922م)

90- **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، القاهرة: دار المعارف، 1967، ج8.

- ابن الطواح: عبد الواحد محمد (توفي بعد سنة 718 هـ/1318م)

91- **سُبك المقال لفك العقال**، تحقيق محمد مسعود جبران، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1995.

- ابن عباد: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الرندي (ت 733 – 792هـ/1332 – 1389م)

92- **الرسائل الكبرى**، فاس: مطبعة المعلم العربي الأزرق، 1320هـ.

- العبدري: محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود الحاحي (ق 7 هـ/13م)

93- **ما سما إليه الناظر المطرق في خير الرحلة إلى بلاد المشرق**، (طبع بعنوان: **الرحلة المغربية**) تحقيق أحمد بن جدو، الجزائر: نشر كلية الآداب الجزائرية، (د .ت).

- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي (ت 463 هـ/1020م)

94- **بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس**. تحقيق محمد موسى الخولي، بيروت: دار الكتب العلمية، (د .ت).

- ابن عبد الرفيع: أبو إسحاق إبراهيم بن الحسن بن علي (تـ 734هـ/ 1333م)

95- **معين الحكام على القضايا والأحكام**، تحقيق محمد بن قاسم عياد، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1989.

- ابن عبد الملك المراكشي: أبو عبد الله محمد الأوسي (ت 703 هـ/1303م).

96- **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، (السفر 4- 5)، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، 1973،

- ابن عبدون: محمد بن أحمد التجيبي (من أهل القرن 5 هـ/11م)

97- **رسالة في الحسبة**، نشره ليفي بروفنسال بعنوان: ***Le Traité d'Ibn 'Abdùn*** ضمن: Journal Asiatique, Paris 1934 .

- ابن عذاري المراكشي (بعد 712 هـ/1312م)

98- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،**

– **الجزء** 1 – 2 – 3 : تحقيق ج. س كولان وليفي بروفنسال، ط 3، بيروت: دار الثقافة، 1983.

- **الجزء** 4: تحقيق إحسان عباس، ط 3، بيروت: دار الثقافة، 1983.

99– **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: قسم الموحدين،** تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط 1، الدار البيضاء– بيروت: دار الثقافة– دار الغرب الإسلامي، 1406هـ- 1985.

- العقباني: محمد بن أحمد بن قاسم التلمساني (ت 860 هـ/1455م)

100– **تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر،** حققه ونشره علي الشنوفي في مجلة: Bulletin d'études orientales, العدد 19، سنة 1965-1966.

- ابن العوام: أبو زكريا يحيى بن أحمد الإشبيلي (تـ 539 هـ/1146م)

101– **كتاب الفلاحة،** مدريد: 1802م

- ابن غازي: محمد بن أحمد العثماني الكتامي المكناسي (ت 919 هـ/1513م)

102- **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون.** الرباط: 1371 هـ- 1952.

- الغبريني: أبو العباس أحمد بن أحمد البجائي (ت 704 هـ/1304م)

103– **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية،** تحقيق رابح بونار، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1971.

- الغرناطي: أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج بن عبادة الأنصاري (ت 579 هـ/1183م)

104– **الوثائق المختصرة،** تحقيق مصطفى ناجي، ط 1، الرباط: مركز إحياء التراث المغربي، 1408هـ- 1988.

- أبو الفداء: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابن شاهنشاه (ت 732 هـ/1331م)

105– **تقويم البلدان،** نشره رينود والبارون دي سلان، باريس: دار الطباعة السلطانية، 1840.

- أبو الفرج: قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت 320هـ/932م)

106– **نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتاب،** بغداد: مكتبة المثنى، (د .ت).

- ابن فرحون: برهان الدين إبراهيم بن علي اليعمري المدني (ت 799 هـ/1396م)

107- **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب،** تحقيق مأمون الجنان، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ- 1996.

- ابن فضل الله العمري: أحمد بن يحيى (ت 749 هـ/1348م).

108- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،** ألمانيا: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية– جامعة فرنكفورت، 1408هـ- 1988م، السفر الرابع.

109– **مسالك الأبصار (السفر الثامن: طوائف الفقراء والصوفية)،** تحقيق بسام محمد بارود، أبو ظبي: المجمع الثقافي، 1421 هـ- 2002.

- ابن القاضي: أبو العباس أحمد بن أبي العافية المكناسي (ت 1025 هـ/ 1616م)

110- **درة الحجال في غرة أسماء الرجال،** تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1423 هـ- 2002.

111- **لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد،** تحقيق محمد حجي، ضمن: **موسوعة أعلام المغرب،** ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1417هـ- 1996.

112- **جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس،** تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط: دار المنصور، 1973. 2 ج.

- القرافي: بدر الدين محمد بن يحيى (ت 1008 هـ/1599م)

112- **توشيح الديباج وحلية الابتهاج،** تحقيق علي عمر، ط 1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1425هـ- 2004.

- القرطبي: أبو عبد الله محمد الأنصاري (ت 671هـ/1272م)

113- **الجامع لأحكام القرآن،** تحقيق عبد الله التركي ومحمد رضوان عرقسوسي، ط 1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1427هـ- 2006.

- ابن القطان: أبو محمد حسن بن علي بن محمد الكتامي المراكشي (القرن 7 هـ/13م)

114- **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان،** تحقيق محمود علي مكي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990.

- القلصادي: أبو الحسن علي القرشي البسطي (ت 891 هـ/ 1486م)

115- **تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب،** (طبعة باسم: **رحلة القلصادي**)، تحقيق محمد أبو الأجفان، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1978.

- القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م)

116- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا،** القاهرة: المطبعة الأميرية، 1333- 1915، ج 5.

- ابن قنفد: أحمد بن الحسن القسنطيني (ت 810 هـ/ 1408م)

117- **أنس الفقير وعز الحقير،** تحقيق نجاح عوض صيام، ط1، القاهرة: دار المقطم، 1422هـ- 2002.

118- **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية،** تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس: الدار التونسية للنشر، 1968م.

119- **الوفيات،** تحقيق عادل نويهض، ط 4، بيروت: دار الأفاق الجديدة، 1403هـ- 1983.

- ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبي عبد الله (تـ 751هـ/تـ 1350م)

120- **الطب النبوي،** تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، ط 13، بيروت: مؤسسة الرسالة- مكتبة المنار الإسلامية، 1406هـ-1986م.

- الكتبي: محمد بن شاكر (ت 764 هـ/1362م)

121- **فوات الوفيات والذيل عليها،** تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، (د .ت).

- مارمول كربخال (ق 10 هـ/16م)

122- **إفريقيا،** ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط: دار نشر المعرفة، 1409هـ- 1989، 3ج.

- مجهول: (ينسب لابن عبد ربه الحفيد)، (كان حيا أواخر القرن 6 هـ/12م)

123- **الاستبصار في عجائب الأمصار،** تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، بغداد: وزارة الشؤون الثقافية العامة- أفاق عربية، (د .ت).

- مجهول: (منسوب لابن أبي زرع الفاسي)

124- **الذخيرة السنية في الدولة المرينية،** تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر: 1920.

- مجهول

125– **الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، مدريد: نشر ضمن: صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، 1961-1962م، مج 9- 10.

- مجهول (حيا سنة 373 هـــ)

126– **حدود العالم من المشرق إلى المغرب**، تحقيق يوسف الهادي، ط1، القاهرة: الدر الثقافية للنشر، 1419هـــ- 1999.

- المجيلدي: أبو العباس أحمد بن سعيد (ت 1094 هـــ/ 1683م)

127- **التسيير في أحكام التسعير**، تحقيق موسى لقبال، ط2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981.

- المراكشي: عبد الواحد (ت 647 هـ/ 1346م)

128– **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1419هـــ- 1998.

129- **وثائق المرابطين والموحدين**، تحقيق حسين مؤنس، ط 1، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1997.

- ابن مرزوق: أبو عبد الله محمد التلمساني الخطيب (ت 781 هـــ/ 1379م)

130- **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولاي أبي الحسن**، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401هـــ- 1981.

131- **المجموع**، طبع باسم: **المناقب المرزوقية**، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري، ط 1، المملكة المغربية – الدار البيضاء: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – مطبعة النجاح الجديدة، 1429هـــ – 2008م.

- ابن مريم: محمد بن محمد المليتي التلمساني (ق 11 هـــ/17م)

132– **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986م.

- مسلم: أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261 هـــ/874م)

133– **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د .ت).

- المقري: أبو العباس أحمد القرشي التلمساني (ت 1041 هـــ/1631م)

134– **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار صادر، 1388هـــ- 1968، 7 ج.

135– **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، ج 5: تحقيق سعيد أعراب وعبد السلام الهراس، المغرب- الإمارات العربية: للجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي،1400هـــ- 1980.

- المقدسي: محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت 380 هـــ/ 990م)

136– **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق محمد أمين الضناوي، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424-2003 .

- الملطي: عبد الباسط بن خليل بن شاهين الشيخي الحنفي (ت 920 هـــ/1514م).

137– **الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم**، ألمانيا: معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية- جامعة فرنكفورت، 1414هـــ- 1994.

- ابن منظور: محمد بن مكرم الإفريقي (ت 711 هـــ/1311م)

138- **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، 1388 هـــ- 1968.

- النباهي: أبو الحسن بن عبد الله المالقي (ق 8 هـــ/14م)

139- **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، ط 5، بيروت، دار الأفاق الجديدة، 1403هـــ- 1983.

- ابن نظيف الحموي: أبو الفضل محمد بن علي (ت 637 هـــ/1240م)

140- **التاريخ المنصوري: تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان،** تحقيق أبو العيد دودو، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990.

- الوادي آشي: محمد ابن جابر التونسي (ت 749 هــ/1348م)

141- **برنامج الوادي آشي،** تحقيق محمد محفوظ، ط 3، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1982 .

- الورثلاني: الحسين بن محمد (ت 1193 مــ/1779م)

142- **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار،** ألمانيا: منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية-جامعة فرانكفورت، 1414 هــ-1994، مج 192، القسم الأول.

- الوزان: الحسن بن محمد المعروف بليون الأفريقي (توفي بعد 957 هــ/1559م)

143- **وصف أفريقيا،** ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983.

- الونشريسي: أحمد بن يحيى التلمساني (ت 914 هــ/1508م)

144- **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس المغرب،** تحقيق محمد الحجي وآخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1401 هــ- 1981، 13 ج.

جـ المـــــراجع

1- المراجع باللغة العربية

- أومليل. علي

1- **الخطاب التاريخي – دراسة في منهجية ابن خلدون –** ط4، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2005.

- الباروني سليمان باشا (ت 1359هــ/1940م)

2- **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية،** تحقيق أحمد كروم وآخرون، تديم إبراهيم بن بكير بحاز، أحمد بن سعود السيابي، ط3، قسنطينة (الجزائر): دار البعث، 1423هــ/2002.

- باشا. نجاة

3- **التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الثاني إلى القرن الثامن،** تونس: منشورات الجامعة التونسية، 1976.

- بحاز. إبراهيم

4- **الدولة الرستمية (160-296 هــ/ 777-909 م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية،** ط 2، القرارة- الجزائر: جمعية التراث.

- بعيزيق. صالح

5- **بجاية في العهد الحفصي: دراسة اجتماعية واقتصادية،** تونس: منشورات كلية الآداب- جامعة تونس، 2006.

- بلعربي. خالد

6- **الدولة الزيانية في عهد يغمراسن: دراسة تاريخية وحضارية (633- 681 هــ)** ط 1، الجزائر: مطبعة تلمسان RN. 2005.

- بلغيث. محمد الأمين

7- **نظرات في تاريخ الغرب الإسلامي،** الجزائر: الدار الخلدونية للنشر والتوزيع، 1428هــ- 2007.

- بنحمادة. سعيد

8- **الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين 7 و 8 هــ / 13و14م، (إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات)،** ط1، بيروت: دار الطليعة، 2007.

- بنعبد الله. عبد العزيز

9- **معلمة التصوف الإسلامي**، ط1، الرباط: دار نشر المعرفة، 2000.

- بنشريفة. محمد

10- **تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس والمغرب: بحوث ونصوص**، المملكة المغربية: منشورات وزارة الثقافة، 2006.

- بنمليح. عبد الاله

11– **الرق في بلاد المغرب والأندلس**، ط1، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، 2004.

- بوداود. عبيد

12– **ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين 7 و 9: دراسة في التاريخ السوسيو– ثقافي**، وهران: دار الغرب.

- بوتشيش. إبراهيم القادري

13– **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، ط1، بيروت: دار الطليعة، 1998.

14– **المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، الذهنيات، الأولياء**، ط 2، تيطوان– المغرب: منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، 2004.

15– **الإسلام السري في المغرب العربي**، ط 1، القاهرة: سينا للنشر، 1995.

16– **إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي**، ط1، بيروت: دار الطليعة، (د.ت).

- بوزياني. الدراجي

17– **نظم الحكم في دولة بني عبد الواد**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993.

- بولقطيب. الحسين

18– **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، منشورات الزمن، 2002.

- بونابي. الطاهر

19– **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين/ 12 و13 الميلاديين**، عين مليلة– الجزائر: دار الهدى، 2004.

- تأليف جماعي

20– **الديمغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي**، تونس، دار سراس للنشر، 1993.

- تأليف جماعي

21– **كتاب تاريخ إفريقيا العام**، إشراف.ج.ت نياني، اليونسكو، باريس ، 1980، ج4.

- تأليف جماعي

22– **الجزائر في التاريخ** ، الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة– المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ج3

- تأليف جماعي

23– **الموسوعة العربية العالمية**، ط1، الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة، 1419هـــ- 1999.

- تأليف جماعي

24– **الإسطوغرافيا والأزمة (دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة)**، ط1، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1994.

- جودت. عبد الكريم يوسف

25– **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين،** الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1992.

- الحداد. محمد

26– **حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي العربي،** ط1، بيروت: دار الطليعة، 2002.

- حركات. إبراهيم

27– **مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9 هـ/ 15م،** ط 1، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1421هـ–2000، ج 1.

- الحريري. محمد عيسى

26– **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (618– 869 هـ)،** ط1 ، الكويت: دار القلم 1405هـ-1985.

- حسن. إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن

27– **النظم الإسلامية،** القاهرة:مكتبة النهضة المصرية، 1970.

- حسن. محمد

28– **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي،** تونس: منشورات جامعة تونس الأولى، 1999.

- حليمي .عبد القادر علي

29– **جغرافية الجزائر (طبيعة – بشرية – اقتصادية)،** ط1، الجزائر: مكتبة الشركة الجزائرية، 1968.

- حميش. سالم

30– **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ،** ط 1، بيروت: دار الطليعة، 1998.

- خوجة. حمدان

31– **إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء،** تحقيق: محمد بن عبد الكريم، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1968.

- الزركلي. خير الدين

32- **الأعلام: قاموس تراجم،** ط 15، بيروت: دار العلم للملايين، 2002.

- السائح. الحسن

33– **الحضارة الإسلامية في المغرب،** ط 2، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1986.

- سعد الله. أبو القاسم

34– **تاريخ الجزائر الثقافي،** الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981.

35– **الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري: حياته وآثاره،** الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.

- السلاوي. أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.

36– **الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى،** تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ط 1، الدار البيضاء: دار الكتاب، 19.

- شاوش. محمد بن رمضان

37– **باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان،** الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.

- الشادلي. عبد اللطيف

38– **التصوف والمجتمع (نماذج من القرن القرن العاشر الهجري)،** المغرب: منشورات جامعة الحسن الثاني، 1989.

- صاحب. الربيعي

39- **المتغيرات المناخية العالمية وتأثيرها على المياه العذبة**، ط1، سوريا: دار الحصاد، دار الكلمة، 2002.

- الصاوي. أحمد السيد

40- **مجاعات مصر الفاطمية**، ط1، بيروت: دار التضامن، 1988.

- أبو ضيف. مصطفى

41- **القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين والمرينيين**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.

- العامري. نللي سلامة

42- **الولاية والمجتمع (مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لافريقية في العهد الحفصي)**، تونس: منشورات كلية الآداب بمنوبة، 2001.

- عجمية. محمد عبد العزيز وإيمان عطية ناصف

43- **التنمية الاقتصادية – دراسة نظرية وتطبيقية–** الإسكندرية: كلية التجارة، قسم الاقتصاد، د.ت

- العروي. عبد الله

44- **مجمل تاريخ المغرب**، ط2، المركز الثقافي العربي، 2000.

- عز الدين .عمر موسى

45- **الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم**، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1411هـ-1991.

46- **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، ط 2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1424هـ-2003م.

47- **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي**، ط1، بيروت: دار الشروق، 1403هـ- 1983.

- بن عميرة. محمد

48- **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

- عليش. محمد

49- **فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك**، ط1، مصر: مطبعة بولاق، 1301هـ.

- علوان. عبد الله ناصح

50- **الرق في الإسلام**، بيروت: دار السلام، (د.ت) .

- فتحة. محمد

51- **النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 6** إلى **9 هـ**، الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب– جامعة الحسن الثاني، 1999.

- فيلالي. عبد العزيز

52- **تلمسان في العهد الزياني**، الجزائر: موفم للنشر، 2002.

- المراكشي. عباس بن إبراهيم

53- **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، ط1، فاس:المطبعة الجديدة، 1355هـ- 1936.

- المغراوي. محمد

54- **الموحدون وأزمات المجتمع**، ط1، الرباط: جذور للنشر، 2006.

- المطوي. العروسي

55- **السلطنة الحفصية: تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1406هـ-1986.

- المطيرات. عادل مبارك

56- **أحكام الجوائح في الفقه الإسلامي وصلتها بنظريتي الضرورة والظروف الطارئة**، القاهرة: منشورات جامعة القاهرة، 1422هـ -2001.

- مقديش. محمود

57- **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988.

- بن منصور. عبد الوهاب

58- **قبائل المغرب**، الرباط: المطبعة الملكية، 1388هـ- 1968.

- المنوني. محمد

59- **المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث**، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1404هـ- 1983.

- نشاط. مصطفى

60- **إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني**، وجدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، 2003.

2- المراجع المعربة

- برنشفيك. روبار

1- **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 10 إلى القرن 13م**، ترجمة حماد الساحلي، ط 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988، 2 ج

- بروديل. فرنان

2- **المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فليب الثاني**، تعريب وإيجاز: مروان أبي سمرا، ط1، بيروت: دار المنتخب العربي، 1413- 1993.

- بيرين. هنري

3- **تاريخ أوربا في العصور الوسطى: الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، ترجمة عطية القوصي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996.

- ڤالتر. هنتس

4- **المكاييل والموازين الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري**، ترجمة كامل العسلي، ط 1، الأردن: منشورات الجامعة الأردنية، 1970.

- كلوت. بك

5- **كنوز الصحة ويواقيت المحنة**، ترجمة الرافعي محمد الشافعي، مطبعة الباجي الحلبي،1271هـ- 1854.

- جاك. لوغوف

6- **التاريخ الجديد**، ترجمة محمد الطاهر المنصورين، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2007.

- مارسي. جورج

7- **بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة محمود هيكل، الإسكندرية: منشأة المعارف،1991.

8- **مدن الفن الشهيرة: تلمسان**، ترجمة سعيد دحماني، البليدة- الجزائر: مطبعة أ. موقان، 2004.

- ميكيل. أندريه

9- **جغرافية الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر**، ترجمة إبراهيم خوري، دمشق:وزارة الثقافة، 1993.

3- المراجع باللغة الأجنبية:

- Dhina, Atallah :

1- ***Les Etats de l'Occident musulman aux*** XIII^{e}, XIV^{e} et XV^{e} siècles, Alger : ENAL- OPU.

2 - *Le Royaume Abdelouadide a l'epoque d'Abou Hammou Moussa I^{er} et d'Abou Tachfin I^{er}*, Alger : ENAL-OPU

- Dominique Valerian :

3 - ***Bougie port Maghrébin, 1067-1510***, École Française de Rome, 2006.

- Dufourc. (Charles- Emmanuel):

4- ***L´ Espagne catalane et le Maghreb aux*** XIII et XIV siècle, paris, 1966.

- Grssellst :

5- ***Histoire de L'Afrique du Nord***, Paris, 1913-1928, t:I.

- KABLY Mehamed :

6-***Societe, Pouvoir et Religion au Maroco à la fin du «Moyen - Age» (XIV - XV siècle)***, préface de Clαude Cahen, Paris : éditions Maisonneuve et Larose, 1986.

- Michel lepourier :

7- ***la petite encyclopédie médecine-Sciences***, Flammarion, Paris.

4- الرسائل الجامعية

- بريكة. مسعود

1- **النخبة والسلطة في بجاية الحفصية**، مذكرة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2008 – 2009.

- بلغيث. محمد الأمين

2- **الحياة الفكرية بالأندلس**، أطروحة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، 2002- 2003.

- خليفي. رفيق

3- **البيوتات الأندلسية في المغرب الأوسط من نهاية ق 3 هـ إلى نهاية القرن 9 هـ**، مذكرة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 1428-1429 هـ/ 2007 – 2008.

- لدرع. أمال

4- **الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال العصر الزياني 633-962** هـ، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 1426-1427 هـ/ 2005- 2006.

- المزكلدي. سميرة

5- **المجاعات والأوبئة بالمغرب الوسيط (534- 776 هـ/ 1139-1375م)**، إشراف: د. هاشم العلوي القاسمي، فاس: ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة الجامعية: 1424 – 1425هـ/ 2003 – 2004.

- Amara. Allaoua

6 -Pouvoir, économie et société dans le Maghreb Hammadide (395-547/1004-1152) Thèse de doctorat, Université Paris I - Sorbonne -, 2000, vol I..

5- المجلات والدوريات وأعمال الملتقيات:

- البزاز. محمد الأمين

1- **الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14م**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 16، 1991.

2- **الجراد والجوع والأمراض في المغرب خلال العصور القديمة والوسطى**"، المناهل، العدد: 69-70سنة 2004.

- بنشريفة. محمد

3- **من ألفاظ الحضارة في الأندلس والمغرب كلمة "ظهير" مثالا**، الأكاديمية، عدد 14، 1998.

- بوتشيش. إبراهيم القادري

4- **ظاهرة التسول في المغرب الإسلامي خلال القرن 6هـ/12م**، ضمن: **التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور**، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية –جامعة قسنطينة.

- التازي. عبد الهادي

5- **ظاهرة التعاون في التاريخ الدولي للمغرب "الجراد"**، مجلة الأكاديمية، عدد خاص بعنوان: **الكوارث الطبيعية –آفة الجراد**، الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1989.

- حدادي. أحمد

6- **أخبار الأوبئة والأمراض في الرحلات السفارية المغربية**، مجلة كنانيش، وجدة، منشورات كلية والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، العدد 3: صيف – خريف 2001.

- خليفي. عبد القادر

7- **الطبيعة وأثرها على الإنسان في الجزائر**، مجلة مواقف، معسكر: منشورات المركز الجامعي مصطفى اصطمبولي، العدد 03، ديسمبر 2008.

- بن الخوجة محمد الحبيب

8-**الجراد بين الدراسات الحديثة وبين التصورات الموروثة**، مجلة الأكاديمية، عدد خاص بعنوان: **الكوارث الطبيعية –آفة الجراد**، الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1989.

- عمارة علاوة

9- **الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي**، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، عدد 4، أكتوبر،2004.

- فيلالي عبد العزيز

10– **الأحوال الصحية لسكان تلمسان في عهد بني زيان**، ضمن أعمال الملتقى الدولي: **التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور**، المنظم يومي 23- 24 أفريل 2001، جامعة منتوري– قسنطينة، منشورات المخبر.

- مازن. عبد المجيد

11- **الحصبة (المرض، التشخيص المخبري، اللقاحات)**، مجلة الدواء العربي، السنة السابعة عشر، العدد الأول، صفر 1419هـ- حزيران 1998.

- الناصري. محمد

12- **الكوارث الطبيعية والحتمية التاريخية**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، العدد15، 1989-1990.

- Ahmed aroua

1- ***sante et civilisation chez ibn khaldoun*** , .

مقال في مجلة التاريخ-عدد خاص بملتقى ابن خلدون، النصف الأول من سنة 1984م، الجزائر.

- Bouayed Mahmoud –Agha

2**- *Le port de Hunayn, trait d'union entre le Maghreb central et l'Espagne au Moyen- Age*.** dans : ***Relacíones de la Peninsula Ibérica con El Maghreb siglos XIII-XVI; Actas del coloquio*.** (Madrid; 17-18 décembre 1987), Madrid, Instituto Hispano-Arabe de cultura, 1988.

- Castells Margarita

3**- *Medecins Andalous au Maghreb, siecles VII-IX / XIII-XV »*.** dans : Actas del II Colloquio Hispano-Marroqui de Ciencias Históricas**.** "***Historia, Ciencia y Sociedad***" Granada, 6-10 Nov. 1989.

- Nedjem ed-dine hentati

4- ***L'Eau dans la ville de L'Occident musulman médiéval d'Après les sources juridiqes malikites*,** Revue d'Histoire magrébine, 28 eme, année 2001, N:102 – 103

Zbiss, Slimane- Mostafa **: *Considérations sur la tentative de restauration du Pouvoir Almoravide en Maghreb central et Oriental***, dans : ***Actas del II Cologuia Hispano- Marroqu*[i] *De ciencas Historicas " Historia, ciencia y sociedad "***, Granada, 6-10 Novembre De 1989, p 31-32.

6- المواقع الإلكترونية:

1- موقع باب الإلكتروني: www. bab.com.

2 – موقع الموسوعة الحرة: www.wikipedaia.org

3- موقع الدكتور زيدان للتراث والمخطوطات: www.zedan.com

4- موقع المصطفى الإلكتروني: www. al- mostafa.com

فهرس المحتويات

ملخص الرسالة

هذه الدراسة هي رؤيا تاريخية، نوضح من خلالها دور بعض الأزمات كالمجاعات والأوبئة في فهم وتفسير تاريخ المغرب الأوسط، كمجال جغرافي ارتأينا أن يمثل الجزائر الحالية في الفترة الزمنية التي تمتد من سنة 588هـ – 1192م إلى سنة 927 هـ– 1520م، علما بأن أزمتي الجوع والوباء إنما تتسبب في حدوثهما جملة من الأسباب منها ما هو طبيعي كالآفات التي تهلك الحرث والنسل، وهي التي اصطلح عليها الفقهاء بالجوائح كالجفاف والرياح والفيضانات والزلازل والجراد والثلج، ومنها ما هو بشري كالحروب والحصارات ومختلف الفتن .

و لم تكن هذه الدراسة مجرد عرض كرونولوجي لمختلف المجاعات والأوبئة التي اجتاحت المغرب الأوسط في المجال الزمني المدروس، وإنما هي عرض لمختلف الأدوار التي جسدها مختلف فئات هذا المجتمع، للتقليل من حدة هذه الأزمات على أفراده، بدءً بالدور السلطوي، ثم ذوي الجاه والمال فضلا عن دور الأطباء كطرف مساهم في علاج مختلف الأمراض والأوبئة، كما لا ننسى دور الصلحاء في تجاوز أزمات الجوع والمرض، ودور بعض الفئات في علاج مختلف الأمراض بطرق تقليدية أو ما يسمى بالطب الشعبي.

لقد عاش أفراد المغرب الأوسط في ظل هذه الأزمات أوضاعا مزرية، من أبرز مظاهرها الاقتصادية انخفاض محسوس لمستوى المعيشة مع ما صاحبه من ارتفاع في قيمة الأسعار، ونفاد الأغذية من المخازن، حتى أصبح غذاء السكان يقتصر على بعض الحشائش البرية، ولحوم الميتة مما سرع عجلة الموت أكثر، بسبب ظهور الأمراض، علما بأن فساد الأغذية يعد من أهم العوامل المؤدية إلى حدوث الأوبئة والأمراض .

لم تكن المجاعات والأوبئة عوارض اقتصادية فقط وإنما كانت حدثا اجتماعيا له نتائج وخيمة على مجتمع المغرب الأوسط، نظرا لأنها أفرزت داخله آفات اجتماعية خطيرة كالتسول واللصوصية، فضلا عن أن هذه الأزمات قد زادت من حدة الفقر بانتقال فئات من الناس من الحرية إلى الاسترقاق أو العبودية.

ونظرا لاعتقاد غالبية سكان المغرب الأوسط بأن السبب الحقيقي لحدوث المجاعات والأوبئة إنما هو غضب من الله سبحانه وتعالى، فإن مثل هذه الأزمات قد أفرزت مظاهر دينية من أبرز سماتها صلاة الاستسقاء، والتقرب من الأولياء ومقدساتهم، وزيارة القبور والزوايا، الأمر الذي يعكس لنا نشاط ظاهرة الولاية داخل مجتمع المغرب الأوسط في الفترة المدروسة.

لقد عرف مجتمع المغرب الأوسط على إثر أزمات الجوع والوباء، تحولات ديمغرافية كبرى من أبرز مظاهرها الحركة السكانية، وهجرة أفراد مجتمع المغرب الأوسط للبحث عن الغذاء في مجالات أخرى، وإن كانت الهجرة بسبب الوباء مسألة يعتريها الكثير من الضبابية في مصادرنا لأنها اعتبرت في تلك الفترة محل جدل فقهي كبير، حيث اعتبر الكثير من الفقهاء أن الفرار من الوباء من الأعمال المخالفة للسنة، أما الصابر عليه والميت به فيكون ثوابه ثواب الشهيد الميت في ساحات الوغى.

يعد الموت أيضا حدثا ديمغرافيا ناتجا عن المجاعات والأوبئة، ولهذا فقد صورت لنا المصادر صورا مرعبة للموت في مختلف المدن التي داهمتها هذه الأزمات، خصوصا في ذلك الوباء العام أو الطاعون الجارف لسنة 749 هـ/1348م الذي كان كارثة إنسانية هزت عالم العصور الوسطى بأكمله لأنه "ذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها " على حد تعبير ابن خلدون.

إن المجاعات والأوبئة كعوارض تصيب الحضارات كانت وطأتها شديدة على سكان المغرب الأوسط، فحالت دون صيرورتهم الحضارية، فكلما طمحوا إلى الارتقاء كانت مثل هذه الأزمات تقف حائلا أمام العديد من الطموحات السياسية أو الاقتصادية وحتى الثقافية.

LE RESUME DE LA THESE

Cette étude non exhaustive à travers laquelle on démontre l'impact des crises tel que la famine et les épidémies dans la compréhension et l''analyse de l'histoire du centre Maghreb choisis comme zone géographique pour cette étude.

On a pris pour modèle l'Algérie actuelle pendant période comprise entre 588 h/1192 au 927h/1520.

Sachant que les crises de la famine et les épidémies sont causées :
-soit par des facteurs naturels tel que les vents, la sécheresse, les séismes; les criquets, et la neige qui détruisent les terre et déciment les populations.
-soit par des facteurs humains tel que les guerres; les embargos; et les diverses séditions.

Cette études n'est pas seulement un étalage chronologique des crises de la famine et des épidémies qui ont touché le centre Maghreb pendant la période étudiée ;mais un exposé sur l ensemble des rôles joués par les différente couche de la société dans l''atténuation de l''impact de ses crises sur la population ;en premier celui joué par le pouvoir en place;puis par ceux qui avaient de l'influence et de l''argent sans oublie la contribution des médecins dans le combat contre les épidémies et les divers maladies pour la guérison de leurs patients , ainsi que le rôle déterminent de certain groupe de la société dans la guérison des divers maladies par des méthodes traditionnelles plus connues sous l'appellation « Médecine populaire ».

La populations du Maghreb centre ont vécu sous l''emprise de ses crises des moments effroyables, parmi ses aspects économiques une baisse brutale du niveau de vie de la population accompagnée d’une flambée des prix des marchandises et une rupture totale des stocks de tel façon que la nourriture de la population se limitait aux herbes sauvages et à la viandes des cadavres ; tout cela a augmente le nombre des morts parmi la population d'une façon plus importante que les maladies elles-mêmes.

Les crises de la famine et des épidémies n'avaient pas uniquement que l'aspect Economique mais plutôt ils ont été un événement sociale qui avait des résultats néfaste sur l''ensemble de la société du centre Maghreb, car ils ont engendré des fléaux sociaux dangereux parmi la population tel que la mendicité, le vol, et en plus l''augmentation du degré de la pauvreté qui a contribué dans la transition de quelques couches de la liberté vers l'esclavage.

Vu que la majorité de la population croyait que la cause réelle des crises n''est que la colère du bon dieu d''ou l''émergence d'un retour massif aux croyances tel que la prière de la pluviométrie, et des offrandes aux saints hommes et à leurs mausolées ainsi que des visites aux zaouïas et aux tombes des saints hommes d''ou le développement du phénomène mystiques qui a contribué à croissance du nombre des saints hommes pendant la période étudiée.

La société du centre Maghreb avait connu la disette et les épidémies qui ont pousse la population a l'exode et a la recherche d'une vie meilleure quoique que cette fuite des épidémies a engendré le mécontentement des oulémas sunnites car ces derniers jugeaient que mourir dans ses conditions sont considérées comme Chah id tombé au champ de bataille

Ces épidémies et cette famine ont été la cause d'une grande hécatombe parmi la population et d'' après les documents qui nous a été possible de consulter en l''occurrence IBN KHALDOUN que l'' année 749 H /1348 a été une année ou la population a été décimée dans sa grande majorité.

Les famines et les épidémies qui ont touché ces populations ont été les causes essentielles du retard politique, économique, et social du centre Maghreb.

The summary

This study is a clear historical vision through which we clarify the role of some crises such as famines and epidemics to understand and interpret the history of the middle west as a geographical area to represent the present Algeria in the period, which extends from the late 588 th AH/1192th AD century to the beginning of 927 th AH /1520 th century, noticing that the crises of hunger and disease were the result of some reasons, including what is natural such as epidemics that destroy crops and cattle, which were called by the Fuqaha

Pandemic such as drought, wind, floods, earthquakes, locusts, snow, others are human such as wars and conflicts.

This study was not just a presentation of the Kronologi various famines and epidemics that swept the East Morocco in the considered area and time is introduced to the various roles that embodied in the various segments of the society to reduce the severity of this crisis on its members, beginning with the authoritarian and wealth and money as well as the role of doctors as a contributor in the treatment of various diseases and epidemics, and do not forget the role Asalh to overcome the crises of hunger, disease and the role of some groups in the treatment of various diseases through the so-called traditional or popular medicine.

I have lived in the East of Morocco Under these crisis situations of the most appalling manifestations of economic decline in standard of living measured with the accompanying rise in prices and the value of the entry into force of the food stores, so that food is not limited only the population of some wild grasses and dead meat, which accelerated over the wheel of death because of the emergence of diseases, the spoilage of food is one of the most important factors leading to the occurrence of epidemics and diseases.

Were not the consequences of famine and epidemics only economic but social event was a serious consequences to the community of East Morocco, as

it produced within the serious social ills such as begging and banditry, as well as these crises have increased the poverty of the movement of groups of people from slavery to freedom or slavery.

Because of the belief that the majority of the population of Morocco East that the real reason for the occurrence of famines and epidemics, but the wrath of God Almighty, such crises have resulted in manifestations of religious prayers, the main features of dropsy and closer to parents and visit the holy sites and graves and angles, which reflects the activity of the state to us within the community East of Morocco in the period studied.

Morocco has been known to the community on the East after the crises of hunger and disease a major demographic shifts of the most prominent manifestations of population movement and migration of community members of East Morocco to search for food in other areas, although the issue of immigration because of the epidemic to undergo a lot of uncertainty in our sources as they were considered at that time controversial jurisprudential large, where he was a lot of scholars to escape from the epidemic of the offense for the year, and the patient and the Dead would be the reward of the martyr Twabh dead in the battlefield.

Death is also the result of the demographic event of famine and epidemics, and this has been portrayed to us the sources of the horrific images of death in the various cities have raided these crises, especially in the public or the epidemic of plague sweeping 749 AH / 1348 by a humanitarian catastrophe shook the entire world of the Middle Ages, because "it was the people generation and replicate many of the advantages of urbanization and erased "in the words of Ibn Khaldun.

The famine, epidemics and Kaward affecting civilizations and the impact was severe on the population of Morocco East, without denying them from becoming civilized, more Tmhawwa to raise such crises is the way of the aspirations of the many political, economic and even cultural.